

دار العودة بيروت

ديوان
ايليا أبو ماضي

دار العودة . بيروت

تصدير الكتاب

بقلم

الدكتور سامي النعمان

بعد ثلاثة عشر عاماً ، أعود الى هذا الشعر ، وأنا حزين أسيف ، لأقلب هذه النسخة الأنيقة ، في ورق كزرقة السماء ، وحروف ترتجف أمام عيني كما ترتجف النيازك وهي هابطة محترقة بلهب الوداع ، تغادر النجوم في الأعالي ، لتختلط برماد الأرض .

أجل ، بعد ثلاثة عشر عاماً ، أعود إلى هذه النسخة لأنظر في أسىً ووفاء إلى هذا الاهداء الذي صاغته أنامل الشاعر بحروف مائلة متسقة كاتساق الخطوط في لوحة الفنان ، فأرى فيها عبق الوفاء وجمال التواضع . وتطير بي الذكرى إلى سنين خلت كنت ألقى فيها هذا الطالب الشاب فأرى فيه شاعراً يطاول بطموحه كبار الشعراء ، يتمتم بالنظم كما يتنفس بالهواء ، زفرة بعد زفرة ، ضاحك السنّ يخفي في صدره سكة حزينة ، كأنها بقايا الندوب خلفتها جراح الأيام في ضلوعه الفتية أو زرعتها قراءة الشعر الباكي في صدره الغضّ ، فقد كان يميل الى المعرّي كل الميل ، وينزع إلى ايليــا أبي ماضي كل النزوع ، ويقرأ لأبي نواس كلّما هزّه الشوق الى الفن .

ومــا أزال بعد هذه السنين ، وأنا أقلب هذه النسخة الجميلة – وهي شعره الوحيد الذي نشره – ألمح صور الندوب ماثلة في كل منعطف ، وأراهــا في كل زاوية من زواياه ، يلفها الشك والريب ، وتدور فيها مأساة الحياة ، فهي في نظره خادعة كاذبة ، والناس فيها يعيشون على وهم براق ، وسراب لامع ، فتنظم فيها

الشعر على مشاهد تمثيلية ، يطول المشهد حيناً ، ويقصر أحياناً ، فهو في مشهد يصور شهرزاد وحبيبها ، وقد ألحت شهرزاد أن ترى طيفه فحسب بعد ان ملت « وجوده » . وفي مشهد آخر يرسم جنديّين في المعركة آثر أحدهما الفرار ، وأقنعه زميله بالعزة والموت ، وفي مشهد ثالث لقاء بين فتى وفتاة ، وفي مشهد رابع يرسم المارد والانسان ، ويحمل عنوان المشهد : « كافر ، وحي شيطان مَريد » ، وهذا العنوان نفسه جعله عنوان هذه المجموعة الشعرية كلها ، وأصدرها مطلع سنة ١٩٤٨ . ولن أطمع في الكلام على ما بعده من مشاهد فهي كثيرة بسطها صاحبها صورة لشاعريته ، ورمزاً لديوانه الذي دفن معه ، فأنقذ منه هذا النزر اليسير ليدل على شعر كثير ، وقريحة متدفقة ، وكهولة في النظم ، وعمق في التفكير ، وبُعد في التلوين .

وهذه النسخة الجملية وحدها دليلي الى صاحبها الشاعر المرحوم زهير ميرزا ، فهي تغصّ بالألم والعبرة والحزن ، وتنبض بالحيرة والشك والريب ، تقتتل على أبياتها الأسئلة المحيّرة : لماذا جئنا الى الدنيا؟ وكيف جئنا؟ وما هو غدنا؟ وكيف نفهم أسرار الحياة ؟ وما هي المرأة والرجل ؟ ولماذا كان الزواج ؟ ...

والعجيب أن هذه الأسئلة راودت أفكار بعض القدماء في الشعر العربي ، ولكنها تعلقت في المعاصرين بشعر أبي ماضي وتعلّق بها ، فسالت في قوافيه ، وعرف بها وكان من أثرها شعر كثير في لبنان وغير لبنان . وكان لها في سوريا طلاب ومريدون ، من أقربهم إلينا الشاعر زهير ميرزا ، فهو يكررها في معانيه ومبانيه ، ويردّد علينا كلمات الوهم والملل ، ويرى الزواج قيداً ، بل يقول : « ان الزواج المجلوب مقبرة الحسّ » ، ويختم هذه المجموعة بقوله على لسان أحد الابطال في مسرحية بجماليون :

عبثاً نطلب الخلود بني الموت ... فمن كان للردى ليس ينفعُ

كلنا حـــاول الصعود تعالى وتعالى وسوف ينكبّ أجدعُ

طينة نحن ... ليس يعلو عليها واذا كان فالنهى قد يُخدَعُ

عد كما كنت للتراب ولا ترجع وكلٌّ لأصله سوف يرجعُ

ولن نقف عند هول المأساة ، وحديث الغيب المجهول في صدر الشاعر ، ولن نتحدث عن نهاية الشاعر الشاب حين صعد في طيارة كما صعد فوزي المعلوف ، ولكنه سقط من الأعالي مع الحطام ، وهو يحاول بلوغ السماء ، فأصبح بعد قليل من بني الموت ، ورجع الى التراب الذي نشأ منه ... فذلك حديث عن حياته ليس مكانه هنا ، وانما سقنا الكلام عن شاعريته لنفتش عن خيوط الشوق بين الشاعر الفقيد وبين ديوان أبي ماضي .

لقد رأينا انه كلف به وأحبه ، وسار في طريق صوره ومعانيه ، وساقه هذا الحب إلى أن يُعنى بديوانه ، وأن يقدّم بين يدي ذلك بدراسة واسعة تقارب التسعين من الصفحات ، نشرت سنة ١٩٥٤ ، وهي أوسع ما صدر عن أبي ماضي حتى ذلك الحين ، فخدم بذلك حبيبه الشاعر خدمة كبيرة . وأضاف إلى هذه الخدمة يداً خيّرة حين وفّر لبلده ديوانه المطبوع في نيويورك سنة ١٩١٦ ، وقد كان هذا الديوان محجوباً عن مطابع الشرق العربي ، لا يكاد القراء يصلون إليه لندرته ، وغفلة الناشرين عن مقامه .

وبهذه الدراسة وهذا الديوان طاف أبو ماضي على قرائه وعشاقه بكأس قديمة جديدة ، أضيفت إلى كأسه في الجداول والخمائل ، وهذان الديوانان وحدهما كانا السائرين بين الناس في الشرق .

ولست في حاجة الى الاشادة بهذه الدراسة وهذا الشعر ، فهما بين دفتي هذه الطبعة الثانية ، يستطيع القارىء ان يستمتع بهما ، وان يجد عندهما ما يروي غليله ، ويشفي ما بصدره من شوق الى هذا الشعر المجنح والكلام العميق والصور البعيدة التي كان يرسلها الشاعر ابو ماضي .

ويكفي ان اسجّل هنا التاريخ والذكرى اعجاب الصديق الشاعر ايليا ابي ماضي بهذه النشرة، وقد حملتها حين نزلت ضيفاً عليه، بمنزله الرحب في «بروكلين» قرب نيويورك سنة صدورها، فقد فرح بها أشدّ الفرح، لانها كانت أولى الدراسات التي صدرت عن دمشق والقاهرة بهذه الاناقة، واذكر انه قدّم لي دراسة عيسى الناعوري عن «ايليا أبو ماضي رسول الشعر الحديث» لأوازن بين الدراستين.

وقضينا ساعات استمتع بشرح الشاعر لما كان منه في ديوانه قبل اربعين سنة، وعيناه تضحكان للذكرى، واساريره تنفرج للتقدير، حتى لقد احسست كأنّ الفرح يطلق لسانه بالتغريد الجميل، والثناء العاطر، لهذه اليد تضيفها دمشق فوق يدها عليه بتكريمـــه في مدرج الجامعة السورية. فقد كان – يرحمه الله – يعتز بذلك التكريم وقد هبت دمشق كلها ترحب بمقدمه، وتزحف للقائه، وتلشد بين يديه الشعر والنثر، وقـــد وقف بقامته القصيرة يرسل درة من درره، يعدّها جوهرة ديوانه.

ان هذا التوفيق البارع في دراسة الشاعر المرحوم زهير ميرزا للشاعر ابي ماضي، وهذا الجمع الجميل لشعره المفقود هو السبب اذن في نفاد الطبعة الاولى التي اصدرتها دار اليقظة العربية مشكورة.

وقد ارادت دار اليقظة العربية ان تزيد في احسانها، وان تبالغ في خدمة الشاعر ابي ماضي، فأضافت بعد ست سنوات ما فاتها من شعره، وخمّت ديواناً اصبح اليوم من النوادر، لا يكاد يعرفه الدارسون والباحثون، ذلك هو ديوانه الاول، وعنوانه: «تذكار الماضي» نشره في الاسكندرية سنة ١٩١١، في خمس وثمانين صفحة، يمثل شباب الشاعر وخطاه الاولى، ويصور نشأته، ومدرسته، وتأثره بشعر من قبله. فقـــد حاول المختصون ان يفهموا هذا، ولكنهم عادوا خائبين، فلم يقعوا على «تذكار الماضي».

والشاعر المرحوم زهير ميرزا نفسه كتب في مقدمة الطبعة الاولى (ص ز) عن هذا الديوان قال: «جمعه في شبه ديوان، أسماه تذكار الماضي، وطبعه في الاسكندرية. واني آسف أشد الاسف لانني لم استطع الحصول عليه. وبالتالي لم أطلع عليه لاتتبع الشاعر منذ نشأته الشعرية الاولى إلى الآن». وهذا القول ساق الدارسين بعده إلى عبارات شبيهة بما قـال. فردّدت الاديبة نادرة سراج الدين قوله في كتابها عن الرابطة الادبية، وقـال غيرها مثل قولها في دراساتهم عن الشاعر.

وقد كانت سعادتي عظيمة حين وقعت على نسخة هذا الديوان، فاستمتعت بها فيما أذعت من حديث وما أرسلت من كتاب، ودفعت بها إلى هذه الدار، لتتم خدمتها، وتكمل يدها، فسارعت الدار مشكورة لتجعل ذلك بين أيدي قرائها، ولتقدمها باقة على ضريح الناشر الاول الشاعر الفقيد زهير ميرزا، لتقر روحه بها في الممات، بعد ان حرمت منها في الحياة.

فالى روح الشاعر الشاب هذا الورد العبق ذكرى لعمر قصير عاش كما يعيش الورد، والى الشاعر أبي ماضي وفاء الصداقة والذكرى.

الدكتور سامي الدهان

دراسة

عن

ايليا أبو ماضي

شاعر المهجر الأكبر

للشاعر الفقيد

زهير ميرزا

هجرة :

شهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي المنصرم أحداثاً في الحياة الاجتماعية والسياسية كان لها الاثر القوي في جعل هذه الفترة نقطة الانطلاق نحو عصر النهضة الذي نعيشه الآن .

وما من ريب في أن العصر المظلم[1] الذي جثم فيه الحكم التركي على صدر البلاد العربية طوال أربعة قرون كان له أبعد الاثر في قتل كلّ موهبة ادبية وقتل كلّ فكرة علمية، حتى عادت الامة العربية وهي صفر اليدين من كل أدب وعلم، لولا هذه البارقات التي كانت تلوح بين حين وحين مشيرةً إلى امتداد عصر الانحطاط إلى تلك الفترة ؛ حتى إذا أطلّ خديوي مصر «محمد علي» ومدّ يده إلى الامير بشير الشهابي[2] متلاقيين في تحالف واتفاق ، وجد السوري واللبناني من ذلك نافذةً يحاول ان يُطلّ منها على عالم غير عالمه السابح في دياجير الظلم والظلمة ، ظاناً ان في انطلاقه عن بلده انطلاقاً من سجنه الرهيب وانفلاتاً من يومه البغيض الكئيب ؛ ومن هنا كان الانطلاق الاول من سورية ولبنان إلى مصر ، وكانت الهجرة الاولى .

ويرى المؤرخون المتتبعون ان اسباب الهجرة اللبنانية إلى امريكا اكثر من ان يُحصيها عدّ ، وهم مع هذا يشيرون إلى أهم تلك الاسباب فيرون ان وجود الإرساليات التبشيرية الامريكية من اقوى تلك الاسباب ؛ ويرى مؤلفوا كتاب

---

١ – عام ١٥١٦م الى عام ١٩١٨م ... فانظر !

٢ – من عام «١٨٣١ – ١٨٤٠» وهي الفترة التي حكمت فيها مصر سورية على يد ابراهيم باشا .

« الوجيز في الادب العربي »[١] ان الغرب قد (... « اعتقد في القرون الوسطى إلى الفكرة الصليبية لاستعمار الشرق ، لكن الإسلام كان يرده » وبعد فتح امريكا تحولت أساليب الاستعمار من وسائله العسكرية إلى اساليب دعاية ودس على الحكام المشارقة ، مسلمين وغير مسلمين ، ومنحت كبريات الدول الاوروبية في الشرق المدارس والمستشفيات وبثت الجمعيات ، حتى غدا لكل مذهب دولة .

ولقد كان نصيب لبنان من هذه البعثات كبيراً[٢] إذ تعهد لويس الرابع عشر بتعليم أولاد « الموارنة » في المدرسة اليسوعية بباريس مجـــاناً ، وأسس البابا غريغوريوس الثالث مدرسة خاصة بالموارنة في روما اخرجت كثيراً من الكهنة والقسيسين ، بعضهم عاد إلى بلاده ينشر علوم الغرب ويبث محبته في النفوس ، وبعضهم الآخر بقي في اوروبا ... ») .

ومن أهم تلـــك الإرساليات الجامعة الامريكية في بيروت[٣] ، اذ أسستها إرسالية « بروتستانتية » عام ١٨٦٦ م ؛ ثم تبعتها جامعة القديس يوسف اليسوعية في بيروت ايضاً عام ١٨٧٤ م .

ولا علينا اذا أشرنا الى ان اول مطبعة تأسست في لبنان إنما كانت مطبعة الجامعة الامريكية[٤] ، لان في ذلك دلالة على الرسالة التي كان على تلك الارساليات ان تؤديها .

---

١ – هم الدكتور جميل سلطان والدكتور ابراهيم الكيلاني والاستاذ حنا نمر والدكتور ممدوح حقي ، وقد خرج الكتاب في طبعتين ، كانت الثانية على يد دار اليقظة العربية في اواخر سنة ١٩٤٦ م .

٢ – راجع مقالة الاستاذ أحمد سراج الدين « الحركة التربوية » – مجلة الابحاث اللبنانية – عدد ايلول ١٩٥١ ص ٣٢٦ .

٣ – يحسن الرجوع في هذا الموضوع الى البحث القيم الذي وضعه الاستاذ محمد يوسف نجم ونشره في كتابه « القصة في الأدب العربي الحديث » طبعة القاهرة ١٩٥٢ ص ١٦ – ٢٠ .

٤ – راجع المصدر السابق ص ٨٠ ، اذ يرى أن أول مطبعة إنما هي مطبعة الشوير (١٤٨٠ م) والثانية في دير القديس جاورجيوس بيروت ١٧٦٠ م ص ٨٠ وما بعدها .

ويضيف الأستاذ نصر[١] الى أسباب هجرة اللبنانيين إلى أمريـــكا زيارة امبراطور البرازيل « الدون بدرو الثاني » لفلسطين ولبنان عامي ١٨٧٧ و ١٨٨٧ م ، إذ يعتبرها فاتحة اتصال بين لبنان وبين أمريكا ؛ وكذلك الثورة العرابية التي سببت هرب أكثر اللبنانيين من مصر[٢] إلى ما وراء البحار ؛ ويأتي السبب الأخير وهو فقر لبنان ، فيقول[٣] : « وزد على ذلك أن كل تحويل مالي يرسله أحد المهاجرين الى ذويه ، أو كل قصر يشيده على سفوح لبنان مهاجر عائد اليه ، كان يدفع بعشرات الشبان الى النزوح عن لبنان[٤] » .

ولا يفوتنا أن نشير الى كلمة أورغـــت أديب باشا في موضوع اسباب الهجرة إذ نراه يقول[٥] : « السبب الأول في مهاجرة الألوف من اللبنانيين الذين في عنفوان العمر كل عام ، تلك المهاجرة التي خفضت عدد سكان لبنان الى ثلاثة أخماس ما كان يجب ان يكون في احوال عادية ، هو القانون الاساسي الذي وضع سنة ١٨٦٢ و سنة ١٨٦٤ ، فان اشد ضرر جلبه على لبنان ، الذي إنمـــا وضع لأجل نفعه ، هو حصره ذلك الجبل في حدوده الحالية ؛ لأنه لو كان وضع هذا التحديد على قاعدة الحق والعدل والسياسة البصيرة ، فضمت الى لبنان الاراضي والثغور البحرية التي هي ملكه من أوجه كثيرة ، لكان القسم الاكبر من تيار هذه المهاجرة قد تحول الى أراضي خصبة ، هي الآن مهملة ، والى مدن عامرة في وسع اللبنانيين أن يطلقوا العنان لنشاطهم فيها ؛ بل مـــا كنا رأينا ذلك المشهد

---

١ – في كتابه « النبوغ اللبناني » صدر في حلب (سورية) عام ١٩٣٨ م .

٢ – بعد ان نزحوا اليها أيام الاتفاق بين الخديوي محمد علي والأمير بشير الشهابي .

٣ – ص ١٨ من كتاب « النبوغ اللبناني » . ويذكر في الحاشية ان عـــدد المهاجرين في الولايات المتحدة بلغ ١٢٠ الفاً .

٤ – المرجع السابق ، وكذلك راجع كتاب « المهاجرة اللبنانية » ص ١٠ لميشال شبلي .

٥ – أورغـــت أديب باشا في كتابه « لبنان بعد الحرب » ، نقله الى العربية الشيخ فؤاد حبيش ص ١٠٤ واقتبسه الاستاذ محمد نجم في كتابه « القصة في الادب العربي الحديث » ص ٨٤ – ٨٥ :

المؤلم ، مشهد أناس في ضنك شديد من العيش ، يرمون من أعالي صخورهم نظرات اليأس الى من عند سفح جبلهم من السهول الواسعة الخصبة ، التي يقصيهم عنها اختلال الأمن واستبداد الحكام العثمانيين ومرض الارتشاء (الرشوة) المنتشر فيها .

وسبب اقتصادي آخر لهذه الهجرة ، هو امتلاك اصحاب الاقطاعات الاراضي الزراعية في الجبل ، فقد كان الفلاح اللبناني احياناً ، خصوصاً في القرن الماضي وفي مستهل هذا القرن ، عرضة لظلم صاحب الأرض من اصحاب الاقطاعات ، يستبيح هذا اتعابه ، ويصده عن التقدم في المجتمع ، فكان هنالك التفاوت من الوجهة الاقتصادية وعدم المساواة من الوجهة الاجتماعية » .

ويذكر الاستاذ محمد يوسف نجم [١] دافعاً آخر للهجرة هو الدافع السياسي « وهو ضغط حكومة الآستانة على رعاياها ولا سيا غير المسلمين منهم [٢] والسبب في ذلك انها بضعفها وتهالكها آونة ذاك كانت تخشى كل حركة تحريرية تبدر بوادرها بين الشعب وتحاول خنقها في المهد ؛ لذلك كانت تأخذ بالشبهة وتجرم البريء لاضعف الشكوك ، مما جعلهم يحاولون زحزحة عبء هذا الضغط عن كواهلهم بالمهاجرة إما الى مصر ، حيث مجال العمل اوسع واكثر إظهاراً للكفاءات ، وحيث يتمتع الناس بحرية أكثر ؛ او الى اوروبا او أمريكا حيث يتنشقون عبير الحرية المنعش » .

هذا بعض رأي الذين يُعنون بشؤون التاريخ في أسباب الهجرة . ولعله من الواجب ان نسأل الشاعر عن أسباب هجرته ، لانه واحد من هذه الآلاف التي نزحت عن ديارها لتستقر في أرض الثراء الموعود ؛ وإنا لنجد الجواب عند الشاعر الكبير ، إذ نراه يتحدث عن وطنه – لبنان – في قصيدة مطولة فينعي عليه انه

---

١ – أرغست أديب باشا في كتابه «لبنان بعد الحرب» ، نقله الى العربية الشيخ فؤاد حبيش ص ١٠٤ والتنبيه الاستاذ محمد نجم في كتابه «القصة في الادب العربي الحديث» ص ٨٤ – ٩٥ .

٢ – سنجد أثر هذا الضغط في شعر الشاعر ، وسنجده يحمل حملات منكرة ، شديدة ، عنيفة على الاتراك ويصفهم بأشنع ما يمكن ان يوصف به قوم وتتسم به أمة منحطة .

رازح تحت أعباء الاستكانة الى الشقاء وعدم التطلع الى العلاء ، وانه كالعبد الذي ألف العبودية والذُّل فما هو بتاركها ابداً ، وانه يئد المصلحين ويكتم أنفاس الاحرار ، ويخنق صوت الاديب ويُعلي شأن الجاهل ؛ وأدهى الدواهي بالنسبة للشاعر هذه الطائفية البغيضة التي فرقت الأمة ومزقتها شر ممزق ...

استمع اليه وهو يبين لنا ما كان عليه وطنه أيام نزح عنه :

وطن أردناه على حب العلى   فأبى سوى ان يستكين الى الشقا
كالعبد يخشى ، بعدما أفنى الصبى   يلهو به ساداته ، ان يعتقا
أو كلما جاء الزمان بمصلح   في أهله ، قالوا : طغى وتزندقا ؟
فكأنما لم يكفه ما قد جنوا   وكأنما لم يكفهم ان أخفقا
هذا جزاء ذوي النهى في أمة   أخذ الجمود على بنيها موثقا
وطن يضيق الحر ذرعاً عنده   ونراه بالاحرار ذرعاً أضيقا
ما ان رأيت به أديباً موسراً   فيما رأيت ، ولا جهولاً مملقا
مشت الجهالة فيه تسحب ذيلها   تيهاً ، وراح العلم يمشي مطرقا
أمسى وأمسى أهله في حالة   لو انها تعرو الجماد لأشفقا
شعب كما شاء التخاذل والهوى   متفرق ويكاد أن يتمزقا
لا يرتضي دين الاله موفقاً   بين القلوب ويرتضيه مفرقا
كلف بأصحاب التعبد والتقى   والشرّ ما بين التعبد والتقى

ونراه في قصيدة أخرى يشير الى هذه «البأساء» التي عليها وطنه ؛ فيقول :

أرض آبائنا ، عليك سلام   وسقى الله أنفس الآباء
ما هجرناك ، اذ هجرناك ، طوعاً   لا تظني العقوق في الابناء

يُسأم الخلد والحيـاة نعيم   افترضى الخلود في البأساء ؟

ويلح على موضوع «البأساء» التي كانت سبب الهجرة فيقول :

شردت أهلك النوائب في الار   ض وكانوا كأنجم الجوزاء

واذا المرء ضاق بالعيش ذرعاً   ركب الموت في سبيل البقـاء

الشاعر :

هبط الشاعر مصر وله من العمر احد عشر عاماً او تزيد قليلاً [1] وتعاورت عليه حاجات الحياة اليومية من طعام وشراب ، وحاجات الحياة العقلية من علم ودرس اذا به ينصرف لها معاً فيعمل ويدرس ، ويستغرق ذلك منه قرابة ثماني سنوات كان يقرض خلالهـا بعض الشعر ، جمعه في شبه ديوان أسماه «تذكار الماضي» وطبعه في الاسكندرية ؛ وكيفما دار الامر - كما يقول الاستاذ الجاحظ - فاننا نجد الشاعر وقد أنفق من عمره تسعة عشر عاماً قبل ان يشد رحـاله الى امريكا : ويبدو انه لقي بعض التعب ايام اقامته في مصر ، بل بعض الضيم الذي كاد ان يلامسه ، وفي ذلك يقول :

نأى عن ارض مصر حذار ضيم   ففر من العذاب الى العذاب ...

على انه عندما يذكر مصر انما يذكر فيها صحباً طيباً وفياً محضه الود خالصاً .

ويذكر الاستاذ نجدة صفوة ان ايليا أبا ماضي رحل الى مصر «ليتعاطى

١ - يمكن لنا ان نقدر انه ولد في لبنان حوالي ١٨٩١ م في قرية «المحيدثة» ورحل الى مصر عام ١٩٠٢ ومنها الى امريكا عام ١٩١١ م . ارجع الى «بين شاعرين مجددين» لعبد المجيد عابدين - مصر ١٩٥٢ ؛ وكذلك الى «حديث الاربعاء» لطه حسين ج ٣ ص ١٩٣ . وكذلك الى كتاب «ايليا أبو ماضي والحركة الادبية في المهجر» لنجدة فتحي صفوة - بغداد ١٩٤٥ .

التجارة» ، وقد اتخذ لنفسه محلاً يبيع فيه السجائر والدخان وأخذ يستغل اوقات فراغه في المطالعة والدراسة ونظم الشعر الذي اظهر فيه منذ صغره قابلية تنبىء بمستقبله . ووقع عليه الاستاذ انطون الجميّل فرآه يكتب شعراً في الدكان ، فقرأه وأعجب به ونشره في مجلة «الزهور» التي كان يصدرها ... » .

ويذكر لنا الشاعر بإسهاب ، في قصيدته «المبهمة» شيئاً هاماً عن اقامته في مصر ، فيتوضح لنا منها ذاك الحنين الصامت لايام جميلة قضاها هناك ، ويتوضح الى جانب ذلك ذاك اليأس من الناس ، بما يدلنا على حالة التناقض التي كان عليها إبان اقامته في مصر ؛ فلنستمع اليه متحدثاً عن ذكرياته في مصر وعن اخلاق الناس في مصر ايضاً ...

يقول :

ليس الوقوف على الاطلال من خلقي   ولا البكاء على ما فـات من شيَمي

لكن (مصراً) وما نفسي بناسية   مليكة الشرق ، ذات النيل والهرم

صرفت شطر الصبا فيها فما خشيت   نفسي العثار ، ولا نفسي من الوصم

في فتية كالنجوم الزهر أوجههم   ما فيهم غير مطبوع على الكرم

لا يقبضون مـع اللأواء أيديهم   وقلما جاد ذو وفر مع الازم

فمن هنا يتبين لنا بعض حال الشاعر أيام اقامته في مصر ، فهو اذ يذكرها يجدها «مليكة الشرق» ، وهو بالتالي قضى فيها شطر الصبا ، وكان مستريحاً الى الفترة الثانية التي قضاها هناك ، فهو يقول : «ما خشيت نفسي العثار» ، حتى اذا ذكر صحبه واخدانه لمع فيها المديح ، «فما فيهم غير مطبوع على الكرم» ...

ولعل هذه القصيدة خير «وثيقة» عن حياة الشاعر في مصر ، لانه لا يكتفي بهذا الذي قـاله ، وانما يستمر في مدح مصر طوال خمسة عشر بيتاً يصور مصر خلالها بأنها درة تاج الشرق ، وحاملة علم الشرق ، اما أهلوها :

هيهات تطرف فيها عين زائرها ... بغير ذي أدب او غير ذي شمم

وهم الى جانب أدبهم وشممهم :

أحنى على الحر من أم على ولد ... فالحر في مصر كالورقاء في الحرم

على انه رغم هذا الذي لقيه في مصر فقد نزح عنها الى أمريكا ، ولم يعرف ما كان عليه من نعيم مقيم حتى وصل مهجره ، وهناك أدرك الخطيئة التي ارتكبها بالرحيل عن مصر ، ويصف هذه الخطيئة بأنها « ضلة » فيقول :

ما زلت والدهر تنبو عن يدي يده ... حتى نبت ضلة عن أرضها قدمي ! !

مما يدلنا من انه كان « مرتاحاً » خلال اقامته في مصر ، ويؤكد ذلك مـا أوردناه من احتفاء الاستاذ انطون الجميّل به واهتمامه بشعره ونشره قصيدة له في مجلة « الزهور » .

وفجأة ، وعلى غير انتظار ، نجده وقد أخذ سمته شطر « أمريكا » ، ولعلها كانت مطمح أنظاره يوم اتجه من لبنان ، واذا أحببنا ان نتقصّى سبب هجرته الى مصر ومنها الى أمريكا أمكننا ان نجد سببين ، فأما الأول فهو ان الهجرة من لبنان الى مصر كانت سهلة ميسورة ، في حين ان المهاجرة عن لبنان الى أمريكا لم تكن ميسورة . ويرى الاستاذ فيليب حتي في كتابه « السوريون في الولايات المتحدة » ان الحكومة العثمانية آنذاك منعت الهجرة الى أمريكا ورفضت اعطاء جوزات السفر للمهاجرين السوريين اليهـا ، فكان لا بدّ لهم من الحصول على الجوازات للمرور بها الى مصر ، ومصر هي التي كانت مركز انطلاق المهاجرين الى أمريكا[1] . اذن يمكن ان نرد سبب هجرته الى أمريكا الى انها هي التي كانت هدفه وسلك اليها سبيل مصر كمرحلة أولى . وأما السبب الثاني ، فهو ما ورد في

١ – ص ٣ من كتابه المذكور .

قصيدته الآنفة الذكر من يأس من خلق الناس ، فلعله كان يقصد مصر ، فلما توهم انها ضاقت به وضاق بها ، وفشلت تجارته ، وجد ان الرحيل أولى به ، فاتجه الى الولايات المتحدة الأمريكية ليستقر في مدينة « سنسناتي » بضعة أعوام ، عمل فيها بالتجارة ، حتى اذا أطلت سنة ١٩١٦ انتقل الى « نيويورك » حيث اجتمع الى جبران خليل جبران وميخائيل نعيمه ونسيب عريضة ورشيد أيوب ووليم كاتسفليس وعبد المسيح حداد وندره حداد وأضرابهم ليؤلفوا جميعاً فيما بعد هذه الرابطة التي أطلقوا عليها اسم « الرابطة القلمية » ، والتي كان لها فضل نشر مذهب المهاجرين في الأدب والاعلام عن مدرسة أدبية لهـا خطرها والتي يقول فيها الدكتور محمد حسين هيكل : « يجب ان يتعاون المجدد والمقلد منا ، والا بقي الفوز في جانب السوريين المتأمركين واعت الثقافة الاسلامية »[1] .

مصادر ثقافة الشاعر :

اذا أحببنا ان نعلم شيئاً عن ثقافة الشاعر لم نجد من المصادر بين يدينا الا شعره ، فهو وحده الذي يدلنا على منابع ثقافته ، ولا بدّ لنا بالتالي ان نستقرىء شعره من جانبين ، جـانب المعنى ، وجانب المبنى . فمن معانيه نتلمس ثقافته الفكرية ، ومن مبانيه نتلمس ثقافته اللغوية .

ومما لا ريب فيه ان ثقافة الشاعر تختلف من سن الى سن ، فكلما ضرب بسهم في العمر وممارسة النظم والتمرس بالحياة وجدنا ألواناً من الثقافة تتباين بتباين سني النظم ، فاذا حاولنا ان ننظر في دواوين شعره على اعتبار أنها المراحل التي تنبىء عن تطور ثقافته لزمنا أن نكون على علم بمـا أسماه ديوانه الأول « تذكار الماضي » ، الذي نشره في الاسكندرية أيام اقامته في مصر — ، فـاذا

١ – السياسة الاسبوعية ، العدد ٢٠٤ الصادر عام ١٩٣٠ في القاهرة باشراف الدكتور هيكل .

جزنا هذه المرحلة ووقفنا على ديوانه الثاني المسمى «ديوان ايليا أبي ماضي – الجزء الثاني –»[١] حق لنا ان نطيل الوقوف وان نقدم أكثر قصائد هذا الديوان كنماذج لما نذهب اليه في هذه الدراسة، ثم نطل على المجموعة الشعرية الثالثة للشاعر وهي «الجداول»[٢] فنقبس منها قصيدتها الكبرى «الطلاسم» ونستقرئها ثقافة الشاعر ونثبتها كنموذج في هذه الدراسة، ثم نعوج على المجموعة الرابعة وهي «الخمائل»[٣] فنقتطف منها القصيدة الأمّ وهي «الحكاية الأزلية»، ثم نفتش عما تبعثر من شعر الشاعر في المجلات السائرة، وخاصة «العصبة» فننقل عنها بعض شعر الشاعر الأخير، فاذا اكتمل ذلك بين يدينا – وقد اكتمل – حقّ لنا ان ندرس ثقافة الشاعر في جميع مراحل حياته المتمثلة في هذه المجموعات الأربع .

ملامح :

اقرأ معي قول الشاعر :

أنا ما وقفتُ لكي أشبب بالطلا	ما لي وللتشبيب بالصهباء
لا تسألوني المدح أو وصف الدمى	إني نبذت سفاسف الشعراء
باعوا لاجل المال ماءَ حياتهم	مدحاً وبت اصون ماءَ حياتي

١ – طبع هذا الديوان في نيويورك في حدود سنة ١٩١٨ م تقريباً .

٢ – صدر في نيويورك أيضاً في حدود عام ١٩٢٧ م، ثم طبع عدة طبعات في الشرق .

٣ – صدر في نيويورك في حدود عام ١٩٤٠، ثم طبع عدة طبعات في الشرق أشهرها طبعة بيروت ١٩٤٩ م . ويقول الاستاذ الناعوري في كتابه «ايليا أبو ماضي» ص ١٢ (... ولا غرابة في أن يتردد اسم صاحب «الجداول» في الوطن والمهجر بملء الاعجاب، وفي أن يتبارى الناشرون في طبع ديوانه وتوزيعه مرات بغير استئذان المؤلف – وهو ما لا نعرف وقوعه بهذا الشكل عند العرب قبل ديوان «الجداول» – فتنفد جميع نسخه حال ظهورها في الاسواق) اهـ .

لم يفهموا بالشعر إلاّ انه	قد بات واسطة الى الاثراء
فلذاك ما لاقيت غير مشبب	بالغانيات، وطالب لعطاء
ضاقت به الدنيا الرحيبة فانثنى	بالشعر يستجدي بني حواء
شلي القريض بهم وما يمدوا به	لولاهمُ اضحى من العـداء

نجد ان الشاعر قد نبذ من اغراض شعره «المديح» و «وصف الدمى» و «التشبيب بالغانيات»، او هكذا يوضح جملة رأيه فيما يريد ان يأخذ به نفسه في منظومه، فهو بهذا قد وضع الاطار العام لشعره على وجه التقريب .

ونحن إذا حاولنا ان ننظر في شعره لنرى «المدرسة» التي تخرج منها نجد الشاعر وقد عاش في إطار من الشعر القديم، والجو القديم، والطابع القديم[١]، لا يكاد يخرج منه، او لا يكاد يقوى على الخروج منه . وآية ذلك هذا الشعر الذي بين ايدينا .

وإذا أحببنا ان نخرج مع الشاعر من لبنان ونعيش معه حياته الاولى في مصر، توضح لنا – من الذين قدّر لهم[٢] ان يطلعوا على مجهوده الاول المسمى «تذكار الماضي»، تلك المجموعة، التي كانت باكورة إنتاجه – ان الشاعر كان ضعيف الثقافة، ضعيف التحصيل، ضعيف الاطلاع على مفردات اللغة، ضعيف الإلمام بقواعدها وادواتها ايضاً .

ومن هنا يبدو لنا ان الشاعر نزح عن لبنان وهو على شيء من العلم بالقراءة والكتابة، ثم اخذ يطالع لنفسه مطالعات خاصة يلصّها من بعض فراغ يومه

١ – «ذلك أن أبا ماضي كان في نشأته مولعاً بنظم الشعر على النهج القديم وله ديوان قديم تأثر فيه بأبي العلاء وغيره . ثم انصرف الى الطريقة الجديدة في نظم الشعر ولكنه لم يستطع أن يتخلص من آثار الماضي فعلقت بذهنه أفكار وعبارات من أساتذته القدماء ومن بينهم أبو العلاء» . «بين شاعرين مجددين» لعبد المجيد عابدين ص ١٤٨ .

٢ – نحتفظ بأسمائهم بناء على طلبهم، وسنذيعها عندما يسمح أصحابها بذلك .

كونت عنده لوناً من ألوان الثقافة التي تتيح له ان يكتب بلغة سليمة بعض الشيء[١] .

حتى إذا كان ارتحاله عن مصر الى أمريكا وجدناه وقد اخذ نفسه بشيء قليل من القسوة ، وبشيء كثير من المرانة حتى استقامت له أداة الكتابة . فلما اخرج ديوانه الثاني – الذي اقتبسنا اكثره في هذه الدراسة – وجدنا لديه من آثار ثقافته اللغوية والنحوية ما هو جدير بالتدوين .

. . .

ليس من اليسير البحث في الشعراء الذين طالع ابو ماضي شعرهم وأغرم به واستقى منه نفسه الشعري ايام نشأته الاولى ، وان كنا لا نعدم وجهاً من وجوه الرأي نشير فيه الى انه تتوضح لنا خلال شعره نفحتان دخيلتان ، كما تتوضح نفحة ثالثة أصيلة ، فاذا كنا نرى نفحة نواسية[٢] في بعض شعره ، حاول فيها ان يتتلمذ على يدي ابي نواس من حيث طابعه الشعري ومن حيث صوره و «تلويناته» فاننا نرى له ايضاً انصرافاً الى ابي العلاء ، يريد ان يجعل من شعره النموذج الذي يحتذيه[٣] .

فاستمع اليه في قصيدة « يا صاح » تجد ابا نواس يطل عليك من « بعض » ابياتها :

يا صاح كم تفاحة غضة يحملها في الروض غصن رطيب

... ...

---

١ – وهذا لا يعيب الشاعر في مثل هذا العصر الذي درج فيه ، وفي غير ذاك العصر ، لاننا نعلم – فيما نعلم – أن الكاتب القدير عباس محمود العقاد قد تثقف أول نشأته مثل هذه الثقافة الطائرة يلتقطها مما يقع تحت يديه من كتب .

٢ – كما في قصيدته « يا صاح » .

٣ – تجد ذلك في اكثر شعر المتشائم المقتبسة منه نماذج لهذه الدراسة . أنظر مثلاً قصيدته « ١٩١٢ » . وارجع الى كتاب « بين شاعرين مجددين » لعبد المجيد عابدين ص ١٤٨ .

وربّ صفراء كلون الضحى ينفي بها اهل الكروب الكروب
دارت على الشرب بها غادة كأنها ظبي الكناس الربيب
في طرفك الساجي هيام بها وبين احشائك شوق مذيب ...

على انّ هذا لا يُخرجها من شعر الشاعر ومن غريزته ، مثلها كمثل جميع القصائد ، فهي وان كانت من « عمل » الشاعر نفسه إلاّ ان لها اصولاً يمكن انْ تردّ اليها ، وكل شاعر في نشأته الشعرية الاولى يحاول ان يجد له استاذاً يتتلمذ عليه ويأخذ عن فمه ألف باء الادب والبيان[١] .

وانك لواجدٌ الى جانب هاتين النفحتين نفحات متفرقة لاعلام الشعر العربي في مختلف عصوره ، فأبو ماضي لم يبتدع اول الامر مدرسة من مدارس الشعر ، ولم ينسج على منوال متفرّد ، وانما جرى في حلبة المقلدين وجاراهم في تقليدهم فكان منه ذاك الشاعر الناشىء الذي اخرج للناس ما أسماه « تذكار الماضي » ثم تدرّج في التقدم حتى اخرج للناس ديوانه الثاني ، ويمكن لنا بكلمة واحدة ان نقول : لقد كان ابو ماضي يعيش بجسمه في القرن العشرين بينما يعيش بعقله وفكره في العصور العباسية السحيقة .

ومظاهر التقليد هي « مصادر ثقافته » في مستهل حياته الادبية من حيث المبنى ، لذا فاننا نجد عنده مثلاً امثال هذه المطالع :

قال في سقوط « ارضروم » :

أعد حديثك عندي ايها الرجل وقل كما قالت الانباء والرسل

---

١ – ولا يخفى أن معظم شعراء النهضة في مصر أيام نزح اليها الشاعر ايليا أبو ماضي كانوا يدينون لمدرسة التقليد ، ويحاولون جاهدين أن يجدوا لهم اساتذة من الادب العربي القديم ، ولست تجد شاعراً واحداً استقل برأيه وشعره في مطلع النهضة ، كأنما التقليد امتحان الشخصية الادبية ، والميد لتكوينها . يصدق هذا على اسماعيل صبري والبارودي وشوقي وحافظ .

وقال في قصيدة « ١٩١٦ » :

كم قبل هذا الجيل ولّى جيل   هيهات ليس الى البقـــاء سبيل

وقال في « ما للكواكب » :

شوقٌ يروح مع الزمان ويغتدي   والشوق ان جددته يتجدّدُ

وقال في « لمن الديار » :

لمن الديار تنوح فيها الشمائـــل   ما مات اهلوها ولم يترحلوا

وقال في « دموع وتنهدات » :

ألا ليت قلباً بين جنبيّ دامياً   اصاب سلوّاً او اصاب الامانيا

وقال في « العيون السود » :

ليت الذي خلق العيون السودا   خلق القلوب الخافقات حديدا

وقال في « إلى صديق » :

ما عزّ من لم يصحب الخذما   فاحطم دواتك واكسر القلما

فأنت في مثل هذه الامثلة التي قدمتها لا تجد كبير عناء في ردّ الابيات إلى قصائد معروفة في الأدب العربي القديم ، مما يبين لنا ان ثقافة الرجل من حيث شعرُه كانت تعتمد التقليد اول الامر ، وكأنه اخذ به نفسه ليسلس له القيــاد وتنقاد له الالفاظ والتراكيب التي تناسب الشعر ، فاذا فرغ من هذه المرحلة وجدت له مطالع على غاية من الجمال والابداع الشخصي .

ولم يقف تقليده عند هذا الحد الذي ذهبنا إليه وإنما اتجه الى تقليد الموشح الاندلسي بمختلف اشكاله والوانه ، وتجـــده يعالج في الموشح موضوعاً من الموضوعات الوطنية الكبيرة ، فاستمع اليه في موشح «أمة تفنى وانتم تلعبون».

أعلى عيني من الدمع غشاء

ام على الشمس حجابٌ من غمام

غاض نور الطرف ام غارت ذكاء

لست ادري غير اني في ظلام

. . .

ما لنفسي لا تبالي الطربا   اين ذاك الزهو اين الكلفُ

عجباً ماذا دهاها عجبا   فهي لا تشكو ولا تستعطفُ

ليتها مـا عرفت ذاك النبا   فالسعيد العيش من لا يعرفُ

لا ابتسام الغيد ، لا رقص الطلاء

يتصباها ولا شدو الحمام

بالكرى عني وبي عنه جفـاء

أنا وحدي ام كذا كل الأنام

. . .

وكذلك موشحه « مصرع القمر » ومطلعه :

لوعةٌ في الضلوع مثل جهنم   تركت هـذه الضلوع رمادا

وموشحه « ١٩١٤ » ومطلعه :

طوي العام كما يطوى الرقيم   وهوى في لجة الماضي البعيد

وموشحه « البلبل السجين » ومطلعه :

يا ربّ ليــل بلا سناء كأنما   بـدره يتيم

وموشحه « الخلود » ومطلعه :

غلط القائل إنا خالدون   كلنا بعد الردى هيءٌ بن بي

فالشاعر في جميع هذه المراحل يحاول جاهداً ان يتلمس طريقه ، فقد حاول ان يأخذ بأسباب القصيدة القديمة من حيث فخامة ألفاظها وضخامة مطالعها ، ثم عمد الى الموشح فعالجه بشيء من القدرة والتمكن ومارس فيه الموضوعات التي لم يخصص لها الموشح ، ومع ذلك فقد أخضع الموشح لهذا اللون من ألوان التعبير عن مثل هذه الافكار . فثقافة الشاعر في مرحلة نشوئه إنما كانت ثقافة تتكىء على التقليد لتتحسس طريقها الى أسلوبها المتميز الذي سيعرف لها فيما بعد .

وكما أن دواوين الشعراء القدامى كانت بين يدي ابي ماضي وتحت بصره يلقف منها ما يلقف ويترك منها ما يترك دون ان يحاكيها محاكاة تذهب شخصيته الأدبية -- مع عدم تبلورها آنذاك -- فقد كان يمارس أساليب القرن الرابع الهجري وعصر الدول المتتابعة من حيث الصياغة ، فتراه يحاول جاهداً ان يلبس شعره ثوب الصنعة البديعية التي تميزت بها هذه العصور بعد ان ضحلت الافكار فيها بعد وعاد الانتاج الأدبي كله من باب الاجترار .

فأنت تجد لأبي ماضي مثل هذه الأبيات في قصيدته « عصر الرشيد » :

أيام تحسدها « العواصم » مثلما   حسد «العواطل» اختهن «الحالية»

فهو قصد الى هذا الجناس غير التام « العواصم » و « العواطل » ، كما قصد الى هذا الطباق الايجابي « العواطل » و « الحالية » ثم يقول :

ملك أذال من «الجهالة» «علمه»   وأذلّ صارمه الملوك العاتيه
ومشت تطوّف في البلاد هباته   تغشى «حواضرها» وتغشى «البادية»
ملأ البلاد «عوارفاً» و «معارفاً»   والأرض عدلاً والنفوس رفاهيه

فتحضر البادون في أيامه   واستأنست حتى الوحوش الضاريه
أعطاهم صرف «الزمان» «زمامه»   أمنوا وما أمن الزمان دواهيه

فأنت تلمس انه قصد هذا اللون من ألوان البديع ، وعمد اليه واراده ، كأنما اراد ان يقتفي آثار من عنوا بهذه الصنعة .

ويقول في موطن آخر :

أمسى سواء « ليله » و « صباحه »   شتان بين « الصبح » و «الامساء»

ويقول :

بنت كرم لم يهم فيها سوى   كل صب هام فيه الكرمْ

ويقول :

فما « يلمُّ » بمن صافاهم « ألمٌ »   ولا « يدوم » لمن عاداهم « أمل »
في جفنه أرقٌ ، في نفسه فرقٌ   في جسمه سقم ، في عقله دخل

ويقول من باب المجاز اللغوي :

حمل الشمس الينا قمر   في سماء نحن فيها أنجمُ

والى جانب عنايته بالصنعة البديعية من حيث هذا الطباق وذاك الجناس ، ثم عنايته بالمجاز وما اتصل به ، نجده كان يعتمد « التضمين » ، فيضمن بعض شعره آيات من القرآن الكريم او تعبيرات مشتقات منه ، على طريقة عصر «ابن العميد» أو عصر « الدول المتتابعة » إن لم نردّ هذا العصر الى عصر بني بويه في أعمق جذوره .

واذا كان هذا «التضمين» يدلنا على شيء فانما يدلنا على تلوّن ثقافة الشاعر

بلون يحاول فيه استعارة اسلوب القرآن الكريم ؛ وسنفتقد هذا اللون الجميل من شعره فيا بعد عندما تتبلور شخصيته ويعيش في أفق « الرابطة القلمية » التي كانت تعنى بكل شيء إلا بالصنعة والأسلوب الكتابي .

أما « تضميناته » فقد قال في حديثه عن حكومة لبنان :

راحت تناصبنا العداء كأنما «جئنا فريا» أو «أتينا موبقا»

ويقول في مصير بغداد :

واجتاح مجتاح العروش ملوكها «فكأنهم أعجاز نخل خاويه»
أين القصور الشاهقات وأهلها باد الجميع «فما لهم من باقيه»

ثم يتحدث عن الناس في العراق الآن بعد هرون الرشيد فيقول :

مستسلمون إلى القضاء كأنما أخذوا ولمّا يؤخذوا بالغاشيه

ثم يقول في موطن آخر :

ما بال قومي كلما استصرختهم «وضعوا أصابعهم على الآذان»

والأمثلة على ذلك متوفرة لمن يريد ان يستقصيها في شعر الشاعر أيام نشأته الأولى . واذا تقدمت بك المطلعة الى الجداول والخمائل فانك لن تجد هذا اللون واضحاً لأن الشاعر استطاع الانفلات من القيود التي رسف في أغلالها ردحاً طويلاً من الزمن استغرق فترة نشوئه وتكونه بتمامها وكمالها ؛ حتى اذا وصل الى أمريكا وانصرف قليلاً قليلاً عن الشرق وأجوائه ألفى نفسه في جو جديد كل الجدة ، ووجد حوله زمرة من الذين يمارسون الكتابة والنظم ، ولم يجد في منثورهم ومنظومهم ما وجده في منثوره ومنظومه ، فحاول شيئاً فشيئاً التخلص من التقليد ، ومن هنا يتلامح لك بعض الشعر الرائع الممتاز حتى في ديوانه الثاني الذي نحن بسبيه ؛ وأشهر ذاك هذه القصيدة الرائعة « لم أجد أحداً » و « فلسفة الحياة » و « ابنة الفجر » وأشباهها .

ومن جملة ما تقدم نستدل على ان مصادر ثقافته من حيث الطريقة كانت تمت بأوشج الأواصر إلى مدرسة « الصنعة » في مستهل نشأته الأدبية ، ثم نجد هذه الصنعة وقد ضاعت في زحمة الصور التي أخذ يزخر بها شعر الشاعر عندما انتقل من فترة المرانة والتقليد الى مرحلة الابداع والتبلور عندما انتسب لمدرسة « الرابطة القلمية » ، وكان علماً من أعلامها .

أما ثقافته اللغوية والنحوية في هذه الفترة ، التي كان يخضع فيها لمراحل التكوُّن ، فلم تكن لترضي اصحاب اللغة او ترضي اصحاب النحو[1] ؛ وكلٌّ من التمس العيوب وجدها . على أنّ في بعض ما أحصيناه على الشاعر بعض الدلالة على ثقافته اللغوية والنحوية .

ولا علينا ان نشير إلى مذهبه في اللغة ونظرته اليها من خلال شعره ؛ فاقرأ معي قوله في مطلع ديوانه الجداول (وهو محصّلة شعره ورأيه نظراً لتأخر صدوره عن الجزء الثاني) :

لست مني إن حسبت الشعر ألفاظاً ووزنا

فالشاعر بهذا يدلل على عدم عنايته باللفظ – ناهيك عن الوزن – ؛ فهو بالتالي مهمل للفظ لا يحفل له ولا يوليه شيئاً من عنايته ، مما حمل الدكتور طه حسين يعقب على ذلك تعقيباً قاسياً فيقول : « ... فأما إذا قصدنا إلى نقد هذا الديوان – يقصد الجداول – من جهة ألفاظه وأوزانه ، فنحن بعيدون كل البعد عن مثل هذا الرضى ، ونحن مضطرون إلى كثير من التحفظ ، وإلى كثير من السخط ، والى كثير من الضحك أحياناً ... » ويقول بعد[2] في حديثه عن

---

١ – نجده في اكثر الأحيان يميل الى الأخذ بالقياس حتى على الشاذ الضعيف ، فهو من هذا الجانب ينتسب لمدرسة الكوفة في النحو .

٢ – ص ١٩٨ من الجزء الثالث من كتابه « حديث الاربعاء » ، وقد رد على الدكتور حسين الاستاذ عبد المجيد عابدين في كتابه « بين شاعرين مجددين » ، طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢ ، ص ١٢٩ وما بعدها .

قصيدة « الاشباح الثلاثة » من ديوان الجداول : « ... وستلاحظ في الوقت نفسه شيئاً من فساد النحو عند الشاعر يغنينا عن ان نضرب لك الأمثال بما في الديوان من خطأ لا يُحتمل من شاعر مجيد ... » ثم يتابع قوله في شيء من التعميم : « ومصدر هذا كله ان الشاعر لا يُحسن علم الألفاظ والاوزان، وهو يريد مع هذا ان يقول الشعر ... »(١) .

ولست أجد مبرراً لهذا التعميم الذي أصدره الدكتور طه حسين في الحكم على ألفاظ الشاعر ومدى إحاطته بعلم النحو : أإذا ندّت عن الكاتب او الشاعر خطيئة او خطيئات في اللغة والنحو حق لنا ان نطلق القول على هذه الشاكلة فنتهم الرجل في لغته وفي نحوه وفي أوزانه فنقول : « ... الشاعر لا يُحسن علم الألفاظ والأوزان »(٢) .

على ان مما لا شبهة فيه ان لغة الشاعر لم تكن سليمة كل السلامة أول نشأته الأدبية وحتى بعد ان أصدر ديوانه الثاني، ولم تكن بالتالي فاسدة كل الفساد، وإنما كانت سليمة لا تخلو من خطيئات تدلُّ على عدم تمكن الشاعر من لغته ؛ فنجد عنده مثل هذه الهفوات النحوية واللغوية :

الطود يقرأ في السماء الصافيه ... سفراً جميل شكله والحاشية

فرفع جميل وحقها النصب على أنها صفة لسفر .

ثم :

ليطرب من شاء أن يطربا ... فلست بمستمطر خلبا

١ – ص ٢٠٠ ، ج ٣ « حديث الاربعاء » .

٢ – ويرى الدكتور طه حسين في كتابه المذكور ان هذا الضعف في لغة المهجر خاصة أصيلة من خصائصه فيقول : « ولكني حائر حقاً في أمر هذا النحو من الشعر وهذا الفريق من الشعراء. قوم منحوا طبيعة خصبة ، وملكات قوية ، وخيالاً بعيد الآماد ، وهم مهيؤون ليكونوا شعراء مجودين ، ولكنهم لم يستكملوا أدوات الشعر ، فجهلوا اللغة أو تجاهلوها ثم اتخذوا هذا الجهل مذهباً » . ص ٢٠١ ، ج ٣ .

فحق « يطرب » ان تجزم بلام الأمر؛ ولكنك إن جزمتها بالسكون أفسدت البيت وزناً، وإن حركتها أفسدتَ البيت نحواً؛ لأنه لا مجال للتحريك ولا داعي له ، فالتمسنا له عذراً بأن حركناها بالفتح على الاتباع ، إلحاقاً بحركة الميم في « من » التي تلتها ...

وتجد ايضاً :

الحشد ملء الدار لكن ... لم يرِ أحداً سواها(١)

فحق فعل « يرى » ان يجزم بـ « لم » وتحذف بالتالي ياؤه؛ ولكنك إن فعلتَ ذلك – كما فعله الشاعر – وقعتَ في إفسادٍ لوزن البيت إلا إذا أشبعت فتحة الراء. وانت اذا اشبعت فتحة الراء ليستقيم لك وزن البيت تظاهر للسامع انك مخطىء، نحواً لأنك لم تجزم بلم، ولم تحذف حرف العلّة . وتتكرر مثل هذه الحالة مرات ومرات في ثني الديوان؛ وقد تجدها في مثل قوله :

تركت النجم مثلك مستهاما ... فان تسمه سما او تمت ناما

كما تجد في الجداول :

وحطمت أقداحي ولمّا أرتوي ... وعففت عن زادي ولمّا أشبع

وتجد ضرورة الاشباع في مثل قوله :

إن ترَ زهرة وردٍ فوقها الطلّ قطره(٢)

وقوله :

أيا زهرة الوادي الكئيبة إنني ... حزين لما صرت اليه كئيب(٣)

١ – مثل هذا الاشباع يجيزه الكوفيون الذين يتوسعون في القياس على الشاذ النادر .

٢ – الجداول ص ٣٦ طبعة مطبعة الزهراء في النجف الاشرف « دون تاريخ » .

٣ – الجداول ص ٨٢ .

وقوله :

فتمين ، للأقدار فيك ملاعب   وفي صفحتيك النمال ضروب[1]

ونجد الى جانب ذلك هذا اللون من الحذف الذي لا يجيزه الا الكوفيون على ضعف :

ما على من لا يطيــق يرى   أن في الأرض السهى عشبا[2]

فهو يريد ان يقول : من لا يطيق ان يرى ، فحذف « أن » في غير موطن حذفها ونجد هذا في قوله :

فاعمل لاسعاد السوى وهنائهم   إن شئت تسعد في الحياة وتنعما[3]

فهو هنا قد وقع في أمرين ، أولهما انه عامل « سوى » معاملة الاسم فأدخل عليها الألف واللام ، مما لا نعرفه ؛ والثاني انه نصب « تسعد » بـ « أن » أضمرها ، ليستقيم له نصب القافية معطوفة على « تنعما » .

ثم كان لا بد لهذا الشاعر الناشىء بعد ان وصل امريكا وعاش هناك ، يمارس حياة جديدة بالنسبة اليه ويمارس أفكاراً جديدة وأساليب جديدة ايضاً ، من ان يهتم بلغته كما قلنا ويُعنى بها بعض العناية ؛ لذا نجده في الفترة الثانية من حياته في امريكا قد تغير أسلوبه ، إذ اضاف الى مصادر ثقافته ثقافة مدرسة « الرابطة القلمية » ، إذا صحّ أنه تأثر بها ليخرج من الأطر التي كان يعيش فيها .

ولا بد لنا بالتالي أن نقف وقفة قصيرة عند هذه المدرسة المهجرية الكبيرة التي لمع اسمها كمدرسة أدبية لها خطرها في الادب الحديث .

---

١ — الجداول ص ٨٤ .

٢ — الجداول ص ٩٤ .

٣ — الجداول ص ٥٠ .

الرابطة القلمية :

ما زال المهاجرون العرب الذين استوطنوا أمريكا في غمرة هذه الهجرة الكبيرة في مطلع القرن العشرين يشعرون بأنهم عرب رغم « تأمركهم » ، ولقد شعروا بالتالي ان عروبتهم مهددة بالانهيار والضياع في تيار الحياة الامريكية الجديدة التي أخذوا انفسهم بها ، لذا فقد سارع فريق منهم الى إنشاء المجلات الأدبية والصحف اليومية لتكون صوتهم والدليل فيما بينهم .

ويقول الاستاذ أنيس نصر[1] « وصل المهاجرون اللبنانيون الأولون الى أمريكا منذ قرن كامل تقريباً لا يحملون مالاً ولا يفهمون لغة البلاد التي نزلوا فيها ولا يعرفون شيئاً عن أحوالها وعادات سكانها ، فاعتمدوا على ذكائهم ونشاطهم وإقدامهم وقبضوا ، بعد مرور سنوات قليلة العدد ، على ناصية التجارة ... » الى ان يقول : « ... ولكنهم ذللوا كل صعب وتعلموا لغة البلاد التي يعملون فيها وانشأوا الصحف اليومية الكبرى في مختلف لغات العالم وأسسوا الصحافة العربية في بلادهم وفي مهاجرهم وما زالوا الى اليوم أمراءها المجلين ... » .

« وقد ظهرت الصحف العربية جنباً الى جنب مع ظهور اول جالية سورية استقرت في شارع واشنطن » « وصدرت اول صحيفة عربية في الولايات المتحدة عام ١٨٨٨ م باسم « كوكب أمريكا » وكان يملكها اثنان من اولاد يوسف عربيلي ، واول من حررها هو نجيب دياب الذي أسس فيما بعد « مرآة الغرب »[2] .

وقد بلغت الجرائد في الولايات المتحدة تسعاً وسبعين جريدة ومجلة[3] .

---

١ — « النبوغ اللبناني » ص ١٩ و ص ٢٥ نقلا عن خطبة لشكري الخوري ، منشىء جريدة « أبو الهول » في مهرجان يوبيل جريدته الفضي في سانباولو (البرازيل) ١٥ آب ١٩٣٥ م .

٢ — كتاب الناطقون بالضاد في أمريكا ، ص ٤٠ واقتبسه الاستاذ نجم في كتابه « القصة » ص ٨٦ .

٣ — من احصاء فيليب طرازي في تاريخ الصحافة ج ١ د ع ٢ .

ومن هنا يتبيّن لنا ان الحركة الأدبية في المهجر هي صنيع العقد الثامن من القرن المنصرم ، ولكنها كانت حركة محدودة لم تحس لها ركزاً ولم ينتقل صداها من المحيط الذي كانت فيه ، ذلك انها انمـا أنشئت الجاليات العربية الموجودة هناك ، ولم تكن تتسم بأي ميسم مميز بل كانت غايتها اخبارية بالدرجة الأولى ونشر بعض ما يعتلج في النفوس من مألوف الشعر والنثر في الحنين والشكوى وما اتصل بها من اغراض محدودة ...

على أنّ هذا الإطار الضيق الذي كانت تتنفس فيـه اتخذ شكلاً آخر عندما وجد بـين المهاجرين امثال جبران خليل جبران وميخائيل نعيمه وايليا ابي ماضي .

على ان من الانصاف لتأريخ الحركة الأدبية في المهجر ان نشير الى ان الذي بعثها وأحياها ونقلها من جوها المحـدود الى الجو العربي في مشارق الارض ومغاربها إنما كان أديب المهجر الأكبر جبران خليل جبران ؛ يدعم ذلك ما رواه الاستاذ ميخائيل نعيمه في ثني كتابه النفيس « جبران خليل جبران » [1] .

على ان الذي يعنينا من هـذا المبحث إنما هو تأريخ « الرابطة القلمية » التي تحدث عنها الاستاذ الكبير ميخائيل نعيمه فأفاض في الحديث [2] .

وفي ثبت اعضاء الرابطة القلمية نجد هؤلاء : « ندرة حداد ، إيليا ابو ماضي ، وديع باحوط ، رشيد ايوب الياس ، عطا الله عبدالمسيح حداد ، نسيب عريضه » .

١ – ظهرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب القيم في بيروت سنة ١٩٣٤ وطبع في مطبعة « لسان الحال » ثم تكررت طبعاته على يدي « مكتبة صادر » .

٢ – تجد تفصيلاً للبحث أيضاً في كتاب « الناطقون بالضاد في أمريكا » ليعقوب العودات البدوي الملثم وقد ترجمه عن نشرة بالانكليزية لمعهد الشؤون العربية الامريكية ـ نيويورك سنة ١٩٤٦ م وطبع بالمطبعة التجارية ، بالقدس .

ونجـد في مكان العمادة « جبران خليل جبران » و « ميخائيل نعيمه » مستشار » و « وليم كاتسفليس » – خازن – [1] .

اما نشأتها فانه « ... في خلال ليلة احياها صاحب « السائح » [2] واخوانه في بيتهم ، في العشرين من نيسان سنة ١٩٢٠ م ، ودعوا اليها رهطاً من الأدباء والاصحاب ، دار الحديث عن الادب وعما يمكن الادباء السوريين في المهجر القيام بـه لبث روح جديدة نشيطة في جسم الادب العربي وانتشاله من وهدة الخمول والتقليد الى حيث يصبح قوة فعـالة في حياة الامة ؛ ورأى احدهم ان تكون لأدباء المهجر رابطة تضم قواهم وتوحد مساعيهم في سبيل اللغة العربية وآدابها . فقابلت الفكرة استحسان كل الأدباء الحاضرين [2] ... وأقروا باجماع الاصوات مباشرة السعي لتحقيق هذه الفكرة ... » .

ونجد في سجل الجلسة الثانية ان الحاضرين [2] قد أقروا الأمور التالية :

١ – ان تدعى الجمعية « الرابطة القلمية » .

٢ – ان يكون لها ثلاثة موظفين وهم : الرئيس ويدعى العميد ، فكاتم السرّ ويدعى المستشار ، فأمين الصندوق ويدعى الخازن .

٣ – ان يكون أعضاؤها ثلاث طبقات : عاملين ويدعون عمالاً ، فمناصرين ويدعون أنصاراً فمراسلين .

٤ – ان تهتم الرابطة بنشر مؤلفات عمالها ومؤلفات سواهم من كتاب العربية المستحقين ، وبترجمة المؤلفات المهمة من الآداب الأجنبية .

١ – البحث مستقى من كتاب « جبران خليل جبران » للاستاذ ميخائيل نعيمة ص ١٦٩ وما بعدها ، طبعة بيروت ١٩٣٤ م .

٢ – « السائح » جريدة نصف اسبوعية لصاحبها ومؤسسها عبد المسيح حداد . وكان مضى على تأسيسها ست سنوات قبل قيام الرابطة القلمية لتكون لهم بوقاً فيما بعد .

٣ – نلاحظ عدم وجود اسم ايليا أبي ماضي بين الحاضرين في الجلستين .

٥ – ان تعطي الرابطة جوائز مالية في الشعر والنـثر والترجمة تشجيعاً للأدباء .

ووكل الحضور أمر تنظيم القانون الى العامل ميخائيل نُعيمة . ثم تمّ انتخاب جبران للعمادة ونعيمة للمستشارية ووليم كاتسفليس للخزن .

وبعد ان تم وضع هذه النواة للرابطة ضمن هذه الحدود التي هي بمثابة ملامح لبرنامج الرابطة وأهدافها كان عليهم ان يضعوا قانوناً .

واني لأعجب لرابطة قلمية « فكرية » يكون لها « قانون » وقد كان حرياً ان تكتفي بذاك البرنامج لشموله وكفايته في مثل المجال الذي كانت عليه أهداف الرابطة .

ولم يذكر لنا الاستاذ نعيمة – المستشار – شيئاً عن هذا « القانون » وإنمـا أورد لنا قسماً من مقدمته ، ليبين لنا روح الرابطة ومراميها ...

وجاء في تعريف الأدب : « ليس كل ما سطر بمداد على قرطاس أدباً ، ولا كل من حرّر مقالاً او نظم قصيدة موزونة بالأديب . فالأدب الذي نعتبره هو الأدب الذي يستمدُّ غذاءه من تربة الحياة ونورها وهوائها ... والأديب الذي نكرمه هو الأديب الذي خصّ برقـة الحسّ ، ودقة الفكر ، وبُعد النظر في تموجات الحياة وتقلباتها وبمقدرة البيان عما تحدثه الحياة في نفسه من التأثير ... »

فها هنا تعريف للأديب ، يُطل علينا من خلال وجهة نظر مستشار الرابطة القلمية ؛ وواضح ان شاعرنا الكبير أبا ماضي كان يصدر عن هذا التعريف عندما قدم ديوانه « الجداول » بهذه التقدمة :

لست مني إن حسبْـ ـتَ الشعر ألفاظاً ووزنا
خالفت دربك دربي وانقضى مـا كان منا

فانطلق عني لئـلا تقتني همـاً وحزنا
واتخذ غيري رفيقـاً وسوى دنياي مغنى[1]

ثم يتحدث الاستاذ نعيمه في مقدمة « قانون » الرابطة القلمية عن « الأدب » الذي يريده ...

« ... إن هذه الروح الجديدة التي ترمي الى الخروج بآدابنا من دور الجمود والتقليد إلى دور الابتكار في جميل الأساليب والمعـاني لحريّة في نظرنا بكل تنشيط ومؤازرة فهي أمل اليوم وركن الغد . كما ان الروح التي تحاول بكل قواها حصر الآداب واللغة العربية ضمن دائرة تقليد القدماء في المعنى والمبنى هي في عرقنا سوس ينخر جسم آدابنا ولغتنا ، وإن لم تقاوم ستؤدي بها الى حيث لا نهوض ولا تجدد .

« بيد أننا إذا ما عملنا على تنشيط الروح الأدبية الجديدة » لا نقصد بذلك قطع كل علاقة مع الأقدمين . فبينهم من فطاحل الشعراء والمفكرين مَن ستبقى آثارهم مصدر إلهام للكثيرين غداً وبعد غد الا أننا لسنا نرى في تقليدهم سوى موت لآدابنا ؛ لذلـك فالمحافظة على كياننا الأدبي تضطر للانصراف عنهم إلى حاجات يومنا ومطاليب غدنا ؛ وحاجات يومنا ليست كحاجات أمسنا[2] ... » .

ولسنا ندري في واقع الأمر ما الذي يعنيه الاستاذ ميخائيل نعيمه من قوله في تعريف الأدب « ... ان هذه الروح الجديدة التي ترمي الى الخروج بآدابنا من

١ – وقد علق الدكتور طه حسين على هذه الابيات في مقال له . ج ٣ « حديث الاربعاء » ص ١٩٦ . قال : « فمن الحق ان الشاعر لا يقول شيئاً في هذا الكلام لان الشعر لا يستقيم ولا يوجد ولا يمكن تصوره بغير الألفاظ والوزن . وآية ذلك أن الشاعر نفسه قدم لنا في ديوانه هذا ألفاظاً موزونة . ولم يقدم لنا كلاماً منثوراً في غير وزن ولم يقدم لنا معاني في غير ألفاظ . . . اذاً فاللفظ ليس من الضعة وضآلة الشأن بحيث يريد الشاعر ان يقول في هذه الابيات التي رويناها لك ... وعلى هذا النحو تخالف الشاعر فيما ذهب اليه من ازدراء اللفظ والوزن ... » اهـ .

٢ – ص ١٧١ وما بعدها .

دور الجمود والتقليد الى دور الابتكار في جيل الأساليب والمعاني له ... فهي أمل اليوم وركن الغد » ؛ فإن في هذا الكلام كثيراً من الغموض والايهام ؛ فهل المقصود من قوله « دور الجمود والتقليد » التقليد والجمود في المبنى أم في المعنى ؟ فان كان المقصود هو الجمود والتقليد في حدود المعنى فانّ المعاني – كما يقول أبو هلال العسكري – مطروحة في الطريق ... ولم يقف أمر التقليد في يوم من الأيام على المعاني ، ولم يدّعِ أحدٌ ان الجمود قد نال المعاني، حتى أصبح بحاجة للتحرر من مثل هذا الجمود ... وإن كان المقصود هو الجمود والتقليد في حدود المبنى فلسنا على وضوح في هذا الذي ذهب اليه الاستاذ ، إلاّ إذا كان يريد الخروج والتحرر من « الأسلوب » الذي كان رائناً على عصر القرن الرابع ثم عصر الدول المتتابعة او عصور الانحطاط من حيث اهتمامه بالسجع والطباق والجناس وهذه المحسنات البديعية التي أصبحت غاية في ذاتها طوال ذاك العصر .

وفي هذه الحالة لا نجد ما يبرر مثل هذه الدعوة للتحرر من الجمود والتقليد والدعوة الى الابتكار والتجديد ؛ لأنه ليس هناك جمود في المعاني ولا في المباني وإنما هناك على وجه التحديد أدباء مجترون، يرددون ما سبق ان تظاهر من منثور عصر الانحطاط ومنظومه ، ومن هنا نرى ان مدرسة « الرابطة القلمية » انما هدفت الى الانفلات من « أساليب » عصور الانحطاط التقليدية التي لم تعد صالحة للتعبير عن حاجات الحياة اليومية في الاجتماع والأدب ، ولم تنفلت من قيود اللغة العربية ولا من معانيها وإن كانت أضافت الى كتاباتها هذه الأفكار الجديدة التي تلقتها من بيئتها الجديدة في المهجر .

على انه من مقتضيات البحث ان نشير الى كلمة الدكتور طه حسين في مجال التعليق على كتابات المهجريين « ... ولكنني حائر حقاً في أمر هذا النحو من الشعر وهذا الفريق من الشعراء . قوم منحوا طبيعة خصبة وملكات قوية ، وخيالاً بعيد الآماد ، وهم مهيئون ليكونوا شعراء مجوّدين ، ولكنهم لم يستكملوا أدوات الشعر ، فجهلوا اللغة او تجاهلوها ، ثم اتخذوا هذا الجهل مذهباً ، فأصبحنا

من أمرهم في شك مريب ، لا نستبيح لأنفسنا ان نغري الناس بقراءتهم لأنا إن فعلنا أغريناهم بالخطأ ، ورغبناهم فيه ودفعناهم الى ما هم مدفوعون اليه بطبعهم من الكسل والقصور والتقصير . على ان هذا النحو من الضعف لم يكن شائعاً مألوفاً في مصر بل لم يكن شائعاً مألوفاً في بلاد الشرق العربي، ولكنه أقبل علينا من مهاجر السوريين في أمريكا ، فتأثر به الشباب بعض الشيء ... وما الذي يمنعهم ان يتأثروا به وهو مريح لا يكلف تعباً ولا عناء ، وهو في الوقت نفسه يخيل الى الشبان انهم يقلدون الشعراء الغربيين ويجددون في الأوزان والقوافي ويخرجون على التقاليد فيعنون بالمعاني دون الألفاظ ؟ ... »[1]

وكأنني بالاستاذ ميخائيل نعيمه يردّ على الدكتور حسين عندما قال : « ... ونقم أنصار التقليد والجمود على الرابطة ، فما كانت نقمتهم إلا لتزيدها قوةً وحماسةً واندفاعاً ولتنمي عدد انصارها ومريديها ومقلديها والمعجبين بها في كل قطر عربي ، حتى حار في أمرها أصحابها وأعداؤها على السواء ؛ فما عادوا يعرفون الى ماذا يعزون سرّ قوتها وبُعد تأثيرها . فمن قائل إن السر في الأدب الامريكي الذي تأثر به عمال الرابطة ، وهو قول فارغ ، ومن قائل : إنه في جو الحرية الامريكية ؛ وهو قول أفرغ ، ومن قائل إنه في تهتك عمال الرابطة من حيث اللغة العربية واصولها ، وهو قول أفرغ وأعقم من القولين الأولين . اما الحقيقة فلا يعلمها إلا الذي جمع عمال الرابطة القلمية في فسحة محدودة من ديار غربتهم ولمحة معلومة من زمان هجرتهم ووضع في صدر كل منهم جذوة تختلف عن أختها حرارةً وبهاءً لكنها من موقد واحد »[2] .

وكأننا نجد الاستاذ نجم يدلي بدلوه في الموضوع ويبدي رأيه في أدب المهجر فيقول: « ... والذي يهمنا من هذه الحركة هو وجهها الأدبي ، وهو وجه مشرق

١ – ج ٣ « حديث الاربعاء » ص ٢٠٠ وما بعدها .

٢ – « جبران خليل جبران » لنعيمه ص ١٧٤ .

ناصع . فقد كتب للكثيرين من هؤلاء المهاجرين ان يبرزوا في عالم الأدب والفكر كما برزوا في نواحي الحياة العملية . ومن منا ينكر المساهمة القيمة التي شارك بها المهجريون في نهضتنا الأدبية الحديثة . ومن يجهل « الرابطة القلمية » التي كان رئيسها جبران خليل جبران ومن أعضائها ميخائيل نعيمه وإيليا أبو ماضي ونسيب عريضة و ... وهذا لا يعني ان النشاط الأدبي في المهاجر الامريكية انحصر في هاتين الجمعيتين (يعني بالثانية العصبة الاندلسية في أمريكا الجنوبية) بل هنالك أدباء كثر لم ينتظموا في سلكهما ... »[١] .

ويستمر الاستاذ نجم فيقول « ... نود ان نجمل رأينا فيها — في الرابطة — بأن نقول : إن هذه المدرسة التي اتسمت بميسم القوة والتجديد والثورة على كل قديم بال هي أقوى مدرسة عرفها الأدب العربي الحديث حتى اليوم . وقد ضربت بسهم صائب في حقل الأدب واستطاعت ان تقدم الى أدبنا طائفة مختارة من الأدباء الذين شاركوا في الادب بألوانه المختلفة مشاركة طيبة ، والذين نفحونا بروحانية طغى عليها التفكير الفلسفي الصوفي . وقد عني هؤلاء الادباء بالفكرة والموسيقى أكثر مما عنوا باللغة وقواعدها »[١] .

ويذكر الاستاذ الياس ابو شبكه[٢] شيئاً عن موقف أدباء العربية من أدباء المهجر وأدبهم ، فيرى انه « كموقف البرناسيين الفرنسيين من بعض ادباء العهد الرومنطيقي على وجه التقريب . ففي العام ١٨٦٦ عندما اذاعت المدرسة البارناسية مبادئها راحت تنحي باللائمة على الشعراء الذين يهملون العناية باللغة وقواعد النظم ، فيسلكون مثلاً مسلك ألفرد ده موسيه الذي كان له من عبقريته ما يشفع بقوافيه المضطربة ... سوى ان الشعراء البرناسيين كجوزي ماريا ده هريديا وبودلير ، وليكونت ده ليل ، وفرانسوى كوبيه ، واضرابهم كانوا يرتفعون

١ — « القصة في الادب العربي الحديث » ص ٨٦ .

٢ — « روابط الفكر والروح بين العرب والفرنجة » ص ١٠٢ .

بقوة افكارهم وجمال صورهم الى مستوى الصياغة والمتانة اللتين كانوا يطالبون بالتمسك بهما ، فلم يهبط المستوى الفني عن مرتبة الشاعر ، خلافاً لأدبائنا الذين كانوا يأخذون على جبران والريحاني وعريضه وإخوانهم من رجال الرابطة الأدبية في المهجر ضعف لغتهم ونبذهم القواعد المأثورة في النظم والنثر » ...

ومهما اختلفت الاقوال في هذه المدرسة المهجرية بين مدافع عنها وبين محبذ لها ومنشط ومهاجم فان الذي لا ريب فيه انها احتلت مكانة لها قيمتها في الميدان الادبي خلال الربع الثاني من القرن العشرين وكان لها نصراؤها ومحبوها « ولا يزال لهذه المدرسة أثرها في الأدب العربي المعاصر . وقد بدأ الضعف يدب في عناصرها ، (خاصة بعد وفاة عميدها جبران) إذ ان الامداد الأصيل الذي كان يأتيها من ارض الوطن يكاد ينقطع سيله الآن . وكل أديب يموت هناك يدق مسماراً جديداً في نعشها »[١] .

اما مدى انطباع المدرسة في شعر الشاعر ابي ماضي ، ومدى ما أسداه الشاعر لهذه الرابطة ، فاننا ندور كثيراً في شعر الشاعر فلا نجد إلا الروح الجنحة التي حملته على التخلي عن مدرسة تقليد القدماء في ألفاظهم وتعبيراتهم بل واساليبهم لينطلق في رحاب المدرسة الجديدة التي تهتم بالفكرة اكثر مما تهتم بالثوب الذي تضفيه على تلك الفكرة ؛ فاذا نظرت في دواوينه التاليين والجداول و « الخمائل » فلن تجد المطالع الفخمة التي تذكرك بالمعلقات او بلامية العرب او العجم وما اتصل بذلك ، وانما تجد لوناً جديداً ليس فيه إلا محاولة التعبير عن أفكار جديدة هي وليدة البيئة الجديدة التي عاشها مع زملائه أعضاء الرابطة القلمية .

. . .

ولست بمعرض الحديث عن « أثر الرابطة القلمية » في شعره لأن « الرابطة القلمية » إنما قامت بمعاونة الشاعر إيليا ابي ماضي ، فهو علم من أعلامها وعامل

١ — « القصة في الادب العربي الحديث » ص ٨٨ .

من عمالها، إلا انه لا بدّ من التنويه بالانطلاق الذي أصبح عليه منذ سلك في عداد عمال الرابطة القلمية وكان عليه بالتالي ان يُثبت وجوده كشاعر يدافع عن تلك « المبادىء » ، التي ألمع اليها الاستاذ الكبير ميخائيل نعيمه في مقدمة « قانون الرابطة القلمية » ، وان يعتنقها ويؤمن بها نصاً وروحاً .

على أن المتتبع شعر ابي ماضي ، بُعيد اشتراكه في إنشاء الرابطة القلمية حتى آخر منظومة له ، يجد الشاعر الكبير من مدرسة غير مدرستهم وفي اتجاه غير اتجاههم . ولسنا ندعي انه تخالف كما لا نقوى على الادعاء أنه منصهر في بوتقتها ، بل كان ذاك الشاعر الفرد يغني ما تمليه عليه موهبته دون ان يتعمّد هذا اللون او ذاك ، ودون ان يحاول ان يكون صاحب مدرسة خاصة في الشعر لها طريقتها ولها اسلوبها المتميز .

. . .

آراء :

على أن مما لا شبهة فيه أن إيليا أبا ماضي شاعر كبير « يصعد الى الملأ الأعلى ولكن على سلّم أبقى وأقوى من الجبال ؛ يصعد بعزم الروح ، ويتمسك بحبال غير منظورة ولكنها أمتن من سلاسل الحديد ؛ يتمسك بحبال الفكر ، ويملأ كأسه من عصير أرق من ندى الفجر ، يملأها من خمرة الخيال ؛ والخيال هو الحادي الذي يسير أمام مواكب الحياة نحو الحق والروح »[1] .

ويضيف جبران خليل جبران قائلاً « ... وإيليا ابو ماضي شاعر ، وفي ديوانه سلالم بين المنظور وغير المنظور ، وحبال تربط مظاهر الحياة بخفاياها ،

١ — من مقدمة « الجزء الثاني من ديوان إيليا أبي ماضي » كتبها جبران خليل جبران، طبعة نيويورك ، ص ٤ .

وكؤوس مملوءة بتلك الخمرة التي إن ترشفها تظلّ ظمآناً حتى تمل الآلهةُ البشر فتغمره ثانية بالطوفان »[1] .

. . .

رأيه في الشاعر :

ولعلّ هذا الذي أسبغه جبران خليل جبران على ايليا ابي ماضي انما هو مستقى من تعريف ابي ماضي للشاعر؛ إذ تطالعك في صدر الجزء الثاني من ديوانه قصيدة بعنوان «الشاعر» ، وقد حاول أبو ماضي ان يجري حواراً بينه وبين فتاته حول تعريف الشاعر فجاء بالبديع من القول .

فالشاعر ، من حيث هو شاعر ، كالكهرباء في خفائها وظهورها ، وهو ذاك الذي حباه الاله القدرة على ملاحقة خفايا الأشياء ، فكأنه لا يرتضي بظواهرها بل يروح متسائلاً عما وراء المنظور :

... ... أنا كالكهرباء ، أرى خفياً ظاهراً

... هو من يسائل نفسه عن نفسه في صبحه ومسائه

والعين سرّ سهادها ورقادها والقلبُ سرّ قنوطه ورجائه

وهو بالتالي ذاك الانسان الذي حار في كل شيء ، ولم يقنع بشيء ، ولم تصل معرفته الى مرتبة اليقين في أية قضية من قضايا الحياة ، لذا تراه أبداً معلق الانفاس، مبهورها، يسائل نفسه ولا من مجيب، فتغلبه شكوكه على نفسه فيقول في وصف الشاعر :

فيحار بين مجيئه وذهابه ويحار بين امامه وورائه

١ — المصدر السابق ، ص ٥ .

ولكن هذا الانسان الحائر بين امسه ويومه وغده ، وبين منشئه ومصيره له قدرة على رؤية الاشياء المبهمة فكأنه على شيء من العلم بالغيب :

ويرى أفول النجم قبل أفوله   ويرى فناء الشيء قبل فنائه

وهو الى جانب هذا سادر في مهامه الحياة ، غامض في تصرفاته تأخذه موجات من التشاؤم كاسحة ... فهو :

إن نام لم ترقد هواجس روحه   وإذا استفاق رأيته كالتائه
ما ان يبالي ضحكنا وبكاءنا   ويخيفنا في ضحكه وبكائه
ويسير في الروض الاغن فلا ترى   عيناه غير الشوك في أرجائه

حتى إذا أخذت منه الانانية مأخذها الرهيب أصبح :

كالنار يلتهم العواطف عقله   فيميتها ويموت في صحرائه

ويتبادر الى الذهن ان هذه الانانية أصيلة ، في جبلته ، تجري في دمائه ، ولكنك إذا أمعنت النظر تلاحت لك غيريته بأجلى مظاهرها ...

هو من يعيش لغيره ويظنه   من ليس يفهمه يعيش لذاته

وجملة القول في صفات الشاعر ان فيه من الناس أحاسيسهم ومشاعرهم ولكنه الى جانب ذلك يسمو عليهم بهذه القدرة الجبارة على اختراق المنظور والكشف على اللامنظور ...

كلما هزّت يداه وترا   هزّ من كل فؤاد وتره

وهو تعيس في الأمة التعيسة :

تعس الحظ ، وهل أتعس من   شاعر في أمة محتضره ؟..

وهو رسول القومية ورسول المحبة ورسول السلام ورسول الحرب ، وكما هو

قادر على هزّ المشاعر ، وقادر على التطلع الى المجهول ليكشفه ويجعله معلوماً ، فهو قادر على الانفعال والغضب ، تأخذه الحمية إذا به :

ثم لما عبث الناس به   مزّق الطرس وشجّ المحبره (١)

فهنا تتلامح لك صورة أقرب ما تكون الى الكمال لذلك الانسان الذي أراد ان يحدد أبو ماضي صفاته ويبين بميزاته ؛ فهو قبل كل شيء « إنسان » يحس كما يحس الآخرون فينفعل كما ينفعلون ويميل مع نفسه كما يميلون ، الا انه في مجالي الفكر ومطارح الرؤية تراه يفكر أبعد مما يفكرون ويرى بأقوى مما يرون فيجمل القول والصفات ليعرّف الشاعر فيقول (٢) :

انما نحن معشر الشعراء   يتجلى سر النبوة فينا

* *

على ان أبا ماضي وقد تحدث في « الشاعر » لم يترك الحديث في « الشعر » . ولا يعني هذا انه قد حاول تحديد « مفهوم « الشعر » او حاول ان يرسم خطوطه بريشة صاحب مدرسة خاصة ، ولكنه التفت الى من تقدمه من الشعراء فأنكر من شعرهم بعض الاغراض ، فهو يأنف من التشبيب بالخمرة ، كما يترفّع عن المديح ووصف النساء ، ويعتبر ذلك من « سفاسف الشعراء » ؛ وإذا كان الشعراء القدامى برأيه ، قد أخذوا انفسهم بالمديح ، يجعلونه غرض الاغراض في شعرهم ، فشاعرنا يعتبر ذلك منقصة يترفع عنها ولا يتدنى اليها :

أنا ما وقفت لكي أشبب بالطلا   مالي وللتشبيب بالصهباء
لا تسألوني المدح او وصف الدمى   إني نبذت سفاسف الشعراء

١ ـ الأبيات مأخوذة من قصيدته « الشاعر والأمة » .
٢ ـ الجداول ، مطبعة الزهراء ، النجف الاشرف (العراق) ص ٣٢ .

باعوا لأجل المال ماء حياتهم مدحاً وبتُّ أصون ماء حياتي
لم يفهموا بالشعر إلا انــه قــد بات واسطة الى الاثراء

ولو وقف الأمر عند هذا الحد لكان هيناً ، ذلك ان أبا ماضي قد نظر الى الشعراء القدامى بباصرة القرن العشرين ، ولم ينظر اليهم بباصرة القرون التي عاشوا فيها والتي كانت تقهر الشاعر على الا يقول الشعر إلا للتكسب لمحدودية وسائل العيش من جـانب ولانعدام الصحافة التي هي بوق الخلفاء والسلاطين والمتسلطين من جانب آخر ؛ الا اننا نرى الشاعر مولعاً بالتعميم عندما يجعل صفة الرياء ملاصقة لاخلاق « أولئك » الشعراء :

« ألفوا الرياء فصار من عاداتهم » ...

ومن هنا يتضح لنا رأي الشاعر أبي ماضي فيمن تقدمه من الشعراء أولاً وفي أغراض شعرهم ثانياً ؛ أما مذهبه هو في الشعر ، فلم يكد يشير إليه إلا في مقدمة ديوانه الثالث « الجداول » عندما قال في تلك الفاتحة :

لستَ مني إن حسبتَ الشعر ألفاظاً ووزنا
خالفت دربـك دربي وانقضى ما كان منا

ومن الواضح الجليّ الذي لا يرقى اليه الشك أنّ الشاعر يريد ان يقول إن الشعر ليس ألفاظاً واوزاناً وانما هو روح ومعنى ، فكأنه بهذا قد انتصر لمدرسة المبنى . وهو الى جانب ذلك لم يذكر شيئاً عن العاطفة في الشعر [1] والصدق . ولعل أمير الشعراء كان اجمع لتعريف الشعر حين قال :

والشعر ، ما لم يكن ذكرى وعاطفة او حكمة ، فهو تقطيــع وأوزان

---

١ - ارجع الى كتاب « من النقد الفرنسي » للاستاذ محمد روحي فيصل ، نشرته دار اليقظة العربية في سلسلة منشوراتها « اليقظة » عدد (٢) ففيــه من المباحث في الشعر ، والحاجة اليه ، والحياة والشعر ، ما هو جدير بالدراسة والاقتباس .

فشوقي ، بهذا التعريف ، قد ميز الشعر من النظم ، وأبان عن اهدافه فجعلها في ثلاثة اهداف : الذكرى ، والعاطفة ، والحكمة ؛ فلو خلا الشعر من احد هذه الاغراض عاد نظماً يُسلك في عداد الموزون ، بينا نجد أبا ماضي قد اهمل التحدث عن هذه الاغراض واضاف إلى ذلك إهمال اللفظ ، مما ساق الدكتور طه حسين سوقاً الى ان يأخذ عليه ذلك بشدة وعنف كما سبق القول .

وما دام الموضوع دائراً في تحديد مفهوم الشعر فلا علينا إذا أثبتنا رأي الشاعر الفرنسي الكبير « بول فاليري » [1] لأنه يُبين عن عمق في فهم الشعر ؛ قـال : « للشعر في الافهام معنيان : أولهما انه مجموعة العواطف والانفعالات التي تهيجها في نفوسنا احداث الزمن ، ومجالي الطبيعة ، ومعاني الوجود ، وألوان الحياة . فنقول ، منظر شعري ، وظرف شعري . وثانيهما انه فنٌّ قائم وصناعة عجيبة ، يتناول الاهواء المشبوبة بالتنسيق والتأليف والجلاء ، ثم يبرزهـا في لغة جميلة تطرب لها الأذن ويهتز منها القلب » .

ونرى من جانب آخر ان ايليا أبا ماضي قد جعل شعاراً لجريدته التي أصدرها في نيويورك ولا يزال ، هذين البيتين :

أنا لا أهدي اليكم ورقاً غيركم يرضى بحبر وورقْ
إنما أهدي الى أرواحكم فكراً تبقى اذا الطرس احترقْ

فـ « الفكرة » هي التي تتغلب لدى الشاعر على اللفظ ، كأنه من انصار المعنى وحده ، فالشعر عنده ، او ما يصدر عنه بالذات ، انما هو فكر خالد ، باقٍ ببقاء الزمن ؛ ويبقى بعد هذا ان نتساءل مع الشاعر الكبير عما اذا كان الخلود يصد عن الاثواب الجميلة وهو يراها تكسو تلك الاجساد الخالدة !!.

---

١ - كتاب « من النقد الفرنسي » للاستاذ محمد روحي فيصل ، في سلسلة « اليقظة » التي كانت تصدرها دار اليقظة العربية ، العدد ٢ ص ٩ ، طبعة ١٩٤٣ م .

ثم نجد الشاعر الكبير وقد قدم قصيدة الى روح الشاعر الخالد خليل مطران[١] فعرّف فيها بالشاعر ...

فالله – عزّ وجل – عندما أبدع هذا الكون ورأى هذا الجمال المبثوث في كل شيء من اشيائه ، وطرب لخلقه وإبداعه خلق الشاعر ...

خلق الشاعر ليكون في كل وجه عيناً ، تبصر الحق ، وتهواه متحركاً او ساكناً ، انساناً او شيئاً او شأناً ... وبذلك وحده ، ضمن الله عدم فناء الحق وعدم انقراض الحب ... ثم اذا تلفت تسائل نفسك عن قيمة هذا « الشاعر » تجد أبا ماضي يرى ان الشاعر وحده هو الذي عانق الله يقينا ... وهب ربك أراد لهذا الشاعر ألا يكون على الأرض ، فماذا انت متوقع حدوثه ؟.. سترى الأرض وما عليها شاحبة محزونة ، وهاداً وحزوناً ، وسترى السواقي وقد غاض ماؤها وعادت سراباً يهزأ بالظامئين ... ثم ... سترى الله – جـــل عن مثل هذا – مغموماً حزيناً لانه لم يخلق العين التي ترى والنفس التي تحس والفكر الذي يعي !

والى جانب هذه الصورة القوية للشاعر ، كما أرادهـــا أبو ماضي ، فقد جعل للشاعر رسالات ، عليه ان يؤديها في حياته ، رسالات في التفاؤل ، وفي تجميل الحياة وتزيينها ، ورسالات في القومية ورسالات في المجتمع وما اتصل بذلك ؛ وحسبك ان تقلب صفحات دواوينه[٢] ، فستجد ما اضطرب في نفس الشاعر منقوشاً بأحرف من نور تشير الى سمو الرسالة التي يحملها الشاعر مبشراً بها من جانب والى مدى ما يحرق شمعة حياته لينير الدياجير السارن في ليل الحيـــاة الأبدي .

. . .

١ – نشرت القصيدة في مجلة « العصبة » التي تصدر عن البرازيل .

٢ – القصائد التي تعالج هذه الموضوعات اكثر من ان يحصيها عد . وقد اقتبسنا بعضها من الجزء الثاني من ديوانـــه واثبتناها في هذه الدراسة « الشاعر والامة » ص ٢٨ . دموع وتنهدات ص ١٩٥ . أمة تفنى وانتم تلعبون ص ٢١٠ « الشاعر والسلطان الجائر » « الخائل » ص ٧ وغيرها.

رأيه في المرأة :

ما كنت لأحب ان أفرد مبحثاً خاصاً أشير فيه الى رأيه في المرأة او السياسة وما اتصل بذلك ، لانه يسوقنا بالضرورة الى تقصي جلة آرائه في مختلف مظاهر الحياة والمجتمع ، وهو ما لا نقصد اليه ، ولكننا وجدنا له في بعض شعره ما هو جدير بالتنويه به في هذين الأمرين الخطيرين .

وعلينا باديء ذي بدء ان نميز نوعين من النساء يذكرهما الشاعر في منظومه ، أولهما الغانية التي خلقهـــا الله خدينة الشاعر في رحلاته العلوية لتكون موضوع غزله ومناجاته وموضوعات قصصه ؛ ومثل هذه الغانية – في شعر الشاعر – تتسم بالجمال المطلق ، فريقتها خمرة ، وخدها وردة ، وعيناها منبع السحر الحلال :

ليت الذي خلق العيون السودا	خلق القلوب الخافقات حديدا
لولا نواعسها ولولا سحرها	ما ود مالك قلبه لو صيدا
عوذ فؤادك من نبال لحاظها	او مت كما شاء الغرام شهيدا
... ...	
عيناك والسحر الذي فيهما	صيرتاني شـــاعراً ساحرا

وأمثال هذا اللون من الشعر منثور في اثناء المختارات التي انتقيناها لهذه الدراسة من الجزء الثاني من ديوانه واثبتناها إثر هذه الدراسة ؛ وكلها لا تخرج عما نعلم من وصف الغواني لدى الشعراء في كل عصر ومصر .

ولست اريد تجاوز هذه « الغانية » قبل ان اشير الى ان شعر الشاعر – في مختلف القصائد والمقطوعات – لا يعدو ما نسميه « النسيب » ؛ من حيث انه يقول دون ان نستشعر عاطفة الشاعر الخاصة تجاه مخلوقة بعينها او حبيبة وقف عليها حيـــاته وشعره ، كأن الشاعر الكبير لم يعرف الحب ولم يستوحه في منظومه !

واما الأنثى الثانية التي ورد ذكرها في شعر الشاعر فهي «المرأة» التي هي موضوع الخلاف السرمدي من حيث مكانتها في المجتمع والمهمات الملقاة على عاتقها في هذه الحياة؛ فهو هنا يتحدث عن «المرأة» مقابل «الرجل».

ورأيه في «المرأة» واضح كل الوضوح، فهي لم تُخلق للعمل، والكدح، ولكسب المال، كما لم تخلق لأن تُباع وتشرى في سوق نخاسة الزواج وانما لها محل واحد عليها ألا تتجاوزه او تطلب اكثر منه او تكلف بغيره وهو «المنزل».

وإذا كان انصار تحرير المرأة لا يرضون عن مثل هذا الرأي من الشاعر فانه قد صرح به في لفظ جريء لا مواربة فيه ولا مداورة، فاستمع اليه يقول[١]:

سجل العار علينا معشرٌ   سجلوا المرأة بين الهمل
فهي إما سلعة خاملة   سلماً او آلةٌ في معمل
تتهاداها المرامي والربى   فهي كالدينار بين الانمل
في سبيل المال او عشاقه   تكدح المرأة كدح الابل

الى ان يقول:

جشموها كل أمرٍ معضلٍ   وهي لم تُخلق لغير المنزل

فهل يمكن لنا ان نطلق على الشاعر تعريف «رجعي» لاعتناقه مثل هـذا الرأي الذي يعيد المرأة الى عرشها الخالد في بيت الزوجية؟

وعلينا ألا ننسى ان شاعرنا يعيش في بلاد الحرية والنور والتحرر والتحرير[٢].

١ – قصيدة «بنت سورية».

٢ – ينطبق هذا على أمريكا يوم صدر ديوان الشاعر الجزء الثاني، قبل سنة ١٩٢٠ م. أما اليوم فقد وأدت – فيما رأت – تلك المبادئ الانسانية بكاملها عندما أقامت دولة الصهاينة في قلب البلاد العربية فكانت أدهى دولة استعمارية مزقت فلسطين الشهيدة شر ممزق وقدمتها لقمة سائغة لشذاذ الآفاق!!!

فهو عندما يدلي بمثل هذا الرأي إنما يُدلي به بعد ان لمس «ذلّ» المرأة في حقل العمل:

في سبيل المال او عشاقه   تكدح المرأة كدح الابل

فكان لا بدّ له في التالي من ان يدعو الى ان المرأة لم تخلق إلا للمنزل، ضناً بكرامتها ومنزلتها ان تتدنى الى مرتبة الكدح والعمل المضني الشاق الذي خُلق له الرجل وحده!

* * *

رأيه في السياسة:

رأيه في السياسة متصل اتصالاً وثيقاً بسبب هجرة الشاعر الكبير ... وعلينا ان نسجل، اول ما نسجل، ان الشاعر لا يعتنق مبدأ سياسياً معيناً يبشر به ويدعو اليه، وإنمـا تمرّ في شعره بعض المناسبات فيستغلها ليدلي برأيه في «السياسة» من حيث هي نمط من انماط الاساليب العصرية للوصول الى الحكم.

وقد يدخل في هذا المبحث «قومية الشاعر»، وغضبته المضرية على بعض الساسة من وجهة نظر المواطن الذي سئم حكاماً معينين لانهم ظلموه او ظلموا أمته، كما في قصيدته «وداع وشكوى».

وقد نجده يغضب غضبة شديدة على تركيا والاتراك في اكثر قصائد الجزء الثاني من ديوانه، لان تركيا الغشوم جثمت على صدر الأمة العربية اربعة قرون او تزيد فأذاقتها ألوان الاهانة والاذلال والاتعاس والافقار والاشقاء[١] ...

١ – مما دعا بعض الشباب الى الفرار من سورية ولبنان الى فرنسا لينضموا فيما بعد الى الجيش الفرنسي الزاحف الى الشرق لاحتلال البلدين؛ ظناً منهم انهم يحررونها من الطغيان التركي. ارجع الى كتاب «النبوغ اللبناني» قسم الحديث عن الاعلام.

وقد تجده الى جانب ذلك يغرق في مدح « امريكا » التي خلصت بلاده من نير الاتراك الجائرين ... إلا ان هذا جميعاً ليس إلا من قبيل « الانفعال » ، وما هو إلا رأي شاعر في وضع سياسي او حالة قائمة ، لا يعالج جوهرها وإنما يلامسها ملامسة قريبة تتصل بالمناسبة التي قيلت فيها القصيدة ، فهو من هذا الجانب « شاعر مناسبات » ، فلا مجال للاشارة الى ما يمكن ان يكون في شعره من تناقض بالنسبة لموضوع واحد ، ذلك ان الشاعر لا يعالج « جوهر » السياسة والاحداث السياسية وانما يتحدث في بعض المناسبات عن هذا الذي يعتلج في نفسه إبان سخطه ، وإبان رضاه !

ولست تجد في جميع منتخبات هذا الكتاب إلا هذا اللون من الشعر السياسي الذي يذم الاتراك لنذالتهم وسفكهم دماء العرب وخنقهم الحرية ووأدهم الشباب العربي المثقف حياً ... مما جعل الشاعر يصب جام غضبه على « الاسلام » الذي كانت تمثله الخلافة العثمانية ... فاذا مرّ ذكر « الهلال » وجدت الشاعر يحاول جاهداً ان ينتقص من قدره ويحط من قيمته ، لانه رمز لتلك الخلافة وما كان في العثمانيين من فساد أصيل ...

وإذا انتصر الغرب على الاتراك في موقعة من المواقع او معركة من المعارك وجدت الشاعر أبا ماضي يهتبل المناسبة ليجعل الصلبان تعلو على الأهلة ، تشفياً وشماتة بالاتراك !!

فاستمع اليه في قصيدة « بلادي » يخاطب الاتراك مشيراً الى القرون الطويلة التي جثموا فيها على صدر سورية :

رجال الترك ، ما نبغي انتقاضاً   لعمركمُ ، ولا نبغي انتقاما
ولكنا نطالبكم بحقّ   ونكره من يريد لنا اهتضاما
حملنا نير ظلمكمُ قروناً   فأبلاها وأبلانا وداما

وإذ ذكر ما خلّفه الاتراك من مساوىء ، قال يخاطبهم :

رعيتم ارضنا فتركتموها   إذا وقع الجراد رعى الرغاما
فبات الذئب يشكوكم عواءً   وبات الظبي يشكوكم بغاما

ولا يقتصر الشاعر على هذا اللون من التأنيب العنيف ووصم التركي بهذه الصفات الجارحة حقاً وانما يعمد الى التعميم ، فيرى ان التركي جبان رعديد ، وعلاوة على هذا الفساد والدمار الذي ينشره في كل ارض يحلّ بها ، تراه يمشي الى حتفه بظلفه ، ويقود « الهلال » الى المحاق فالفناء ... ويبدو ان الشاعر يريد بعض الخير لهذا الهلال او يتوسم له مستقبلاً أفيح وآتياً أنجح ...

جررتم بـ « الهلال » الى محاق   ولولا جهلكم بلغتم التماما

والتركي الى جانب جهله لئيم ، فكلما ازددنا ليناً زاد عراماً ، وليس من طباعه حفظ الجار ولا في خلقه مراعاة الذمام ... اضف الى ذلك انه مولع باثارة الفتن والاحقاد حتى يفتك الناس بعضهم ببعض ...

ولو وقف الامر بثورة الشاعر عند هذا الحد لقلنا تلك غضبة الكريم لقومه الذين أذلهم الاتراك أيما إذلال ، ولكنه شك في إيمان الاتراك ومسهم في عقيدتهم مساً غير رفيق :

خفِ التركي يحلف بالمثاني   وخفه كلما صلى وصاما

ثم أثارها الشاعر نزعة طائفية دينية عندما قال :

وقالوا نحن للاسلام سورٌ   وان بنا الخلافة والإماما
فهل في دين أحمد ان يجوروا   وهل في دين أحمد ان نضاما ؟

ثم يضيف الى ذلك توزيع مقاعد الحكم ...

الى كم يحصرون الحكم فيهم	وكم ذا يبتغون بنا احتكاما
ألسنا نحن اكثرهم رجالاً	إذا عُدّوا وارفعهم مقاما

وبعدها يعلن الثورة ليقول :

سنوقدها تعير الشمس ناراً	ويُعيي أمرها الجيش اللهاما
وعلم المرء أنّ الموت آتٍ	يهوّن عنده الموت الزؤاما!..

ولا تكاد تمرّ مناسبة من المناسبات حتى يحمل حملته الشعواء على الاتراك الذين هدروا القيم وعطلوا المفاهيم ووأدوا الاحرار وأداً مشيناً :

ما كفتنا مظالم الترك حتى	زحفوا كالجراد او كالوباء
ضيم احرارنا وريع حمانا	وسكتنا والصمت للجبناء

ونراه في قصيدة «معركة بورغاس» يشنها حرباً صليبية أخرى، إذ يرى ان المعركة لم تكن بين قوم وقوم، وإنما كانت بين الاسلام والنصارى ... وانحسرت المعركة عن :

وقد انجلت فاذا الهلال منكس	علم طوته راية الصلبان

ويجد الفرصة موآتية مرة اخرى فيصب جام غضبه على الاتراك، او على المسلمين، كأنه لا يفهم الاسلام إلا من خلال الاتراك، او كأنه نسي ان غضبة المسلمين على الاتراك تفوق غضبة النصارى عليهم، او كأنه نسي ان الاسلام شيء والمسلمين شيء آخر ... ويجدر بنا في هذا المعرض ان نستطرد، بعض الاستطراد، لنذكر كلمة في مثل هذا المجال وجهها الدكتور طه حسين الى الاديب الفرنسي الكبير أندريه جيد، فأمل قوله : «... لم تخطىء انت (والخطاب لاندريه جيد) وإنما دُفعت الى الخطأ. لقد خالطت كثيراً

من المسلمين، ولكنك لم تخالط الاسلام : فليس على الاسلام بأس مما ألقى في روعك خلطاؤك المسلمون»(١) .

وتمثيل ذلك ما وقع لشاعرنا الكبير ابي ماضي، فانه ما كاد يرى مساوىء الاتراك حتى ظن السوء في الاسلام لا في الاتراك ...

اما جبن الاتراك فان الشاعر يقدم لك صورة رائعة لهؤلاء الجبناء (على حدّ رأيه) :

نفروا، لكالحمر التي روّعتها	بابن الشرى المتجهم الغضبانِ
وقلوبهم قد امرعت ضرباتها	وتظنها وقفت عن الخفقانِ
متلفتين الى الوراء بأعين	تتخيل الاعداء في الاجفانِ
يتلمسون من المنية مهرباً	هيهات!.. ان الموت كلّ مكانِ
إن يأمنوا وقع الأسنة والظبى	فالذعر طاعنهم بشرّ سنانِ !

. . . .

يقابل هذا، رأيه في «اميركا»، فهو نقيض في رأيه في أولئك الاتراك اصحاب الهلال، أليس الامريكيون اصحاب «الصلبان» ؟ إذن لا عليه اذا أزجى المديح واطنب فيه ايما اطناب في اكثر من قصيدة من المنتخبات، ويبلغ اعجابه بأميركا حداً ينسيه قوميته وعصبيته ووطنه، ويرى الراية الاميركية هي الراية الوحيدة الجديرة بالخلود(٢) :

---

١ – من مقدمة «الباب الضيق» لأندريه جيد، نقله الى العربية الاستاذ نزيه الحكيم، وقدم له أندريه جيد وطه حسين، طبعة دار الكاتب المصري، ١٩٤٦ .

٢ – من موشح «١٩١٤» .

... ...

فلتدم «اميركا» ما النطها — ما لهذا الفتح في التاريخ ثان

ولتعش رايتها ذات النجوم — اجمل الرايات أولى بالخلود

• •

ومن جملة ما تقدم يتضح لنا ان الشاعر الكبير لا يعالج مبدأ سياسياً معيناً ولا يميل مع مذهب من المذاهب الاجتماعية السائدة، وإنما عالج موضوعاً من موضوعات «المناسبة» وحدها ...

اما رأيه في السياسة، من حيث هي «جوهر» ومن حيث هي «مبدأ» فاننا نجده يحمل عليها بشدة وعنف لانها كثيرة الوجود، كالحرباء متلونة.

ولا يفوتني ان اشير الى ان الشاعر قد انصرف عن غرض «شعر المناسبات» - إلا قليلاً - في الجداول والخمائل[1]، بمعنى انه اصدر «تذكار الماضي» ثم «الجزء الثاني من ديوان إيليا أبي ماضي» ثم انصرف عن هذا اللون انصرافاً كلياً، كأنما أصبح يرى نفسه ارفع من ان يحقد على أمة او يماري أمة! وإذا كنا نجد له قصيدة «فلسطين»[2] فهي من قبيل ملحمة قومية لا تتصل بالمسلمين والنصارى واليهود وانما تتصل بالعروبة وبالصهيونية !!.

ونجد أنفسنا مباشرةً أمام رأيه في «السياسة»، والحديث فيها وموقفه منها...

. . . .

واهجر احاديث السياسة والألى — يتعلقون بحبل كلّ سياسي[3]

---

١ - تجد في «الجداول» بعضاً لا يكاد يذكر، ولكنك، مقابل ذلك، تجد كثيراً من شعر المناسبات. في آخر دواوينه «الخمائل».

٢ - من شعر الخمائل.

٣ - «الجداول» ص ١١٥.

وشاعرنا الكبير نبذ ثمارها بعد ان ذاقها؛ ولسنا ندري مؤدّى لفظة «مذ ذقتها» في هذا البيت:

إني نبذت ثمارها مذ ذقتها — ووجدت طعم العذر في أضراسي

لأننا لا نجد في سيرة حياته ما يشير الى أي اتجاه سياسي معين، ولكنه ههنا يومىء الى ذلك إيماءة عابرة كأنما يريد ان يذكر شيئاً عن «ماضيه السياسي» ولكنه الى جانب ذلك يريد ان يبرىء ساحته من تلك «الخطيئة» التي ارتكبها؛ وها هو ذا يغسل يديه منها، فيغسل راحتيه بذلك من جميع الاوضار والارجاس ...

وغسلت منها راحتي فغسلتها — من سائر الأوضار والادناس

هذا من حيث موقفُه من السياسة، اما نظرته اليها فهي فضلاً عن كونها مجمع الاوضار والادناس، يراها شتى الوجوه، متلوّنة، تلبس لكل حالة لبوسها الذي يلائمها وتحمل بالتالي معتنقها اشدّ ما يكون خبثاً وتلوّناً.

لا تخدعنكم السياسة، إنها — شتى الوجوه كثيرة الألوان

اما معتنقوها فهم برأي الشاعر احد اثنين: غرٌ ساذج او مشعوذ دسّاس!.. وأكرمْ بها من رجلين !!. والسياسي، بعد هذا، متآمرٌ أبداً على موطنه وعلى قومه فهو إما مجرم دنيء او لص سافل !..

وأية صفات يمكن ان يتصورها الانسان للمخلوق المنحط من جميع جوانب الانحطاط الخلقي اكثر من ان يكون سياسياً على الشاكلة التي يريدها، او التي صوّره بها، أبو ماضي عندما قال:

وتركتها لاثنين: غرٍّ ساذجٍ — ومشعوذٍ متذبذبٍ دسّاس[1]

---

١ - الضمير في لفظة «تركتها» يعود على السياسة.

يرضى لموطنه يصير مُواطناً   وتصير أمته الى أجناسِ
ويبيعها بدراهم معدودةٍ   ولو انها جاءت من الخناس[1]

على اننا إذا احببنا ان نستقرىء رأي الشاعر الآن في السياسة وجدناه وقد تركها حقاً وصدقاً ، ونفض منها اليدين نفضاً ... اما لمن تركها ؟ فلسنا ندري إن كانت تصدق وجهة نظره من ان السياسيين احد اثنين: غِرٌ ساذج او مشعوذ دسّاس ... ؛ لاننا نرى الساسة اليوم وقد ملؤوا الدنيا طولاً وعرضاً كما كان الادباء ، في عصور الأدب العربي ، يملؤون دنياها أدباً وشعراً ...

رأيه في الحياة :

مظاهر الحياة متشعبة متشابكة لا تكاد تقوى على فصل بعضها من بعض لتحديد رأي الشاعر في كل مظهر من مظاهرها ؛ فالحيـــاة من حيث هي خير وبركة او شر وسوء ، والحيـــاة من حيث هي هدوء وطمأنينة او اضطراب وخوف ، والحياة من حيث ناسها ومعاملاتهم واحلامهم وطباعهم التي طُبعوا عليها ، كل هذه تشتبك عند الشاعر اشتباك الحياة بظاهرها ؛ ولسنا نجد له رأياً مستقلاً في موضوع ما منها يلامسه ويلحُّ عليه ، ولكننا الى جانب ذلــك نجد هذه اللمحات التي يومض فيها رأيه كلما ساقته مناسبة من المناسبات للاعراب عن هذا الرأي ... فهو اذا وصف معركة من المعارك ، او عاش في اطار من سني الحرب ، كالحرب العالمية الأولى ، تراه يعالج موضوع السلم والحرب ، ويدلي برأيه في اخلاص وعمق . فان كانت المعركة ضد الأتراك فرحباً بالحرب لا تُبقي منهم ولا تذر ... وان كانت بين الانكليز والألمان فهو ذاك الوصاف الذي يستشرف على القوم من علٍ ويصف ما يقع تحت حواسه من مشاهد لغرض الوصف العميق او التحليل الدقيق ...

١ - الجداول ص ١١٥ .

على ان رأيه في السلم والحرب كرأي « الانسان » الحريص على هذه الانسانية من ان يُفني بعضها بعضاً ، فناءً مادياً وفناءً معنوياً :

يا صاحبي ليس الوغى من مذهبي   هاتيك وسوسة من الشيطانِ
فالناس اخوان وليس من النهى   ان يفتك الاخوان بالاخوانِ
الحرب مجلبة الشقاوة للورى   والحرب يعشقها بنو الإنسانِ

ومن هنا يتلامح لك رأيه في هذا « الانسان » المطبوع على الشر ، فهل يعنى هذا ان الانسان الشرير شرير في كل مظهر من مظاهر الحياة ؟

ان الشاعر ليقف موقفاً واحداً من هذا الانسان ، وانه ليبدي رأيه عن تجربة وطول مرانة وخبرة فيقول :

وانك لو خبرت الناس خُبري   زهدت الخلق زهد أبي ترابِ
هم اما غبيٌ ليس يدري   وذو علم ولوع فالتغابي
لهم صور الملائك والاناسي   واخلاق الابالس والذئابِ

ومن هنا يطل علينا بنظرته الاجتماعية العميقة ، فيتحدث عن هذا التقسيم الاجتماعي وتوزيع الطبقات بين فقير وغني ، ولا حد وسط بينهما ، فنجده في اكثر شعره اجتماعياً ناضجاً ، يدعو الى الرأفة بالفقير ومساعدته ومساندته حتى لا يكون هناك فقر ولا فقراء .

فقصيدته « الفقير » يعالج بها موضوعاً اجتماعياً عميق الجذور، فيشرع في وصف هذا الانسان المنكود ، الذي أرادت له الحيـــاة ان يكون فقيراً ، فالهم ابداً خدينه ولصيقه ، والتعاسة ابداً قرينه وصديقه ...

همٌّ ألمَّ به مع الظلماء   فنبا بمقلته عن الاغفاء

ونجـــده في مناجاته الليل يكاد يبلغ ذروة الابداع في تصوير بأس هذا الانسان الشقي :

يا ليل قد اغريت جسمي بالضنى   حتى ليؤلم فقـــده اعضائي

يا ليل ما لك لا ترق لحالتي   أتراك والأيـــام من اعدائي ؟

يا ليل حسبي ما لقيت من الشقا   رحماك لست بصخرة صمـــاء

اما موقف الشاعر من هؤلاء الفقراء فالمٌ لما بهم :

إني لأحزن ان تكون نفوسهم   غرض الخطوب وعرضة الارزاء

ثم الى جانب هذا الألم نجد دعوة لانقاذ الفقير مما به وإشعاراً للغني بأنـه مصنوع من طينة ذلك الفقير :

لهفي، ولو أجدى التعيس تلهفي   لسفكت دمعي عنده ودمائي

قل للغني المستعز بمـــاله   مهلاً، لقد اسرفت في الخيلاء

جبل الفقير، اخوك، من طين ومن   ماء، ومن طين جبلت وماء !

ونجده في قصيدة «كلوا واشربوا» ينزع منزعاً آخر في التعبير عن بؤس الفقير، اذ يعمد الى هذه السخرية البارعة، يجعلها سبيله للابانة عن وجهة نظره... فهو يلوم الفقراء على فقرهم ويهنيء الاغنياء الذين يمتصون دماء الفقراء ... ثم يسرف في لوم الفقير وتأنيبه لانه يشكو ويتذمر ... ثم يصرخ صرخته المرعبة ليجعل الاغنياء في جهنم خالدين ...

فانظر معي في هذا المطلع البارع :

كلوا واشربوا ايها الاغنياء   وان ملأ السكك الجائعون...

إلى ان يتجه بكلامه الى الفقراء يلومهم من حيث يريد تعزيتهم عما آل اليه حالهم :

ويا فقراء لماذا التشكي   ألا تستحون، ألا تخجلون

دعوا الاغنيــاء ولذاتهم   فهم مثل لذاتهم زائلون

سيمسون في سقر خالدين   وتمسون في جنة تنعمون!!!

. . .

نفسيته :

ذهبنا في مطلع هذه الدراسة الى ذكر اسباب هجرة الشاعر عن بلده، لبنان، وأبنا عن نفسيته قبيل هجرته الاولى، وخلال اقامته القليلة في مصر، ثم رحلنا مع الشاعر الى امريكا لنرى معه لوناً من حنينه الى وطنه الاول، لبنان، ثم الى وطنه الثاني مصر؛ على انه عندما ذكر لبنانه، لم يذكره بالخير اول الامر، ذلك انه خرج عنه شريداً طريداً، يفتش عن لقمته مثلما يفتش عن حريته، لذا فقد استمعنا الى غضبة من غضباته والى صوت نقمة من نقماته؛ إذ صور وطنه موئلاً لكل جاهل وفاسق ومشعوذ ولئيم ...

إلا ان هذه الثورة – فيما يبدو – لم تكن الا ثورة مفتعلة. اذ ما تكاد تتقادم بـه الأيام وهو في مغتربه حتى تهيجه الذكريات الى وطنه، فيحن اليه حنيناً، صامتاً حيناً، ثائراً احياناً، واصبح يرى حياته في امريكا جحيماً لا يكاد يطاق :

نأى عن أرض مصر حذار ضيم   ففر من العذاب الى العذاب

حتى اذا رأى باخرة متجهة الى بلده حملها سلامه، شوقاً وحنيناً، ونداء حاراً فيه عاطفة وفيه صدق وفيه وفاء :

بيروت أ.. يا بنت البحار الجاريه   فـــاذا سئلت من البقايا الباقيه

قولي لهم : ان الحياة الهانيه   لم تنسنا سكان تلك الناحيه

اما الدليل فحسبنا إياك

وتعتاده عاديات الذكرى فيشعر بالغربة الروحية العنيفة ، ويتأمل النجم فيرى فيه غريباً مثله ، قلقاً لقلقه :

ما لهذا النجم مثلي في الدجى   طائر النوم ، شديد الوجل

أتراه يتقي طـــارقة   أم به اني غريب المنزل ؟..

ومن خلال دموعه وآلامه يتلفت الى الشرق ، ويجهش جهجة الحنين ، ويهتز اهتزاز المشوق ، ويحب من يحب وطنه :

اذا خطرت من جانب الشرق نفحة   طربت فألقى منكباي ردائيــا

أحن الى تلك المغـــاني وأهلها   واشتاق من يشتاق تلك المغانيــا

إذا مثلوا والنوم يــأخذ مقلتي   بأهدابها أمسيت وسنان صاحيا

وكيف اغتباط المرء لا الأهل حوله   ولا هو من يستعذب الصفو نائيا ؟

وإنك لتجد في هذه القصيدة الرائعة صوراً من ألوان التشوق والحنين ، ولوناً من الشعور العميق بالغربة ، وهذا « الفضول » الصادق من المهاجر لكل مـــا يتصل بوطنه من قريب او بعيد ... فمزاوم في هذه الرسائل التي تردهم بين حين وحين . وفي هذه البرقيات التي يتناقلها الاثير لينقل اليهم اخبـــار اهليهم وذويهم ... حتى إذا دقت الحرب في العالم طبلها وزمرها ، وأعلنت إلى المــلأ الادنى والاقصى أمرها ، فاضطرب الأمن وانتحر الرجاء ، وغاض الامل ، إذا العالم القريب شتيت وإذا العالم البعيد كانه وهم من الاوهام ؛ فما عدت تسمع من صوت الانسان الا عواءه ، ولا من غناء الاطيار إلا نعيبه ، ضاع صوت « الخلوق » في ضجيج المعمل وقصف المدفع وولولة النساء الارامل وعويل الاطفال اليتامى وجئير البطن الجائع والحياء الضائع والعرض المبذول ؛ فانفصل الصقع عن الصقع وانقطع العالم عن العالم فانقطعت بذاك أخبار المهاجرين عن أهليهم ، وانقطعت أخبار أهليهم عنهم ، فاستعر الحنين ، واضطرم الشوق وقلق الخاطر بين الشك واليقين فتفجرت ينابيع العواطف فسمعنا صوت الشاعر يهتف بأسى عميق :

وكان لنا في الكتب عون على الأسى   وفي البرق ما يدني المدى المتراميا

إذا قيل : هذا خبر ، ملت نحوه   بسمعي ، ولو كان المحدث واشيا

وتعلم نفسي انه غير عـــالم   ولكنني أستدفع اليأس راجيا

... وتحتدم الشكوك لانقطاع اخبار الاهل ، فيغرق الشاعر في ليل من الشك والظنون ، ويقطع أيامه طائر النفس ، موزّع الخاطر ، ما يملك اليقين فيهدأ ولا يقنع بالشك فيستريح :

سرى الشك حتى ما نصدق راوياً   وطال فبتنا مـــا نكذب راويا

أقضي نهاري طائر النفس حائراً   وأقطع ليلي كاسف البال ساهيا

فـــلا هم بأموات فنبكي عليهم   ولا هم بأحياء فنرجو التلاقيا

وللشاعر ، بعد هذا ، هذه الآهة العميقة يستريح اليها كلما ارمضه الحنين :

قلبه ، إذا ذكر الديار وأهله   آه الغريب وانه الثكلان

وتسأله جارته ... أما لك أهل وإخوان ؟.. فيجيبها الشاعر بحزن سابغ :

.. ..   يا جارتي !.. كان لي أهل وإخوان

فبلت الحرب ، ما بيني وبينهم   كما تقطع أمراس وخيطان

فاليوم كل الذي في مهجتي ألم   وكل مـــا حولهم بؤس واحزان

وكان لي أمل إذ كان لي وطن   ... ...

فجردته اللــيالي من محاسنه   كما يعرى من الاشجار أغصان

فلا المغاني التي اشتاق رؤيتها   تلك المغاني ، ولا السكان سكان !

فهو مهاجر ، ولم يترك وطنه الحبيب ، ولم يعاني ، بعد هذا ، ما يعاني من ألم الغربة وشقائها ... وكيف هجر ذلك الوطن ليصير الى بلاد الناس[1] :

---

١ - الجداول ص ١١٦ - الخائل ص ٤٣ .

نغشى بلاد الناس في طلب العلى   وبلادنا متروكة للناس
ونكاد نفترش الثرى وبأرضنا   للأجنبي موائد وكراسي
ونلوم هاجرها على نسيانها   والـلائم الناسين أول ناس
وطني أحب الي من كل الدنى   وأعز ناس في البرية ناسي !!

وهو يكرم وطنه لان له الفضل الاول في خلقه وتكوينه ، وهنا تطل علينا وطنيته من حيث اعتباره وطنه علة وجوده ، كما الأب علة وجود الابن :

بني وطني ! من أنا في الوجود   وما هو شأني وما موضعي ؟
ولولاكم لم أكن بالخطيب   ولا الشاعر الساحر المبدع !!

على ان الشاعر يحاول ان يرى وطنه الجديد عزاء عن وطنه القديم . وتتملكه هذه الفكرة مرة بعد مرة ، فينثرها في شعره بين الحين والحين وهو على يقين من ان لوطنه الأول المنزلة الأولى في نفسه دائماً وأبداً ...

فانت إذا سمعته يخاطب نيويورك :

نيويورك ! يا بنت البخار بنا اقصدي   فلعلنا بالغرب ننسى المشرقا

فكن على يقين من ان الشاعر إنما يحاول ان يعزي نفسه ويسرّي عنها ... وقد تجده مرة أخرى يلتمس مثل هذا العزاء :

ذريني اضطرب في الارض إني   رأيت السيف يصدأ في القراب
وما انا بالغريب الدار وحدي   فكلّ الناس عندي في اغتراب

إلا انك واثق من ان الشاعر لا يصدر عن صدق فيما يقول في هذا المجال لانك تجد له في التشوّق الى بلده ولبنانه، بربوعه، ونيسانه، وصيفه، وقمره وناسه وما اتصل بذلك ما يجعلك تثق بصدق عاطفته حيث لا زيف ولا زيغ !

يا ليت شعري وهذي الحرب قائمةٌ   هل تنجلي ولنا في الشام اخوان
وهل تعود إلى لبنان بهجته   وهل أعود، وفي لبنان نيسان ؟
فأسمع الطير تشدو في خمائله   وأبصر الحقل فيه الشيح والبان ؟..

على ان الشاعر قد بلغ الغاية في قصيدته «الشاعر في السماء»[1] عندما سأله ربه عما يشاء فهتف من اعماقه :

فقلتُ يا رب فصلَ صيفٍ   في أرض لبنان او شتاء
تحنّ نفسي الى السواقي   الى الاقاحي ، الى الشذاء
الى الروابي تعرى وتكسى   الى العصافير والغناء
الى العناقيد والدوالي   والماء والنور والهواء

حتى اذا عجب الله من مثل هذا الشاعر الذي لم يشأ إلا ان يكون في لبنان يعيش صيفه وشتاءه وطيره وغناءه، ظنّ به الجنون... اذا بالشاعر العاشق يهتف:

فانّ لبنان ليس طوداً   ولا بلاداً ، لكن سماء !!!

. . .

على ان للشاعر رأياً خاصاً بنفسه من حيث هو شاعر ومن حيث هو صاحب رسالة يفخر ويترفع ؛ فاذا خوطب فعلى المخاطب ان يعلم اي الناس يخاطب ...

يا شاعر الدنيا وفيك حصافةٌ ...   .
إن يغضبوا مما اقول، فطالما   كره الاديبَ جماعةُ الغوغاء
او ينكروا أدبي فلا تتعجبوا   فالرُمد يؤلمهم طلوعُ ذُكاء

١ – الخمائل ص ٦٧ .

أما من حيث هو صاحب رسالة فواضح من قوله :

او كلما نصر الحقيقة فاضل   قامت عليه قيامة السفهاءِ ؟

ومن اراد ان يعلم مَن هو صاحب الرسالة، فالشاعر يدلك على نفسه مفتخراً – على ما جرى عليه من تقدمه من الشعراء – ، او لعله نسجاً على منوال «أمير الشعراء» :

كأنيَ لستُ أميرَ الكلام   ولا صاحب المنطق الأنفسِ

ويرى الشاعر بعد هذا انه ارفع من ان يتدنى الى مرتبة معاقرة الخمرة او يتهاوى الى مراتب ذل الهوى، ففيه من الخلق ما يربأ به عن ان ينحدر الى هذه المهاوي :

ابت نفسي النزول الى الدنايا   وقلبي ان يميل الى التصابي
فما دانيت أقداح الحميا   ولم أهم بغانيـــة كعابِ

وهذا لا يتعارض مع ما سبق ان ذكرناه له من بعض النسيب، لانه جرى في ذلك مجرى من تقدمه من الشعراء . ومن هنا يبدو لنا ان جذوة الحب الخالدة لم تلامس قلب الشاعر الكبير، لانها لو فعلت ذلك لوجدنا له غير هذا اللون من القول الذي يعتبر التصابي لوناً من ألوان النزول الى الدنايا !

ثم انه زاهد في لذاذات الحياة، ما يجد في نفسه نزوعاً الى الطمع ولا ميولاً الى الهوى، في حين انه يؤمن بأن الظفر رهين الطامع الطامح[1]. والشاعر حين يعتنق هذا المذهب يعلم علم اليقين انه ان فعل ذلك فقد عرى الرياض من شذاها وبهاها، وحرم الطير من جمالها وحلاها ؛ فاستمع اليه في قصيدته العيلية يقول :

١ – هل ننسى قول أمير الشعراء :

شباب قنـــع لا خير فيهم   وبورك في الشباب الطامحينا ؟

اني صرفت عن الطاعة والهوى   قلبي ، ولا ظفرٌ لمن يطمع
فكأنني البستانِ جرّد نفسه   من زهره المتنوع المتضوّع
وكأنني العصفور عرّى جسمه   من ريشه المتلاصق المتلمّع[1]

وقد تنفر بعض النفور من لفظة «المتلاصق المتلمع»، ولكنك في مجال يسمح لك بالتجاوز عن اللفظ للوصول الى المعنى الذي يريد اليه الشاعر من الاعراب عن انصرافه عن الطاعة وعن الهوى ؛ فهو إذن ميال الى القناعة رغم يقينه بأن الظفر في الطموح ، وهو راغب عن الهوى واللذاذات ، في حين نعرف ان الشاعر يرى – فيما سبق له من شعره – ان الحياة في اللذة ، واللذة في الجهل فهو يدعو قلبه الى ممارسة هذا الجهل في مثل قوله :

ايها القلب الذي في أضلعي   انما اللذة جهلاً فاجهل

اليأس :

تبتدىء مظاهر اليأس لدى الشاعر في شكل يأس من أمته ووطنه عندما نزح عن دياره واتجه الى مصر اول الامر ؛ وقد أبان عن هذا اليأس بقصيدة من جيد شعره ، وهي التي مطلعها :

أزف الرحيل وحان ان نتفرقا   فإلى اللقا ، يا صاحبيّ ، إلى اللقا

فهو في هذه القصيدة يائس من وطنه :

وطن أردناه على حب العلى   فأبى سوى ان يستكين الى الشقا

١ – الجداول ص ٧٧ .

وطن يضيق الحر ذرعاً عنده وتراه بالاحرار ذرعاً أضيقا
مشت الجهالة فيه تسحب ذيلها تيها ، وراح العلم يمشي مطرقا

ويائس من بني وطنه :

شعب كما شاء التخاذل والهوى متفرق ويكاد ان يتمزقا
لا يرتضي دين الإله موفقاً بين القلوب ويرتضيه مفرقا
لم يعتقد بالعلم وهو حقائق لكنه اعتقد التمائم والرقى

وهو يائس من حكومته :

وحكومة ما إن تزحزح احمقا عن رأسها حتى تولي احمقا
راحت تناصبنا العداء كأنما جئنـــا فرياً او أتينا موبقا
وأبت سوى إرهاقنا ، فكأنما كل العدالة عندها ان نرهقا

وبعد هذا هو يأس من البلاد العربية جميعاً :

بغداد في خطر ومصر رهينة وغداً تنال يد المطامع جلقا
ضعفت قواتها ولما ترعوي (؟) عن غيها حتى تزول وتمحقا
قبل اعشقوها قلت : لم يبق لنا معها قلوب كي تحب ونعشقا

ثم يلتفت وقد بلغ اليأس منه مبلغه ليقول :

كلما فكرت في حاضرنا عاقني اليأس عن المستقبل[1]
قد مشى الغرب على هام السهى ومشينا في الحضيض الاسفل

١ - الجداول ص ٩٣ .

ويختم قصيدته « القافية » بأبيات يأخذ عليه اليأس فيها كل مخرج فيبقى رهين محبسه فيقنع بحاضره يأساً وتخاذلاً :

نفسي اخلدي ودعي الحنين فانما جهل بُعيد اليوم ان تتشوقا

. . .

على ان الشاعر قد جرى في هذه الحلبة من اليأس والاستسلام في مستهل فترة اغترابه ، نجده مرة اخرى في « الجداول » تخاطه هذه الفكرة ، فينقلب من يائس مهموم الى انسان استوى عنده الخير والشر والطموح والعقود، فلسمع منه في قصيد « بردي يا سحب من ظمأي »[1] لوناً من ألوان اليأس مكسواً بثوب من أثواب الحكمة .

والقصيدة ، برمتها ، تُعرب عن وجهات نظره كشاعر يعنى باللامبالاة ، وبالقنوع ، ويتجاهل الغد وما سيأتي به ، وباليأس ... وتقع على عينيه غشاوة اليأس القاتل فلا يرضى ان يصدق هذه الاوهام التي تناثر بين يديه نثراً ، ويعود مطالباً بالتحقيق من صدق الاشياء والأمور عن طريق الاحساس ... وفي هذه القصيدة الرائعة يأس ، ولكنه يأس محبب ، مقبول ، يقع من النفس موقعاً رضياً، طيباً، فتتقبله تقبلاً جيلاً ، لا لتستسلم بعدها لليأس والهم وانما لتجد في كل شيء زوالاً !.. فيأسه بنّاء، لا هدام !..

والشاعر قانع عن يأس عندما يقول :

رضيت نفسي بقسمتها فليراود غيري الشهبا

حتى إذ أومأ اليه إنسان من طرف آخر مشيراً الى ما سيأتي به الغد ، حاضاً إياه على السعي له والاحتفاء به قال :

١ - الجداول ص ٩٣ .

ما غد؟ يا من يصوره لي شيئاً رائعاً عجيبا
ما له عين ولا أثر هو كالأمس الذي ذهبا (١)

وهنا نحس ببعض الثورة التي تجتاح نفس الشاعر وهو يصور هـذا القول، وزاه، من طرف خفي قد أشار مرة بعد مرة، الى معتقده في الحشر واليوم الآخر، مما سيأتي بحثه في موضعه من هذه الدراسة ...

ولكن هذا اليأس من أمسه ويومه وغده لا يدعوه الى الفكرة «العدمية» التخريبية، وإنما يدعوه – لسمو نفسه ونفسيته – الى البناء، لا من اجل المستقبل وإنما من اجل اليوم الذي يعيش فيه وله !..

وقد يتراءى لانسان ما ان يشير الى ان الحشر واليوم الآخر امر ان لا خلاف فيهما، فهما صدق وحق في جميع الشرائع السماوية... ولكن الشاعر يسارع ليدحض هذا الرأي، مبيناً عن فكرته بشيء من الغموض :

إن صدقاً لا أحسُّ به هو شيء يشبه الكذبا (٢)

فهو من هذا الجانب يعتمد على «الحس» كواسطة للمعرفة واليقين. إلا ان هذا اليأس، كما قلنا، لم يكن ليدعوه الى الانطوائية او العدمية (٣) وإنما قاده إلى لون من «اللامبالاة» :

ما على من لا يطيق يرى نوّر الوادي او اكتأبا
ما يفيد الطير في قفص ضاق هذا الجو او رحبا؟

١ – الجداول ص ٩٣ .
٢ – الجداول ص ٩٣ .
٣ – (Nihilist) .

فكأنه بذلك يشير إلى انه سجين الحياة؛ وقد استوى عنده، بالتالي، سعة الفضاء، ومحدوديته، وضيقه !

وهـذه اللامبالاة لم تصل الى مرتبة الاهمال، وإنما استمد منها الشاعر قوة لتكون لوناً من ألوان التفاؤل :

أنا من قوم اذا ما حزنوا وجدوا في حزنهم طربا
وإذا ما غاية صعبت هوّنوا بالترك ما صعبا (١)

فهو من هذا الجانب يسير مع احد فلاسفة اليونان الذي يرى ان لكل جرة أذنين اثنتين، إن لم تمسك من واحدة تمسك من الاخرى؛ وذاك مثل قول الشاعر : «هوّنوا بالترك ما صعبا» .

ولا جرم ان اليأس مستحكم من نفس الشاعر؛ فهو يهوّن الامور بلا مبالاته ولكنه في اعماقه تتنحنح زمجرة عميقة الجذور، وتتلامح بوادر ثورة تقذف الحمم؛ ويتمكن الشاعر من اعصابه فيطلب الى السحب ان تبرد ظمأه ...

بردّي يا سحب من ظمأي واهطلي من بعد ذا ذهبا
او فكوني، غير راحمة، حمماً حمراء لا سحبا
ولأكن وحدي لها هدفاً ولتكن نفسي لها حطبا (٢)

فما هذا الظمأ الذي حطم اعصاب الشاعر وتركه في لواب ما بعده لواب، يطلب الى السحب ان تروي هذا الظمأ ... ثم يرتدّ الى نفسه فيطلب اليها ان تكون الحمم الحمراء التي تطوح به وحده ويأمر ان تكون نفسه لها حطبا ؟!!!

١ – الجداول ص ٩٤ .
٢ – الجداول ص ٩٣ .

ويعود مرة اخرى هادئاً بعد ثورة ، ويؤمن – خلافاً لما كان يرى – ان لا راحة له إلا في الخمرة وليترك الناس ما للناس بعد هذا الذي عاناه من اليأس المرير :

لم يبق ما يسليك غير الكاس   فاشرب ودع للناس ما للناس (١)

فاذا ما همك أمر من امور الدنيا وسيطر عليك سيطرة كادت تذهب بلبك فان دواء هذا كله ؛ الكاس :

وانس الهموم ، فليس يسعد ذاكر   وامق النجوم فانها جلاسي

واصرع بها عقل النديم ولبه   ما نفس الحامي كعقل الحاسي (٢)

ويبدو بعد هذا كله ان الشاعر حائر في امر يأسه ، فهو تارة راض عنه ، وهو تارة ساخط عليه ؛ وبين رضاه وسخطه تتلامع اقباس من التفاؤل والتشاؤم واللامبالاة والدعوة الى التخلص من الهموم ، ومعاقرة الخمرة ...

فهناك بالتالي صراع عنيف بين الشاعر وأحاسيسه ، وسنرى في المستقبل من الكلام ان نزعة التفاؤل هي التي تغلبت على الشاعر وجعلته رسولاً من رسل الانسانية العميقة التي تحب الحياة كل الحب ، لا طمعاً بالحياة ، ولكن لانها خير مطلق كما قال رامبو : الحياة طيبة ، اني أبارك على الحياة !!..

اما هذا الصراع الهائل بين الشاعر وضميره فقد قاده بالتالي الى تبلد في الاحساس جعله يؤمن انه صخرة صماء عليها ألا تحس وألا تشعر (٣) :

كنت حتى مع ضميري   أمس في حرب عوان

١ – الجداول ص ١١٥ .

٢ – الجداول ص ١١٥ .

٣ – قصيدة « زهرة الاقحوان » ، الجداول ، ص ١١٧ و ١١٨ .

لا أرى في الخمر معنى   ولكم فيها معان

لم يعد قلبي كالبر   ق شديد الخفقان

لم تعد نفسي كالنجـ   ـمة ذات اللمعان

بت لا ابكي لمظلو   م ولا حر مهان

صرت كالصخر سواء   هادم عندي وبان

. . .

وبعد ، هل كان الشاعر الكبير يتحدث عن نفسه حديث من يعرفها حق المعرفة ؟... وما الذي يريده من لفظة « النفس » ؟... يغلب على الظن ان الشاعر كان يصدر عن نفس شاعر يعالج ما تنطوي عليه نفسه من مشاعر دون ان يحدد مفهوماً معيناً لـ « النفس » ؛ إلا انه عندما نظر في نفسه بعد ذلك وجدها كذاك الذي كان يفتش عن الزمن وهو عائش في إطاره دون ان يحاول البحث في كنهه وصفته .

فما هي « النفس » في عرف الشاعر ؟..

يبدو لنا ان شاعرنا الكبير قد اطلع على القصيدتين المصاوين في موضوع النفس ، والاولى للشيخ الرئيس ابن سينا ومطلعها :

هبطت اليك من المحل الأرفع   ورقاء ذات تعزز وتمنع

والثانية لامير الشعراء أحمد شوقي ومطلعها :

ضمي قناعك يا سعاد او ارفعي   هذي المحاسن ما خلقن لبرقع

وبعد ان اطلع عليهما حاول ان يعارضهما معاً ليصل الى النتيجة الرائعة التي يبحث عنها : وهي ان النفس مع الانسان وليست منفصلة عنه وليست مشتبكة مع الروح !

ولا جرم ان قصيدة ابي ماضي في «النفس» تعتبر من روائع الشعر وهي التي مطلعها :

انا لست بالحسناء اول مولع   هي مطمع الدنيا كما هي مطمعي[1]

والشاعر اذ نظر محاولاً التعرف على هذه النفس وجد انه لا يعرف عنها شيئاً اول الامر بعد ان فتش عنها طويلاً في كل مكان :

فتشت جيب الفجر عنها والدجى   ومددت، حتى للكواكب، إصبعي

واخذ يسائل نفسه عن كنهها :

ألمحتها في صورة ؟.. أشهدتها   في حالة ؟.. أرأيتها في موضع؟..

ولكنه مع هذا يستشعر جمالها من خلال نفسه :

إني لذو نفس تهيم ، وانها   لجميلة فوق الجمال الابدع

ثم تراءى له أنه علم عنها شيئاً ، فهي تارة كالصوت :

وتزيد في شوقي اليها انها   كالصوت لم يسفر ولم يتقنع

وهي بعد هذا محجوبة إلا عن المتزهد :

قالوا تورّع ، إنها محجوبة   إلا عن المتزهد المتورع

وزاد شوقه الى معرفتها شيئاً، فرنا اليها في نومه يطلبها :

وهجعت احسب انها بنت الرؤى   فصحوت أسخر بالنيام الهجّع

ثم حسبها زهرة ونجما :

لما حلمت بها حلمت بزهرة   لا تجتنى او نجمة لم تطلع

---

١ – الجداول ص ٢٦ وما بعدها .

فلما صحا من هذا لم يجد إلا ظله ... ثم اخذ يغرق في ليل من الشكوك والتساؤلات ، فلما دنا من معرفتها دنا من مصرعه :

وحسبتني أرنو اليها مسرعاً   فوجدت اني قد دنوت لمصرعي

ثم ظنها – فيما ظنها – انها في غيم الشتاء وفي رعده وفي برقه ، فلما يئس من الوصول الى معرفتها بكى ، فلمحها في أدمعه وادرك اذ ذاك هذه الحقيقة الرائعة :

وعلمت – حين العلم لا يجدي الفتى –   ان التي ضيعتها كانت معي[1]

التفاؤل :

اذا انا لم أجد حقلاً مريعاً   خلقت الحقل في روحي وذهني[2]

فكادت تملأ الازهار كفي   ويعبق بالشذا الفوّاح ردني[3]

على مثل هذه القدرة الجبارة في الخلق والابداع نشأ الشاعر اول نشأته الادبية ، فهو الذي يبدع كونه الخاص ورياضه الغناء ومجاليه الساحرة الفاتنة ليرتع في افيائها وظلالها ومفاتنها مهما قست الحياة وأظلم الواقع وافتُقد الامل!

تجد هذا الشعر في «الخمائل» – وهو آخر دواوين شعره – كما تجده في الجزء الثاني من ديوانه ، كما تجده ايضاً في الجداول ... ومن هنا يتضح لك ان التفاؤل نزعة انسانية عميقة الجذور في نفس الشاعر وان كان يعلوها بين الحين والحين غبار الزمن فيخلع على بهائها وجمالها مسحة من الكآبة والحزن والأسى !

---

١ – الجداول ص ٢٨ .

٢ – الخمائل ص ٢٨ .

٣ – الردن : الكم .

ومن خلال هذه النزعة التفاؤلية العميقة التي سنأتي على ذكرها يتلامح لنا ان الشاعر قادر كل القدرة على ان يعيش الحياة التي يريدها في اطار من التفاؤل ؛ ولو اقتضاه الامر التجرد من احساسه لما كان ذلك الا اهون الامور واسهلها واكثرها يُسراً ...

الحسّ مجلبة الكآبة والأسى قمْ ننطلق من عالم الاحساس
وأرى السعادة لا وصول لعرشها الا بأجنحةٍ من الوسواس

وواضح ان الشاعر لا يريد بلفظة « الوسواس » تلك الشكوك التي تأكل العقل والقلب والفكر ، وانما يريد اجنحة الخيال التي يطير بها الى عالم أفيح حيث لا ألم ولا شقاء !

ومثل هذا الشاعر الكبير الذي يدعو الى الحياة في عالم الرؤى والاحلام بعيداً عن عالم الاجسام والآلام جدير بأن يضفي على حياة الانسان، الغارق في الشرور والآثام والتعاسة والشقاء ، لوناً من الوان البهجة والمرح والهدوء والراحة !

وتتلامح لنا هنا مبادىء نظرية أبيقور في الاخلاق[1] الذي ذهب « الى ان اساس الاخلاق اللذة[2] ، فاللذة وحدها غاية الانسان ، وهي وحدها الخير ؛ والألم وحده هو الشر الذي يفر منه الانسان ويتجنبه ، والفضيلة ليست لها قيمة ذاتية ، انما قيمتها فيما تشمل عليه من اللذة ... » الى ان قال : « ان خير لذة يتطلبها الانسان هدوء البال وطمأنينة النفس » .

١ – ارجع الى كتاب « قصة الفلسفة اليونانية » تصنيف الاستاذين أحمد أمين وزكي نجيب محمود، طبعة القاهرة سنة ١٩٤٩ ص ٣١٦ وما بعدها .

٢ – يخطىء من يذهب الى ان الابيقوريين انما يريدون باللذة المتاع الجنسي الغريزي ، ارجع الى المصدر السابق ص ٣١٧ ، سطر ١٤ وما بعده .

وما دام الانسان شريراً ، والشر أصيل فيه :

تتحوّل الأفلاك عن دورانها والشر في الانسان لا يتحول

علينا ان نتغلب على هذا الشر الاصيل بخير شامل عام نجعله هدفنا وسبيلنا في هذه الحياة ، ولا سبيل الى ذلك إلا بلون من ألوان التفاؤل نخلعه على الحياة بكامل مظاهرها ، فلا نرى في الرياض اشواكاً وانما نرى فيها الأزهار الجميلة .

وأصدق مثال على نزعته الانسانية العميقة التي تنزع الى إبراز ما في الحياة من جمال وروعة وبهاء قصيدته الخالدة « فلسفة الحياة » :

أيهذا الشاكي !.. وما بك داءٌ
كيف تغدو اذا غدوت عليلا ؟...
إنّ شرّ الجناة في الارض نفسٌ تتوقى ، قبل الرحيل ، الرحيلا ..

فالجمال كائن في نفس الانسان ، منبثق عنها ، ومن حُرم هذه النعمة فقد حُرم السعادة الحقيقية التي لا حقيقة سواها :

والذي نفسه بغير جمال لا يرى في الوجود شيئاً جميلا
هو عبءٌ على الحياة ثقيل من يظنّ الحياة عبئاً ثقيلا

وعلى الانسان بالتالي ان يعيش وفق طبيعته وألا يُغرم باصطياد الهموم والتقاطها ؛ ذلك ان الحياة الجميلة التي جعلته يعيش في مراتعها سوف لا ترحمه ان كفر بنعمة جمالها :

كلّ من يجمع الهموم عليه أخذته الحياة أخذاً وبيلا

ثم ... هل انت قادر على ردّ القضاء ؟.. فان كنت واثقاً من ان للحياة مشيئة فعليك ان تعيش وفق مشيئة الحياة وان تصرع الهم وتخلق البهجة ، لأنها

جوهرٌ كامن في نفسك، وما عليك الا ان تزيح الغبار عنه ليخطف الأبصار نورُه !

اما اذا كنت تُصر على يأسك وألمك ومحاربتك لمشيئة الحياة فما عليك الا ان تفعل هذا :

حكم القضاء، فان نقمت على القضا   فاضرب بعنقك مدية الذبّاح !!!..

اما اذا كنت ترى غير هذا، وتؤمن ان الجمال كان في نفسك فأنت بالتالي ترى كلّ شيء جميلا فاتنا جذابا ...

أيهذا الشاكي وما بك داءٌ   كن جميلا تر الوجود جميلا

ولا يعني هذا انه لا يُقرّ بوجود الهمّ والألم، فالذي بلا الألم وخبره يعرف موقع الهمّ من نفسه :

ليس يدري الهمّ غير المبتلي   طال جنح الليل او لم يطل

ولكنه يريد ان تحارب هذا الهمّ وهذا الألم معا كان منشؤهما ومصدرهما؛ وفي مجالات الصداقة يتجاوز عن خطيئات اصدقائه ومساوئهم لينعم بصداقتهم غير مشوبة :

اني، اذا نزل البـلاء بصاحبي   دافعتُ عنه بناجذي وبمخلبي [1]
وأرى مساوئه كأني لا ارى   وأرى محاسنه وإن لم تكتب
وألوم نفسي قبلـه ان أخطأتْ   وإذا أساء اليّ لم أتعتب

ويا أيهذا اليائس، الشقي بنفسه، كيف تدعي العُدم والفقر وملك يمينك هذي السما وتلك الأنجم :

١ – الجداول ص ٥٣ .

كم تشتكي وتقول إنك معدم   والارض ملكك والسما والأنجم

وتتنزّل منزلة قصيدة «فلسفة الحياة» قصيدته «ابتسم» [1] وقصيدته «كن بلسما» [2] ومطلع الأولى :

قال: السماء كئيبة، وتجهما   قلت: ابتسم، يكفي التجهم في السما

وفيها امثلة بارعة تريك قدرة الشاعر على ان يرى في كل شرّ خيراً ولا يرى في أي شرّ شراً ناهيك عن ان يرى في الخير شراً !!!

والقصيدة الثانية «كن بلسما» ومطلعها :

كن بلسماً إن صار دهرك أرقما   وحلاوةً ان صار غيرك علقما

وإنك تجد فيها مثل هذا التفاؤل البارع :

كره الدجى فاسودّ إلا شهبه   بقيت لتضحك منه كيف تجهما [3]

فاذا أضفت الى هذه القصائد قصيدته «ابسمي» [4] التي مطلعها :

ابسمي كالورد في فجر الصباء   وابسمي كالنجم إن جنّ المساء
وإذا ما كفّن الثلج الثرى   ...   .
وتعرّى الزهر من ازهـاره   ...   .
فاحلمي بالصيف ثم ابتسمي   تخلقي حولك زهراً وشذاء

١ – الخمائل ص ٣٨ وما بعدها .
٢ – الخمائل ص ٥٠ وما بعدها .
٣ – الخمائل ص ٥١ .
٤ – الخمائل ص ٧٤ .

وإذا أعياك ان تعطي الغنى   فافرحي انك تعطين الرجاء

عرفت لون التفاؤل الذي اخذ به الشاعر نفسه ليضفي على حياته القاتمة أصباغ البهجة والمرح والسعادة. ويكفيك ان تقرأ هذه القصائد التي أشرتُ اليها، تقرأها بإمعان وتروٍّ وبصر لتدرك كيف يستطيع الانسان ان يخلع على كل مظهر من مظاهر الحياة بهجة ما بعدها بهجة، وجمالاً ما بعده جمال!

ويكاد الشاعر يبلغ ذروة الابداع والقدرة على التفاؤل عندما يرى في جهنم (لمن يخشاها) انهـا ليست اكثر من فكرة تاجر، اما الله – عز وجل – فلا يمكن ان يخلق لنا شقاء:

كم روعوا بجهنم أرواحنا   فتألمت من قبل ان تتألما
ليست جهنم غير فكرة تاجر   الله لم يخلق لنا إلا السما[1]

* * *

ولعل لمعتقد الشاعر علاقة وثيقة بهذا التفاؤل الذي يرين على حياته.

وهنا نجد انفسنا امام معتقده. واذا حاولنا ان نجزّىء المبحث، فنبين رأي الشاعر في قضايا «ما وراء الطبيعة» كالذات الالهية ثم قضية الحشر والخلود، والمبتدأ والمنتهى، ثم نشير الى رأيه في القدرية والجبرية واللاأدرية، لزمنا ان نعقد لذلك الفصول الطوال، وهي موضوعات جديرة بأن تُعقد لها تلك الفصول حتى لا يترك فيها الباحث زيادةً لمستزيد. ولكنني احسب في بعض الاشارة ما يغني عن كثير من التطويل، وبعض اللمحات تفتح الآفاق امام أولئك الذين يتقصون أمثال هذه المباحث ليجدوا في هذه اللمحات أقباساً تهديهم وتأخذ بيدهم الى حيث المجال اوسع والميدان أرحب.

* * *

١ – الخمائل ص ٥٢.

معتقد الشاعر:

ما قيمة الانسان معتقداً   ان لم يقل للناس ما اعتقدا[1]
مـاذا يفيد الصوت مرتفعاً   إن لم يكن للصوت ثَمَّ صدى

من هنا تتضح لنا دعوة الشاعر لاظهار معتقده، ذلك انه يعتقد ان من يعتقد اعتقاداً ثم يخفيه فكأنه ما اعتقده، وبالتالي لم يصل به الى الغاية المرجوة من اعتقاده.

فما هي معتقدات الشاعر؟

معتقداته – كما رأينا – لونان: أحدهما يتصل بنظراته في الحياة كالتفاؤل وما شابه ذلك، وثانيهما يتصل بما هو من صميم «المعتقد»؛ وقد ينتظم في سلكها غرض الحكمة لانها تنبىء عن آراء الشاعر التي تتنزل منزلة المعتقدات؛ الا ان الغرض من لفظة «معتقد» في هذا المبحث انما هو النظرة الى الحياة من وجهة نظر الدين؛ فثمة حديث في الله تعالى، وفي الانبياء والدين، وفي الجبرية، ثم القضايا الكبرى التي شغلت الفكر منذ أحسّ بوجوده على ظهر الارض «من اين جئت؟ من أنا؟ الى اين أصير؟»، وأخيراً رأيه في الخلود...

وعندما يعرض الشاعر الكبير لهذه القضايا الكبرى نجده يعالج موضوعاتها بشيء من اليُسر والسهولة دون اي تحرّج، وكأنه يصف منظراً جميلاً، ممـا يومىء الى ان اعتقاده لها لم يكن فيه تكلف او تعنت او مشقة، فهو بهذا قد جرى وفاق طبيعته، وما يمليه عليه خاطره وفكره وعقله!

* * *

١ – من قصيدة «ولم أجد أحداً».

الله ومشيئته :

ليس هنالك وضوح في رأي الشاعر في هذا الموضوع الخطير ؛ فلست تلمح الحاداً وكفراً ، كما لا تلمح ايماناً واضحاً . فمرة يقول :

آمنت بالله وآياته أليس ان الله باريها[1]

ومرة اخرى ترى لديه لوناً عميقاً من الايمان الذي يرى الله في كل مظهر من مظاهر الطبيعة ؛ اما عندما ورد ذكر الله مباشرة ، فانه رآه (تعالى) فكراً ثم حساً وشعوراً ، ثم رآه « ديوان شاعر » !!!

قال لي ابني وهو حيران بما يحكي ويقرا
كيف كان الله ؟.. إني قد وجدت الله سرا
أسمع الناس يقولون به خيراً وشرا
فأفدني ...

قلت : يا ابني انا مثـــل الناس طرا
لي في الصحة آراء وفي العلة أخرى
كلما زحزحت ستراً خلتني اسدل سترا
لستُ أدرى منك بالأمر ولا غيري أدرى[2]

١ – الخائل ص ٨٨ .
٢ – الخائل ص ١٠٨ .

وإذا تابعت قراءة القصيدة وجدت الشاعر وقد رأى الله « فكراً » و « حساً » و « شعوراً » ، ثم « ديوان شاعر » !...

أما من حيث مشيئته ، فواضح ان الشاعر في جملة منظومة يؤمن ايمـــاناً لا يعتوره الشك انه « مسيَّر » لا « مخيَّر » ؛ يشير الى ذلك في أي موطن يعرض فيه مثل هذا المجال للاعراب عن الرأي .

اراد الله ان نعشق لما أوجد الحسنا
مشيئته .. وما كانت مشيئته بلا معنى[1]
...
فان أحببت ماذنبك ، او أحببتُ ماذنبي ؟.

ثم :

إذن فاحيَ ومت كالناس عبداً غير مختار[2]

فان كان الشاعر يرى انه مسير لا مخير ، فمعنى هذا بالضرورة ، ان هنالك مسيراً يُسيِّر الى مصير معلوم ...

ولكننا نجد الشاعر ينكر انكاراً بعيداً هذا المصير ، فهو تارة حـــائر لا يدري ما يعتقد في مسألة « المصير » ، وتارة مطمئن انه صائر الى فناء !

ولعل في قصيدته الخالدة « الطلاسم » آراءه جملة وتفصيلاً في هذا الموضوع الخطير ...

١ – الجداول ص ٣٤ .
٢ – الخائل ص ١٠٤ .

والشاعر في جميع مجالات هذا الموضوع حائر، حائر في امر نفسه، وحائر في امر امسه، وحائر بالتالي في يومه وغده، كأنما يمشي في ظلمات متراكم بعضها فوق بعض:

يا ليل! أين النور؟ إني تائهٌ ... ربنبثق. ام ليس عندك نور؟[1]

والشك يأخذ به من كل جانب، شك في كل شيء وفي كل امر. وقد ذهبت الآنسة فدوى طوقان الى ان شاعرنا متميز بأنه منتسب لمدرسة «اللاأدريين»[2] ظناً منها انها مدرسة الشك التي يراد منها «المذهب القائل بأن معرفة الحقائق في هذا العالم لا يمكن الوصول اليها، أو يشك في الوصول اليها. ومن هنا كان هذا المذهب «هادماً للفلسفة»، لأن الفلسفة ليست الا السعي لمعرفة حقائق هذا الكون»[3].

ولكن هذه الأشياء التي يشك في وجودها اللاأدريون انما هي التي عبر عنها جورجياس – احد زعماء السوفسطائية بقوله:

«إننا نشك في وجود الاشياء، وإن كانت موجودة فلا سبيل الى معرفتها...».

وواضح بعد هذا ان موضوع مسائل «اللاأدريين» يختلف عن موضوع مسائل «لست أدري» التي وردت في قصيدة «الطلاسم» والتي تراءى للشاعرة الفاضلة انه بها من مدرسة اللاأدريين!!!

. . .

١ – الجداول ص ١٦.

٢ – «The sceptics».

٣ – «قصة الفلسفة اليونانية» لأحمد أمين وزكي نجيب محمود، طبعة ١٩٤٩، ص ٣١٩ وما بعدها.

اما هذه الشكوك والتساؤلات التي تختلج في صدر الشاعر وتعتمل في خاطره فقد تراءت منذ نشأته الشعرية الأولى... فمن أنا؟.. ومن اين جئت؟.. والى أين أصير؟.. كل هذه أسئلة ستبقى سرمدية وسيبقى الجواب عليها مبهماً إبهاماً سرمدياً... وقد عبر تعبيراً كاملاً عن هذه المسائل الغامضة في ملحمته الرائعة «الطلاسم»، التي جعلتها في القسم الاخير من المنتخبات؛ وهي مقتبسة عن ديوانه الثالث «الجداول»؛ إلا اننا نجد بذور تلك الأسئلة في الجزء الثاني من ديوانه:

افكر كيف جئت؟ وكيف امضي ... على رغمي؟ فأعيا بالجواب
أتيت ولم أكن أدري مجيئي ... واذهب غير دار بالاياب
إذا كان المصير الى التلاشي ... فلم جئنا وكنا في حجاب؟
وإن كان المصير الى خلود ... فما معنى المنية والتباب؟
أمور لا يحيط بهن فكر ... ولو أمسى يحيط بكل باب!!!

ويلخص المشكلة مرة أخرى في ملحمته «الطلاسم» عندما يقول:

جئتُ لا أعلم من أين، ولكني أتيتُ
ولقد أبصرت قدّامي طريقاً فمشيتُ
وسأبقى ماشياً إن شئت هذا أم أبيتُ
كيف جئتُ؟ كيف أبصرتُ طريقي؟..
لستُ أدري!..

ويروح متسائلاً عن ذاته:

أجديدٌ ام قديم أنا في هذا الوجود؟..

ثم يتساءل عن حريته :

هل أنا حر طليقٌ ؟ . .

هل أنا قائد نفسي ؟ . .

ويتساءل عن منشئه ؛ أهو من البحر أم من النهر أم من ماذا ؟ . . وتجده في جميع مراحل « إثارة المشكلة » يجيب عليها إجابة غامضة ؛ وتتضح نزعته الى الجهل بالماضي والحاضر والآتي بلفظة لست أدري » ! . .

حتى اذا وصلنا معه الى شاطىء الحياة الثاني؛ الخلود؛ وجدناه في لمحة واحدة يؤمن به :

هات اسقني الخمر جهراً — ولا تبال بما يكون

إن كان خيراً أو كان شراً — إنا إلى الله راجعون

على اننا نراه في غير هذه اللمحة يُنكر الخلود انكاراً رهيباً ، ولا يقره ولا يعترف به :

لاخلودٌ تحت السماء لحي — فلماذا تُراود المستحيلا ؟..

وفي موطن آخر يقول :

خلّ الغرور بما لديك فانما — دنياك زائلةٌ ونفسك فانيه..

لو أنّ حياً خالداً فوق الثرى — ما مات هرون وزال معاويه

ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل يتعداه الى ان مجرد التفكير في الخلود معناه الوقوع في الخطأ :

غلط القائل إنا خالدون — كلنا بعد الردى هيءٌ بن بي

وفي نفس الموشح نجده يقول :

انما القول بأنا للخلود — فكرةٌ أوجدها حبّ البقاء ..

ثم ...

اذا كنت لا تستطيع الخلود — فمش بيننا أثراً طيبا

وبعد هذا ، نجد الفكرة تسير في ركاب شعره حتى في ديوانه الثالث الجداول ، إذ تسمعه يقول :

إن تكن للخلود ذاتك في الدنيا — فماذا الأمر الذي تهواه[1]

وإذا صرتَ غير شخصك في الأخرى — فهذا الفنا الذي تخشاه

في التراب الذي تدوس عليه — ألف دنيا وعالم لا تراه

ثم ...

يا من تحنّ الى غد في يومه — قد بعت ما تدري بما لا تعلم[2]

. . .

ونصل بعد هذا مع الشاعر الى « الموت » ... فنجده قد وفى الموضوع حقه في قصيدته التي عارض فيها قصيدة المعري في رثاء والده ...

برغمك فارقت الربوع وإننا — على الرغم منا سوف نلحق بالظعن[3]

طريق مشى فيها الملايين قبلنا — من الملك السامي الى عبده القنّ

نظن لنا الدنيا وما في رحابها — وليست لنا إلا كما البحر للسفن

١ – الجداول ص ١٠٠ .

٢ – الجداول ص ١١٤ .

٣ – الخمائل ، قصيدة « أبي » ص ٦١ .

والموت ...

فأكثر اهل الارض معرفة به   كأكثرهم جهلاً ، يرجم بالظن
فيا لك سفراً لم يزل جد غامض   على كثرة التفصيل في الشرح والمتن

. . .

الخاتمة :

... وليس لي أن أدعي ، قبل هذا وبعد ذاك ، أنني استنفدت بهذه الدراسة ما أريد ان اقول في الشاعر وشعره ، وأغراضه ونزعاته وخاطرات فكره ؛ وانما أرى أنني ألممت بهذه الحياة الحافلة إلماما ، وطفت بتلك الرياض الفيناء لماما ، وقبست من هنا زهرة ومن هناك فكرة وجعلتها في هذه المجموعة لأقدمها طاقة من الابداع الجميل في مثل هذه المحاولة ، وعذري ان جهد المقل غير قليل .

دمشق، آذار ١٩٥٤

زهير ميرزا

مقدمة (١)

الشعر عاطفة تتشوق الى القصي غيرا لمعروف فتجعله قريباً معروفاً . وفكرة تناجي الخفي غير المدرك فتحوله الى شيء ظاهر مفهوم .

اما الشاعر فهو مخلوق غريب ذو عين ثالثة معنوية ترى في الطبيعة ما لا تراه العيون ، وأذن باطنية تسمع من همس الايام والليالي ما لا تعيه الآذان .

ينظر الشاعر الى وردة ذابلة فيرى فيها مأساة الدهور ، ويشاهد طفلا راكضاً وراء الفراشة فيرى فيه اسرار الكون ويسير في الحقل فيسمع اغـاني البلابل والشحارير وليس هناك شحارير ولا بلابل ويمشي في العاصفة فيخوض غمار معمعة هوجاء بين جيوش الارض وفيالق السماء .

يقف الشاعر امام شلال فيقول :

فيه من السيف الصقيل بريقه   وله ضجيج الجحفل الجرار
أبداً يرش صخوره بدموعه   أتراه يغسلها من الأوزار

ويرفع عينيه ليلا نحو السماء فيصرخ :

أبكي وتصغي الى بكائي   يا رب هل تعشق النجوم

ويلتقي بحبيبه فيهمس :

وددت الافاضة قبل اللقاء   فلما لقيتك لم انبس

---

١ – المقدمة التي كتبها جبران خليل جبران لديوان ايليا أبو ماضي الأول « تذكار الماضي » .

وبت وإيـاك في معزل   كأني وإياك في مجلس

يرى الشاعر ويسمع كل هـــذه الأمور منْ خلال برقع الحياة وانت واقف بجانبه لا ترى غير مظاهرها الخارجية ولا تسمع سوى اصواتها المشوشة فتقول في ذاتك : يا له من خيالي مجنون يتمسك بخيوط العنكبوت ويصعد نحو النجوم على سلم مصنوع من اشعة القمر ويحاول ان يملأ جرته من ندى الصباح بل من السراب . أي فالشاعر يصعد الى الملأ الأعلى ولكن على سلم اقوى وأبقى من الجبال – يصعد بعزم الروح ، ويتمسك بحبال غير منظورة ولكنها أمتن من سلاسل الحديد – يتمسك بحبال الفكر ويمـــلأ كأسه من عصير أرق من ندى الفجر – يملأها من خمرة الخيال ، والخيال هو الحادي الذيْ يسير امام مواكب الحياة نحو الحق والروح .

الشاعر يفعل كل ذلك وانت على الارض لا تستطيع المسير الا على قدميك . ولا الصعود الا على سلم من خشب . ولا السكر الا من عصير العنب ، ولا المسرة الا بالربح ، ولا الألم إلا بالخسارة .

الشاعر طائر غريب يفلت من الحقول العلوية ولكنه لا يبلغ الارض حتى يحن الى وطنه الاول فينفرد حتى في سكوته ، ويسبح في فضاء لا حد له ولا مدى مع انه في قفص .

وايليا ابو ماضي شاعر وفي ديوانه هذا سلالم بين المنظور وغـــير المنظور ، وحبال تربط مظاهر الحياة بخفاياها وكؤوس مملوءة بتلك الخمرة التي ان لم تشفها تظل ظمآنا حتى تمل الآلهة البشر فتغمرهم ثانية بالطوفان .

جبران خليل جبران

السماء

لا تسلني عنِ السماء فما عنديَ   إلا النعوتُ والأسماءُ

هي شيءٌ ، وبعضُ شيءٍ ، وحيناً   كلُّ شيءٍ ، وعندَ قومٍ هباءُ

★

فسماءُ الراعي كما يتمناهـــا   مروجٌ . فسيحةٌ خضراءُ

تلبسُ التبرَ مئزراً ووشاحاً   كلما أشرقتْ وغابتْ ذُكاءُ

أبداً في نضارةٍ، لا يجفُّ العشبُ   فيهـــا ، ولا يغيضُ الماءُ

★

وهي عندَ الأمِ التي اخترم الموتُ بنيها ، وَضَلَّ عنهـــا العزاءُ

موضعٌ لا ينالهم فيهِ ضَيْمٌ   لا ، ولا يدركُ الشبابَ الفناءُ

وكذا يُولَدُ الرجاءُ من اليأسِ   إذا ماتَ في القلوبِ الرجاءُ

★

وهي عندَ الفقيرِ أرضٌ وراء الأفقِ ، فيها مـــا يشتهي الفقراءُ

لا يخـــافُ المثريْ ، ولا كلبهُ الضاري ، ولا لامرىءٍ بهِ استهزاءُ

وهي عندَ المظلومِ أرضٌ كهذي الأرضِ لكنْ قد شاعَ فيها الإخاء
يجمعُ العدلُ أهلَها في نظامٍ مثلما يجمعُ الخيوطَ الرداء
لا ضعيفٌ مستعبَدٌ، لا قويٌّ مستبِدٌ، بلْ كلهمْ أكفاء
كلُّ شيءٍ للكلّ ملكٌ حلالٌ، كلُّ شيءٍ فيها كما الكلُّ شاءوا

★

وهي عندَ الخليعِ أرضٌ تميسُ الحورُ فيهـا، وتدفقُ الصهباء
كلُّ مـا النفسِ تشتهيهِ مباحٌ لا صدودٌ، لا جفوةٌ، لا إباء
أكبرُ الإثمِ قـولةُ المرءِ هذا الأمرُ إثمٌ، وهذهِ فحشاء
ليسَ بينَ الصلاحِ والشرِّ حدٌّ كالذي شاء وضعهُ الأنبياء
وإذا لم يكنْ عفافٌ وفسقٌ لم تكنْ حِشمةٌ ولا استحياء

...

كلُّ قلبٍ لهُ السماء الذي يهوى، وإنْ شئتَ كلُّ قلبٍ سمـاء
صُوَرٌ في نفوسنا كائناتٌ ترتديها الأفعالُ والأشياء
ربَّ شيءٍ كالجوهرِ الفردِ فذٌّ عدَّدتهُ الأغراضُ والاهواء
كلُّ ما تقصرُ المداركُ عنهُ كائنٌ مثلمـا الظنونُ تشاء

ذكرى

وَلَقد ذَكرتُكِ بَعْدَ يَأسٍ قاتِلٍ
في صَحوةٍ كَثُرَت بِها الأنواء

فَوَدِدتُ أني غَرسَةٌ أو زَهرةٌ
وَوَدِدتُ أنكِ عاصِفٌ أو ماء



الكبرياء خلة الشيطان

لِي صاحبٌ دَخلَ الغرورُ فؤادَهُ   إنَّ الغرورَ أخيَّ من أعدائي

أسديتهُ نُصحي فزادَ تمادياً   في غيّهِ وازدادَ فيهِ بلائي

أمسى يسيءُ بيَ الظنونَ ولم تسوء   لولا الغرورُ ظنونُهُ بولائي

قد كنتُ أرجو أن يُقيمَ على الولا   أبداً ، ولكنْ خابَ فيهِ رجائي

أهوى اللقاء به ويهوى ضدَّهُ   فكأنما الموتُ الزؤامُ لقائي

إني لأصحبهُ عـــلى علاّته   والبدرُ من قِدَمٍ أخو الظلماء

يا صاحِ إنَّ الكبرَ خُلقٌ سيءٌ   هيهاتِ يوجدُ في سوى الجهلاء

والعجبُ داءٌ لا ينالُ دواؤهُ   حتى ينالَ الخلدَ في الدنياء

فاخفضْ جناحكَ للأنامِ تفزْ بهمْ   إنَّ التواضعَ شيمةُ الحكماء

لو أعجبَ القمرُ المنيرُ بنفسِهِ   لرأيتهُ يهوي إلى الغـــبراء

نار القرى

روحي التي بالأمسِ كانت ترتعُ   في الغابِ مثلَ الظبية القمراء

تقتاتُ بالثمرِ الجنيِّ فتشبعُ   ويبلُّ غلّتها رشاشُ المـــاء

نظرتْ إليكِ فأصبحتْ لا تقنعُ   بالمـــاء والأفياء في الغبراء

تصغي وتُنصتُ ، والحمامةُ تسجع   إصغاؤها لك ليسَ للورقاء

ناديتِها ، فلهـــا إليكِ تطلّعُ   هذا التطلّعُ كانَ أصلَ شقائي

جنَّحتني كيما أطيرَ فلم أطرْ   هيهاتِ إنكِ قد طويتِ سمائي

. . .

قد كان يسبيني الجمالُ الرائعُ   حتى لمحْتُكِ فهو لا يسبيني

عصفتْ بصدري لليقينِ زوابعُ   ثلّتْ عروشَ توهمي وظنوني

فأنا على ما ضاعَ منيَ جازعُ   إن الذي قد ضاعَ جدُّ ثمينِ

لولاكِ ما ماتَ الخيالُ اليافعُ   أفتعجبينَ إذا كرهتُ يقيني

هذا صنيعكِ بي ، فما أنا صانعُ ؟   قد شاءَ بحرُكِ أن تضلَّ سفيني

جرَّدتِ هذا الطينَ من أوهامِهِ   وكبرتِ عن قارورةٍ من طينِ

. . .

كيفَ الوصولُ إليكِ، يا نارَ القرى، أنا في الحضيضِ وأنتِ في الجوزاءِ
لي ألفُ باصرةٍ تحنُّ كما ترى لكنَّ دونكِ ألفُ ألفِ غطاءِ
لو مِنْ ثرًى، مزّقتها بيدِ الثرى، لكنها سُجُفٌ من الأضواءِ
ساءلتُ قلبي إذ رأى فتحيّرا ماذا شربتَ فدختَ؟ قالَ: دمائي
يا ليتهُ قد ظلَّ أعمى كالورى فلقدْ نعمتُ، وكانَ في ظلماءِ
قد شوشتْ كفُّ النهارِ سكينتي يا هذه، ردّي إليَّ مسائي

. . .

أمسيتُ حينَ لمستني بيديكِ لي ألفُ باصرةٍ وألفُ جناحِ
ولمحتُ نارَ الوحيِ في عينيكِ، والوحيُ كانَ سُلافةَ الأرواحِ
فنشرتُ أجنحتي وحمتُ عليكِ متوهماً أني وجدتُ صباحي
قد كانَ حتفي في الدنوِّ إليكِ حتفُ الفراشةِ في فمِ المصباحِ
فسقطتُ مرتعشاً على قدميكِ ألنارُ مهدي والدخانُ وشاحي
يا ليتَ نوركِ حينَ أحرقني انطوى فعلى ضيائكِ قد لمستُ جراحي

. . .

أنتِ ...

مَهْبِطَ الوحيِ مَطْلَعَ الأنبياءِ كيفَ أمسيتِ مَهبِطَ الأرزاءِ؟
في عُيونِ الأنامِ عنكِ نُبوٌّ لم يَكُنْ في العُيونِ لو لَمْ تُسائي
أنتِ كالحُرّةِ التي انقلَبَ الدَّهـ ـرُ عَليها فأصبحتْ في الإماءِ
أنتِ كالبُردةِ المُوشّاةِ أبلى الـ ـطَّيُّ والنشرُ ما بها مِن رُواءِ
أنتِ مِثلُ الخميلةِ الغنّـــاءِ عُرّيَتْ مِن أوراقِها الخضراءِ
أنتِ كالليثِ قلَّمَ الدهرُ ظُفرَيْـ ـهِ وأخنى عليهِ طُولُ الثواءِ
أنتِ كالشاعرِ الذي ألِفَ الوحـ ـدةَ ... في محفلٍ مِنَ الغوغاءِ
أنتِ مِثلُ الجبّارِ يَرسُفُ في الأغـ ـلالِ في مشهدٍ مِنَ الأعداءِ
لو تشائينَ كنتِ أرفعَ حالاً أوَ لستِ قديرةً أن تشائي
أنا ما زلتُ ذا رجاءٍ كثيرٍ ولَئِنْ كنتُ لا أرى ذا رجاءِ
قد بكى التاركوكِ مِنكِ قنوطاً فبكى الساكنوكِ خوفَ التنائي
كثُرَ النائحونَ حولكِ حتى خِلْتُ أني في حاجةٍ للعزاءِ
بذلوا دمعَهُمْ وصُنتُ دموعي إنّما اليائسونَ أهلُ البُكاءِ
لو تُفيدُ الدموعُ شيئاً لأحيتْ كلَّ عافٍ مدامعُ الشعراءِ

أنتِ في حاجةٍ إلى مِثلِ (موسى)   لستِ في حاجةٍ إلى (أرمياء)

. . .

مُقلةَ الشرقِ! كَمْ عزيزٌ علينا   أنْ تكوني رميّةَ الأقذاء
شرّدتْ أهلكِ النوائبُ في الأرْ   ضِ وكانوا كأنجُمِ الجوزاء
وإذا المرءُ ضاقَ بالعيشِ ذرعاً   ركِبَ الموتَ في سبيلِ البقاء
لا يُبالي مُغرّبٌ في ذويهِ   أنْ يراهُ ذووه في الغرباء

. . .

أرضَ آبائنا عليكِ سلامٌ   وسقى اللهُ أنفسَ الآباء
ما هجرناكِ إذ هجرناكِ طوعاً   لا تطيقُ العقوقَ في الأبناء
يُسأمُ الخلدُ والحياةُ نعيمٌ   أفنرضى الخلودَ في البأساء؟
هذهِ أرضُنا بلاقعُ، تمشي   فوقها كلُّ عاصفٍ هوجاء
هذه دورُنا منازلُ للبو   مِ وكانتْ منازلَ الورقاء
بدّلتها السنونُ شوكاً من الزه   رِ وبالوحشِ من بني حوّاء
ما طوت كارثاً يدُ الصبحِ إلّا   نشرتهُ لنا يدُ الإمساء
نحنُ في الأرضِ تائهون كأنّا   قومُ موسى في الليلةِ الليلاء
تترامى بنا الركائبُ في البيـ   داء طوراً، وتارةً في الماء
ضُعفاءٌ محقّرون كأنّا   من ظلامٍ والناسُ من لألاء

واغترابُ القويّ عزٌّ وفخرٌ   واغترابُ الضعيفِ بدءُ الفناء
عابنا البيضُ أنّنا غيرُ عُجْمٍ   والعِدى بالسحنةِ البيضاء
ويحَ قومي قد أطمعَ الدهرُ فيهم   كلَّ قومٍ حتى بني السوداء
فإذا فاتنا عدوٌّ تجنّى   فأرانا الأحبابَ في الأعداء
أطربتنا الأقلامُ لمّا تغنّتْ   بالمساواةِ بيننا والإخاء
فسكرنا بها فلمّا صحونا   ما وجدنا منها سوى أسماء!!

. . .

نحنُ في دولةٍ تلاشت قُواها   كالنُّضارِ المدفونِ في الغبراء
أو كمثلِ الجنينِ ماتتْ به الحا   مِلُ حيّاً يجولُ في الأحشاء
عجباً كيف أصبحَ الأصلُ فرعاً   والضحى كيفَ حلَّ في الظلماء
ما كفتنا مظالمُ التُّركِ حتى   زحفوا كالجرادِ أو كالوباء
طُردوا من رُبوعهم فأرادوا   طردَنا من ربوعنا الحسناء
ما لنا، والخطوبُ تأخذُ منّا   نتلهّى كأنّنا في رخاء
ضيمَ أحرارُنا وريعَ حِمانا   وسكتنا، والصمتُ للجبناء
نهضةً تكشفُ المذلّةَ عنّا   فلقد طالَ نومُنا في الشقاء
نهضةً تلفتُ العيونَ إلينا   إنّ خوفَ البلاءِ شرُّ بلاء
نهضةً يحملُ الأثيرُ صداها   للبرايا في أوّلِ الأنباء

نهضةً تَبْلُغُ النفوسُ مُناها   فهي مُشتاقةٌ إلى الهَيجَـــاء

إنَّ ذا المُلكَ هيكَلٌ نحنُ فيه الـ   قَلْبُ والقلبُ سَيِّدُ الأعضاء

زَعَمَ الخائِنونَ أنَّا بمـــا نَبْغِ   ـيهِ نبغي الوصُولَ للعَنقاء

سَوفَ يَدرونَ أنما العُربُ قومٌ   لا يُبَالونَ غَيرَ رَبِّ السَّماء

يَومَ لا تُنبِتُ السُّهولُ سِوى النَّا   س وغَيرَ الأسِنَّةِ السَّمراء

يومَ تَمشي عَلى جِبالٍ من الأشْ   لاء تَمشي في أبحُرٍ من دِماء

يومَ يستشعِرُ المراؤونَ مِنَّا   إنَّمـــا الخاسِرونَ أهلُ الرِّياء



الفقير

مَ ألَمّ به مع الظلمـــاءِ   فنأى بمقلته عن الاغفاء

نفس أقام الحزن بين ضلوعه   والحزن نارٌ غير ذات ضياء

يرعى نجوم الليل ليس به هوى   ويخاله كلفاً بهنّ الرائي

في قلبه نار (الخليل) وانما   في وجنتيه أدمع (الخنساء)

قد عضه اليأس الشديد بنابه   في نفسه والجوع في الاحشاء

يبكي بكاء الطفل فارق أمه   ما حيلة المحزون غير بكاء!

فأقام حلس الدار وهو كأنه   ـ لخلو تلك الدار ـ في بيداء

حيران لا يدري أيقتل نفسه   عمداً فيخلص من أذى الدنياء

أم يستمر على الغضاضة والقذى   والعيش لا يحلو مع الضراء

طرد الكرى وأقام يشكو ليله   يا ليل طلت وطال فيك عنائي

يا ليل قد أغريت جسمي بالضنا   حتى ليـــؤلم فقده أعضائي

ورميتني يا ليل بالهم الذي   يفري الحشا، والهم أعسر داء

يا ليل مالك لا ترق لحالتي   أتُراك والأيام من أعدائي؟

يا ليل حسبي ما لقيت من الشقا   رحماك لستُ بصخرة صماء

بنّ يا ظلام عن العيون فربما   طلع الصباح وكان فيه عزائي
وا رحمتا للبائسين فـانهم   موتى وتحسبهم من الاحياء
إني وجدت حظوظهم مسودّة   فكأنما قدت من الظلماء
ابدأ يسر بنو الزمان وما لهم   حظ كغيرهم من السرّاء
ما في أكفهم من الدنيا سوى   ان يُكثروا الأحلام بالنعماء
تدنو بهم آمالهم نحو الهنـا   هيهات يدنو بالخيال النائي
ابطر الأنام من السرور وعندهم   ان السرور مرادف العنقاء
إني لاحزن ان تكون نفوسهم   غرض الخطوب وعرضة الارزاء
أنا ما وقفت لكي اشبب بالطلا   مـالي وللتشبيب بالصهباء ؟
لا تسألوني المدح أو وصف الدمى   إني نبذت سفاسف الشعراء
باعوا لأجل المال مـاء حيائهم   مدحاً وبتُّ أصون ماء حيائي
لم يفهموا ما الشعر ، إلا انه   قد بات واسطة إلى الاثراء
فلذاك ما لاقيت غير مشبب   بالغانيات وطالب لعطـاء
ضاقت به الدنيا الرحيبة فانثنى   بالشعر يستجدي بني حواء
شقي القريض بهم وما سعدوا به   لولاهم اضحى من السعداء
نادوا علينا بالمحبـة والهوى   وصدورهم طبعت على البغضاء

ألفوا الرياء فصار من عاداتهم   لعن المهيمن شخص كل مرائي !
إن يغضبوا مما أقول فطالما   كره الأديب جماعةَ الغوغاء
أو ينكروا أدبي فلا تتعجبوا   فالرمدُ يؤلمهم طـلوع ذكاء
أو كلما نصر الحقيقةَ فاضلٌ   قامت عليه قيـامة السفهاء
أنا ما وقفت اليوم فيكم موقفي   إلا لأندب حـالة التعساء
عليّ احرّك بالقريض قلوبكم   ان القلوب مواطن الاهواء
لهفي على المحتاج بين ربوعكم   يُمسي ويُصبح وهو قيد شقاء
امسى سواء ليـله وصباحه   شتان بين الصبح والامساء
قطع القنوط عليه خيط رجائه   والمرء لا يحيا بغير رجـاء
لهفي ! ولو أجدى التعيس تلهفي   لسفكت دمعي عنده ودمائي
قل للغني المستعز بمـاله   مهلاً لقد اسرفت في الخيلاء
جُبل الفقير أخوك من طين ومن   ماء ، ومن طين جبلت وماء
فمن القساوة ان تكون منعماً   ويكون رهن مصائب وبلاء
وتظل ترفل بالحرير أمـامه   في حين قد امسى بغير كساء
اتضن بالدينار في اسعافـه   وتجود بالآلاف في الفحشاء
انصر أخاك فان فعلت كفيته   ذلّ السؤال ومنة البخـلاء

أذوي اليسار وما اليسار بنافع ... إن لم يكن أهلوه أهل سخاء

كم ذا الجحود ومالكم رهن البلا ... وبم الغرور وكلكم للفنـــاءِ ؟

ان الضعيف بحاجة لنضاركم ... لا تقعدوا عن نصرة الضعفاءِ

انا لا اذكّر منكم أهل الندى ... ليس الصحيح بحـــاجة لدواءِ

ان كانت الفقراء لا تجزيكم ... فالله يجزيكم عن الفقراءِ

•

تلك السنون

في حفلة اليوبيل الفضي لجريدة «السمير»

تلكَ السنونُ الغارباتُ وراني ... سِفْرٌ كتبتُ حروفَهُ بدماني

مـــا عشتُها لأعدّها بل عشتُها ... لتبينَ في سيماتهـــا سيماني

بيتانِ لو أني قنعتُ بعدّهـــا ... عمري وعمرُ الصخرةِ الصماءِ

ولبذَّني يومَ التفاخرِ شاطيءٌ ... مـــا فيهِ غيرُ رمالِهِ الخرساءِ

لاحتْ ليَ العليـــاءُ في آفاقِها ... فأردتُها قرْباً إلى العلياءِ

ومحبةً للخيرِ تسري في دمي ... ورعايةً للضعفِ والضعفاءِ

وعبادةً للحقِ أينَ وجدتُهُ ... والحسنِ في الأحياءِ والأشياءِ

لتدورَ بعدي قصةٌ عن شاعرٍ ... رقصتْ به الدنيا جناحَ ضياءِ

نثرَ الطيوبَ على دروبِ حياتِهِ ... وسَرَى هوًى في الطيبِ والأنداءِ

وأطلَّ من قلبِ البخيلِ سماحةً ... وشجاعةً في السِّلْمِ والهيجاءِ

ومشى إلى المظلومِ بارقُ رحمةٍ ... وهوى على الظلامِ سَوْطَ بلاءِ

فتعزُّ دنيـــا قد طوتْ آباني ... وتهشُّ دنيا أطلعتْ أبنائي

...

تلك السنونُ بيؤسِها ونعيمِها   مالتْ بعودي وانطوتْ برِوائي
أينَ الشبابُ ألفتُ أحلامي بهِ   ليسَ الشبابُ الآنَ لي برداءِ
نفسي تحسُّ كأنما أثقالَها   قد خُيرتْ فتخيرتْ أعضائي
كَمْ مِنْ رؤىً طلعتْ على جَنَباتِها   ركباً من الأضواءِ والأشذاءِ
قلّبتُ فيها بَعْدَ لأيٍ ناظري   فتعثرتْ عينـــايَ بالأشلاءِ
يا للضحايا، لا يرفُّ لموتِهـــا   جفنٌ، ولا تُحصى مع الشهداءِ
ودعتْ لذاتِ الخيالِ وعفتُها   ورضيتُ أنْ أشقى مع الحكماءِ
فعرفتُ مثلهمْ بـــأني موجدُ   بؤسي، وأني خالقُ نعمائي

. . .

إني أراني بعد مـــا كابدتُهُ   كالفلكِ خـــارجةً من الأنواءِ
وكسائحٍ بلغَ المدينةَ بعدما   ضلَّ الطريقَ وتاهَ في البيداءِ
شكراً لأصحابي فلولا حبهمْ   لم أقتربْ من عالمِ اللألاءِ
بهِمِ اقتحمتُ العاصفاتِ بمركبي   وبهمْ عقدتُ على النجومِ لوائي

. . .

شكراً لأعدائي فلولا عيثهم   لم أدرِ أنهمو من الغوغـــاءِ
نَهَشَ الأسى لما ضحكتْ قلوبهمْ   عرسُ المحبةِ مـــأتمُ البغضاءِ
ذنبي إلى الحسّادِ أني فتُّهمْ   وتركتُهمْ يتعثرونَ ورائي

وخطيئتي الكبرى إليهم أنهم   قعدوا ولم أقعد على الغبراءِ
عفوُ المروءةِ والرجولةِ أنني   أخطأتُ حينَ حسبتهمْ نُظرائي

. . .

شكراً لكلِّ فتىً مزجتُ بروحهِ   روحي فطابَ ولاؤهُ وولائي
من كانَ يحلمُ بالسماءِ فإنني   في قلبِ إنسانٍ وجدتُ سمائي
ليسَ الجمالُ هو الجمالُ بذاتِهِ   الحسنُ يوجدُ حينَ يوجدُ رآءِ
ما الكونُ؟ ما في الكونِ لولا آدمٌ   إلا هباءٌ عـــالقٌ بهباءِ
وأبو البريةِ مـــا أبانَ وجودَهُ   وأتمَّ غايتَهُ سوى حـــواءِ
إني سكبتُ الخمرَ حين سكبتُها   للناسِ، لا للأنجمِ الزهراءِ
لا تشربُ الخمرَ النجومُ وإن تكنْ   معصورةً من أنفسِ الشعراءِ

. . .

تلكَ السنونُ، عقيمُها كولودِها   حلوٌ لديَّ، كذا يشاءُ وفائي
فالليلةُ العسراءُ من عمري   وعمرُ الدهرِ مثلَ الليلةِ السمحاءِ
يا مَنْ يقولُ (ظلمتَ نفسَكَ فاتئدْ)   دعني، فلستَ بحاملٍ أعبائي
إنَّ الحياةَ الروحُ بعضُ عطائِها   وأنا ثمارُ الروحِ كلُّ عطائي

ما العمرُ؟ إنْ هُوَ كالإناءِ وإنني   بالطيِّبِ الغـــالي ملأتُ إنائي

فـــإذا بقيتُ، فللجمالِ بقائي   وإذا فنيتُ، ففي الجمالِ فَنائي

. . .

للهِ مـــا أحلى وأسنى ليلتي   هيَ في كتابِ العمرِ كالطغراءِ

يا صحبُ لن أنسى جميلَ صنيعِكمْ   حتى تفارقَ هيكلي حَوبائي (1)

وتقولُ عيني «قد فقدتُ ضيائي»   ويقولُ قلبي «قد فقدتُ رجائي»

•

(1) النفس.

رؤيــا

رؤيا منامٍ... وربَّ حلمٍ في الكرى   فيهِ تلوحُ حقائقُ الأشياءِ

إني حلمتُ كأنمـــا أنا سائرٌ   في روضةٍ خلّابةٍ غنّـــاءِ

ألنورُ مفروشٌ على طُرُقاتهـــا   والعطرُ في النسماتِ والأفياءِ

والعشبُ فيها سندسٌ متموِّجٌ   والجـــوُّ أضواءٌ على أضواءِ

وإذا بصوتٍ كالهريرِ يطنُّ في   أذنيَ، وأنيابٌ تصرُّ ورائي

فأدرتُ طرفي باحثـــاً متعجباً   مما سمعتُ، ولستُ في بيداءِ

فـــإذا ورائي في الحديقةِ نابحٌ   ضاري المحاجرِ ضامرُ الأحشاءِ

كادتْ تطلُّ عروقُهُ من جلدِهِ   وتطلُّ معهـــا شهوةٌ لدمائي

أشفقتُ يعلقُ نابُـــهُ بردائي   فرفستهُ غضَباً فطـــارَ حذائي

فَطوَى نواجذَهُ عليهِ كأنما   عضّتْ نواجذُهُ على العنقاءِ

ومضى بهِ لرفـــاقِهِ فتهلّلوا   وتقاسموهُ، فكانَ خيرَ عشاءِ

لا يعجبنْ أحدٌ رآني حافياً   أبلتْ نعالي ألسنُ السفهاءِ...

رؤيا ثانية

وحلمتُ ثانيةً، وكانَ الكونُ لم … تبرحْ عليهِ كلاكلُ الظلماءِ

أني رأيتُ جرادةً مطروحةً … في سَبْخَةٍ منهوكةِ الأعضاءِ

ترنو إلى الأفقِ البعيدِ بمقلةٍ … كلمى، وتشتمُ أنجمَ الجوزاءِ

فسألتها ماذا عراكِ فلمْ تُجِبْ، … فسألتُ عنها زمرةَ الرفقاءِ

قـالوا: رفيقتنا شهيدة هزئها … بنصائحِ العُقلاءِ والحكماءِ

كانتْ إذا جاعتْ فحبةُ خردلٍ … تكفي، وإنْ عطشتْ فنقطةُ ماءِ

سمعتْ بنهرٍ في السماءِ وجنةٍ … ليستْ لتصويحٍ ولا لفناءِ

ألعطرُ في أثمارها، والشهدُ في … أنهارها، والسحرُ في الأنداءِ

فاستنكفتْ أنْ تستمرَّ حياتُها … في الأرضِ جاثمةً على الأقذاءِ

فمضتْ تحلّقُ في الفضاءِ ولم تزلْ … حتى وهتْ فهوتْ إلى الغبراءِ

رجعتْ إلى الدنيا التي خُلِقتْ لها … لم تُخلقِ الحشراتُ للأجواءِ

هذي حكايتُها وفيهـا عبرةٌ … للطائشينَ كهذهِ الحمقـاءِ

الطيران

لو رأى «آدمُ» فتاهُ لزَالَ الحِـقدُ مِن قلبِهِ على حوّاءِ

صيّرَ الأرضَ جنّةً دونَها الجنّـةُ في الحُسنِ والبَها والرُّواءِ

ما أظنُّ النعيمَ فيهِ الذي في الـأرضِ مِنْ بهجةٍ ومن لألاءِ

كلُّ ما في الوجودِ للمرءِ عبدٌ … وهْوَ عبْدُ الشهواتِ والأهواءِ

كائنٌ كلُّ كائنٍ حـارَ فيهِ … فهوَ حُلوٌ مُرٌّ ودانٍ نَاءِ

وهْوَ طوراً يكونُ نصفَ إلهٍ … وهْوَ طوراً أدنى مِنَ العجماءِ

عجباً كيفَ طاعهُ الطّينُ والما … ءُ وما كانَ غيرَ طينٍ وماءِ؟

سَادَ في الكونِ مثلَما سَادَ فيهِ … خالِقُ الكونِ مُبدِعُ الأشياءِ

فهوَ في الماءِ سابحٌ وعلى الغـبراءِ ماشٍ وطائرٌ في الفضاءِ

اتّخذَ الجوَّ ملعباً ثمَّ أمسى … راكِضاً في الهواءِ ركضَ الهواءِ

فهوَ فوقَ السّحابِ يحكيهِ في مَسـراهُ لكنّهُ أخو خُيلاءِ

وهْوَ بينَ الطّيورِ تحسبُهُ العنقـاءَ لولا استحالةُ العنقاءِ

أبصرَتْهُ فأكبرَتْ أنْ ترى في الجـوِّ   صيَّادَها على الغـبراءِ

فاستوى في قلوبِها الذُّعرُ حتى   كادَ يحكي البلاءَ خوفُ البلاءِ

وتناجتْ تبغي النَّجاةَ فِراراً   أينَ أينَ المفرُّ مِنْ ذا القضاءِ

ويحَ هذي الطُّيورِ تجنى على المَوْ   تِ وترجو سلماً مِنَ الأحياءِ

إهبِطي أو فحلِّقي أو فسيري   إنَّما المنتهى إلى الأرزاءِ !

. . .

وهوَ بينَ النُّجومِ يسترقُ السَّمـ   ـعَ ولا يتَّقي رجومَ السَّماءِ

مشهدٌ روَّعَ الدَّراري فباتَتْ   حائراتٍ في القبَّةِ الزَّرقاءِ

نافراتٍ كأنَّهـا ظبياتٌ   رأتِ القانصينَ في البيداءِ

سائلاتٍ إذا رسولُ سلامٍ   مِن بني الأرضِ أم نذيرُ فناءِ ؟

هالَها أنْ ترى مِن الإنسِ قوماً   يتهادَوْنَ مثلَها في الفضاءِ

فرأيتَ الجوزاءَ تشكو الثُّريَّا   والثُّريَّا تشكو إلى الجوزاءِ

لا تُراعي يا شُهبُ منَّا فإنَّا   ما حملنا إليكِ غيرَ الولاءِ

قدْ كرِهنا المقامَ في الأرضِ لمَّا   قيلَ إنَّ السَّما مقرُّ الهناءِ

إنَّما شوقُنا إليكِ الذي أسـ   ـرى بنا لا الهيامُ في الإسراءِ

فَصِلينا نزددْ غراماً ووجداً   غيرُ مستحسَنٍ كثيرُ الإباءِ

نحنُ يا شُهبُ في حِماكِ ضيوفٌ   وجميلٌ رعـايةُ الغُرباءِ

أكرمي ذلكَ المحلِّقَ فوقَ السُّحبِ   يُثني عليكِ خيرَ ثنـاءِ

وأنيري طريقَهُ إن دجا اللَّيـ   ـلُ ودبَّتْ عقاربُ الظَّلماءِ

صاغكِ اللهُ شعلةً مِنْ ضياءٍ   وبرا المرءَ شعلةً مِن ذكاءِ

اتخذيهِ أخاً يكنْ لكِ عوناً   كلُّ نفسٍ محتاجةٌ للإخاءِ

لا تفاخرْ بالواخداتِ ولا بالخيـ   ـلِ مِنْ أدهمٍ ومِنْ شهباءِ

هانَ عصرُ النِّياقِ والرَّاكبيها   عندَ عصرِ البخارِ والكهرباءِ !

أخو الورقاء

رسالة الى الشاعر القروي ألقيت في الحفلة الوداعية التي أقيمت في ولاية تكساس وقد تعذر على الشاعر حضورها .

للهِ من عَبَثِ القضاء وسخرهِ   بالناسِ والحالاتِ والأشياءِ
كم درةٍ في التاجِ ألفُ مثلها   في القاعِ لم تَخرُجْ من الظلماءِ
ولكمْ تعثَّرَ بالغبارِ سميدعٌ   واندَاحتِ الأطوادُ للجبناءِ
ولكم جَنَى علمٌ على أربابِهِ   وجنى الهناءَ جماعةُ الجهلاءِ
أرأيتَ أعجبَ حالةٍ من حالنا   أزِفَ الرحيلُ ولم نَفُزْ بلقاءِ !
عاشتْ شهوراً بالرجاءِ قلوبُنا   وبلحظةٍ أمستْ بغيرِ رجاءِ
ماتتْ أمانينا الحسانُ أجنةً   لم تكتحِلْ أجفانُها بضياءِ
فكأنها برقٌ تألَّقَ وانطوى   في الليلِ لم تلمحْهُ مقلةُ راءِ
وكأننا كنا نحلِّقُ في الفضا   صُعُداً لنلمسَ منكبَ الجوزاءِ
حتى إذا حانَ الوصولُ... رَمَتْ بنا
نكباءُ عاتيةٌ إلى الغبراءِ !

وكأن «تكسَ» وهي في هذا الحمى
صُقْعٌ «كسانبولٍ» قصيٌّ نائي
طوبى لها ، إنْ كانَ يعلمُ أهلُها
أنَّ «النزيلَ» بها أخو الورقاءِ
كانتْ «مسارحَ» للرعاةِ ، فأصبحتْ
لما أتاها كعبةَ الشعراءِ
هو بلبلٌ عَبَقُ النبوةِ في أغا   نيهِ ، وفيها نكهةُ الصهباءِ
وجلالُ لبنانٍ ، وقد غَمَرَ المسا   هضباتِهِ ، وانسالَ في الأوداءِ
غنّى ، ففي النسماتِ ، والأوراقِ ،
والغدرانِ ، أعراسٌ بلا ضوضاءِ
وبكى ، فشاعَ الحزنُ في الأزهارِ ،
والأظلالِ ، والألوانِ ، والأضواءِ
هو نفحةٌ قدسيةٌ هبطتْ إلى   هذا الثرى من عالمِ الآلاءِ
لو عادَ للدنيا البراقُ وحزتُهُ   ما كانَ إلا نحوَهُ إسرائي
أشكو البعادَ وليسَ لي أنْ أشتكي   فسماؤهُ موصولةٌ بسمائي

ما حالَ بين نفوسنا، مــا حالَ بين جسومنا من أجبُلٍ وفضاءِ

فلكمْ نظرْتُ إلى الرُّبى فلمحتهُ في الأقحوانِ الخيِّرِ المعطاءِ

وسمعتُ ساقيةً تئنُّ فخلتني لبكائهِ أوطانهُ إصغائي

وإذا تلوحُ لي الجبالُ ذكرتُهُ فالشاعرُ القرويُّ طودُ إباءِ

مَنْ كانَ يحلُمُ بالغديرِ فــإنهُ يبدو لهُ في كلِّ قطرةِ ماءِ

إنْ كنتُ لم أرَهُ فقدْ شاهدتُهُ بعيونِ أصحابي، وذاكَ عزائي

. . .

أفقِ القوافي كالشّواظِ على العدى

وعلى قلوبِ الصَّحْبِ كالأنداءِ

سارتْ إليــكَ تحيتي ولو انني

خُيِّرتُ، كنتُ تحيتي ودعــائي



الجحر الصغير

سمعَ الليلُ ذو النجومِ أنيناً وهو يغشى المدينةَ البيضاء

فانحنى فوقها كمُسْترِقِ الهمْ سِ يطيلُ السكوتَ والإصغاء

فرأى أهلها نياماً كأهلِ الـ كهفِ لا جلبةٌ ولا ضوضاء

ورأى السدَّ خلفها محكمَ البنـ يانِ والمــاء يشبهُ الصحراء

كانَ ذاكَ الأنينُ من حجَرٍ في السـ ـدِّ يشكو المقادرَ العمياء

أيّ شأنٍ يقولُ في الكونِ شأني لستُ شيئاً فيهِ ولستُ هباء

لا رخامٌ أنا فأنحتُ تمثا لاً، ولا صخرةٌ تكونُ بناء

لستُ أرضاً فأرشفُ المــاء، أو ماءً فأروي الحدائقَ الغنَّاء

لستُ دراً تنافسُ الغادةُ الحـ ـسناءُ فيهِ المليحةَ الحسناء

لا أنا دمعةٌ ولا أنا عينٌ، لستُ خالاً أو وجنةً حمراء

حجَرٌ أغــبرٌ أنا وحقيرٌ لا جمالٌ، لا حكمةٌ، لا مضاء

فلأغادرْ هذا الوجودَ وأمضي بسلامٍ، إني كرهتُ البقــاء

وهَوى من مكانِهِ، وهو يشكو الأرْضَ والشهبَ والدجى والسماء

فتحَ الفجرُ جفنَهُ... فــإذا الطوفانُ يغشى «المدينةَ البيضاء»

عطش الارواح

زحزحتْ عن صدرِهَا الغيمَ السماء — وأطلَّ النورُ من كَنَفِ الشتاء

فالروابي حِلَلٌ من سُندسٍ — والسواقي ثرثراتٌ وغناء

رَجَعَ الصيفُ ابتساماً وشذًى — فمتى يرجعُ للدنيا الصفاء ؟

فأرى الفردوسَ في كلِّ حمًى — وأرى الناسَ جميعاً سعداء

زالتِ الحربُ وولتْ إنما — ليسَ للذعرِ من الحربِ انقضاء

إنْ صحونا فأحاديثُ الوغى — في الحمى الآهلِ والأرضِ العراء

وإذا نمنا تراءتْ في الكرى — صُوَرُ الهولِ وأشباحُ الفناء

فهيَ في الأوراقِ حبرٌ هائجٌ — وعلى «الراديو» فحيحُ الكهرباء

نتقي في يومنا شرَّ غد — وإذا الصبحُ انطوى خفنا المساء

عجباً ! والحربُ بابٌ للردى — وطريقٌ لدمارٍ وعَفَاء

كيفَ يهواها بنو الناسِ فهلْ — كرهوا في هذهِ الدنيا البقاء ؟

إنْ يَكُنْ علمُ الورى يشقيهمُ — يا إلهي ردَّ للناسِ الغباء

وليجيء طوفانُ نوحٍ قبلما — تغرقُ الأرضُ بطوفانِ الدماء

واعصمِ الأسرارَ واحجبْ كنهَهَا — عَنْ ذوي العلمِ وأربابِ الذكاء

فلقدْ أكثرتَ أسبابَ الأذى — عندما أكثرتَ فينا العلماء

كم وجدنا آفةً مهلكةً — كلما زحزحتَ عن سرٍ غطاء ؟

قد ترقى الخَلْقُ لكنْ لم تزلْ — شرعةُ الغابةِ شرعَ الأقوياء

حُرِّمَ القتلُ، ولكنْ عندهمْ — أهونُ الأشياءِ قتلُ الضعفاء

لا تقلْ لي هكذا الله قضى — أنتَ لا تعرفُ أسرارَ القضاء

جاءني بالماءِ أروي ظمأي — صاحبٌ لي مِنْ صحابي الأوفياء

يا صديقي جنِّبِ الماء فمي — عَطَشُ الأرواحِ لا يُروى بماء

أنا لا أشتاقُ كاساتِ الطِّلا — لا، ولا أطلبُ مجداً أو ثراء

إنما شوقي إلى دنيا رضًى — وإلى عصرِ سَلامٍ وإخاء

لا تعدني بالسما، يا صاحبي — ألسما عنديَ قربَ الأصدقاء

وأراني الآنَ في أكنافهمْ — فأنا الآنَ كأني في السماء !

ابسمي

إبسمي كالوردِ في فجر الصباءْ وابسمي كالنجمِ إنْ جُنَّ المساءْ
وإذا مـا كفَّنَ الثلجُ الثرى وإذا مـا سَتَرَ الغيمُ السماءْ
وتعرّى الروضُ من أزهارِهِ وتوارى النورُ في كهفِ الشتاءْ
فاحلمي بالصَّيْفِ ثم ابتسمي تخلقي حولَكِ زَهْراً وشذاءْ
وإذا سرَّ نفوساً أنهـا تحسنُ الأخذَ فَسُرّي بالعطاءْ
وإذا أعياكِ أنْ تُعطي الغنى فافرحي أنّكِ تُعطينَ الرجاءْ



الشاعر في السماء

رآنيَ اللهُ ذاتَ يـومٍ في الأرضِ أبكي من الشقاءْ
فَرَقَّ، واللهُ ذو حنانٍ على ذوي الضرِّ والعنـاءْ
وقالَ: ليسَ الترابُ داراً للشعرِ، فارجعْ إلى السماءْ!
وشادَ فـوقَ السِّماكِ بيتي ومدَّ ملكي على الفضاءْ
فالتفَّتِ الشُّهْبُ حولَ عرشي وسارَ في طاعتي الضيـاءْ
وصرتُ لا ينطوي صبـاحٌ إلّا بـأمري ولا مساءْ
ولا تَسوقُ الغيومَ ريحٌ إلّا ولي فوقهـا لواءْ
فالأمرُ بين النجومِ أمري لي الحكمُ فيها ولي القضاءْ

. . .

لكنّني لم أزلْ حزينـاً مكتئبَ الروحِ في العلاءْ
فاستغربَ اللهُ كيفَ أشقى في عالمِ الوحيِ والسناءْ
وقالَ: مـا زال آدمياً يصبو إلى الغيدِ والطِّلاءْ

ومسَّ روحي واستلَّ منها شوقي إلى الخمرِ والنساءْ
وظنَّ أنّي انتهى بلائي ألمْ يَزِدْني سوى بـــلاءْ
واشتدَّ نَوْحي وصارَ جَهْراً وكانَ من قَبْلُ في الخفاءْ
وصـــارَ دمعي سيولَ نارٍ وكانَ قبلاً سيولَ مـــاءْ

. . .

يا أيُّهـــا الشاعرُ المعنّى حيَّرني داؤكَ العيـــاءْ
هل تشتهي أن تكونَ طيراً ؟ فقلتُ : كلّا ، ولا غناءْ !
هل تشتهي أن تكونَ نجماً ؟ أجبتُ : كلّا ، ولا بهاءْ !
هل تبتغي المالَ ؟ قلتُ : كلّا مـــا كانَ من مطلبي الثراءْ
ولا قصوراً ، ولا رياضاً ولا جنوداً ولا إمـــاءْ
وليسَ ما بي ، يا ربُّ ، داءٌ ولا احتياجي إلى دواءْ
ولا حنيني إلى القناني ولا اشتياقي إلى الظبـــاءْ
ولا أريدُ الذي لِغَيْري ذا حكمةٍ كانَ أمْ مَضاءْ
لكنَّ أمنيّةً بنفسي يستُرُهـــا الخوفُ والحياءْ !
فقـــالَ : يا شاعراً عجيباً قُلْ لي إذنْ ما الذي تَشاءْ ؟
فقلتُ : يا ربُّ ، فصلَ صيفٍ في أرضِ لبنانَ أو شتاءْ

فإنّني ههنـــا غريبٌ وليسَ في غُربةٍ هناءْ !
فاستضحكَ اللهُ من كلامي وقالَ : هذا هُوَ الغَباءْ
لبنانُ أرضٌ ككلِّ أرضٍ وناسُهُ والوَرَى سواءْ
وفيه بُؤسى وفيه نُعمى وأردياءٌ وأتقيـــاءْ
فأيُّ شيءٍ تشتاق فيه ؟ فقلتُ : ما سرَّني وسَاءْ
تحنُّ نفسي إلى السواقي ، إلى الأقاحي ، الى الشَّذاءْ
الى الروابي تَعرى وتكسى ، إلى العصافيرِ والغنـــاءْ
الى العناقيدِ ، والدوالي ، والماءِ ، والنورِ ، والهواءْ !
فأشرفَ اللهُ من عُـــلاهُ يشهدُ «لبنانَ» في المساءْ
فقالَ : ما أنتَ ذو جنونٍ وإنّما أنتَ ذو وفـــاءْ
فإنَّ لبنانَ ليسَ طَوْداً ، ولا بلاداً ، لكنْ سماءْ !

مصرع حبيبين

في ذلكَ الرَّوضِ الأغنّ بدَى فتىً   قد يبلغُ العشرينَ عاماً ذو نُهى
كالبدرِ إلا أنــهُ متكتِّمٌ   والغصنِ إلا أنهُ غُصنٌ ذَوى
كَتبَ الضّنى في وجهِهِ هذا الذي   كادَ الغرامُ بهِ يَؤولُ إلى الفَنا
دَنِفٌ تُروِّعهُ الغصونُ اذا انثَنَتْ   طَرَباً ، ويُقلقهُ النسيمُ اذا جَرَى
حيرانُ يُقعِدُهُ الهوى ويُقيمهُ   فكأنَّهُ عَلَمٌ يُداعِبُهُ الهَوَا
فإذا رَنَا للأفقِ ظَنَّ نجومَهُ   عَقْدُ التي مَنْ رامَهَا رامَ السَّمَا
وتوهَّمَ القمرَ المحلّقَ وَجهَ مَنْ   ضَنَّتْ وجادتْ باللّقاءِ وبالنَّوى
حَجَبَ الغمامُ البدرَ عندَ مَسيرِهِ   فكأنَّهُ (أسماءُ) تَسري في الدُّجى
حسناءُ قد عَشِقَ المحبُّ عفافَهَا   وتعشَّقتْ آدابَــهُ فَهُمَا سَوَا
كالغصنِ قامتُها إذا الغُصنُ انثنى   وجبينُها يَحكي الصباحَ إذا انجلَى
وقعتْ غدائرُهَا على أقدامِها   فكأنها قد عضَّها نابُ الهَوَى
خَودٌ إذا نطقتْ حَسِبتَ حديثَها   دُرّاً ، ولكنْ ليسَ مما يُشتَرَى

وقفتْ تُحيطُ بها الزهورُ كأنها   قمرٌ تُحيطُ بهِ الكواكبُ في الفضَا
ومشَتْ تَحِفُّ بها الغصونُ كأنها   مَلِكٌ تحفُّ بهِ الجنودُ إذا مَشَى
للهِ زورتُها وقد قَنِطَ الفتى   فكأنها روحٌ جَرَى فيمنْ ثَوَى
هيهاتِ ما ظَفَرُ المؤمّلِ بالغِنَى   بألذَّ من ظفَرِ المتيَّمِ باللّقـــا
فَدَنَا يطارِحُها تحيَّةَ عاشقٍ   ويقولُ أهلاً بالحبيبِ الذي أتى
بينا تُصافِحُ من يُصافِحُها إذا   بدموعِها سَحَّتْ فصافحتِ الثَّرَى
«ما للعيونِ تحدَّرَتْ عَبَراتُها   وعلامَ هذا الحُزْنُ ياذاتَ البَهَا»؟
قالتْ حبيبي لو تَرَى ما قد جَرَى   في رَبْعِنَا شاركْتَني فيما تَرَى
جارَ القضاءُ عليَّ في أحكامِهِ   ما حيلةُ الإنسانِ إنْ جارَ القَضَا؟
فابكِ معي ، فلربَّما نَفَعَ البُكا   إنَّ الليالي لا تدومُ على الصفَا
قالَ الفتى ، والدمعُ مُنتثِرٌ على   خدَّيهِ ، يا أسماءُ قولي ما جَرَى
فتلفَّتتْ في الرَّوضِ خِيفةَ سامعٍ   فكأنها الظّبيُ الغريرُ إذا رَنَا
وترددتْ بكلامِهَا فكأنما   تبغي ولا تبغي التفوُّهَ بالنَّبَا
قالتْ ودمعُ الحزنِ يخنُقُ صوتَهَا   وشَتِ الحواسدُ عندَ من نخشى بِنَا
وغداً يعودُ الشَّملُ مُنفصمَ العُرَى   هذا هو الخبرُ اليقينُ بلا خَفَا

قد أنبأنَهُ بالفِراقِ وما درَتْ — أنَّ الفراقَ حِمامُ مَنْ عرفَ الهوى

فكأنما سهمٌ أصابَ فؤادَهُ — وكأنَّهُ لما ارتمى طودٌ هوى

أما الفتاةُ فراعَها ما صارَ في — محبوبِها وكأنها ندِمتْ على . . .

جعلتْ تُناديهِ بصوتٍ مُحْزِنٍ — فيُجيبها كندائِها رَجْعُ الصدَى

حتى إذا قنطتْ دنَتْ منهُ كما — يدنو أخو الداءِ العُضالِ مِنَ الدوا

وحنَتْ فحرّكتِ الفتى وإذا بهِ — جِسْمٌ ولكنْ لا حياةَ بهِ ولا . . .

قد فارقَ الدُّنيا ففارقَها الرَّجا — وهوَتْ تُعانِقُهُ ففارقتِ الورَى

قُرانِ ضمّها التُّرابُ ومَا عرفْ — تُ سِواهُما قَرينِ ضمّها الثرَى

السجينة

لَعَمْرُكَ ما حزني لمـالٍ فقدتهُ — ولا خانَ عهدي في الحياة حبيبُ

ولكنني أبكي وأندبُ زهرةً — جناها ولوعٌ بالزهورِ لعوبُ

رآها يحلُّ الفجرُ عقدَ جفونِها — ويُلقي عليها تبرَهُ فيذوبُ

وينفضُ عن أعطافِها النورَ لؤلؤاً — من الطلِّ ما ضُمّتْ عليه جيوبُ

فعالجها حتى استوتْ في يمينه — وعادَ إلى مغناهُ وهو طروبُ

وشاءَ فأمستْ في الإناءِ سجينةً — لتشبعَ منهـا أعينٌ وقلوبُ

ثوَتْ بين جدرانٍ كقلبِ مُضيمها — تلمّسُ فيها منفذاً فتخيبُ

فليستْ تحيي الشمسَ عند شروقها — وليستْ تحيي الشمسَ حينَ تغيبُ

ومَنْ عُصبتْ عيناهُ فالوقتُ كلُّه — لديه ، وإن لاحَ الصباحُ ، غروبُ

★

لها الحجرةُ الحسناءُ في القصرِ إنما — أحبُّ إليها روضةٌ وكثيبُ

وأجملَ من نورِ المصابيحِ عندها — حباحبُ تمضي في الدجى وتؤوبُ

ومن فتياتِ القصرِ يرقصنَ حولها — على نغماتٍ كلهنَّ عجيبُ

تراقصُ أغصانُ الحديقةِ بكرةً … وللريحِ فيها جَيئةٌ وذَهوبُ

وأجملَ منهنَّ الفراشاتُ في الضحى … لها كالأماني سكنةٌ ووثوبُ

وأبهى من الديباجِ والخزِّ عندها … فراشٌ من العشبِ الخضيلِ رَطيبُ

وأحلى من السقفِ المزخرفِ بالدُمى … فضاءٌ تشعُّ الشهبُ فيه رحيبُ

تحنُّ إلى مرأى الغديرِ وصوتِهِ … وتحرمُ منه، والغديرُ قريبُ

وليسَ لها للبؤسِ في نَسَمِ الرُبى … نصيبٌ، ولم يسكنْ لهنَّ هبوبُ

إذا سُقيتْ زادتْ ذبولًا كأنما … يرشُّ عليها في المياهِ لهيبُ

وكانت قليلُ الطَلِّ ينعشُ روحَها … وكانتْ بميسورِ الشعاعِ تطيبُ

بها من أنوفِ الناشقينَ توعُّكٌ … ومِنْ نظراتِ الفاسقينَ ندوبُ

تمشّى الضنى فيها وأيارُ في الحمى … وجفّتْ وسربالُ الربيعِ قشيبُ

ففيها كمقطوعِ الوريدينِ صُفرةٌ … وفيها كمصباحِ البخيلِ شحوبُ

*

أيا زهرةَ الوادي الكئيبةَ إنني … حزينٌ لما صرتِ إليهِ كئيبُ

وأكثرَ خوفي أن تظني بني الورى … سواءً، وهُمْ مثلُ النباتِ ضروبُ

وأعظمَ حزني أنَّ خطبَكِ بعدهُ … مصائبُ شتى لم تقعْ وخطوبُ

سيطرحكِ الإنسانُ خارجَ دارِهِ … إذا لم يكنْ فيكِ العشيةَ طيبُ

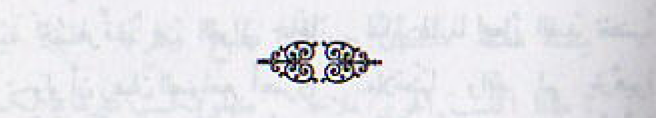
فتُمسينَ للأقذارِ فيكِ ملاعبٌ … وفي صفحتيكِ للنعالِ ضروبُ

إسارُكِ، يا أختَ الرياحينِ، مفجعٌ … وموتُكِ، يا بنتَ الربيعِ، رهيبُ

ولكنها الدنيا، ولكنّه القضا … وهذا، لَعَمْري، مثلُ تلكَ غريبُ

فكمْ شَقيتْ في ذي الحياةِ فضائلٌ … وكم نَعِمَتْ في ذي الحياةِ عيوبُ

وكمْ شيمٍ حسناءَ عاشتْ كأنها … مساوىءُ يُخشى شرُّها وذنوبُ



بنت الفرقدين

أزورُ فتُقصيني وآتي فتعتبُ ... وأوهم أني مذنبٌ حين تغضبُ

وأرجو التلاقي كلّما بخلتْ بهِ ... كذلكَ يُرجى البرقُ والبرقُ خُلّبُ

وأعجبُ من لاحٍ يُطيلُ ملامتي ... ويعجبُ مني عاذلي حين أعجبُ

هو البخلُ طَبعٌ في الرجالِ مُذمّمٌ ... ولكنّه في الغيدِ شيءٌ محبّبُ

كلفتُ بها بيضاء سكرى من الصِّبا ... وما شربتْ خمراً ولا هيَ تشربُ

لها الدرُّ ثغرٌ واللجينُ ترائبٌ ... وشمسُ الضحى أمٌّ وبدرُ الدُّجى أبُ

خليليَّ أما خدُّهـــا فموردٌ ... حياء وأما ثغرها فهو اشنبُ

لئنْ فرقتْ بينَ الغواني جمالَها ... لدامَ لها ما يجعلُ الغيدَ تغضبُ

ولو أن رهبانَ الصوامعِ أبصروا ... ملاحتَها والله لم يترهّبوا

تُكلّفني في الحبِّ ما لا أطيقهُ ... وتضحكُ إما جئتُها أتعتّبُ

أفاتنتي حسبُ المتيّمِ مـــا بهِ ... وحسبُكِ أني دونَ ذنبٍ أعذّبُ

أحبكِ حبَّ النازحِ الفردِ أهلهُ ... فهل منكِ حبُّ الأهلِ من يتغرّبُ؟

وهبتُكِ قلبي واستعضتُ به الأسى ... وهبتُكِ شيئاً في الورى ليس يوهبُ

فإنْ يكُ وصلٌ فهوَ ما أتطلّبُ ... وإن يكُ بُعدٌ فالمنيّةُ أقربُ

الحسن لا يشرى ولا يستجلب

سفَرَتْ فقلْتُ لها أهذا كوكبٌ ... قالتْ أجل وأينَ مني الكوكبُ؟

وتبسّمتْ فرأيتُ رِفماً ضاحكاً ... عن لؤلؤٍ لكنّه لا يوهبُ

وتمايلتْ فالسمهريُّ مصممٌ ... ورَنَتْ فأبصرتُ السّهامَ تُصوّبُ

أنشبتُ ألحاظي بوَرْدِ خدودِها ... لمّا رأيتُ لحاظَها بي تنشبُ

قد كلّمتْ قلبي ولم ترْفقْ بهِ ... واللحظُ لو دَرَتِ المليحةُ مخلبُ

بيضاء ناصعةٌ كأنّ جبينَها ... صبحٌ وطرّتُها عليهِ غيهبُ

يا طالما اكتسبَ الحريرُ ملاحةً ... منها ويُكسبُ غيرَها ما يكسَبُ

ولطالما بعضُ النساء حسدنَها ... ولطالما حسدَ السليمَ الأجربُ

بينَ الطـــلاء وبينهنّ قرابةٌ ... مشهورةٌ عنها الجبلّةُ تنكبُ

إنّ الملاحةَ عندَهـا عربيةٌ ... وجمالُ هاتيكَ الدمى مُستعربُ

قلْ للغواني إنّها خُلقتْ كذا ... ألحسنُ لا يُشرى ولا يُستجلبُ

فـــإذا بلغتَنَّ الجمالَ تطرباً   فاعلمَ أنَّ بقاءهُ مُستصعبُ

هيهاتِ ما يُغني الملاحَ الحسنُ إن   كانتْ خلائقهنَّ لا تُستعذبُ

إني بَلَوْتُ الغانياتِ فَلَمْ أجِدْ   فيهنَّ قطُّ مليحةً لا تكذبُ

وصحبتهنَّ فما استفدتُ سوى الأسى

مـــا يُستفادُ من الغواني يُتعِبُ

وخبرتهنَّ فمـــا لبكرٍ حرمةٌ   ترعى وأغدرُ من رأيتُ الثيِّبُ

لا يخدعنكَ ضعفهنَّ فإنّمـــا   بالضعفِ أهلكتِ الهزبرَ الأرنبُ

•

أهلها عرب

أقاحُ ذاكَ أم شَنَبُ   وريقُ ذاكَ أم ضَرَبُ

ووجهُ ذاكَ أمْ قمرٌ   وخدُّ ذاكَ أم ذهَبُ

جمالٌ غيرُ مُكتسَبٍ   وبعضُ الحسنِ يُكتسَبُ

ثكِلتِ الطرفَ، عاذلتي   أهذا الحسنُ يُجتنَبُ ؟

عدَدْتِ لها العيوبَ ولي   سَ إلّا الظُّرفُ والأدبُ

فتـــاةٌ بينَ مَبْسَمِها   وبينَ عقودِها نَسَبُ

لواحظُها نمتها الهندُ   لكنْ أهلُها عَرَبُ

مُرنّحةٌ إذا خطَرَتْ   رأيتَ الغصنَ يضطربُ

مَشَتْ ووَنَتْ روادِفُها   فكادَ الخصرُ ينقضِبُ

يُسَرُّ العـــاذلونَ إذا   نأتْ ويعودُني الوَصَبُ

ويصطخبونَ إن قرُبَتْ   وعندي يحسُنُ الطرَبُ

فأبكي كلّما ضحكوا   وأضحكُ كلّما غضبوا !

شاعر الدير

ألقيت في حفلة تكريم الشاعر مسعود سماحة

عادتْ رياضُ القوافي وهي حاليةٌ ... وكانَ صوّحَ فيها الزّهرُ والعشبُ

واسترجعتْ دولةُ الأقلامِ نخوتَها ... وكانَ أدركها الإعياءُ والتعبُ

بشاعرٍ عبقريٍّ في قصائـــدِهِ ... عطرٌ، وخمرٌ، وسحرٌ رائقٌ عَجَبُ

فاشربْ بروحِكَ خمراً كلُّها أرَجٌ ... وانشقْ بروحِكَ عطراً كلُّهُ طَرَبُ

وامرحْ بدنيا جمالٍ من تصوُّرِهِ ... فإنها السحرُ إلا أنهُ أدَبُ

والبسْ مطارفَ حاكتْهَا يراعتُهُ ... تبقى عليكَ ويَبلى الخزُّ والقصَبُ

كم درةٍ يتمنّى البحرُ لو نُسِبَتْ ... إليه بانتْ إلى مسعودَ تنتسِبُ

لو أنها فيهِ لم تهتجْ غواربُهُ ... لكنها لسواهُ فهو يصطخِبُ

فلا جناحَ إذا ما قالَ شاعرُنا ... للبحرِ ـ يا بحرُ أغلى الدرّ ما أهبُ!

*

يا شاعرَ «الديرِ»(1) كم هلّلتْ قافيةٌ ... غنى الرواةُ بها واختالتِ الكُتُبُ

(1) دير القمر بلدة الشاعر سماحة .

طلاقةُ الفجرِ فيها وهو منبثقٌ ... ورِقّةُ الماءِ فيها وهو منسكِبُ

مرتْ على هَضباتِ الديرِ هائمةً ... فكادَ يُورِقُ فيها الصّخرُ والحَطَبُ

إذا تساقى الندامى الراحَ صافيةً ... كانتْ قوافيكَ في الرّاحِ التي شربوا

فأنتَ في ألسنِ الأشياخِ إنْ نطقوا ... وأنتَ في هِمَمِ الشّبانِ إنْ وثبوا

*

مسعودُ عيدُكَ والشهرُ الجميلُ(1) معاً ... قد أقبلا، وأنا في الأرضِ أضطرِبُ

يحزُّ نفسيَ أني اليومَ مبتعدٌ ... وأنتَ من حولِكَ الأنصارُ والصُّحُبُ

ألبيدُ «والناسُ» ما بيني وبينكمُ ... ليتَ المهامِهَ تطوى لي فأقترِبُ

ما كانَ أسعدني لو كنتُ بينكمُ ... كيما يؤدي لساني بعضَ ما يجِبُ

لصاحبٍ أنا تيّاهٌ بصحبتِهِ ... وشاعرٍ طالما تاهتْ به العَرَبُ

•

(1) شهر ايار ١٩٣٩ .

شكوى فتاة

نظمها بلسان فتاة أرغمها ذووها
على الاقتران برجل طاعن في العمر

لِيَ بَعْــلٌ ظَنَّهُ النَّاسُ أبي   صدَّقوني أنـــه غيرُ أبي
واعدِلوا عن لومِ مَنْ لو مَزَجَتْ   ما بها بالمـــاء لم يُستعذَبِ
ربَّ لَوْمٍ لم يَفِدْ إلا العَنـــا   كَمْ سهامٍ سُدِّدَتْ لم تَصِبِ؟
يشتكي المَرْءُ لمن يَرثي لَهُ   رُبَّ شكوى خفَّفَتْ من نَصَبِ

★

زعموا أن الغواني لِعَبٌ   إنمــا اللعبةُ طبعاً للصبي
وأنا ما زلتُ في شَرْخِ الصِّبا   فلماذا فَرَّطَ الأهلونَ بي ؟
لِيَ قَــدٌّ وجمالٌ يزدري   ذاكَ بالغُصْنِ وذا بالكَوْكَبِ
قد جرى حبُّ العُلى مجرى دمي   فهي سُؤْلي والوَفا من مَشْربي
أنا لو يعــلَمُ أهلي دُرَّةٌ   طُلِيَتْ في البَيْعِ كالمخشلَبِ(١)

(١) الخرز.

أخذوا الدينارَ مني بَدَلًا   أتراني سلعةً للمكسَبِ ؟
لا ، ولكنْ راعهمْ عَصْرٌ بِهِ   سادَ في الفتيانِ حُبُّ الذَّهبِ
ليسَ للآدابِ قَدْرٌ بينهمْ   آهِ لو كانَ نُضاراً أدبي !
حَسِبُوني حينَ لازمتُ البُكا   طفلةً أجهلُ مـــا يدري أبي
ثُمَّ بالغـــولِ أبي هدَّدَني   أينَ مِنْ غولِ المنايا مَهْرَبي ؟
أشيبٌ لو أنَّهُ يخشى الدُّجى   شابَ ذُعراً منهُ رأسُ الغَيْهَبِ
ليتَ ما بيني وبينَ النومِ من   فُرْقَةٍ بيني وبينَ الأشيبِ
يا لَهُ فظاً كثيرَ الحُزْنِ لا   يَعْرِفُ الأُنْسَ قليلَ الطَّرَبِ
يُخْضِبُ الشَّعْرَ ولكنْ عَبَثاً   ليسَ تخفى لغةُ المستعرِبِ
قُلْ لأهلِ الأرضِ لا تخشوا الرَّدى   إنَّـــهُ مشتغلٌ في طلبي
ولِمَنْ يَعْجَبُ من بُغضي لَهُ   أيهـــا الجاهلُ أمري أتْعِبِ
إنما الغُصْنُ إذا هبَّ الهوا   مالَ للأغصانِ لا للحَطَبِ
وإذا المرءُ قضى عَصْرَ الصِّبا   صارَ أولى بالرَّدى من مذهبي

أمنية الإلهة

أحبَّ إلهٌ في صباهُ إلاهةً   جرى السحرُ في أعطافها والترائبِ

تمنّتْ عليهِ آيةً لم يجىءْ بها   إلهٌ سواهُ في العصورِ الذواهبِ

ليُمسي على الأربابِ أجمعَ سيّداً ،   وتمسي تُباهي كلَّ ذاتِ ذوائبِ

وكانَ إلهاً جامحاً متضرّماً   هوًى، فأتى بالمعجزاتِ الغرائبِ

كسا الأرضَ بالزهرِ البديعِ لأجلها   ورصّعَ آفاقَ السما بالكواكبِ

وما زالَ حتى علّمَ الطيرَ ما الهوى   فحنّتْ وغنّتْ في الذّرى والمناكبِ

وأنشأ جناتٍ وأجرى جداولًا   ومدَّ المروجَ الخضرَ في كلِّ جانبِ

وشاء، فشاعَ العطرُ في الماءِ والصَّبا   وفي كلِّ صوتٍ أو صدًى متجاوبِ

***

ومسَّ الضّحى فارفضَّ تِبراً على الربى

وسالَ عقيقاً في حواشي السباسبِ

وقالَ لأحلامِ البحارِ تجسّدي   مواكبَ ألوانٍ وجيشَ عجائبِ

فكانتْ لآلٍ في الشطوطِ، وفي الفضا

غيومٌ، وموجٌ ضاحكٌ في الغواربِ

ولما رأى الأشياءَ أحسنَ ما تُرى   وتمّتْ له دنيا بغيرِ معايبِ

دعاها إليهِ كي تباركَ صُنعَهُ   ولم يدرِ أنَّ الحبَّ جمُّ المطالبِ

فقالتْ له : أحسنتَ ! أحسنتَ مبدعاً

فيا لكَ ربّاً عبقريَّ المواهبِ

ولكنْ لي أمنيةً ما تحقّقتْ   إذا لم تُنِلْنيها فما أنتَ صاحبي !

***

فدنياكَ هذي على حُسنها   وسحرِ مشاهدِها والصورْ

تُشاركني سائرُ الالآهاتِ   لَذاذاتِها ونساءُ البشرْ

***

أريدُ دنيا فيها شُعاعٌ   يبقى أذا غابتِ النجومْ

أريدُ دنيا تُحِسُّ نفسي   فيها نفوساً بلا جسومْ

أريدُ خمراً بلا كؤوسٍ   من غيرِ ما تُنبتُ الكرومْ

أريدُ عطراً بلا زهورٍ   يَسري وإن لم يَكُنْ نسيمْ

***

وزادتْ فقالتْ : أريدُ أنيناً   يُشوّشُ روحي ولا مُحتضَرْ

ومــاءً يموجُ ولا جدولُ ،   وناراً بلا حطبٍ تستعِرْ

فأطرقَ ذاكَ الالهُ الفتيُّ وفي نفسهِ ألمٌ مستترْ
وقال امهليني ثلاثَ ليــالٍ أذلّلُ فيها المرادَ العَسِرْ !

***

وراحَ يجوبُ رحابَ الفضاء يحدوه شوقٌ ويدعوه سِرّ
فسالَ مع الشمسِ فوقَ الربى وغلغلَ في الحِنْدِسِ المعتكِرْ
وأصغى إلى نَسَمات المروجِ وأصغى إلى نفحاتِ الزَّهَرْ
وبعدَ ثلاثِ ليالٍ أتاهــا فظنتهُ جاء لكي يعتذرْ
فقــالَ وجدتُ الذي تطلُبينَ لدى شاعرٍ ساحرٍ مبتكِرْ
وأخرجَ خيطاً قصيرَ المدى بلونِ الترابِ ولينِ الشَّعَرْ
فلمــا رأتهُ عراها الأسى وغوَّرَ إيمانهــا واندثرْ
فصاحتْ بغيظٍ : أتسخرُ مني ؟ إذن فاحمِلِ العارَ ، او فانتحِرْ !
أجــاب رُويدكِ ، يا ربّتي فما في التعجُّلِ إلّا الضررْ !
وشدَّ إلى آلةٍ خيطَهُ ودغدغهُ صامتــاً في حذَرْ
ففاضتْ خمورٌ ، وسالت دموعٌ ، وشعّتْ بروقٌ ، ولاحتْ صورْ !
فصاحتْ به وهي مدهوشةٌ : ألا إنَّ ذا عــالمٌ مُختصَرْ !
فيا ليتَ شعريَ ماذا يسمّى ؟ فقالَ لها : إن هذا الوتَرْ !

أنا

حرٌ ومذهبُ كلِّ حُرٍ مذهبي ما كنتُ بالغاوي ولا المتعصبِ
إني لأغضبُ للكريمِ ينوشُهُ مَن دونهُ وألومُ من لم يغضبِ
وأحبُّ كلَّ مهذبٍ ولو انّهُ خصمي ، وأرحم كلَّ غيرِ مهذبِ
يأبى فؤادي أن يميلَ إلى الأذى حبُّ الأذيةِ من طِباعِ العقربِ
لي أن أردَّ مساءةً بمساءةٍ لو انني أرضى ببرقِ خُلّبِ
حسبُ المسيء شعورُهُ ومقالُهُ في سرّهِ : يا ليتَني لم أذنبِ

***

أنا لا تغشّنيَ الطيالسُ والحلى كم في الطيالسِ من سقيمٍ أجربِ ؟
عيناكَ من أثوابِهِ في جنّةٍ ويداكَ من أخلاقهِ في سبسبِ
وإذا بصرتَ بهِ بصرتَ بأشمطٍ وإذا تحدثهُ تكشَّفَ عن صبي
إني إذا نزلَ البلاء بصاحبي دافعتُ عنه بناجذي وبمخلبي

وشددتُ ساعِدهُ الضعيفَ بساعدي

وسترتُ منكبهُ العريَّ بمنكبي

وأرى مساوئهُ كأنيَ لا أرى   وأرى محاسنهُ وإنْ لم تُكتَبِ

وألومُ نفسي قبلهُ إن أخطأتْ   وإذا أساء إليَّ لم أتعتَّبِ

متقرّبٌ من صاحبي فإذا مَشتْ   في عطفهِ الغــلواء لم أتقربِ

أنا من ضميري ساكنٌ في معقلٍ   أنا من خلالي سائرٌ في موكبِ

فــإذا رآني ذو الغباوةِ دونهُ   فكما ترى في الماء ظلَّ الكوكبِ

•

هدايا العيد

خرجَ الناسُ يشترونَ هدايا   العيدِ للأصدقــاء والأحبابِ

فتمنّيتُ لو تُساعفني الدنيا   فأقضي في العيدِ بعضَ رغابي

كنتُ أُهدي، إذنْ، منَ الصبرِ أرطا   لًا إلى المنشئينَ والكتّابِ

وإلى كلِّ نابغٍ عبقريٍّ   أمّةً أهلُهــا ذوو ألبابِ

وإلى كلِّ شاعرٍ عربيٍّ   سلّةً من فواكهِ الألقابِ

وإلى كلِّ تاجرٍ حُرِمِ التو   فيقَ زِقَّيْنِ من عصيرِ الكُذّابِ

وإلى كلِّ عــاشقٍ مقلةً تُبْ   صرُ كَمْ من ملاحةٍ في الترابِ

وإلى الغــادةِ الجميلةِ «مرآ   ةً» تُريهــا ضمائرَ العُزّابِ

وإلى الناشىءِ الغريرِ مِرَاناً   وإلى الشيخِ عزمةً في الشبابِ

وإلى معشرِ الكُسالى قصوراً   من لُجَينٍ وعَسجدٍ في السحابِ

علّني أستريحُ منهمْ فقد صا   روا كظلّي في جَيئتي وذَهــابي

وإلى ذي الغِنى الذي يَرْهَبُ   الفقرَ ازديادَ الذي بهِ مِنْ عذابِ

كلّما عدّ مـــالهُ مطمئناً ... أبصرَ الفقرَ واقفاً بالبـــابِ

وإلى الصاحبِ المراوغِ وجهاً ... أسوداً حالكاً كوجهِ الغرابِ

فإذا لاحَ فرّتِ الناسُ ذعراً ... من طريقِ المنافقِ الكذّابِ

وإلى المؤمنينَ شيئاً من الشكّ ... وبعضَ الإيمـــانِ للمرتابِ

وإلى مَنْ يسبُّني في غيابي ... شرفاً كي يصونهُ من سبابي

وإلى حاسديَّ عمراً طويلاً ... ليدومَ الأسى بهمْ ممـــا بي

وإلى الحقلِ زهرهُ وحـــلاهُ ... من ندًى لامعٍ ومن أعشابِ

فقبيحٌ أن ترتدي الحللَ القشـ ... ـبَ وتبقى الرُّبى بغيرِ ثيابِ

لم يكنْ لي الذي أردتُ فحسبي ... أنني بالمنى ملأتُ وِطـــابي

ولو انَّ الزمانَ صاحبَ عقلٍ ... كنتُ أهدي إلى الزمانِ عتابي

•

في القفر

سئمتْ نفسي الحياةَ معَ الناسِ، ... وملّتْ حتى مِنَ الأحبابِ

وتمشتْ فيهـــا الملالةُ حتى ... ضجرتْ من طعامهمْ والشرابِ

ومِنَ الكذبِ لابساً بُردةَ الصدقِ، ... وهذا مسربلاً بالكذابِ

ومنَ القبحِ في نقابٍ جميلٍ ... ومنَ الحسنِ تحتَ ألفِ نِقابِ

ومنَ العابدينَ كلَّ إلهٍ ... ومنَ الكافرينَ بالأربابِ

ومنَ الواقفينَ كالأنصابِ ... ومنَ الساجدينَ للأنصابِ

ومنَ الراكبينَ خيلَ المعـــالي ... ومنَ الراكبينَ خيلَ التصابي

والأُلى يصمتونَ صمتَ الأفاعي ... والأُلى يهزجونَ هزجَ الذبابِ

صغرتْ حكمةُ الشيوخِ لديها ... واستخفّتْ بكلِّ ما للشبابِ

قالتِ اخرجْ من المدينةِ للقفرِ ... ففيهِ النجـــاةُ من أوصابي

وَلْيكُ الليلُ راهبي، وشموعي ... الشهبُ، والأرضُ كلها محرابي

وكتابي الفضاءُ أقرأُ فيهِ ... سُوَراً مـــا قرأتها في كتابِ

وصلاتي الذي تقولُ السواقي ... وغنائي صوتُ الصَّبا في الغابِ

وكؤوسي الأوراقُ ألقتْ عليها ... الشمسُ ذَوْبَ النُّضارِ عندَ الغيابِ

ورحيقي ما سالَ من مُقلةِ الفجرِ ... على العشبِ كاللُّجينِ المُذابِ

وَلْتُكَحِّلْ يَدُ المساءِ جفوني   وَلْتُعانِقْ أحلامُهُ أهدابي
وَلْيُقَبِّلْ فَمُ الصباحِ جَبيني   وَلْيُعَطِّرْ أريجُـهُ جلبابي
ولأكُنْ كالغرابِ رزقيَ في الحقـ   لِ، وفي السفحِ مجثمي واضطرابي
ساعةٌ في الخلاءِ خيرٌ من الأ   عوامِ تُقضى في القصرِ والأحقابِ

يا لَنَفْسي فإنهـا فتنتني   بالحديثِ المنمّقِ الخلّابِ
فإذا بي أقلي القصورَ، وسكـا   ها، وأهلَ القصورِ ذاتِ القبابِ
فنجرتُ العمرانَ تنفضُ كفّي   عَنْ ردائي غبارَهُ وإهابي
وتركتُ الحمى وسرتُ وإياها   وَقَدْ ذهّبَ الأصيلُ الروابي
نهتدي بالضحى، فإنْ عسعسَ الليـ   لُ جَعَلْنا الدليلَ ضوءَ الشهابِ
وقضّيْنا في الغابِ وقتاً جميلاً   في جوارِ الغدرانِ والأعشابِ
تارةً في ملاءةٍ من شُعاعٍ   تارةً في ملاءةٍ من ضَبابِ
تارةً كالنسيمِ نمرحُ في الوا   دي، وطوراً كالجدولِ المنسابِ
في سفوحِ الهضابِ والظلُّ فيها،   ومع النورِ وهوَ فوقَ الهضابِ
إنما نفسي التي ملتِ العمرانَ   ملّتْ في الغابِ صمتَ الغابِ
فـأنا فيهِ مستقلٌ طليقٌ   وكأني أدبُّ في سردابِ

علمتني الحياةُ في القفرِ أني،   أينما كنتُ، ساكنٌ في الترابِ
وسأبقى ما دمتُ في قفصِ الصّلصالِ عبدَ المُنى أسيرَ الرغـابِ
خلتُ أني في القفرِ أصبحتُ وحدي   فإذا الناسُ كلُّهمْ في ثيابي !

يا رفاقي

القصيدة التي ألقاها الشاعر في حفلة تكريم الدكتور ظافر الرفاعي وزير خارجية سوريا والدكتور فريد زين الدين سفير سوريا في واشنطن ومندوبها الدائم في الأمم المتحدة .

جعتُ والخبزُ وفيرٌ في وطابي   والسنا حولي وروحي في ضبابِ
وشربتُ الماءَ عذباً سائغاً   وكأني لم أذقْ غيرَ سرابِ
حيرةٌ ليسَ لهـا مَثلٌ سوى   حَيْرَةِ الزورقِ في طاغي العبابِ
ليس بي داءٌ ولكني امرؤٌ   لستُ في أرضي ولا بينَ صحابي
مرّتِ الأعوامُ تتـلو بعضَها
للورى ضحكي ولي وحدي اكتئابي
كلما استولدتُ نفسي أملاً   مدّتِ الدنيا له كفَّ اغتصابِ
أفلتتْ مني حلاواتُ الرؤى   عندما أفلتُّ من كفي شبابي
بتُّ لا الإلهامُ بابٌ مشرعٌ   لي، ولا الأحلامُ تمشي في ركابي

أشتهي الخمرَ وكأسي في يدي ... وأحسُّ الروحَ تعرى في ثيابي

يا رفاقي حطموا أقداحكمْ ... ليسَ في دنيَ خمرٌ لانسكابِ

جفَّ ضرعُ الشعرِ عندي وذوى ... ولكمْ عاشَ لمريٍ واحتلابِ

***

أيها السائلُ عني مَنْ أنا ... أنا كالشمسِ إلى الشرقِ انتسابي

لُغَةُ الفولاذِ هاضتْ لغتي ... لا يعيشُ الشدوُ في دنيا اصطخابِ

لستُ أشكو إنْ شكا غيري النوى ... غربةُ الأجسامِ ليست باغترابِ

أنا كالكرمةِ لو لم تغتربْ ... ما حواها الناسُ خمراً في الخوابي

أنا كالسوسنِ لو لم ينتقلْ ... لم يتوَّجْ زهرهُ رأسَ كعابِ

أنا في نيويوركَ بالجسمِ ... وبالروحِ في الشرقِ على تلكِ الهضابِ

في ابتسامِ الفجرِ، في صمتِ الدُّجى، ... في أسى تشرينَ، في لوعةِ آبِ

أنا في الغوطةِ زهرٌ وندًى ... أنا في «لبنانَ» نجوى وتصابي

ربِّ هَبْني لبلادي عودةً ... وليكنْ للغيرِ في الأخرى ثوابي

***

أيها الآتونَ من ذاكَ الحِمَى ... يا دعاةَ الخيرِ، يا رمزَ الشبابِ

كم هششنا وهششتمْ للمنى ... وبكيتمْ وبكينا في مصابِ؟!

واشتركنا في جهادٍ أو عذابِ ... والتقينا في حديثٍ أو كتابِ؟

وعرفتمْ وعرفنا مثلكمْ ... أنما الحقُّ لذي ظفرٍ ونابِ

كلُّ أرضٍ نامَ عنها أهلُها ... فهيَ أرضٌ لاغتصابٍ وانتهابِ

إنني ألمحُ في أوجهكمْ ... دفقةَ النورِ على تلكَ الروابي

وأرى أشباحَ أعوامٍ مضتْ ... في كفاحٍ ونضالٍ ووثابِ

وأرى أطيافَ عصرٍ زاهرٍ ... طالعٍ كالشمسِ من خلفِ الحجابِ

ليتهُ يُسرعُ كي أبصرهُ ... قبلَ أن أغدو تراباً في الترابِ

•

أمنية المهاجر*

جعتُ والخبزُ وثيرٌ في وِطابي   والسَّنا حولي وروحي في ضَبابِ
وشربتُ الماءَ عذباً سائغاً   وكأنّي لم أذُقْ غيرَ سَرابِ
محنةٌ ليسَ لها مِثلٌ سوى   محنةِ الزورقِ في طاغي العُبابِ
ليسَ بي داءٌ ولكنّي امرؤٌ   لستُ في أرضي ولا بينَ صِحابي
مرّتِ الأعوامُ تتلو بعضها   للورى ضحكي ولي وحدي اكتئابي
كلّما استوقفتُ نفسي أملاً   مدّتِ الدنيا لهُ كفَّ اغتصابِ
أفلتتْ مني حلاواتُ الرؤى   عندما أفلتَ مِن كفّي شبابي
بِتُّ لا الإلهامُ بابٌ مُشرعٌ   لي ولا الأحلامُ تمشي في ركابي
أشتهي الخمرَ وكأسي في يدي   وأحسُّ الروحَ تَعرى في ثيابي
ربِّ هبني لبلادي عودةً   وليكنْ للغيرِ في الأخرى ثوابي

. . .

(*) أُلقيت بمناسبة زيارة وزير خارجية سورية الولايات المتحدة في خريف ١٩٥٢.

أيُّها الآتونَ مِن ذاكَ الحِمى   يا دُعاةَ الخيرِ، يا رمزَ الشبابِ
كمْ هششتمْ وهششنا للمُنى   وبكيتمْ وبكينا في مُصابِ
واشتركنا في جهادٍ أو عذابِ   والتقينا في حديثٍ أو كِتابِ
وعرفتم وعرفنا مِثلكم   أنّما الحقُّ لذي ظُفرٍ وناب
كلُّ أرضٍ نامَ عنها أهلُها   فهي أرضٌ لاغتصابٍ وانتهابِ
زعموا الإنسانَ بالعلمِ ارتقى   وأراهُ لم يزلْ إنسانَ غابِ
إنّهُ الثعلبُ مكراً وهو كالسَّرْ   طانِ غدراً وحكيمٌ كالغُرابِ
يا رفاقي حطّموا أقداحكمْ   ليسَ في الدنيا رحيقٌ لانسكابِ
جفَّ ضرعُ الشعرِ عندي وانطوى   ولكم عاشَ لمرعى واحتلابِ

. . .

أيُّها السائلُ عني مَن أنا   أنا كالشمسِ إلى الشرقِ انتسابي
لغةُ الفولاذِ هاضتْ لُغتي   لا يعيشُ الشدوُ في بحرِ اصطخابِ
لستُ أشكو إنْ شكا غيري النوى   غُربةُ الأجسامِ ليستْ باغترابِ
أنا في نيويوركَ بالجسمِ وبالرّ   وحِ في الشرقِ على تلكَ الهضابِ
في ابتسامِ الفجرِ في صمتِ الدُّجى   في أسى «تشرينَ» في لوعةِ «آبِ»

أنا في الغوطةِ زهرٌ وندى — أنا في لبنانَ نجوى وتَصابي
أنني ألمحُ في أوجهِكم — دفقةَ النورِ على تلكَ الروابي
وأرى أشباحَ أيامٍ مضتْ — في كِفاحٍ ونضالٍ ووِثابِ
وأرى أطيافَ عصرٍ باهرٍ — طالعٍ كالشمسِ من خلفِ الحِجابِ
ليتَهُ يُسرعُ كي أبصرَهُ — قبلَ أن أغدو تراباً في ترابِ



الرأي الصواب

يا نفسُ هذا منزلُ الأحبابِ — فانسَيْ عذابَكِ في النوى وعذابي
وتهلّلي كالفجرِ في هذا الحِمى — وتألّقي كالخمرِ في الأكوابِ
ولتمسحِ البُشرى دموعَكِ مثلما — يمحو الصباحُ ندى عنِ الأعشابِ
واسترجعي عهدَ البشاشةِ والرضى — فالدهرُ عادَ تضاحكاً وتصابي
أنا بينَ أصحابي الذينَ أحبُّهمْ — ما أجملَ الدنيا معَ الأصحابِ
قد كنتُ مثلَ الطائرِ المحبوسِ في — قفصٍ، ومثلَ النجمِ خلفَ ضبابِ
يمتدُّ في جُنحِ الظلامِ تأوُّهي — ويطولُ في أذنِ الزمانِ عتابي
وأهزُّ أقلامي فترشحُ حدّةً — وأسىً، ويَندى بالدموعِ كتابي
حتى لقيتكمُ فبتُّ كأنني — لمسرَّتي استرجعتُ عصرَ شبابي
ليسَ التعبُّدُ أنْ تبيتَ على الطّوى — وتروحَ في خِرَقٍ مِنَ الأثوابِ
لكنّهُ إنقاذُ نفسٍ معذّبٍ — من ربقةِ الآلامِ والأوصابِ
ليسَ التعبُّدُ عزلةً وتنسّكاً — في الديرِ أو في القفرِ أو في الغابِ
لكنّهُ ضبطُ الهوى في عالمٍ — فيهِ الغوايةُ جمّةُ الأسبابِ
وحبائلُ الشيطانِ في جنباتِهِ — والمالُ فيهِ أعظمُ الأربابِ
هذا هو الرأيُ الصوابُ وغيرُهُ — مهما حلا للناسِ غيرُ صوابِ

موكب التراب

في يوم من ايام الصيف الشديد الحر كان الشاعر جالساً مع بعض اصحاب له امام داره فهبت ريح شديدة اثارت الغبار وعقدته في الفضاء كالسرداق . وكان في مشهد الغبار ما حمله على التفكير فنظم القصيدة التالية :

من أينَ جئتَ ؟ وكيفَ عجتَ ببابي ؟

يا موكبَ الأجيالِ والأحقابِ

أمِنَ القبورِ؟ فكيفَ من حلّوا بها   أهناكَ ذو ألمٍ وذو تطرابِ ؟

ولهمْ صباباتٌ لنا ؟ أمْ غودروا   في بلقعٍ ما فيهِ غيرُ خرابِ ؟

* * *

أمررتَ بالأعشابِ في تلكَ الرُّبى   وذكرتَ أنكَ كنتَ في الأعشابِ

حولَ الصخورِ النائماتِ على الثرى   وعلى حواشي الجدولِ المُنسابِ

وعلامَ تصعدُ كالسحابةِ في الفضا   وإلى الترابِ مصيرُ كلِّ سحابِ

لما طلعتَ على الشعاعِ موزّعاً   مترجرجاً كخواطرِ المرتابِ

وذهبتَ في عرضِ الفضاءِ كخيمةٍ   رُفعتْ بلا عُمُدٍ ولا أطنابِ

قالَ الصحابُ لي: استترْ، وتراكضوا   للذعرِ يعتصمونَ بالأبوابِ

وَهَبِ اتقيتُكَ بالحجابِ فإنني   لا بدَّ خالعهُ وأنتَ حجابي

كم سارحٍ في غابةٍ عندَ الضحى   جاء المساءُ فكانَ بعضَ الغابِ

ومصفقٍ للخمرِ في أكوابِهِ   طرَباً، وطيفُ الموتِ في الأكوابِ

أنا لو رأيتُ بكَ القذى، محضَ القذى،

لسترتُ وجهي عنكَ مثلَ صحابي

لكنْ شهدتُ شبيبةً، وكهولةً،   ومنىً، وأحلاماً بغيرِ حسابِ

والشاربينَ بكلِّ كأسٍ، والألى   عاشوا على ظمأٍ لكلِّ شرابِ

والضاربينَ بكلِّ سيفٍ في الوغى،   والخانعينَ لكلِّ ذي قِرضابِ (1)

والصارفينَ العمرَ في سوقِ الهوى   والصارفينَ العمرَ في المحرابِ

والغيدَ بينَ جميلةٍ ودميمةٍ   والعاشقينَ الصبَّ والمتصابي

والعبدَ في أغلالِهِ وحبالِهِ   والملكَ في الديباجِ والأطيابِ

آبوا جميعاً في طريقٍ واحدٍ   الخاسرَ المسيءُ مثلَ السابي

فضحكتُ من حرصي على مُلكِ الصبا   وعجبتُ كيفَ مضى عليهِ شبابي

ووقعتَ أنتَ على ترابٍ ضاحكٍ   لما وقعتَ عليَّ في جلبابي

وكذاكَ أشواقُ الترابِ مآلُها   ولئنْ تقادمَ عهدُها لترابِ

(1) القِرضاب : السيف القطّاع .

العليقة

ذاتُ شوكٍ كالحرابِ أو كأظفارِ العقابِ

ربضتْ في الغابِ كاللصِ، لِفتكٍ واستلابِ

تقطعُ الدَّربَ على الفلاحِ والمولى المهابِ

صنتُ عنها حُرَّ وجهي، فتصدَّت لثيابي

كلمـا أفلتُّ من نابٍ تلقتني بنابِ

فلها نهشُ الأفاعي، ولهـا لسعُ الذبابِ

وأذاها في سكوني، كأذاها في اضطرابي

وهي كالقيدِ لساقي، ولجيدي كالسِّخابِ [1]

فكأنا في عناقٍ، لا نضالٍ ووثابِ

. . .

قلتُ: يا ساكنةَ الغابِ، ويا بنتَ الترابِ

لا تَلجّي في اجتذابي، أو فلجّي في اجتذابي

---

(١) السِّخاب: قلادة من قرنفل ونحوه، ليس فيها لؤلؤ ولا جوهر.

إنْ عوداً فيه ماءٌ ليسَ عوداً لاحتطابِ

أنا في فجرِ حياتي، أنا في شَرْخِ شبابي

الهوى ملءُ فؤادي، والصبى ملءُ إهابي

والمنى تنبتُ في دربي وتمشي في ركابي

أنا لم أضجرْ مِنَ العيشِ ولم أملَلْ صحابي

لم أزلْ ألمحُ طيفَ المجدِ حتى في السرابِ

لم أزلْ أستشعرُ اللذةَ حتى في العذابِ

لم أزلْ أستشرفُ الحسنَ ولو تحتَ نقابِ

. . .

ما بنفسي خشيةُ الموتِ ولا مِنْهُ ارتهابي

أنا للأرضِ، وإنْ طالَ عن الأرضِ اغترابي

غيرَ أني لم يزلْ ضرعي لمريٍ واحتلابِ

لم أهبْ كلَّ الذي عندي، ولم يفرغْ وطابي

. . .

أنا نهرٌ لم أتمم بعدُ في الأرضِ انسيابي

أنا روضٌ لم أذعْ كلَّ عبيري وملابي

أنا نجمٌ لم يمزّقْ بعدُ جلبابَ الضبابِ

أنا فجرٌ لم تتوّجْ فضتي كلَّ الروابي

لي رغـــابٌ لم تلذْ بعدُ فتَبْلى بالتبابِ ؟

وبنفسي ألفُ معنى لم يُضمّنْ في كتابِ

. . .

فإذا استنفدتُ ما في دَنِّ نفسي من شرابِ

وإذا أنجمُ آمـــالي توارتْ في الحجابِ

وإذا لم يَبْقَ في غيميَ مـــاء لانسكابِ

وإذا مـــا صرتُ كالعلّيقِ تمثالَ اكتئابِ

لا يُرجيني محتاجٌ ، ولا يطمعُ سابِ

فاجذبيني . . . إنْ يكُنْ منّي نفعٌ للترابِ

•

بلا قلب...

وقائلةٍ مـــاذا لقيتَ من الحبِّ

فقلتُ الرّدى والخوفَ في البعدِ والقربِ

فقالتْ عهدتُ الحبَّ يكسبُ ربَّـــهُ

شمائلَ غراً لا تنالُ بـــلا حبٍّ

فقلتُ لهـــا قد كانَ حباً فزادَهُ

نفورُ المُنى راءه فأمسيتُ في حَربِ

وقد كانَ لي قلبٌ وكنتُ بـــلا هَوىً

فلمـــا عرفتُ الحبَّ صرتُ بلا قلبِ

•

بين الضحك واللعب

أعطَيْتُ مَن أعشَقُها وَرْدَةً
مِن بَعْدِ أنْ أودَعْتُها قلبي
فَجعَلَتْ تَنـــثُرُ أوْرَاقَها
بأنْمُلٍ كالعَنَمِ الرَّطبِ
لا تَسألوا العاشِقَ عَنْ قلبِهِ
قَدْ ضاعَ بينَ الضّحكِ واللعبِ

***

لَمْ أقطِفِ الوَرْدَةَ مِن غُصنِها
لو لَمْ تَكنْ كالخَدِّ في الإتقادْ
ولَمْ تُمزِّقْ هِندُ أوراقَها
لولا اشتِباهٌ بَينَها والفُؤادْ!..

تحية الشام

حيِّ الشآمَ مهنداً وكتابا … والغوطةَ الخضراءَ والمحرابا
ليستْ قِباباً ما رأيتُ وإنَّمـا … عزمٌ تمرَّدَ فاستطالَ قِبـابا
فالثمْ بروحِكَ أرضَها تلثمْ عصوراً … للعلى سكنتْ حصًى وتُرابا
واهبطْ على بردى يصفّقُ ضاحكاً … يستعطفُ التلعاتِ والأعشابا
روحٌ أطلَّ من السماءِ عشيةً … فرأى الجمالَ هنا ... فحنَّ، فذابا
وصفا وشفَّ فأوشكتْ ضفّاتُهُ … تنسابُ من وَجْدٍ بـهِ مُنسابا
بل أدمعُ حورِ الجنانِ ذرفْنَها … شوقـاً، ولم تملكْ لهنَّ إيابا
بردى ذكرتُكَ للعطاشى فارتووا … وبني النُّهى فترشّفوكَ رِضابا
مرّتْ بكَ الأدهارُ لم تخبثْ، ولم … تفسدْ، وكم خَبُثَ الزمانُ وطابا

★

بأبي وأمي في العراءِ موسَّدٌ … بَعَثَ الحياةَ مطامعاً ورِغابا
لما ثوى في ميسلونَ ترنّحتْ … هضَباتُها وتنفّستْ أطيـابا
وأبى النجومَ حديثُهُ فتهافتتْ … لتقومَ حرّاساً له حجّـابا

ما كانَ يوسفُ واحداً بل موكباً   للنورِ غلغلَ في الشموسِ فغابا
هذا الذي اشتاقَ الكرى تحتَ الثرى   كي لا يرى في جلّقَ الأغرابا
وإذا نَبا العيشُ الكريمُ بماجدٍ   حرٍّ رأى الموتَ الكريمَ صَوابا
إني لأزهى بالفتى وأحبّهُ   يهوى الحياةَ مشقةً وصعابا
ويضوعُ عطراً كلما شدَّ الأسى   بيديهِ يعركُ قلبَهُ الوثّابا
ويسيلُ ماءً إنْ حواهُ فدفدٌ   وإذا طواهُ الليلُ شعَّ شهابا
وإذا العواصفُ حجّبتْ وجهَ السما   جَدَلَ العواصفَ للسما أسبابا
وإذا تقوّضَ صرحُ آمالٍ بنى   أملاً جديداً من رجاهُ خابا
فابنُ الكواكبِ كلُّ أفقٍ أفقهُ   وابنُ الضراغمِ ليسَ يَعْدِمُ غابا

*

عجباً لقومي والعدوُّ ببابهمْ   كيفَ استطابوا اللهوَ والألعابا ؟
وتخاذلتْ أسيافُهمْ عن سحقِهِ   في حينِ كانَ النصرُ منهمْ قابا
تركوا الحسامَ إلى الكلامِ تعلّلاً   يا سيفُ ليتكَ ما وجدتَ قِرابا
دنياكَ ، يا وطنَ العروبةِ ، غابةٌ   حشدتْ عليكَ أراقماً وذئابا
فالبسْ لها ماءَ الحديدِ مطارفاً   واجعلْ لسانكَ مخلباً أو نابا
لا شرعَ في الغاباتِ إلا شرعَها   فدعِ الكلامَ شكايةً وعتابا
هذي هيَ الدنيا التي أحببتَها   وسقيتَ غيرَكَ حبّها أكوابا

وضحكتَ مع أحلامِها ، وبكيتَ في   آلامِها ، وجرعتَ معها الصّابا
وأضلَّ روحَكَ في السُّرى وأضلّها   ما خلتَهُ ماءً فكانَ سرابا
ونظرتَ ، والأوصابُ تنهشُ قلبَها ،   فرأيتَ كلَّ لذاذةٍ أوصابا
شاءَ الظلومُ خرابَها فإذا الورى   لا يبصرونَ سوى نُهاهُ خرابا
دنيا تألّقَ أمسُها في يومِها   فاستجمعَ الأنسابَ والأحسابا
وسرى سناءُ الوحيِ مِنْ آفاقِها   يغشى العصورَ ويغمرُ الأحقابا
ألحقُّ ما رفعتْ بهِ جدرانَها   والخيرُ ما زانتْ بهِ الأبوابا
فاستنطقِ التاريخَ هلْ في سِفرِهِ   مجدٌ يضاهي مجدَها الخلّابا ؟
شابتْ حضاراتٌ ، ودالتْ وانطوتْ   أممٌ ، ومجدُ أميّةٍ ما شابا
الأمسُ كانَ لها وإنَّ لها غداً   تتلفّتُ الدنيا لَهُ إعجابا
غنّيتَ من قبلُ المحولةَ والعرا   أفلا تغني الروضةَ المخصابا ؟
عطفتْ لياليها عليكَ بشاشةً   فانسَ الليالي غربةً وعذابا
وانشرْ جناحكَ فالفضاءُ منوّرٌ   واملأْ كؤوسكَ قد وجدتَ شرابا
فلِشدوِ مثلكَ كُوّنتْ ، ولمثلها   خَلَقَ الإلهُ البلبلَ المطرابا

*

ليتَ الرياضَ تُعيرني ألوانَها   لأصوغَ منها للرئيسِ خطابا

وأقولَ إني عاجزٌ عن شكرِهِ   عجزَ الأناملِ أنْ تَلُمَّ عُبابا
أشكو إلى نفسي العَياءَ فتشتكي   مثلي ، وتصمتُ لا تُحيرُ جَوابا
فلقدْ رأيتُ البحرَ حينَ رأيتُهُ   فوقفتُ مضطربَ الرؤى هيّابا
أعميدَ سوريّا وكاشفَ ضَرِّها   خلقتْ يداكَ مِنَ الشيوخِ شَبابا
وبلابلُ كانتْ تَئِنُّ سجينةً   أطلقتَها وأطرتَهـــا أسرابا
يا صاحبَ الخلقِ المصفّى كالنّدى   لو لم تكنْ بَشَراً لكنتَ سَحابا
أملُ الشبيبةِ في يديكَ وديعةٌ   فارفعْ لها الأخلاقَ والآدابا
فالجهلُ أنّى كانَ فهو عقوبةٌ ،   والعلمُ أنّى كانَ كانَ ثَوابا
يا ويحَ نفسي كَمْ تطارِدُني النّوى   وتَهُدُّ مني القلبَ والأعصابا
وَدَّعتُ خلفَ البحرِ أمسُ أحبةً   وغداً أُوَدِّعُ ها هنا أحبابا

•

ريح الردى

عَصَفَتْ ريحُ الردى بالمشعلِ
فخبـــا

***

أيهـــا النائمُ عنا والعيونْ
في سَهَرْ
نحنُ من بعدِكَ أسرى للشجونْ
والكَدَرْ
تشتكي أرواحُنا ظـلمَ المنونْ
والقَدَرْ
للسما ، لَلّيل ، للفجرِ الجـلي
للرُّبى

***

للأقاحي الذابلاتِ الذاويةْ
كالأماني

السواقي النائحـــاتِ الباكيهْ
كالغواني
سَلَبَ الدهرُ حلاهـــا الغاليهْ
في ثوانِ
وبشاشاتُ الزمـــانِ الأولِ
والصبـــا

***

يا ربيعاً من وفـــاء وكرَمْ
في بَدَنْ
من رأى قبلكَ دنيا من شِيَمْ
في كَفَنْ
خلصتْ روحُكَ من سجنِ الألَمْ
والشَجَنْ
ومضى للبحرِ مـــاءُ الجدولِ
طـــربا

***

يا كريمَ الأصلِ قد زانَكَ فعلُكْ
وصفاتُكْ
عشتَ للناسِ كأنَّ الكلَّ أهلُكْ
ولداتُكْ
لهمُ كلُّ الذي تحوي وتملكْ
وحياتُكْ !
كنتَ في دنيا الضبابِ المسْدَلِ
كوكبا

***

عصفتْ ريحُ الردى بالمشعلِ
فخبـــا
فـــاذا كلُّ قصورِ الأمل
كالهبـــا

الرجل والمرأة

يا رُبَّ قائلةٍ والقولُ أجلُهُ   ما كانَ من غادةٍ حتى ولو كَذَبا

إلى مَ تُحتَقَرُ الغاداتُ بينكمُ   وَهُنَّ في الكونِ أرقى منكم رُتَبا

كُنَّ لكم سبباً في كلِّ مَكرُمَةٍ   وكنتمُ في شقاءِ المرأةِ السَّببا

زعمتمُ أنهنَّ خاملاتِ نُهى   ولو أرَدْنَ لصيَّرنَ الثَّرى ذَهبا

فقلتُ لو لم يَكنْ ذا رأيُ غانيةٍ   لهاجَ عندَ الرِّجالِ السُّخطَ والصَّخَبا

لم تُنصفينا وقد كنا نُؤمِّلُ أنْ   لا تنصفينا لهذا لا نرى عَجَبا

هيهاتِ تَعْدِلُ حسناءُ إذا حَكَمَتْ   فالظُّلْمُ طَبْعٌ على الغاداتِ قد غَلَبا

. . .

يُحارِبُ الرَّجلُ الدُّنيا فَيُخضِعُها   ويفزَعُ الدَّهرُ مذعوراً إذا غضِبا

يرنو فتضطربُ الآسادُ خائفةً   فإنْ رَنَتْ ذاتُ حُسْنٍ ظلَّ مضطرِبا

فإنْ تشأْ أودعتْ أحشاءهُ بَرَداً   وإنْ تشأْ أودعتْ أحشاءهُ لَهَبا

تُفني الليالي في همٍّ وفي تَعَبٍ   حذارَ أنْ تشتكي من دهرِها تَعَبا

ولو دَرَى أنَّ هذي الشهبُ تُزعجُها   أمسى يروعُ في أفلاكِها الشُّهُبا

يشقى لتصبحَ ذاتُ الحلْيِ ناعمةً   ويحملُ الهمَّ عنها راضياً طَرِبا

فما الذي نَفَحَتْهُ الغانياتُ بِهِ   سوى العذابِ الذي في عَينِهِ عَذُبا؟

هذا هو المرءُ يا ذاتَ العفافِ فمَنْ   يُنصِفْهُ لا شكَّ فيه يُنصفُ الأدَبا

عنَّفتِهِ وهو لا ذنبَ جناهُ سوى   أنْ ليسَ يَرضى بأنْ يغدو لها ذَنَبا

•

السيد المجتبى (1)

سَلامٌ عَلى السَّيدِ المُجتَبى ... كَقَطرِ الغَمامِ وَنَشرِ الكَبا
ويا مَرحَباً بأَميرِ السَّلام ... وَقُلْ لَهُ قولُنا مَرحَبا
قُدومُكَ بَدَّدَ عَنّا الأسى ... كما يَكشِفُ القَمرُ الغَيهَبا
وَأحيا المُنى في فُؤادِ الفتى ... وَرَدَّ إلى الشَّيخِ عَهدَ الصِّبى
كأنّي «بأيّارَ» خَيرِ الشُّهورِ ... أتاهُ البَشيرُ بذاكَ النَّبا
فوشّى الرِّياضَ، وحَلّى الحُقولَ، ... وزانَ الوِهادَ، وزانَ الرُّبى
وقالَ لأغصانِهِ صَفّقي ... وللطَّيرِ في الأرضِ أن تخطُبا
وللنَّسَماتِ تجوبُ البِلادَ ... وتملأُها أرَجاً طيِّبا
ورَنّتْ بأذني أغاريدُها ... فَقُلتُ لِكفّي أن تَكتُبا
فهذا القريضُ حَفيفُ الغُصونِ ... وشَدوُ الطُّيورِ، ونَفحُ الصَّبا

*

(1) ألقاها في المأدبة الكبرى التي أقيمت لسيادته بعد حفلة السيامة في
ـل سانت جورج في بروكلن نيويورك.

طَلَعتَ فطالَ خُفوقُ الفُؤادِ ... كأنَّ بهِ هِزّةَ الكَهرَبا
ولَيسَ بِهِ هِزّةُ الكَهرَباء ... ولكنْ رأى الثّالثةَ الكوكَبا
وألقَتْ إليكَ مقاليدَها ... نُفوسٌ تخيَّرتِ الأنسَبا
فيا صاحبَ الشِّيَمِ الباهِراتِ ... ويا مَنْ تَحِلُّ لديهِ الحُبا
تَقوَّلَ عنكَ صِغارُ النُّفوسِ ... لأمرٍ فما أدركوا مأربا
ومَن يَسلُبُ الشَّمسَ أنوارَها ... ومَن ذا الذي يُمسِكُ الصَّيِّبا؟
فأحسِنْ إليهِمْ وإنْ أخطأوا ... وكُنْ كالحَيا يُمطِرُ السَّبسَبا
إذا لم تُسامِحْ وأنتَ الكريمُ ... فَمَن ذا الذي يَرحَمُ المُذنِبا؟

*

لقد طَرِبَ التّاجُ والصَّولَجانُ ... وَحُقَّ لِهذينِ أن يَطرَبا
فإنْ هنّأوكَ بما نِلتَهُ ... فإنّي أُهنّي بكَ المَنصِبا

•

١٩٣١

لِيَطْرَبْ[1] مَنْ شاءَ أنْ يَطْرَبَا   فَلَسْتُ بِمُسْتَمْطِرٍ خُلَّبَا

عَرَفْتُ الزَّمانَ قَرِيبَ الأذَى   فَصِرْتُ إلى خَوْفِهِ أقْرَبَا

وَهذا الجَدِيدُ أبوهُ القَدِيمُ   وَلا تَلِدُ الحَيَّةُ الأرْنَبا

أرَى الكَوْنَ يَرْمُقُهُ ضاحِكاً   كَمَنْ راءَ في تِيهِهِ كَوكَبا

وَلَوْ عَلِمَ الخَلْقُ ما عِنْدَهُ   أهَلُّوا إلى اللهِ كَيْ يَغْرُبا

وَلَوْ عَلِمَ العِيدُ ما عِندَهُمْ   أبَى أنْ يُمَزِّقَ عَنْهُ الحِبَا

ألا لا يَغُرَّكَ تَهْلِيلُهُمْ   وَقَوْلَتُهُمْ لَكَ يا مَرْحَبا

فَقَدْ لَبِسُوكَ لِكَي يَخْلَعُوكَ   كما تَخْلَعُ القَدَمُ الجَوْرَبا

وَلُوعُونَ بالغَدْرِ مِنْ طَبْعِهِمْ   فَمَنْ لَمْ يَكُنْ غادِراً جَرَّبا

وَكائِنْ فَتًى هَزَّني قَوْلُهُ   أنا خِدْنُكَ الصّادِقُ المُجْتَبَى

أُرافِقُ مِنْ شَكْلِهِ ضَيْغَماً   يُرافِقُ مِنْ نَفْسِهِ ثَعْلَبَا

(١) فُتحت على الاتباع : والأصلُ فيها السكون جزماً بلام الأمر . (زهير)

هُمُ القَوْمُ أصْحَبُهُمْ مُكْرَهاً   كما يَصْحَبُ القَمَرُ الغَيْهَبا

أرانيَ أوْحَدَ مِنْ ناسِكٍ   عَلَى أنَّني في عِدادِ الدَّبَى

وَأمْرَحُ في بَلَدٍ عامِرٍ   وَأحْسَبُني قاطِناً سَبْسَبا

وَقالَ خَلِيلي : المَناةُ القُصورُ   وَكَيْفَ وَقَدْ مُلِئَتْ أذْؤُبا

ألِفْتُ الهُمُومَ فَلَوْ أنَّني   قَدَرْتُ تَمَنَّعْتُ أنْ أطْرَبا

كَأنَّ الجِبالَ عَلَى كاهِلي   كَأنَّ سُرُورِي أنْ أغْضَبا

وَكَيْفَ ارْتِياحُ أخي غُرْبَةٍ   يُصاحِبُ مِنْ هَمِّهِ عَقْرَبا

عَتَبْتُ عَلَى الدَّهْرِ لَوْ أنَّني   أمِنْتُ فُؤادِيَ أنْ يَعْتِبا

***

وَجَدْتُكَ والشَّيْبُ في مَفْرِقي   وَوَدَّعَني وَأخُوكَ الصِّبَى

فَلَيْسَ بُكائيَ عاماً خَلا   وَلكِنْ شَبابي الَّذي غُيِّبا

فَيا فَرَحاً بِمَجِيءِ السِّنِين   تَجِيءُ السُّنُونُ لِكَي تَذْهَبا

عَجِيبٌ مَشِيبِيَ قَبْلَ الأوانِ   وَأعْجَبُ أنْ لا أرَى أشْيَبا

فَإنَّ نَوائِبَ عارَكْتُها   تَرُدُّ فَتَى العَشْرِ مُحْدَوْدِبا

وَيا بِنْتَ «كُولُمْبَ» كَمْ تَضْحَكِينَ   كَأنَّكِ أبْصَرْتِ مُسْتَغْرِبا

١٩٣١

لِيَطْرَبْ[١] مَنْ شاء أنْ يَطْرَبَا — فَلَسْتُ بِمُسْتَمْطِرٍ خُلَّبَا

عَرَفْتُ الزَّمانَ قَرِيبَ الأذَى — فَصِرْتُ إلى خَوْفِهِ أقْرَبَا

وَهذا الجَديدُ أبوهُ القَديمُ — وَلا تَلِدُ الحَيَّةُ الأرْنَبَا

أرَى الكونَ يَرْمُقُهُ ضاحِكاً — كَمَنْ راءَ في تِيهِ كَوْكَبَا

وَلَوْ عَلِمَ الخَلْقُ ما عِنْدَهُ — أَهَلُّوا إلى اللهِ كَيْ يَغْرُبَا

وَلَوْ عَلِمَ العبدُ ما عِندَهُمْ — أبَى أنْ يُمَزِّقَ عَنْهُ الحِبَا

ألا لا يَغُرَّكَ تَهْليلُهُمْ — وَقَوْلَتُهُمْ لَكَ يا مَرْحَبا

فَقَدْ لَبِسُوكَ لِكَيْ يَخْلَعُوكَ — كما تَخْلَعُ القَدَمُ الجَوْرَبَا

وَلُوعُونَ بالغَدْرِ مِنْ طَبْعِهِمْ — فَمَنْ لَمْ يَكُنْ غادِراً جُرِّبَا

وَكائِنْ فَتًى هَزَّني قَوْلُهُ — أنا خِدْنُكَ الصّادِقُ المُجْتَبَى

أُرافِقُ مِنْ شَكْلِهِ ضَيْغَماً — يُرافِقُ مِنْ نَفْسِهِ ثَعْلَبا

---

(١) فُتحت على الاتباع : والاصلُ فيها السكون جزماً بلام الأمر .
(زهير)

هُمُ القَوْمُ أصْحَبُهُم مُكْرَهاً — كما يَصْحَبُ القَمَرُ الغَيْهَبَا

أراني أُوَحَّدَ مِنْ ناسِكٍ — عَلَى أنّني في عِدادِ الدُّبَى

وأمْرَحُ في بَلَدٍ عامِرٍ — وأحْسَبُني قاطِناً سَبْسَبَا

وَقالَ خَليلي : الهَناءُ القُصورُ — وكيفَ وقَدْ مُلِئَتْ أذْؤُبَا

ألِفْتُ الهُمُومَ فلو أنّني — قَدَرْتُ تَمَنَّعْتُ أنْ أطْرَبَا

كأنّ الجِبالَ على كاهِلي — كأنَّ سُروري أنْ أغْضَبَا

وكيفَ ارْتِياحُ أخي غُرْبَةٍ — يُصاحِبُ مِنْ هَمِّهِ عَقْرَبَا

عَتِبْتُ عَلَى الدَّهرِ لَوْ أنّني — أمِنْتُ فُؤادي أنْ يَعْتَبَا

***

وَجَدْتُكَ والشَّيْبُ في مَفْرِقي — وَوَدَّعَني وأخوكَ الصِّبَى

فَلَيْسَ بُكائي عاماً خَلا — ولكنْ شَبابي الذي غُيِّبَا

فيا فَرَحاً بِمَجِيءِ السِّنينِ — تَجِيءُ السُّنونُ لِكَيْ تَذْهَبَا

عَجيبٌ مَشيبي قَبْلَ الأوانِ — وأعْجَبُ أنْ لا أرَى أشْيَبَا

فإنَّ نَوائِبَ عارَكْتُها — تَرُدُّ فَتى العَشْرِ مُحْدَوْدِبَا

ويا بِنْتَ «كُولُمْبَ» كَمْ تَضْحَكِينَ — كأنّكِ أبْصَرْتِ مُسْتَغْرِبَا

أَلِدَسِّ البَيَاضُ الذي تكرَهِينَ يُحَبِّبُنِي ثَغْرَكِ الأَشْنَبَا

فَمَنْ كانَ يَكرَهُ إِشرَاقَهُ فإِنّي أَكْرَهُ أَنْ يُخضَبَا

أُحِبُّكَ يا أَيُّهَا المُسْتَنِيرُ وإِنْ تَكُ أَشمَتَّ بي الرَّبْرَبَا

وأَهوَى لِأَجلِكَ لَمْعَ البُرُوقِ وأَعشَقُ فيكَ أَقَاحَ الرُّبَى

***

وَيَا عَامُ هَلْ جِئْتَنَا مُحْرِماً فَنَرْجُوكَ أَمْ جِئْتَنَا مُحْرِبَا

تَوَلَّى أَخُوكَ وَقَدْ هَاجَهَا أَقَلُّ سِلَاحٍ بِفِيهَا الظُّبَى

يُجَنْدِلُ فِيهَا الخَمِيسُ الخَمِيسَ وَيَصْطَرِعُ المِقْنَبُ المِقْنَبَا

إِذَا ارْتَفَعَ الطَّرْفُ فِي جَوِّهَا رَأَى مِنْ عَجَاجَتِهَا هَيْدَبَا

وَجَيَّاشَةٍ بَرْقُهَا رَعْدُهَا تَدُكُّ مِنَ الشَّاهِقِ المَنْكِبَا

يَسِيرُ بِهَا الجُنْدُ مَحْمُولَةً قَضَاءً عَلَى عَجَلٍ رُكِّبَا

يَوَدُّ الفَتَى أَنَّهُ هَارِبٌ وَيَمْنَعُهُ الخَوْفُ أَنْ يَهْرُبَا

وَكَيْفَ النَّجَاةُ وَمَقْذُوفُهَا يَطُولُ مِنَ الشَّرْقِ مَنْ غَرَّبَا ؟

وَلَوْ أَنَّهُ فِي ثَنَايَا الغُيُومِ لَمَا أَمِنَ الغَيْمُ أَنْ يُطْلَبَا

تَسُحُّ فَلَوْ أَنَّ نِيرَانَهَا حَيَاً أَنْبَتَ المَاحِلَ المُجْدِبَا

فَمَا المَنْجَنِيقُ وَأَحْجَارُهُ وَمَا المَاضِيَاتُ الرِّقَاقُ الشَّبَا ؟

***

أَإِنْ شَكَتِ الأَرْضُ حَرَّ الصَّدَى سَقَاهَا النَّجِيعَ الوَرَى صَيِّبَا

فَيَا لَلْحُرُوبِ وَأَهْوَالِهَا أَمَا حَانَ يَا قَوْمُ أَنْ تُشْجَبَا

هُوَ المَوْتُ آتٍ عَلَى رَغْمِكُمْ فَأَلْقُوا المُسَدَّسَ وَالأَشْطَبَا

وَلِلْخَالِقِ المُلْكُ وَالمَالِكُونَ فَلَا تَتْبَعُوا فِيكُمُ أَشْعَبَا

***

وَلَمْ أَنْسَ مَصْرَعَ « تِيتَانِكٍ » وَمَصْرَعَنَا يَوْمَ طَارَ النَّبَا

فَمِنْ شِدَّةِ الهَوْلِ فِي صِدْقِهِ رَغِبْنَا إِلَى « البَرْقِ » أَنْ يَكْذِبَا

لَيَالِيَ لَا نَسْتَطِيبُ الكَرَى وَلَا نَجِدُ المَاءَ مُسْتَعْذَبَا

وَبَاتَ فُؤَادِي ، بِهِ صَدْعُهَا وَبِتُّ أُحَاذِرُ أَنْ يُرْأَبَا

وَلِي نَاظِرٌ غَرِقٌ مِثْلُهَا مِنَ الدَّمْعِ بِالبَحْرِ مُسْتَوْثِبَا

إِذَا مَا تَذَكَّرْتُهَا هِجْتُ بِي أَسىً تَتَّقِيهِ الحَشَا مِخْلَبَا

فَأُمْسِي عَلَى كَبِدِي رَاحَتِي أَخَافُ مَعَ الدَّمْعِ أَنْ تُسْرَبَا

خُطُوبٌ يَرَاهَا الوَرَى مِثْلَهَا لِذَلِكَ أُشْفِقُ أَنْ تُكْتَبَا

***

لقد نَكَبَ الشَّرقَ نَكَبَاتِهِ   وَحاوَلَ أَنْ يَنكُبَ المَغرِبَا

وأَشقَى نُفُوسَ بَنِي آدَمٍ   لِيُرضِي السَّرَاحِينَ والأَعْقُبَا[1]

ولَوْ جَازَ بَيْنَ الضُّحَى والدُّجَى   لَقَاتَلَ فِيهِ الضُّحَى الغَيْهَبَا

لَعَلَّكَ تَمْحُو جِنَـــايَاتِهِ   فَتَنْسَى بِكَ الذَّنْبَ والمُذْنِبَا

إِذَا كُنتَ لا تَستَطِيعُ الخُلُودَ   فَعِشْ بَيْنَنَا أَثَرًا طَيِّبَـــا

فَإِنَّكَ فِي إِثْرِهِ رَاحِـــلٌ   مَشَيْتَ السِّوَاكَ أَوِ الهَيْدَبَى!

•

(١) السراحين: واحدها السرحان، وهو الذئب. والاعقب: جمع مفرده عقاب وهو الطائر الجارح المعروف.

بردي يا سحب

رَضِيَتْ نفسي بقسمتِها   فليراوِدْ غيرِيَ الشُّهُبَا

كلُّ نجمٍ لا اهتداءُ بـــهِ   لا أبالي لاحَ أو غَرُبَا

كلُّ نهرٍ لا ارتواءَ بـــهِ   لا أبالي سالَ أو نَضَبَـــا

مـــا غدٌ، يا مَنْ يصورهُ   ليَ شيئاً رائعـــاً عَجَبَا

مـــا لهُ عينٌ ولا أثرُ   هو كالأمسِ الذي ذَهَبَـــا

أسقني الصهباء إنْ حضرَتْ   ثمَّ صِفْ لي الكأس والحَبَبَا

ليسَ يَرويني مقالكَ لي   أنَّهـــا العقيانُ منسكِبَا

إنْ صدقـــاً لا أحسُّ بهِ   هـــو شيءٌ يشبهُ الكَذِبَا

لا ينجي الشاةَ من سَغَبٍ   أنَّ في أرضِ السُّهى عَشَبَا

ما على مَنْ لا يطيقُ يرى   نَوَّرَ الوادي أوِ اكتَأَبَا

ما يفيدُ الطيرَ في قفصٍ   ضاقَ هذا الجوُّ أو رَحُبَـــا

. . .

بِرْدي، يا سحبُ، من ظمأي واهطلي من بعد ذا ذَهَبا
أو فكوني غيرَ راحةٍ حمماً حمراء لا سُحُبا
ولأكنْ وحدي لها هَدَفاً ولتكنْ نفسي لها حَطَبا
أنا من قومٍ إذا حزنوا وجدوا في حزنهمْ طَرَبا
وإذا ما غايةٌ صَعُبَتْ هوّنوا بالتركِ ما صَعُبا



قصيدة الطبيعة

روضٌ إذا زرتَهُ كئيبا نَفَّسَ عن قلبِكَ الكُروبا
يعيدُ قلبَ الخليِّ مغرماً ويُنسيَ العاشقُ الحبيبا
إذا بكاهُ الغمامُ شَقَّتْ من الأسى زهرهُ الجيوبا
تلقى لديهِ الصَّفا ضروباً ولستَ تلقى لَهُ ضريبا
وشاهُ قَطْرُ النّدى فأضحى رداؤهُ معلماً قشيبا
فمن غصونٍ تميسُ تيهاً ومن زهورٍ تضوعُ طيبا
ومن طيورٍ إذا تغنّتْ عادَ المعنّى بها طَروبا
ونرجسٍ كالرقيبِ يرنو وليسَ ما يَقتضي رقيبا
وأقحوانٍ يريكَ دُرّاً وجلّنار حكى اللهيبا
وجدولٍ لا يزالُ يجري كأنّهُ يقتفي مريبا
تَسْمَعُ طوراً لَهُ خريراً وتارةً في الثّرى دبيبا
إذا ترامى على جَديبٍ أمسى بهِ مربعاً خصيبا
أو يَتجنّى على خَصيبٍ أعادَهُ قاحلاً جديبا
صَحَّ فلو جاءَهُ عليلٌ لم يأتِ من بَعْدِهِ طبيبا
وكلُّ معنى بهِ جميلٌ يُعَلِّمُ الشاعرَ النسيبا
أرضٌ إذا زارها غريبٌ أصبحَ عن أرضِهِ غريبا

لا يدرك الهرم النجوم

قصيدة بعث بها الى صديقه
الشاعر المرحوم مسعود سماحة .

يا شاعراً حلوَ المودّةِ في الحضورِ وفي الغيابْ
شهدٌ ولاؤكَ والأنامُ ولاؤهُمْ شهدٌ وصابْ
أنا إن شكوتُ إليكَ منكَ، وسالَ في كُتْبي العتابْ
فحكايتي كحكايةِ الظمآنِ في قفرٍ يَبابْ
لم يروِهِ لمعُ السرابِ فراحَ يستسقي السحابْ
فَهَمى، فكانَ الخيرُ فيهِ للأباطحِ والهضابْ
«مسعودُ» أهونُ بالمشيبِ فما امّحى إلا الخضابْ
ماذا عليكَ من الثلوجِ وفي ضلوعِكَ حرُّ آبْ
الكأسُ أجملُ في النواظرِ إذ يرصّعُها الحبابْ
إن شابَ منكَ المفرقانِ فما أظنُّ القلبَ شابْ
لا تزعمنْ لَهُ المتابَ فـإنَّ توبتهُ كِذابْ
ما زالَ يخفقُ بالهوى، ويفيضُ بالسحرِ العجابْ

ويُريكَ دنيا لا تُحدُّ، ومن ورائِكَ ألفَ بابْ
دنيا من اللذّاتِ والأفراحِ في دنيا عذابْ
ويُريكَ جنّاتِ الجمالِ وأنتَ في الطللِ الخرابْ

★

أفقِ القوافي الشادياتِ كأنّهـا أطيارُ غابْ
إنْ قيلَ إنكَ صرتَ شيخاً، قُلْ أجلْ شيخُ الشبابْ
أترى إذا العنوانُ ضاعَ يضيعُ مضمونُ الكتابْ
ألسيفُ ليسَ يعيبهُ مشيُ الخلوقةِ في القرابْ
والخمرُ خمرٌ في إناءٍ من لُجَيْنٍ أو ترابْ
وحياةُ مثلِكَ ليسَ تدخلُ في قياسٍ أو حسابْ
فغدٌ زمانكَ مثلُ أمسِ وإنْ مضى عصرُ الشبابْ
لا يدركُ الهرمُ النجومَ وأنتَ في الدنيا شهابْ
وإذا يعابُ على المشيبِ فتىً فَمَنْ ذا لا يُعابْ
أو كانَ يمدحُ بالسوادِ فَمَنْ تُرى مَدَحَ الغرابْ

★

يا نفحـةً من شاعرٍ أرِجَ الكتابُ بها وطابْ
الفجرُ أهدى ليَ السنا والروضُ أهدى ليَ الملابْ

الناسك

أبصرتُ في الحقلِ قُبيلَ المغيبْ

سنبلةً في سَفحِ ذاكَ الكثيبْ

حانيةً مطرقةَ الرأسِ كأنما تسجد للشمسِ

أو أنهـا تتلو صلاةَ المساء

***

قلتُ عن راهبةِ الحقـل

وسرتُ لا ألوي على ظلّي

ألتقط الحبَّ وأذريه وتارةً في النارِ ألقيه

مستخرجاً منه لجسمي غذاء

***

قد غابتِ الشمسُ وراءَ القِمَمْ

وسكتَ الطيرُ الذي لم ينَمْ

لكنَّ ناري لم تزلْ تَوْعجُ ولم أزلْ آكلُ ما تُنضجُ

يا حبذا النارُ ونعمَ الشواء

***

وإنني في مرَحي والدَّدِ

إذ صاحَ بي صوتٌ بلا موعدِ

ما الحبُّ، يا هذا، ولا السنبلُ ما تأكلُ النارُ ومـا تأكلُ

وإنمـا أسلافكَ الاصفياء

***

لا بَشَرٌ، لا طائرٌ ماثلْ

يا عجبا ! نُطقٌ ولا قائلْ

من أينَ جاء الصوتُ؟ لا أدري لكنَّما ناسكةُ البرّ

قد رفَعتْ هامتها للعـلاء

•

يا صاح !..

يا صاحِ كم تُفّاحةٍ غضّةٍ   يحملها في الرّوضِ غُصنٌ رطيبْ
ناضجةٍ ترنحُ في جوّهـــا   مثل ارتجاجِ الشّمسِ عند المَغيبْ
حرّضكَ الوَجدُ على قطفها   لمّا غفا الواشي ونامَ الرّقيبْ
لكنْ لأمرٍ أنتَ أدرى بهِ   رجعتَ عنها رجعةَ المُستريبْ
تقولُ للنّفسِ الطّموحِ اقصري   ما سرقةُ التّفاحِ شأنَ الأريبْ

*

وربَّ صفراءَ كلونِ الضّحى   ينعمُ بها أهلُ الكروبِ الكروبْ
دارتْ على الشّربِ بها غادةٌ   كأنّها ظبيُ الكناسِ الرّبيبْ
في طرفِكَ السّاجي هيامٌ بها   وبينَ أحشائكَ شوقٌ مذيبْ
لكنْ لأمرٍ أنتَ أدرى بهِ   رجعتَ عنها رجعةَ المستريبْ
تقولُ للنّفسِ الطّموحِ اقصري   ما غرَّ بالصّهباءِ يوماً لبيبْ
إيّاكِ إيّاكِ وأكوابهـــا   أختُ الخنا هذي وأمُّ الذّنوبْ

*

وكم شِفـــاهٍ أرجوانيّةٍ   كأنّهـــا مخضوبةٌ باللّهيبْ
ساعدكَ الدّهرُ على لثمِها   ورشفِ ما خلفَ اللّهيبِ العجيبْ
لكنْ لأمرٍ أنتَ أدرى بهِ   رجعتَ عنها رجعةَ المُستريبْ
تعنّفُ القلبَ على غيّهِ   وتعذلُ العينَ التي لا تُنيبْ
قتلتَ نزعاتِكَ في مهدِها   ولم تُطعْ في الحبِّ حتّى الحبيبْ

*

والآنَ لمّا انجابَ عنكَ الصّبى   ولاحَ في المفرقِ ثلجُ المشيبْ
واستسلمَ القلبُ كما استبسلتْ   نفسُكَ لليأسِ المخوفِ الرّهيبْ
أراكَ للحسرةِ تبكي كما   يبكي على النّائي الغريبِ الغريبْ
تودُّ لو أنّ الصّبى عائدٌ   هيهاتَ قد مرَّ الزّمانُ القشيبْ

*

خلِّ البكا يا صاحِ والأسى   اللّيلُ لا يُقصيهِ عنكَ النّحيبْ
لا خيرَ في الشّيءِ انقضى وقتُهُ   ما لقتيلٍ حاجةٌ بالطّبيبْ !!!

فردوسي

بنيتُ فردوسي وزخرفتُهُ

حتى إذا ما تمَّ صنعتُهُ

أجريتُ في أنهارهِ كوثراً

فذاقهُ الناسُ وما ذقتُهُ



الطلاسم

جئتُ، لا أعلمُ مِن أينَ، ولكنّي أتيتُ

ولقد أبصرتُ قُدّامي طريقاً فمشيتُ

وسأبقى ماشياً إن شئتُ هذا أم أبيتُ

كيفَ جئتُ؟ كيفَ أبصرتُ طريقي؟

لستُ أدري!

•

أجديدٌ أم قديمٌ أنا في هذا الوُجودْ

هل أنا حرٌّ طليقٌ أم أسيرٌ في قيودْ

هلْ أنا قائدُ نفسي في حياتي أم مَقودْ

أتمنّى أنني أدري ولكنْ...

لستُ أدري!

•

وطريقي، ما طريقي؟ أطويلٌ أم قصيرْ؟

هلْ أنا أصعدُ أمْ أهبطُ فيهِ وأغورْ

أأنا السائرُ في الدربِ أم الدربُ يسيرُ
أمْ كلانا واقفٌ والدهرُ يجري ؟
لستُ أدري !

•

ليتَ شِعري وأنا في عالمِ الغيبِ الأمينْ
أتراني كُنتُ أدري أنني فيهِ دفـــينْ
وبأني سوفَ أبدو وبأني سأكونْ
أمْ تراني كُنتُ لا أدركُ شيئاً ؟
لستُ أدري !

•

أتراني قبلَما أصبحتُ إنساناً سويّاً
أتراني كُنتُ محواً أمْ تراني كُنتُ شيّا
ألهذا اللغزِ حلٌّ أم سيبقى أبديّا
لستُ أدري . . . ولماذا لستُ أدري ؟
لستُ أدري !

•

البحر :
قد سألتُ البحرَ يوماً هلْ أنا يا بحرُ منكا ؟

هلْ صحيحٌ ما رواهُ بعضُهُمْ عني وعنكا ؟
أم ترى ما زعموا زوراً وبهتاناً وإفكا ؟
ضحكتْ أمواجُهُ مني وقالتْ :
لستُ أدري !

•

أيُّها البحرُ ، أتدري كمْ مضتْ ألفٌ عليكا
وهلِ الشاطئ يدري أنَّهُ جاثٍ لديكا
وهلِ الأنهارُ تدري أنها منكَ إليكا
ما الذي الأمواجُ قالت حينَ ثارت ؟
لستُ أدري !

•

أنتَ يا بحرُ أسيرٌ آهِ ما أعظمَ أسرَكْ
أنتَ مثلي أيُّها الجبّارُ لا تملكُ أمرَكْ
أشبهتْ حالُكَ حالي وحكى عذري عذرَكْ
فمتى أنجو منَ الأسرِ وتنجو ؟ . .
لستُ أدري !

•

تُرسِلُ السُحبَ فتسقي أرضنا والشجرا

قد أكلناكَ وقُلنا قد أكلنا الثَّمرا
وشَربناكَ وقُلنـــا قَد شَربنا المطَرا
أصوابٌ مَـــا زَعمنا أم ضَلالٌ ؟
لَستُ أدري !

•

قَد سَألتُ السُّحبَ في الآفاقِ هَل تذكرُ رَملَكْ
وسَألتُ الشَّجرَ المورِقَ هَل يَعرفُ فَضلَكْ
وسَألتُ الدُّرَّ في الأعناقِ هَل تذكرُ أصلَكْ
وكأني خِلتُها قَالتْ جَميعـــاً :
لَستُ أدري !

•

يَرقُصُ الموجُ وفي قاعِكَ حَربٌ لَن تَزولا
تَخلُقُ الأسماكَ لكنْ تَخلُقُ الحوتَ الأكُولا
قَد جَمعتَ الموتَ في صَدرِكَ والعَيشَ الجَميلا
لَيتَ شِعري أنتَ مَهدٌ أمْ ضَريحٌ ؟ . .
لَستُ أدري !

•

كَمْ فَتاةٍ مِثلِ لَيلَى وفَتًى كابْنِ المُلوَّحْ

أنفقا السَّاعاتِ في الشَّاطِىءِ، تَشكُو وهوَ يَشرَحْ
كلَّما حدَّثَ أصغَتْ وإذا قَالَتْ تَرنَّحْ
أحفيفُ المَـــوجِ سِرٌّ ضَيَّعاهُ ؟ . .
لَستُ أدري !

•

كَمْ مُلوكٍ ضَرَبوا حَولَكَ في اللَّيلِ القِبابَا
طَلَعَ الصُّبحُ ولكن لم نَجِدْ إلَّا الضَّبابَا
ألَهم يا بحـــرُ يَوماً رَجعةٌ أم لا مآبَا
أم هُم في الرَّملِ ؟ قالَ الرَّملُ إني . .
لَستُ أدري !

•

فِيكَ مِثلي أيُّها الجبَّارُ أصدافٌ ورَملُ
إنَّما أنتَ بلَا ظِلٍّ ولِي في الأرضِ ظِلُّ
إنَّما أنتَ بِلَا عقلٍ ولِي، يا بحرُ، عَقلُ
فَلِماذا ، يا تُرى، أمضِي وتَبقى ؟ . .
لَستُ أدري !

•

يا كِتابَ الدَّهرِ قلْ لي ألَهُ قَبلٌ وبَعدُ

أنا كالزورق فيه وهو بحر لا يحد
ليس لي قصد فهل للدهر في سيري قصد
حبذا العلم، ولكن كيف أدري؟..
لست أدري!

•

إن في صدري، يا بحر، لأسراراً عجابا
نزل الستر عليها وأنا كنت الحجابا
ولذا أزداد بعداً كلما ازددت اقترابا
وأراني كلما أوشكت أدري ...
لست أدري!

•

إنني، يا بحر، بحر شاطئاه شاطئاكا
الغد المجهول والأمس اللذان اكتنفاكا
وكلانا قطرة، يا بحر، في هذا وذاكا
لا تسلني ما غد، ما أمس؟.. إني ...
لست أدري!

•

قيل لي في الدير قوم أدركوا سر الحياة
غير أني لم أجد غير عقول آسنات
وقلوب بليت فيها المنى فهي رفات
ما أنا أعمى فهل غيري أعمى؟..
لست أدري!

•

قيل أدرى الناس بالأسرار سكان الصوامع
قلت إن صح الذي قالوا فإن السر شائع
عجباً كيف ترى الشمس عيون في البراقع
والتي لم تتبرقع لا تراها؟..
لست أدري!

•

إن تك العزلة نسكاً وتقى فالذئب راهب
وعرين الليث دير حبه فرض وواجب
ليت شعري أيميت النسك أم يحيي المواهب
كيف يمحو النسك إثماً وهو إثم؟..
لست أدري!

إنني أبصرتُ في الدَّيرِ وروداً في سِياجِ
قنعتْ بعدَ النَّدى الطَّاهرِ بالماءِ الأُجاجِ
حولَها النُّورُ الذي يحيي، وترضى بالدَّياجي
أمِنَ الحكمةِ قتلُ القلبِ صبرًا ؟ . .
لستُ أدري !

•

قد دخلتُ الدَّيرَ عندَ الفجرِ كالفجرِ الطَّروبْ
وتركتُ الدَّيرَ عندَ اللَّيلِ كاللَّيلِ الغضوبْ
كانَ في نفسي كربٌ، صارَ في نفسي كروبْ
أمِنَ الدَّيرِ أم اللَّيلِ اكتئابي ؟
لستُ أدري !

•

قد دخلتُ الدَّيرَ أستنطقُ فيهِ الناسكينا
فإذا القومُ منَ الحيرةِ مثلي باهتونا
غلبَ اليأسُ عليهم، فهمُ مستسلمونا
وإذا بالبابِ مكتوبٌ عليهِ . . .
لستُ أدري !

•

عجباً للنَّاسكِ القانتِ وهو اللَّوذعي
هجرَ النَّاسَ وفيهم كلُّ حسنِ المبدعِ
وغدا يبحثُ عنهُ في المكانِ البلقعِ
أرأى في القفرِ ماءً أم سرابا ؟ . .
لستُ أدري !

•

كم تمارى، أيُّها النَّاسكُ، في الحقِّ الصَّريحْ
لو أرادَ اللهُ أن لا تعشقَ الشَّيءَ المليحْ
كانَ إذ سوَّاكَ سوَّاكَ بلا عقلٍ وروحْ
فالذي تفعلُ إثمٌ . . . قالَ إنّي . . .
لستُ أدري !

•

أيُّها الهاربُ إنَّ العارَ في هذا الفرارِ
لا صلاحَ في الذي تفعلُ حتّى للقفارِ
أنتَ جانٍ أيُّ جانٍ، قاتلٌ في غيرِ ثارِ
أفيرضى اللهُ عن هذا ويعفو ؟ . .
لستُ أدري !

•

بين المقابر :

وَلَقَدْ قُلتُ لِنَفسي ، وأنا بينَ المَقابِرْ
هَلْ رأيتِ الأمْنَ والرَّاحةَ إلّا في الحَفائِرْ ؟
فأشارتْ : فإذا لِلدُّودِ عَيثٌ في المَحاجِرْ
ثُمَّ قالتَ : أيُّهـا السّائِلُ إنّي . . .
لَستُ أدري !

•

أنظُري كَيفَ تَساوى الكلُّ في هذا المَكانِ
وتَلاشَى في بَقايا العَبدِ ربُّ الصَّولَجانِ
والتَقى العاشِقُ والقالي فَـما يَفترِقانِ
أفَبِذا مُنتَهى العَدلِ ؟ فقالت . . .
لَستُ أدري !

•

إنْ يَكُ الموتُ قِصاصاً ، أيُّ ذَنبٍ للطَّهارَةْ
وإذا كانَ ثواباً ، أيُّ فَضلٍ للدَّعارَةْ
وإذا كانَ وما فيهِ جَزاءٌ أو خَسارَةْ
فَـلِمَ الأسماءُ إثمٌ أو صَلاحٌ ؟ . .
لَستُ أدري !

أيُّها القَبرُ تَكَلَّمْ ، واخبِرني يا رِمامْ
هَل طَوى أحلامَكَ الموتُ وهَل ماتَ الغَرامْ
مَن هوَ المائِتُ مِن عامٍ ومِن مليونِ عامْ
أيَصيرُ الوقتُ في الأرماسِ مَحواً ؟ . .
لَستُ أدري !

•

إن يَكُ المَوتُ رُقاداً بَعدَهُ صَحوٌ طَويلْ
فلِماذا لَيسَ يَبقى صَحوُنا هذا الجَميلْ ؟
ولِماذا المرءُ لا يَدري مَتى وَقتُ الرَّحيلْ ؟
ومَتى يَنكَشِفُ السِّرُّ فَيَدري ؟ . .
لَستُ أدري !

•

إن يَكُ المَوتُ هُجوعاً يَملأُ النَّفسَ سَلاما
وانعِتاقاً لا اعتِقالاً وابتِداءً لا خِتاما
فلِماذا أعشَقُ النَّومَ ولا أهوى الحِماما
ولِمـاذا تَجزَعُ الأرواحُ مِنهُ ؟ . .
لَستُ أدري !

•

أوراءَ القبرِ بعدَ الموتِ بعثٌ ونشورُ
فحياةٌ فخلودٌ أم فنــاءٌ ودثورُ
أكلامُ الناسِ صدقٌ أم كلامُ الناسِ زورُ
أصحيحٌ أنَّ بعضَ الناسِ يدري ؟ . .
لستُ أدري !

•

إن أكنْ أبعثُ بعدَ الموتِ جثماناً وعقلاً
أترَى أبعثُ بعضاً أم ترَى أبعثُ كُلاً
أترَى أبعثُ طفلاً أم ترَى أبعثُ كهلاً
ثمَّ هل أعرفُ بعدَ الموتِ ذاتي ؟ . . .
لستُ أدري !

•

يا صديقي ، لا تعلّلني بتمزيقِ الستورِ
بعدَما أقضي فعقلي لا يبالي بالقشورِ
إن أكنْ في حالةِ الإدراكِ لا أدري مصيري
كيفَ أدري بعدَما أفقدُ رشدي . . .
لستُ أدري !

•

القصر والكوخ :

ولقد أبصرتُ قصراً شاهقاً عالي القبابْ
قلتُ ما شادكَ من شادكَ إلّا للخرابْ
أنتَ جزءٌ منهُ لكنْ لستَ تدري كيفَ غابْ
وهو لا يعلمُ ما تحوي ، أيدري ؟ . .
لستُ أدري !

•

يا مثالاً كانَ وهماً قبلمـا شاءَ البناةْ
أنتَ فكرٌ من دماغٍ غيّبتهُ الظلماتْ
أنتَ أمنيّةُ قلبٍ أكلتهُ الحشراتْ
أنتَ بانيكَ الذي شادكَ لا . . . لا . . .
لستُ أدري !

•

كمْ قصورٍ خالها الباني ستبقى وتدومْ
ثابتاتٍ كالرواسي خالداتٍ كالنجومْ
سحبَ الدهرُ عليها ذيلَهُ فهيَ رسومْ
ما لنا نبني ومـا نبني لهدمٍ ؟ . .
لستُ أدري !

لَمْ أجدْ في القصرِ شيئاً ليسَ في الكوخِ المَهينِ
أنا في هذا وهذا عبدُ شكٍّ ويقينِ
وسجينُ الخالدَينِ اللّيلِ والصُّبحِ المُبينِ
هَل أنا في القصر أم في الكوخ أرقى ؟
لستُ أدري !

•

ليسَ في الكوخِ ولا في القصرِ مِنْ نفسي مَهربْ
أنني أرجو وأخشى ، إنني أرضى وأغضبْ
كانَ ثوبي مِنْ حريرٍ مُذْهَبٍ أو كانَ قُنَّبْ
فلِماذا يتمنّى الثوبَ عـاري ؟..
لستُ أدري !

•

سائِلِ الفجرَ : أعِندَ الفجرِ طينٌ ورُخامْ ؟
واسألِ القصرَ ألا يُخفيهِ، كالكوخِ ، الظّلامْ
واسألِ الأنجمَ والرّيحَ وسَلْ صوبَ الغَمامْ
أترى الشيءَ كما نحنُ نراهُ ؟..
لَستُ أدري !

•

الفكر :

رُبَّ فِكرٍ لاحَ في لوحةِ نفسي وتجلّى
خِلتُهُ مِنّي ولكنْ لمْ يُقِمْ حتّى تولّى
مِثلَ طيفٍ لاحَ في بئرٍ قليلاً واضمحلّا
كيفَ وافى ولِمـاذا فرَّ مِنّي ؟
لَسْتُ أدري !

•

أتراهُ سابحاً في الأرضِ مِنْ نفسٍ لأخرى
رابَهُ مِنّي أمرٌ فـأبى أنْ يستقرّا
أم تراهُ مرَّ في نفسي كما أعبرُ جسرا
هَلْ رآهُ قبلَ نفسي غيرُ نفسي ؟
لَسْتُ أدري !

•

أم تُراهُ بارِقاً أومضَ حيناً وتوارى
أم تُراهُ كانَ مِثلَ الطّيرِ في سِجنٍ فطارا
أم تُراهُ انحلَّ كالموجةِ في نفسي وغارا
فأنا أبحثُ عنهُ وهوَ فيهـا ،
لَسْتُ أدري !

صراع وعراك :

إنني أشهدُ في نَفسي صراعاً وعِراكا

وأرى ذاتيَ شيطاناً وأحياناً ملاكا

هَلْ أنا شخصانِ يأبى هذا مَعْ ذاكَ اشتراكا

أم تُراني واهِماً فيما أراهُ ؟

لَستُ أدري !

•

بينما قلبيَ يحكي في الضحى إحدى الخمائلْ

فيهِ أزهارٌ وأطيارٌ تُغني وجداولْ

أقبلَ العصرُ فأمسى موحشاً كالقفرِ قاحلْ

كيفَ صارَ القلبُ روضاً ثمَّ قفراً ؟

لَستُ أدري !

•

أينَ ضحكي وبُكائي وأنا طِفلٌ صغيرْ

أينَ جهلي ومَراحي وأنا غضٌّ غريرْ

أينَ أحلامي وكانَتْ كيفما سِرتُ تَسيرْ

كلُّها ضاعَتْ ولكن كيفَ ضاعَتْ ؟

لَستُ أدري !

ليَ إيمانٌ ولكنْ لا كإيماني ونُسكي

إنني أبكي ولكنْ لا كما قد كُنتُ أبكي

وأنا أضحكُ أحياناً ولكنْ أيُّ ضِحكِ

لَيت شِعري ما الذي بدَّلَ أمري ؟

لَستُ أدري !

•

كلَّ يومٍ ليَ شأنٌ ، كلَّ حينٍ لي شُعورْ

هَلْ أنا اليومَ أنا منذُ ليالٍ وشُهورْ

أم أنا عِندَ غُروبِ الشمسِ غيري في البُكورْ

كلَّما ساءلتُ نفسي جاوبَتني :

لَستُ أدري !

•

رُبَّ أمرٍ كُنتُ لمّا كانَ عِندي أتّقيهِ

بتُّ لمّا غابَ عَنّي وتوارى أشتهيهِ

ما الذي حبَّبَهُ عِندي وما بغَّضنيهِ

أأنا الشخصُ الذي أعرضَ عنهُ ؟

لَستُ أدري !

•

رُبَّ شَخصٍ عِشتُ مَعَهُ زَمَناً أَلهو وَأَمرَحْ

أَو مَكانٍ مَرَّ دَهرٌ وَهوَ لي مَسرى وَمَسرَحْ

لاحَ لي في البُعدِ أَجلى مِنهُ في القُربِ وَأَوضَحْ

كَيفَ يَبقى رَسمُ شَيءٍ قَد تَوارى ؟

لَستُ أَدري !

•

رُبَّ بُستانٍ قَضَيتُ العُمرَ أَحمي شَجَرَهْ

وَمَنَعتُ النّاسَ أَن تَقطِفَ مِنهُ زَهَرَهْ

جاءَتِ الأَطيارُ في الفَجرِ فَنالَتْ ثَمَرَهْ

أَلِلأَطيـارِ السَّما البُستانُ أَم لي ؟

لَستُ أَدري !

•

رُبَّ قُبحٍ عِندَ زَيدٍ هوَ حُسنٌ عِندَ بَكرِ

فَهُما ضِدّانِ فيهِ وَهوَ وَهمٌ عِندَ عَمرِو

فَمَنِ الصّادِقُ فيما يَدَّعيهِ، لَيتَ شِعري

وَلِمـاذا لَيسَ لِلحُسنِ قِياسُ ؟

لَستُ أَدري !

•

قَد رَأَيتُ الحُسنَ يُنسى مِثلَما تُنسى العُيوبُ

وَطُلوعَ الشَّمسِ يُرجى مِثلَما يُرجى الغُروبُ

وَرَأَيتُ الشَّرَّ مِثلَ الخَيرِ يَمضي وَيَؤوبُ

فَلِمـاذا أَحسَبُ الشَّرَّ دَخيلاً ؟

لَستُ أَدري !

•

إِنَّ هذا الغَيثَ يَهمي حينَ يَهمي مُكرَهَا

وَزُهورُ الأَرضِ تُفشي مُجبَراتٍ عِطرَها

لا تُطيقُ الأَرضُ تُخفي شَوكَها أَو زَهرَها

لا تَسَلْ : أَيُّهُما أَشهى وَأَبهى ؟

لَستُ أَدري !

•

قَد يَصيرُ الشَّوكُ إِكليلاً لِمَلْكٍ أَو نَبيٍّ

وَيَصيرُ الوَردُ في عُروَةِ لِصٍّ أَو بَغِيٍّ

أَيَغارُ الشَّوكُ في الحَقلِ مِنَ الزَّهرِ الجَنِيِّ

أَم تُرى يَحسَبُهُ أَحقَرَ مِنهُ ؟

لَستُ أَدري !

•

قد يَقيني الخطَرَ الشوكُ الذي يَجْرحُ كَفّي
وَيكونُ السُّمُّ في العِطرِ الّذي يَملأُ أنفي
إنّما الوردُ هوَ الأفضلُ في شَرعي وعُرفي
وَهوَ شرعٌ كلّهُ ظُلمٌ ولَكنْ . . .
لَستُ أدري !

•

قَدْ رَأيتُ الشُّهبَ لا تَدري لِماذا تُشرقْ
ورَأيتُ السُّحبَ لا تدري لِماذا تُغدقْ
ورَأيتُ الغَابَ لا تدري لِماذا تورقْ
فلِمـــاذا كلُّها في الجَهلِ مِثلي ؟
لَستُ أدري !

•

كلّما أيقَنتُ أني قَد أمطتُ السِّترَ عَني
وَبلغتُ السِّرَّ سِرّي ضَحِكَتْ نفسيَ مِني
قَدْ وَجدتُ اليأسَ والحيرةَ لكنْ لم أجِدني
فهَـــلِ الجَهلُ نَعيمٌ أم جَحيمٌ ؟
لَستُ أدري !

•

لذّةٌ عِندي أنْ أسمَعَ تَغريدَ البَلابِلْ
وَحفيفَ الوَرَقِ الأخضَرِ أو هَمسَ الجَداولْ
وأرى الأنجمَ في الظّلماءِ تَبدو كالمَشاعِلْ
أترى مِنهـــا أم اللّذةُ مِنّي . . .
لَستُ أدري !

•

أتُراني كُنتُ يوماً نَغماً في وَتَرِ
أم تُراني كُنتُ قَبلاً مَوجةً في نَهرِ
أم تُراني كُنتُ في إحدى النُّجومِ الزُّهرِ
أم أريجاً ، أم حَفيفاً ، أم نَسيماً ؟
لَستُ أدري !

•

فيَّ مِثلُ البَحرِ أصدافٌ ورَملٌ ولآلْ
فيَّ كالأرضِ مُروجٌ وسُفوحٌ وجِبالْ
فيَّ كالجوِّ نُجومٌ وغُيومٌ وظِلالْ
هَـــلْ أنا بَحرٌ وأرضٌ وسَماءْ ؟
لَستُ أدري !

•

مِن شرابي الشَّهدُ والخمرةُ والماءُ الزُّلالْ
مِنْ طعامي البَقلُ والأثمارُ واللَّحمُ الحَلالْ
كَمْ كيانٍ قَدْ تلاشى في كياني واستحالْ
كَمْ كيانٍ فيهِ شيءٌ من كِياني ؟
لَستُ أدري !

•

أنا أفصحُ مِنْ عُصفورةِ الوادي وأعذبْ ؟
ومِنَ الزَّهرةِ أشهى ؟ وشذى الزَّهرةِ أطيبْ ؟
ومِنَ الحيَّةِ أدهى ؟ ومِنَ النَّملةِ أغربْ ؟
أمْ أنا أوضَعُ مِنْ هذي وأدنى ؟
لَستُ أدري !

•

كلُّها مثلِيَ تحيا ، كلُّها مِثلي تموتْ
ولها مِثلي شرابٌ ، ولها مِثليَ قوتْ
وانتباهٌ ورُقادٌ ، وحديثٌ وسُكوتْ
فبِما أمتازُ عنها لَيتَ شِعري ؟
لَستُ أدري !

•

قَدْ رأيتُ النَّملَ يَسعى مِثلما أسعى لرِزقي
ولَهُ في العَيشِ أوطارٌ وحقٌّ مِثلُ حقّي
قد تساوى صَمتُهُ في نَظَرِ الدَّهرِ ونُطقي
فكِلانا صائرٌ يوماً إلى ما . . .
لَستُ أدري !

•

أنا كالصَّهباءِ ، لكنْ أنا صَهباي ودَنّي
أصلُها خافٍ كأصلي ، سِجنُها طينٌ كسِجني
ويُزاحُ الخَتمُ عنها مِثلما يَنشَقُّ عنّي
وهيَ لا تفقهُ مَعناها ، وإنّي . . .
لَستُ أدري !

•

غَلِطَ القائلُ إنَّ الخمرَ بنتُ الخابيهْ
فهيَ قبلَ الزقِ كانت في عُروقِ الدّاليهْ
وحواها قَبلَ رَحمِ الكرمِ رَحمُ الغاديهْ
إنَّما مِن قَبلِ هذا أينَ كانتْ ؟
لَستُ أدري !

•

هيَ في رأسيَ فِكرٌ ، وهيَ في عينيَّ نورٌ
وهيَ في صَدريَ آمالٌ ، وفي قلبي شُعُورْ
وهيَ في جسمي دَمٌ يَسري فيهِ ويَمورْ
إنَّمـا مِنْ قبلِ هذا كيفَ كانتْ ؟
لَستُ أدري !

•

أنا لا أذكُرُ شيئاً مِنْ حياتي الماضيهْ
أنا لا أعرفُ شيئاً مِنْ حياتي الآتيهْ
ليَ ذاتٌ غيرَ أني لَستُ أدري ماهيهْ
فمَتى تعرفُ ذاتي كُنهَ ذاتي ؟
لَستُ أدري !

•

إنني جئتُ وأمضي وأنا لا أعلَمُ
أنا لُغزٌ ... وذَهابي كمجيئي طلسمُ
والذي أوجدَ هذا اللُّغزَ لُغزٌ مُبهَمُ
لا تجادِلْ ذا الحِجا مَن قالَ إني ...
لَستُ أدري !

★

وفال

ألمرءُ في غفلاتِهِ وشبابِهِ — والدَّهرُ كالرئبالِ في وثباتِهِ
والعمرُ ظلٌّ والزمانُ يجدُّ في — إخفائهِ ، والمرءُ في إثباتِهِ
والحربُ لا تنفكُّ بينهما ، ولا — ينفكُّ هذا المرءُ في حسَراتِهِ
لا تعجبوا من جَهْلِهِ وغرورِهِ — وتعجَّبوا إنْ حالَ عن حالاتِهِ
يسعى ولا يَدري إلى حيثُ الرَّدى — وكذا الفراشُ يحومُ حولَ مماتِهِ
وتُحبِّبُ الدُّنيـا إليهِ نفسَهُ — فيُطيعها والنفسُ من آفـاتِهِ
ويُضيرها إفلاتُهُ من قيدِها — وسعادةُ الإنسانِ في إفلاتِهِ
يلقى الضَّراغمَ غيرَ مكترثٍ بها — فإذا سطَتْ ضَرَبَتْ على سَطَواتِهِ
ما قاتلَ البطلَ النجيدَ غضنفرٌ — إنَّ الغضنفرَ مَنْ عصى شهواتِهِ

•

موت العبقري

في رثاء العلامة المرحوم سليمان البستاني

كلُّ ميتٍ مهما علا في حياتهْ   كلُّ ناوٍ تحتَ الثرى من لِداتهْ

لا حدودٌ ولا مقاييسُ في الموتِ   تساوى الجميعُ في ساحاتهْ

حاصدٌ حقلهُ الوجودُ، وما الأحياءُ   إلّا كشوكهِ ونباتهْ

مَنْ نجا منهُ وهو في رَوْحاتهْ   إنما قد نجا إلى غَدَواتهْ

ليسَ زرعُ الغصّاتِ منهُ لثأرٍ   ليسَ حصدُ اللذاتِ من لذّاتهْ

إنه يسلبُ الغوايةَ كالرشدِ، فليس التمييزُ من عاداتهْ

لا تقلْ: ما وراؤهُ؟ ذاكَ سرٌّ   خبأتهُ الحياةُ في ظلماتهْ

ربَّ قبرٍ نمشي عليه وفيه   شهواتٌ تُربي على ذرّاتهْ

كلُّ ذي رغبةٍ دنَتْ أو تسامتْ   سوفَ يمضي يوماً بلا رغباتهْ

ليسَ عمرُ الفتى وإنْ طالَ إلّا   ما حوتهُ الحياةُ من مكرماتهْ

يعظُ النابغُ الخلائقَ حيّاً   إنّما موتُهُ أجلُّ عظاتهْ

. . .

ظهرَ الموتُ للعيونِ جديداً   أمسِ في بطشهِ وفي فتكاتهْ

وهو تربُ الإنسانِ منذُ استوى في الأرضِ حياً مشى على خطواتهْ

ما الردى بالحديثِ في الناسِ لكنْ   نكبةُ العلمِ ضاعفتْ روعاتهْ

فَقَدَ الخلقُ واحداً من بنيهِ   وأضاعَ القريضُ خيرَ حماتهْ

شاعرٌ، كان يَرقصُ الدهرُ أحياناً،   ويبكي حيناً على نغماتهْ

ذهبَ الساحرونَ والسحرُ باقٍ   في عيونِ المهى وفي كلماتهْ

. . .

منشئٌ رقَّ لفظهُ كسجاياهُ   ورفَّ الجمالُ في جنباتهْ

توّجَ «الضادَ» بالملاحةِ حتى   خالها القومُ بعضَ مخترعاتهْ

نقلَ الأعصرَ الخوالي إلينا   في كتابٍ، لله من معجزاتهْ

فرأينا «هوميرَ» ينشدُ فينا   شعرهُ مثلَ واحدٍ من رواتهْ

. . .

كانَ في دولةِ السيوفِ وزيراً   ألمعياً، ودولةً في ذاتهْ

ما بكينا الرفاتَ لمّا بكينا   كم رفاتٍ في الأرضِ مثلُ رفاتهْ

بل بكينا لأننا قد حُرمنا   بالمنونِ المزيدَ مِنْ آياتِـــهْ

راعنا أنْ يزولَ عنّا ، وإنّا   لم نُطِقْ أنْ نطيلَ حبلَ حياتِهْ

قد أردنا حملَ البشائرِ للعلمِ   فكنّا لأهلِهِ من نعاتِهْ

إنَّ في «مصرَ» و«الشآمِ» دويّاً   ما سمعناهُ قبلَ يومِ وفاتِهْ

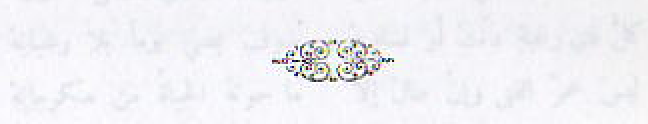
وأحسَّ «العراقُ» حين أتاهُ   النعيُ طعمَ الرّدى بماء «فراتِهْ»

و«بلبنانَ» رجفـــةٌ تتمشى   في ينابيعهِ وفي نَسَماتِهْ

فتَحَ الموتُ حين أغمضَ عينيهِ   عيونَ الورَى على حسَنَاتِهْ

فهو ماضٍ لهُ جلالةُ آتٍ   من فتوحاتِهِ ومن غَزَوَاتِهْ

والفتى العبقريُّ يولدُ إذْ يولدُ   في مهدِهِ ، ويومَ ممـــاتِهْ



ليس السر في السنوات

قُلْ للذي أحصى السنينَ مفاخراً   يا صاحِ ليسَ السرُّ في السنواتِ

لكنّهُ في المرءِ كيفَ يعيشُها   في يقظةٍ ، أم في عميقِ سُباتِ

قُمْ عُدَّ آلافَ السنينِ على الحَصَى   أتعدُّ شبهَ فضيلةٍ لحصاةِ ؟

خيرٌ من الفلَواتِ ، لا حدَّ لها ،   روضٌ أغنُّ يقاسُ بالخطواتِ

كُنْ زهرةً ، أو نغمةً في زهرةٍ ،   فالمجدُ للأزهارِ والنغماتِ

تمشي الشهورُ على الورودِ ضحوكةً   وتنامُ في الأشواكِ مكتئباتِ

وتموتُ ذي للعُقْمِ قبلَ مماتِها   وتعيشُ تلكَ الدهرَ في ساعاتِ

تُحصى على أهلِ الحياةِ دقائقُ   والدهرُ لا يُحصى على الأمواتِ

ألعمرُ ، إلّا بالمآثرِ ، فارغٌ   كالبيتِ مهجوراً وكالموماتِ

جَعَلَ السنينَ مجيدةً وجميلةً   ما في مطاويها مِنَ الحسناتِ

فقيد الوطنية

رثى بها فقيد المنابر الطيب الذكر المغفور له مصطفى باشا كامل .

بكيتُ ولكنْ بالدموعِ السخينةِ — وما نفذتْ حتى بكيتُ بمهجتي

على الكاملِ الأخلاقِ والنَّدْبِ مصطفى — فقد كانَ زينَ العقلِ زينَ الفتوةِ

نعاهُ لنا الناعي فكادتْ بنا الدُّنى — تميدُ لهولِ الخطبِ خطبِ المروءةِ

وذابتْ قلوبُ العالمينَ تلهُّفاً — وسالتْ دموعُ الحزنِ من كلِّ مقلةِ

أجلْ قد قضى في مصرَ أعظمُ كاتبٍ — فخلَّفَ في الأكبادِ أعظمَ حسرةِ

فتىً وأبي لو ان في الناسِ مثلَهُ — لهانَ علينا وقعُ هذي الرزيئةِ

ولو كانَ يُفدى بالنفوسِ من الرَّدى — جعلْنا فداهُ كلَّ نفسٍ أبيةِ

فتىً ماتَ غضَّ العمرِ لم يعرفِ الخنا — ولم ينطوي في نفسهِ حبُّ ريبةِ

وقد كانَ مقداماً جريئاً ولم يكنْ — ليبغي الرَّدى غيرَ النفوسِ الجريئةِ

وكانَ جواداً لا يضنُّ بحاجةٍ — لذلكَ أعطى روحَهُ للمنيَّةِ

سلامٌ على مصرَ الأسيفةَ بعدَهُ — فقد أودعتْ آمالَهُ جوفَ حفرةِ

خطيبَ بلادِ النيلِ ما لكَ ساكتاً — وقد كنتَ تلقي خطبةً إثرَ خطبةِ ؟

تطاولتِ الأعناقُ حتى اشرأبَّتِ — فهل أنتَ مسديها ولو بعضَ لفظةِ ؟

نعمْ كنتَ لولا الموتِ فارجَ كربِها — فيا للرَّدى من غاشمٍ متعنِّتِ

تفطَّرتِ الأكبادُ حزناً كأنَّما — رماكَ سهمٌ حلَّ في كلِّ مهجةِ

وما حزنتْ أمٌّ لفقدِ وحيدِها — بأعظمَ من حزني عليكَ ولوعتي

تناديكَ مصرُ الآنَ يا خيرَ راحلٍ — ويا خيرَ من يُرجى لدفعِ الملمَّةِ

عهدتُكَ تأبى دعوةً غيرَ دعوتي — فما لكَ تأبى (مصطفى) كلَّ دعوةِ ؟

فقد تكُ ريَّاناً فيا طولَ لهفتي — لقد كنتَ سيفي في الخطوبِ وجنَّتي

أجلْ طالما دافعتَ عن مصرَ مثلما — يدافعُ عن مأواهُ نحلُ الخليَّةِ

فأيقظتَها من رقدةٍ بعدَ رقدةٍ — وأنهضتَها من كبوةٍ تلوَ كبوةِ

وقوَّيتَ في أبنائها الحبَّ نحوَها — وكنتَ لهمْ في ذاكَ أفضلَ قدوةِ

رفعتَ لواءَ الحقِّ فوقَ ربوعِها — فضمَّ إليهِ كلَّ ذي وطنيَّةِ

لئنْ تكُ أترعتَ القلوبَ محبةً — فإنَّكَ لم تُخلقْ لغيرِ المحبَّةِ

فنمْ آمناً وفيتَ قومَكَ قسطَهمْ — فيا طالما ناموا وأنتَ بيقظةِ

سيُبقي لكَ التاريخُ ذكراً مخلداً — فقدْ كنتَ خيرَ الناسِ في خيرِ أمَّةِ

عليكَ من الرحمنِ ألفُ تحيةٍ — ومن أرضِ مصرَ ألفُ ألفِ تحيَّةِ

مزح في جد

معربة

رأيتُ غلاماً مليحَ الرُّواء   تلوحُ النباهةُ في مُقلتِهْ
فقلتُ، تجنّى علينا الشتاء   وقد نفِدَ الفحمُ مع كثرتِهْ
فهلْ مِن دواءٍ لهذا البلاء   لديكَ؟ أجاب، اقفلوا المدرسةْ!
فقلتُ، صغيرٌ يحبُّ الفضاء   ويكرهُ ما ليسَ مِن فطرتِهْ!

. . .

وأبصرتُ لِصّاً على الزاويَهْ   كثيرَ التلفُّتِ نحو القصورْ
فقلتُ، منازلُنا خاليَهْ   مِن الفحم، والفحمُ نارٌ ونورْ
فقالَ، لياليكُمْ الداجيَهْ   تزولُ ولكنْ بهدمِ السجونْ!
فقلتُ، شقيٌّ مِنَ الأشقياء   يجاهدُ مِن أجلِ حريّتِهْ!

. . .

وعدتُ إلى رجلٍ موسرٍ   لهُ شهرةٌ ولهُ منزلَهْ
فقلتُ، سريٌّ كلامُ السَّري   إذا وقعَ الناسُ في مُشكلَهْ

فما هو رأيُكَ؟ قالَ اقتصِرْ   معَ البَرْدِ لا تنفعُ الوَلوَلَهْ!
فأدركتُ أنَّ فتى الأغنياء   ضنينٌ يخافُ على ثروتِهْ!

. . .

وأبصرتُ شخصاً كثيرَ الحَذَرْ   فرُحتُ أبثُّ لَهُ لوعتي
فحملقَ حتى رأيتُ الشَّرَرْ   يطيرُ سِراعاً إلى مُهجتي
وصاحَ، هي الحربُ أصلُ الخطرْ   فرُدُّوا الحُسامَ إلى غِمدِهِ!
فقلتُ، عدوٌّ قليلُ الحياء   يحاذرُ شرّاً على دولتِهْ!

. . .

(هيوز) وقد كانَ قبلاً مُرشَّحْ   شكوتُ إليهِ انقلابَ الأُمورْ
ولمّا طلبتُ الجوابَ تنحنحْ   وقالَ: الحَلاقةُ أصلُ الشرورْ
فقلتُ: المُرشَّحُ لا شكَّ يمزَحْ   وما زلتُ في حيرةٍ واضطرابْ
كطيّارةٍ في مَهبِّ الهواء   إلى أنْ نظرتُ إلى لحيتِهْ!

•

عبد الله البستاني

يا ميتاً فيه جمالُ الحياةْ   ما حازَ منكَ اللحدُ إلّا الرفاتْ

أنتَ الفتى الباقي بآثارِهِ   ما أنتَ بالمرءِ إذا ماتَ ماتْ !

وكيفَ يمتدُّ إليكَ الردى   وذاتُكَ الحسناءُ في ألفِ ذاتْ ؟

إذا اختفى في الوردِ لونُ الضحى   فالذنبُ ذنبُ الأعينِ الناظراتْ

يصوّحُ الزهرُ ويبقى الشذى   ويذهبُ المرءُ وتبقى الصفاتْ

***

يا نائماً أغفى عن التُرّهاتِ   إنّي وجدتُ الموتَ في التُرّهاتْ

أإنْ مضى الشيءُ نقولُ انقضى   إذن، فمِنْ أينَ تجيءُ الحياةْ ؟

أليس دنيا الصحوِ دنيا الكرى   ومثلُ ظلِّ العيشِ ظلُّ المماتْ ؟

تقسّمُ الأشياءَ أفهامُنا   وليستِ النخلةُ إلّا النواةْ

وفي الغدِ الأمسُ ولكنّنا   للجهلِ قلنا الدهرُ ماضٍ وآتْ

بعضُ الردى فيهِ نجاةُ الفتى   وربّما كانَ الردى في النجاةْ

***

يا قرويّاً عظمتْ نفسُهُ   حتى ترضّتها نفوسُ العُتاةْ

وحسدتهُ الصيدُ في كوخِهِ   وحسدتْ قريتَهُ العاصماتْ

تلكَ السجايا لم تزلْ بيننا   ساطعةً كالأنجمِ الزاهراتْ

وعلمُكَ الزاخرُ باقٍ لنا   ما بقيتْ في الأرضِ أمُّ اللغاتْ

في أنفسِ الناسِ وألبابِهم   وفي بطونِ السِيَرِ الخالداتْ

وفي تلاميذِكَ أهلِ الحجى   والأدبِ الجمِّ الجليلِ السِّماتْ

من شاعرٍ كالروضِ أشعارُهُ   تسمعُ همسَ الحبِّ فيهِ الفتاةْ

وساحرٍ تحسبُ أقوالَهُ   مسروقةً من مُقَلِ الغانياتْ

وكاتبٍ تشرقُ ألفاظُهُ   كالدُرَرِ المختارةِ المنتقاةْ

وصُحْبٍ أخلاقُهمْ كالمنى   يروونَ عنكَ الحِكَمَ الغالياتْ

لم يخترمْكَ الموتُ يا دوحةً   باسقةً قد خلّفتْ باسقاتْ

***

يا حجّةَ الفُصحى ودهقانَها   وبحرَها الطامي وشيخَ الثقاتْ

«ألضادُ» من بعدِكَ في مأتمٍ   حاضرُها والأعصرُ الغابراتْ

فليسَ في لبنانَ غيرُ الأسى   وليسَ غيرُ الحزنِ حولَ الفراتْ

فمن يعزّي جبلاً واحداً   عزّى الرواسي في جميعِ الجهاتْ

***

سلختها سبعينَ من أجلها   في عالمِ الطِّرسِ ودنيا الدواةْ
ألناسُ من حولكَ في قيلِهمْ   وأنتَ كالعابدِ وقتَ الصلاةْ
غنيتَ بالضادِ وأسرارِها   عَنِ الغواني والطِّلا والسقاةْ
أنتَ الذي ودَّ إليها الصبا   إنَّ الهوى يجترحُ المعجزاتْ
فاختلجتْ أوضاعُها بالمنى   وجالَ ماءُ الحسنِ في المفرداتْ
ولهجتْ باسمِكَ آفاقُها   وردَّدتهُ في البوادي الحداةْ
وحنَّتِ النُّوقُ إلى سمعِهِ   وطربتْ من ذِكرِهِ الصافناتْ
فيا شباباً يطلبونَ العُلى   إنَّ العُلى للأنفسِ الماضياتْ
ويا فقيراً يتمنَّى الغنى   هلَّا تمنَّيتَ غنى المكرماتْ ؟
ويا سراةً يبذلونَ اللُّهى   هذا فقيرٌ كانَ يعطي السراةْ !
من روحِهِ لا فيضِ أموالِهِ   إنَّ هباتِ الروحِ أسمى الهباتْ
لا يقتضي قاصدَهُ حمدَهُ   ويشكرُ العافي الذي قالَ : هاتْ
وإنْ مضى العافونَ عن بابِهِ   سارتْ عطاياهُ وراءَ العفاةْ
فكانَ كالكوكبِ يمشي على   ضيائِهِ الرَّكْبُ وذئبُ الفلاةْ
وكانَ كالغيثِ إذا ما همى   أصابَ في الأرضِ الحصى والنباتْ
وكانَ كالينبوعِ يرتادُهُ   ذو الشيمِ الحسنى وذو السيِّئاتْ

وكالفضاءِ الرَّحبِ في حلمِهِ   يضطربُ البازي به والقطاةْ

***

يا صاحبَ «البستانِ» نمْ آمناً   فإنَّ في الموتِ زوالَ الشكاةْ
ما غابَ ماءٌ غابَ تحتَ الثرى   فأطلعَ النبتَ وأحيا المواتْ

الشباب أبو المعجزات

سلامٌ عليكُمْ رجالَ الوفاء ... وألفُ سلامٍ على الوافياتْ

ويا فَرَحَ القلبِ بالناشئينَ ... ففي هؤلاء جمالُ الحياةْ

هُمُ الزَّهرُ في الأرضِ إذ لا زهورُ ... وشهبٌ إذ الشهبُ مستخفياتْ

إذا أنا أكبرتُ شأنَ الشبابِ ... فإنَّ الشبابَ أبو المعجزاتْ

حصونُ البلادِ وأسوارُها ... إذا نامَ حرّاسُها والحماةْ

غَدٌ لهم وغَدٌ فيهمُ ... فيا أمسُ فاخرْ بما هو آتْ

ويا حبّذا الأمهاتُ اللواتي ... يلدنَ النوابغَ والنابغاتْ

فَكَمْ خلدتْ أمةٌ بيراعٍ ... وكَمْ نشأتْ أمةٌ في دواة

***

أنا شاعرٌ أبداً تائقٌ ... إلى الحسنِ في الناسِ والكائناتْ

أحبُّ الزهورَ، وأهوى الطيورَ، ... وأعشقُ ثرثرةَ الساقياتْ

ورَقْصَ الأشعةِ فوقَ الروابي، ... وضحكَ الجداولِ والقهقهاتْ

تطالعُ عينايَ في ذا المكانِ ... روائعَ فاتنةً ساحراتْ

كأنَّ الفضاءَ وفيه الطيورُ ... بحورٌ بها سفنٌ سابحاتْ

كأنَّ الزهورَ ترقرقُ فيها ... سقيطَ الندى أعينٌ باكياتْ

ومن بلبلٍ ساجعٍ مُغنٍّ، ... ومن زهرةٍ غضةٍ لفتاةْ

***

فما أجملَ الصيفَ في الخلواتِ ... وأروعَ آياتِهِ البيناتْ

نضا السترُ عن حسناتِ الوجودِ ... وكانتْ كأسرارِهِ المُضمراتْ

وأحيا رغائبَنا الذابلاتِ ... فعاشتْ وكانتْ كأرضٍ مَواتْ

ففي الأرضِ سحرٌ، وفي الجوِّ عطرٌ، ... فيا للكريمِ، ويا للهِباتْ

أمامكمُ العيشُ حرٌّ رغيدٌ ... ألا فاغنموا العيشَ قبلَ الفواتْ

وقال ينقد أحدهم

لما سكتَ حسبتَ أنكَ ناجِ ... هيهاتَ إنّي كالمنونِ أفاجي

تالله تطمعُ بالسلامةِ بعدما ... ألقاكَ جهلُكَ في يدِ الأمواجِ

إن كانَ داخلَكَ الغرورُ فإنّهُ ... ما انفكَّ في البُسطاءِ والسُّذاجِ

إني أنا الأسدُ الهصورُ بسالةً ... ويلٌ لقومٍ حاولوا إحراجي

حاولتَ أن تُهاجني عن مَربضي ... لتنالَ ذِكراً، خِبتَ يا ذا الرّاجي

عارٌ إذا أنشبتُ فيكَ مَخالبي ... إذ ليسَ من خُلقي افتراسُ نِعاجِ

وظننتَ أنّكَ بالغٌ شأوي إذا ... رمتَ القريضَ فما ظفرتَ بحاجِ

إنَّ القوافي كالخرائدِ منعة ... وتفوقها في نَبذِ كلِّ مُداجِ

والشعرُ تاجٌ لو علمتَ ولم تكُنْ ... ممّن يليقُ بحملِ هذا التاجِ

حذها مثقفة إذا وقعتْ على ... جبلٍ لأزعجَ أيّما إزعاجِ

أنا خيرُ من قالَ القوافيَ مادحاً ... أنا خيرُ من قالَ القوافيَ هاجي

قد كنتُ أزهدُ في الهجا لو لم يكُنْ ... لكَ يا مريضَ العجبِ، خيرَ علاجِ

لا رفعن للسما احتجاجي

جاءَ الشتاءُ جيئةَ المفاجي
كأنّما قد كانَ في الرّتاجِ
فجمدَ السائلُ في الزُّجاجِ
واكتستِ الأرضُ بمثلِ العاجِ
فامتنعَ المرعى على النِّعاجِ
وامتنعَ الحَبُّ على الدّجاجِ
وامتنعَ السيرُ على النّواجي
رُبَّ جوادٍ لاحقٍ هِملاجِ
مُعوّدِ الإلجامِ والإسراجِ
والوَخدِ والذّميلِ والإمعاجِ[1]
أصبحَ مثلَ العرقِ في اختلاجِ
مُنعرجاً في غيرِ ذي انعراجِ

(١) الوخد والذميل والامعاج : ضروب من عدو الابل .

لَو هاجهُ الرّاكبُ بالكُرباجِ
لَما مَشى بِهِ سوى اعْوجاجِ
لَولا الجَليدُ طارَ بالمُهتاجِ
مِثلَ البُراقِ بِفتى المِعراجِ
وَحطَّهُ والشّمسَ في الأبراجِ
لكِنّهُ مِنهُ عَلى الزُّجاجِ

*

وأمسَكَ النّاسُ عَنِ اللّجاجِ
أما ترى نداءهُمْ تَناجي
كأنّما الجوعُ في المَلاجي
على «مِنى» مَواكِبُ الحُجّاجِ
ورَغِبَ المُثري عَنِ الدّيباجِ
إلى اللّباسِ الخَشِنِ النّساجِ
وكانَ أنْ جيءَ لَهُ بالتّاجِ
أعرَضَ عَنهُ وارِمَ الأوداجِ

*

وانقبَضَ النّهرُ عَنِ الهِياجِ

وكانَ مِثلَ الزّاخرِ العَجّاجِ
يُصارعُ الأمواجَ بالأمواجِ
يا مَسبَحَ الإوَزِّ والدُّرّاجِ
كيفَ غدوتَ مَوطِئَ الأحداجِ
ومَعبَرَ الخَلقِ إلى الخَراجِ

*

مالِيَ والصُّبحُ عَلى انبِلاجِ
أخبِطُ كالعَشواءِ في الدّياجي
إذا أردتُ السّيرَ في مِنهاجي
طالَ عِثاري فيهِ وانزِلاجي
كأنّني أمشي عَلى زُجاجِ
مُحتَذِياً بالزِّئبَقِ الرّجراجِ
خُيّلَ لي ، لِشدّةِ ارتِجاجي
أنّ دَمي يَرتَجُّ في أوشاجي
أرى الدُّنى ضيّقةَ الفِجاجِ
ولم تَضِقْ ، لكنّما احتياجي
إلى طَريقٍ واضِحِ النّجّاجِ

أُسلكُ فيهِ غيرَ ما انزعاجِ

وحاجتي بالكوكبِ الوهّاجِ

كحاجةِ الأعمى الى سراجِ !

إنْ لجَّ هذا القرُّ في إحراجي

لأرفعنَّ للسما احتجاجي !



الغراب والبلبل

قالَ الغرابُ وقد رأى كَلَفَ الورى   وهيامَهمْ بالبلبلِ الصدّاحِ

لِمَ لا تهيمُ بي المسامعُ مثلَهُ   ما الفرقُ بين جناحِهِ وجناحي ؟

إني أشدُّ قوًى وأمضى مخلباً   فعلامَ نامَ الناسُ عن تمداحي ؟

***

أمفرّقَ الأحبابِ عن أحبابهمْ   ومكدّرَ اللذاتِ والأفراحِ

كم في السوائلِ من شبيهٍ بالطلا   فعلامَ ليس لها مُقامُ الراحِ ؟

ليسَ الحظوظُ من الجسوم وشكلِها   ألسرُّ كلُّ السرِّ في الأرواحِ

والصوتُ من نِعَمِ السماء ولم تكنْ   ترضى السما إلا عن الصدّاحِ

حَكَمَ القضاءُ فإنْ نقمتَ على القضا   فاضربْ بعنقِكَ مُديةَ الجرّاحِ

السر في الارواح

قالَ الغُرابُ وَقدْ رَأى كَلَفَ الوَرَى
وَهُيامَهُمْ بالبُلْبُلِ الصَّدّاحِ
لِمْ لا تَهِيمُ بِيَ المَسامِعُ مِثْلَهُ
مَا الفَرْقُ بينَ جَناحِهِ وَجَناحي ؟
إني أَشَدُّ قُوًى وأَمضى مِخْلَباً
فَعَلى مَ نامَ النَّاسُ عَنْ تَمْداحي ؟
أَمُفرِّقَ الأَحبابِ عَنْ أَحبابِهِمْ
وَمُكَدِّرَ اللَّذّاتِ والأَفراحِ
كَمْ في السَّوائِلِ مِنْ شَبِيهٍ للطِّلا
فَعَلى مَ لَيسَ لها مَقامُ الرّاحِ ؟
لَيسَ الحُظُوظُ من الجُسُومِ وشَكلِها

السِرُّ كلُّ السِرِّ في الأَرْوَاحِ
والصَّوْتُ مِنْ نِعَمِ السَّماءِ ولمْ تكنْ
تَرْضى السَّما إلا عَنِ الصلاحِ
حَكَمَ القَضاءُ فإنْ نَقَمْتَ على القَضا
فَاضْرِبْ بعُنْقِكَ مُدْيَةَ الذَّبّاحِ !!!

الكأس الباقية

دمعة على جبران جبران

أيُّها الشاعرُ الذي كان يَشدو   بينَ صاحٍ من الجمالِ وضاحِكْ

جَلَلٌ أنْ يصيدكَ القدرُ الأعـ   ـمى ويَمشي مقصُّهُ في جناحِكْ

موكبُ الشعرِ تائهٌ في فضاءٍ   ليسَ فيهِ سوى حَطيمِ سلاحِكْ

والبساتينُ ، والبلابلُ فيهـا   تتغنّى ، حزينةٌ لرواحِكْ

قَنعتْ بالنواحِ منك فلمّـا   زالَ عاشتْ بذكرياتِ نواحِكْ

والدجى ، والنجومُ تسطعُ فيه ،   واجمٌ حسرةً على مصباحِكْ

تلمسُ العينُ أينما لمستهُ   جَمَراتِ التياحِنا والتياحِكْ

قد تولّت جلالةُ السحرِ عنهُ   واضمحلّتْ مذ صارَ غيرَ وشاحِكْ

***

هبطتْ ربّةُ الحياةِ لكي تـ   ـسكبَ خمرَ الجمالِ في أقداحِكْ

فإذا أنتَ في السريرِ مسجّى   صامتٌ كالطيوفِ في ألواحِكْ

فتولّتْ مذعورةً تَلطُمُ الوجـ   ـهَ وتبكيكَ ، يا قتيلَ سماحِكْ !

سَبقَتْها إلاهةُ الموتِ كي تحـ   ـظى ولو باليسيرِ من أفراحِكْ

ويحَها ! ويحَ حبّنا من أثيمٍ   طَرَدَتْنا ولم تَقمْ في ساحِكْ

أيبستْ روضَكَ الجميلَ ، ولم تظـ   ـفرْ بغيرِ التُرابِ من أدواحِكْ

ذَهبَ الموتُ بالكؤوسِ جميعاً   غيرَ كأسٍ ملأتَها من جراحِكْ

•

هاتها

هاتِها في القدحِ   نسمةً في شَبَحِ

هاتِها فالنفسُ في   حاجةٍ للفرحِ

واسقِنيها كوثراً   وعليَّ اقترحِ

إن تكن قد حُرِّمتْ   فعلى المستقبحِ

هيَ في سُفرتِها   طلعةُ المفتضحِ

وهي في حُمرتِها   كخديدِ المستحي

وهيَ في شِدَّتِها   ثورةُ المجترحِ

وهي في رقَّتِها   خاطِرٌ لم يَلُحِ

أتراها شفقاً   كُلِّلتْ بالصُّبحِ

أم هيَ الوجناتُ قد   ذُوِّبتْ في قدحِ ؟

الى الفاتح [1]

«الأنبي»، لو طبعنا الشمس يوماً   وقلّدناكها سيفاً صفيحا

ورصّعناه بالشُّهبِ الدراري   لَما زدناك فخراً أو مديحا

لأنّكَ أشجعُ الأبطالِ طراً   وأعظمُ قادةِ الدُّنيا فتوحا

إذا ما مرَّ ذكرُكَ بينَ قومٍ   رأيتَ أشدَّهم عِيّاً فصيحا

فكمْ داويتَ سوريّاً مريضاً   وكم أسقمتَ تركيّاً صحيحا

وكم قد صُنتَ في بيروتَ عِرضاً   وكم أمّنتَ في الشهباء روحا

غضبتَ على «الهلالِ»، فخرَّ ذعراً   ولُحتَ لهُ فحاذرَ أن يلوحا

عصفتَ بهمْ فأمسى كلُّ حصنٍ   لخيلِ النصرِ ميداناً فسيحا

مشتْ بكَ همّةٌ فوقَ الثريّا   فزلزلتِ المعاقلَ والصروحا

منَ الوادي إلى صحراءِ سينا   إلى أنْ زرتَ ذيّاكَ الضريحا

إلى بحرِ الجليلِ إلى دمشقٍ   تُطاردُ دونكَ التركيَّ القبيحا

فكانَ الجندُ كلُّهمُ يشوعاً   وكانتْ كلُّ سوريّا «أريحا»

فإن يكنِ المسيحُ فدى البرايا   فإنّكَ أنتَ أنقذتَ المسيحا !

---

(١) يبدو ان هذه القصيدة قد قالها الشاعر وهو في أوج غمرة الفرح للخلاص من نير الاتراك، دون ان يحسب للمستقبل حساباً !...

دودة وبلبل

نظرتْ دودةٌ تدبُّ على الأرضِ   إلى بلبلٍ يطيرُ ويصدحْ

فمضتْ تشتكي إلى الورَقِ الساقطِ   في الحقلِ أنها لم تجنَّحْ

فأتتْ نملةٌ إليها وقالتْ   اقنعي واسكتي فما لكِ أصلحْ

ما تمنيتِ إذ تمنيتِ إلا   أنْ تصيري طيراً يُصادُ ويذبَحْ

فالزمي الارضَ فهي أحنى على الدودِ ،   وخلّي الكلامَ فالصمتُ أربحْ .

أنا وهي

جلَسْتُ إليها والترامُ بنا يعدو   إلى حيثُ لا واشٍ هناكَ ولا ضدُّ

قدا انتظمتْ هذي القطاراتُ في الثّرَى   كأنَّ الثّرَى جيدٌ وتلكَ لها عَقْدُ

بلى ، هيَ عَقْدٌ بل عقودٌ ، ألا ترى   على الأرضِ أسلاكاً تدورُ فتمتدُّ؟

يَسيرُ فَيَطوي الأرضَ طياً كأنَّما   دواليبُهُ أيدي ، كأنَّ الثّرَى بُرْدُ

فكالطودِ إلّا أنَّ ذيّالكَ ثابتٌ   وكالريحِ إلّا أنَّ هاتيكَ لا تبدو

تَوَهَّمْتُهُ من سُرْعَةِ السَّيْرِ راكداً   وأنَّ الدُّنى فيمنْ علَى ظَهْرِها تعدو

تحومُ عليهِ المركباتُ كأنَّهُ   مليكٌ وتلكَ المركباتُ لَهُ جُنْدُ

تُقَصِّرُ عنهُ الرِّيحُ إما تَسابقا   فكيفَ تُجاريهِ المطهَّمَةُ الجُرْدُ ؟

على أنه في كفِّ عبدٍ زمامُهُ   فيا مَنْ رأى مَلِكاً يَصْرِفُهُ عَبْدُ

كأني بِهِ ، يا صاحِ ، دارَ ضيافةٍ   يُغاديهِ وَفْدٌ ويَقْصِدُهُ وَفْدُ

خَلَوْتُ بمن أهوى بِهِ رَغْمَ عاذلي   ولَمْ يكُ غيرُ القربِ لي ولها قصدُ

فسارَ بنا في الأرضِ وَخْداً كأنما   دَرَى أنَّ ما نَبْغيهِ منهُ هُوَ الوَخْدُ

فــما راعني واللهِ إلا وقوفُهُ   فقد كنتُ أخشى أنْ يفاجئنا وَغْدُ

ولما انتهى من سيره وإذا بنا … على شاطئ البحر الذي ما له حد

هنالك وقفنا والشفاه صوامت … كأن بنا عياً وليس بنا وجد

سكتنا ولكن العيون نواطق … أرق حديث ما العيون به تشدو

سكرنا ولا خمر ولكنه الهوى

إذا اشتد في قلب امرئ ضعف الرشد

فقالت وفي أجفانها الدمع جائل … وقد عاد مصفراً على خدها الورد

ألا حبذا، يا صاحبي، الموت ههنا … إذا لم يكن من تذوق الردى بد

فيا لك من فكر مخيف وهائل … ويا لك من مرأى يرق له الصلد

فقلت لها إني محب لكل ما … تحبين، إن السم منك هو الشهد

فقالت أمن أجلي تحن إلى الردى؟ … دع الهزل إن المرء حليته الجد

فقلت لها لو كنت في الخلد راتعاً … ولست معي والله ما سرني الخلد

فإن لم يكن مهد إليك يضمني … فيا حبذا، يا هند، لو ضمنا لحد

فقالت لعمر الحق إنك صادق … قدمت على ود ودام لك الود

فلو لم أكن من قبل أعشق حسنها … لهمت بها والله حسبي من بعد

•

حكاية قديمة

وربت أمريكية خلت ودها … يدوم، ولكن ما لغانية ود

صبوت إلى هند فلما رأيتها … سلوت بها هنداً وما صنعت هند

وأوحت لها عيناي أن صبابة … تلجلج في صدري وأحذر أن تبدو

فألقت إلى أترابها وتبسمت … أعي سكوت الصب أم صمته عمد؟

فقلت سلام الله، قالت وبره، … فقلت: أهزل ذلك القول أم جد

وأمسكت أنفاسي وأرهفت مسمعي

ففي نفسي جزر وفي مسمعي مد

فقالت وددنا لو عرفنا من الفتى … وما يبتغيه؟ قلت ما يبتغي العبد؟

له كبد حرى، وقلب متيم … غلطت، فالصب قلب ولا كبد

قتيل ولكن ثوبه كفن له … وكل مكان يستريح به لحد

فإن لم يكن من نظرة ترأب الحشا … فردي عليه قلبه وبه زهد

فضرج خديها احمرار كأنما … تصاعد من قلبي إلى خدها الوجد

وقرّبها مني وقرّبني الهوى   إلى أن ظننّا أننا واحدٌ فردُ
وكهربَ روحينا فلمّا تنهّدتْ   تنهّدتُ حتى كاد صدري ينهدُّ
وكان حديثٌ خلتُ أني حفظتُه   فأذهلني عنه الذي كان من بعدُ

*

أمرتُ فؤادي أن يطيعَ فؤادَها   فيبكي كما تبكي وتشدو كما تشدو
وقلتُ لنفسي هذه منتهى المنى   وهذا مجالُ الشكرِ إن فاتكِ الحمدُ
فإن ترغبي عنها، وفيكِ بقيّةٌ،   فما أنتِ نفسي إنما أنتِ لي ضِدُّ
ومرّتْ ليالٍ والمنى تجذبُ المنى   وقلبي، كما شاءتْ، يلينُ ويشتدُّ
نروحُ ونغدو والليالي كأنها   وقوفٌ لأمرٍ لا تروحُ ولا تغدو
وما زلتُ تستخفي عليَّ عيوبُها   إلى أن تولّى الغيُّ واتّضحَ الرشدُ
رأى الدهرُ سدّاً حولَ قلبي وقلبِها   فما زالَ حتى صارَ بينهما السدُّ
خُدعتُ بها والحرُّ سهلٌ خِداعُه   فلا طالعي يُمنٌ ولا كوكبي سعدُ
وكنّا تعاهدنا على الموتِ في الهوى   فما لبثتْ إلا كما يلبثُ الوردُ
كأنّي ما أصفتُ ثغري بثغرِها   ولا باتَ زندي وهوَ في جيدِها عِقدُ

ولم نشتملْ بالليلِ والحيُّ نائمٌ   ولم نستترْ بالروضِ والليلُ ممتدُّ
ولا هزّنا شدوُ الحمائمِ في الضحى   ولا ضمّنا بيتٌ ولم يحوِنا بُردُ

*

أإنْ لاحَ في فوديَ القتيرُ[1] تنكّرتني   أيُزهدُ في الصمصامِ إنْ خلقَ الغمدُ
لئن كانَ لونُ الشعرِ ما تعشقينَه   فدُمْ أبيضاً ما دمتَ يا شعريَ الجعدُ
فلا تشمتي مني فلستُ بآمنٍ   ولا تزهدي فيه، فليسَ به زهدُ
هو الفاتحُ الغازي الذي لا تردُّه   عن الفاتحِ الغازي قلاعٌ ولا جندُ
فلو كانَ غيرَ الشيبِ عني صرفتُه   ولكنَّ حكمَ اللهِ ليسَ له ردُّ
وإنْ تُعرضي عن مفرقي وهوَ أبيضٌ   فيا طالما قبّلتِه وهوَ مسودُّ
شفى اللهُ نفسي لا شفى اللهُ نفسَها   ولا غابَ عن أجفانِها الدمعُ والسُّهدُ
فلا ثغرُها درٌّ ولا أقحوانةٌ   ولا دمعُها طلٌّ ولا ريقُها شهدُ

---
(١) القتير : الشيب أو أوائله .

وَلا قَدُّهَا غُصْنٌ وَلا خَيْزُرَانَةٌ ... وَلا خَصْرُهَا غَوْرٌ وَلا رِدْفُهَا نَجْدُ
وَلا وَجْهُهَا شَمْسٌ وَلا شَعْرُهَا دُجًى ... وَلا صَدُّهَا حَرٌّ وَلا وَصْلُهَا بَرْدُ
أُحِبُّ إِلَى نَفْسِي الرَّدَى مِنْ لِقَائِهَا ... وَأَجْمَلُ فِي عَيْنَيَّ مِنْ وَجْهِهَا القِرْدُ
فَإِنْ تَلْمَسِ الثَّوْبَ الَّذِي أَنَا لابِسٌ ... قَدَدْتُ بِكَفَّيَّ الثَّوْبَ مِنْ قَبْلِ يَنْقَدُّ
وَإِنْ تَقْرُبِ الدَّارَ الَّتِي أَنَا سَاكِنٌ ... هَجَرْتُ مَغَانِيهَا وَلَوْ أَنَّهَا الخُلْدُ
فَإِنْ كَانَ غَيْرِي لَمْ يَزَلْ دِينُهُ الهوى
فَإِنِّي، وَلا أَخْشَى المَلامَةَ، مُرْتَدُّ!!

•

المدخل

وقعتْ نحلةٌ على الأقحوانِ ... فـإذا في القفيرِ شُهْدُ
وَمَشَتْ بعدَها على الأغصانِ ... دودةٌ فالغصونُ جُرْدُ
وَهَمَى الغيثُ في الحقولِ ففيها ... شجرٌ وارفٌ وزهـرْ
وأصابَ الرمالَ كي يحييها ... فهما ميِّتٌ وقـبرْ
أنا غيثٌ، فإن وجدتُكَ حقلا ... فـأنا العشبُ والشجرْ
غيرَ أني، إذا لقيتكَ رملا، ... لستُ شيئاً حتى المطرْ

وأنا الأقحوانُ بيِّانَ عندي ... عشتُ يوماً أو بعضَ يومِ
لا أبالي الفناء إنْ كانَ مجدي ... في فنائي أو مجـدُ قومي
إنْ تَغِبْ في فراشةٍ ألواني ... فـأنا زهرةٌ تطيرْ
وإذا انحلَّ في الشُعاعِ كياني ... فـأنا في الضُحى عبيرْ
جنِّبوني الفناء في الديدانِ ... إنهُ المصرعُ الكريهْ
وانعدامُ الأريجِ والألوانِ ... واندثارٌ لا مجـدَ فيهْ
كنْ شُعاعاً يبينُ فيه كيـاني ... لا ظلاماً ولا رَغـامْ
ولأعِشْ في الشعاعِ بضعَ ثوانِ ... فهيَ خيرٌ من ألفِ عـامْ

الزمان

يمشي الزمانُ بمَنْ ترقّبَ حاجةً   متثاقلاً كالخائفِ المتردّدِ

حتى ليحسبَهُ أسيراً موثقاً   ويراهُ أبطأَ من كسيحٍ مُقعدِ

ويخالُ حاجتَهُ التي يصبو لها   في دارةِ الجوزاءِ أو في الفرقدِ

ويكونُ ما يرجوهُ زورةَ صاحبٍ   ويكونُ أبعدَ ما يرجّي في غدِ

★

فإذا تولّى النفسَ خوفٌ في الضحى   من واقبٍ تحتَ الدجى أو معتدِ

طارتْ بها خيلُ الزمانِ وتوقُهُ   نحوَ الزمانِ المدلهمِّ الأسودِ

فكأنها محمولةٌ في بارقٍ ،   أو عارضٍ ، أو عاصفٍ في فدفدِ

★

ويكونُ أقصرَ ما يكونُ إذا الفتى   مدّتْ لهُ الدنيا يدَ المتودّدِ

فتوسّطَ اللذّاتِ غيرَ منفّرٍ   وتوسّدَ الأحلامَ غيرَ منكّدِ

فإذا لذيذُ العيشِ نغبةُ طائرٍ   وإذا طويلُ الدهرِ خطرةُ مرودِ

★

وإذا الفتى لبسَ الأسى ومشى بهِ   فكأنما قد قالَ للزمنِ اقعدِ

فإذا الثواني أشهرٌ ، وإذا الدقا   ئقُ أعصرٌ ، والحزنُ شيءٌ سرمدي

وإذا صباحُ أخي الأسى أو ليلُهُ   متجددٌ مـع همهِ المتجدّدِ

قهرَ الورى وأذلّهمْ أنَّ الورى   متعللٌ ، أو طامعٌ ، أو مجتدِ

جعلوا رغائبَهمْ قياسَ زمانهمْ   والدهرُ أكبرُ أنْ يقاسَ بمقصدِ

وقتلتُ في نفسي الرغائبَ والمنى   فقهرتُهُ بتجرّدي وتوحّدي

يشكو الذي يشكو السهادَ جفونَهُ   لو لم يكنْ ذا ناظرٍ لم يسهدِ

إنْ كانَ شيءٌ للنفادِ أعدّهُ   فيما انقضى ومضى وإنْ لم ينفدِ

ما أنْ رأيتُ الكحلَ في حدقِ المهى   إلّا لمحتُ الدودَ خلفَ الأثمدِ

من ليسَ يضحكُ والصباحُ مُوَرّدٌ   لم يكتئبْ والصبحُ غيرُ موردِ

سيّانِ أحلامٌ أراها في الكرى   عندي ، وأشياءٌ بها اشتملتْ يدي

أنا في الزمانِ كموجةٍ في زاخرٍ   أنا فيهِ إنْ يُزبدْ وإنْ لم يُزبدِ

مهما تلاطمَ فهوَ ليس بمغرقي ، أو مخرجي منه ، ولا بمبدِّدي

هيهاتِ ما أرجو ولا أخشى غداً هل أرتجي وأخافُ ما لم يوجدِ

والأمسُ فيَّ فكيفَ أحسبهُ انتهى

أفما رأيتُ الأصلَ في الفرعِ الندي ؟

قبلُ كبعدٍ حالةٌ وهميَّةٌ أمسي أنا، يومي أنا، وأنا غدي

•

الفيلسوف المجنح

يا أيها الشادي المغرِّدُ في الضحى أهواكَ إن تُنشِدْ وإنْ لم تنشدِ

الفنُّ فيكَ سجيَّةٌ لا صَنعةٌ والحبُّ عندكَ كالطبيعةِ سرمدي

فإذا سكتَّ فأنتَ لحنٌ طائرٌ وإذا نطقتَ فأنتَ غيرُ مقلِّدِ

للهِ درُّكَ شاعراً لا ينتهي من جيِّدٍ إلا صَبا للأجودِ

مرحُ الأزهارِ في غنائكَ والشذى وطلاقةُ الغُدْرانِ والفجرِ الندي

وكأنَّ زوركَ فيهِ ألفُ كنجةٍ وكأنَّ صدركَ فيهِ ألفُ مردِّدِ

كم زهرةٍ في السفحِ خادرةِ المنى سكنتْ على يأسٍ سكونَ الجلمدِ

غنَّيتَها ، فاستيقظتْ وترنَّحتْ وتألقتْ كالكوكبِ المتوقِّدِ

وجرى الهوى فيها وشاعَ بشاشةً مَنْ لَمْ يُحبَّ فإنهُ لم يولدِ

وكأنني بكَ حينَ تهتِفُ قائلٌ للزهرِ : إنَّ الحسنَ غيرُ مخلَّدِ

فاستنفدي في الحبِّ أيامَ الصِّبا واسترشديهِ فهوَ أصدقُ مرشدِ

واستشهدي فيهِ ، فمِنْ سُخرِ القضا أنْ لا تذوقيهِ وأنْ تستشهدي !

***

يا فيلسوفاً قد تلاقى عندهُ   طَرَبُ الخليِّ وَحرقةُ المتوجّدِ

رَفعَ الربيعُ لكَ الأرائكَ في الربى   وكسا حواشيها برودَ زبرجدِ

أنتَ المليكُ لهُ الضياءُ مقاصرٌ   وتعيشُ عيشَ الناسكِ المتزهدِ

مستوفزاً فوقَ الثرى ، متنقلاً   في الدّوحِ من غصنٍ لغصنٍ أملدِ

متزوّداً من كلِّ حسنٍ لمحةً   شأنَ المحبِّ الثائرِ المتمردِ

وإذا ظفرتَ بنفحةٍ وبقطرةٍ   فلقد ظفرتَ بروضةٍ وبموردِ

تشدو وتبهتُ حائراً متردداً   حتى كأنكَ حين تُعطي تجتدي

وتمدُّ صوتكَ في الفضا متلهفاً   في ذلّةِ المسترحمِ المستنجدِ

فكأنما لـــكَ موطنٌ ضيّعتهُ   خلفَ الكواكبِ في الزمانِ الأبعدِ

وطنٌ جميلٌ كنتَ فيهِ سيّداً   فمضى ودامَ عليكَ همُّ السيّدِ

طوردتَ عنه إلى الحضيضِ فلَمْ تزلْ   متلفتاً كالخائفِ المتشردِ

يبدو لعينكَ في العتيقِ خيالهُ   وتراهُ في ورقِ الغصونِ الميّدِ

صورٌ معدّدةٌ لغيرِ حقيقةٍ   كالآلِ لاحَ لمعطشٍ في فدفدِ

فتهمُّ أنْ تدنو إليه وتنثني   حتى كأنكَ خائفٌ أنْ تهتدي

وكأنه حُلْمٌ يصحُّ مَعَ الكرى   فإن انتهيتَ من الكرى يتبدّدِ

كم ذا تفتّشُ في السفوحِ وفي الذُّرى   عنقاءَ أقربُ منهُ للمتصيّدِ

***

يا أيها الشادي المغرّدُ في الضحى   أهواكَ إن تنشدْ وإنْ لم تنشدِ

طوباكَ إنكَ لا تفكّرُ في غدٍ   بدءُ الكآبةِ أنْ تفكّرَ في غدِ

إن كنتَ قد ضيّعتَ إلفكَ إنني   أبكي على إلفي الذي لم يوجدِ

عيد النهى

في اليوبيل الذهبي لمجلة المقتطف

قُلْ للحمائمِ في ضفافِ الوادي ... يا ليتكنَّ على شَغافِ فؤادي
لترينَ كيفَ تبعثرتْ أحلامُهُ ... وجرتْ بهِ الآلامُ خيلَ طِرادِ
كانت تشعُّ على جوانبه المنى ... فخَبَتْ وبدَّلَ جمرَها برمادِ
أسعدْنَهُ، فعسى يخفُّ ولوعُهُ ... إنَّ الشجيَّ أحقُّ بالإسعادِ
ذَهَبَ الصبا وبقيتِ في حَسَراتِهِ ... ليتَ الأسى مثلَ الصبا لنفادِ
إنَّ الشبابَ هو الغنى فإذا مضى ... وأقتَ لا ينفكُّ فقرُكَ بادي
أمسيتُ أنظرُ في الحياةِ فلا أرى ... إلا سواداً آخذاً بسوادِ
ألقى الصباحَ فلا يطولُ تأمُّلي ... حتى يحـولُ شعاعُهُ لصعادِ
وإذا تقابلني النجومُ تخاوصتْ ... فكأنما هي أعينُ الحسَّادِ
ما ثمَّ من ذكرى إذا خطرتْ على ... قلبي استراحَ سوى خيالِ الوادي
أفلا تزالُ الشمسُ تصبغُ وجهَهُ ... بالوَرْسِ[1] آونةً وبالفرصادِ[2]؟

(1) نبات كالسمسم يصبغ به.
(2) الفرصاد: صبغ أحمر.

أفلا يزالُ يذوبُ في أمواجهِ ... ذَهَبُ الأصيلِ وفضةُ الآرادِ؟
لهفي إذا وَرَدَ الرفاقُ عشيَّةً ... وذكرتُ أني لستُ في الوُرَّادِ
وإذا الحمامُ شدا وصفَّقَ موجُهُ ... أنْ لا أُصفقَ للحمامِ الشادي
وإذا النخيلُ تطاولتْ أظلالُهُ ... أنْ لا يكونَ مظلَّتي ووسادي
وإذا الكواكبُ رصَّعتْ آفاقَهُ ... أنْ لا يكونَ لرعيهنَّ سُهادي
ذُقتُ الهوى وعرفْتُهُ في شطِّهِ ... إنَّ الهوى للمرءِ كالميلادِ
لا تدركُ الأكبادُ سرَّ وجودِها ... حتى يجولَ الحبُّ في الأكبادِ
ما عشتَ لم يمسسْ جوانحَكَ الهوى ... لم تدرِ ما في العيشِ من أمجادِ
لا تبصرُ العينُ الرياضَ وحلْيَها ... إلّا على ضوءِ الصباحِ الهادي

. . .

وطنانِ أشوقُ ما أكونُ إليهما ... مصرُ التي أحببتها وبلادي
ومواطنُ الأرواحِ يعظمُ شأنُها ... في النفسِ فوقَ مواطنِ الأجسادِ
حرصي على حبِّ «الكنانةِ» دونَهُ ... حرصُ السجينِ على بقايا الزادِ
بلَدَ الجمـالِ خفيِّهِ وجليِّهِ ... والفنِّ من مُستطرفٍ وتلادِ
عَرَضَتْ مواكبَها الشعوبُ فلم أجدْ ... إلّا بمصرَ نضارةَ الآبادِ
كم من دفينٍ في ثراها لم يزلْ ... كالحيِّ ذا مقةٍ وذا أحقـادِ
ومشيَّدٍ، للناسِ إذ يغشونَهُ ... من كلِّ أرضٍ خشيةُ العبَّادِ

عاشَ الجدودُ وأثّلوا ما أثّلوا   واليومَ ينبعثونَ في الأحفادِ

ألمسبغينَ على النوابغِ فضلَهمْ   كالفجرِ منبسطاً على الأطوادِ

أبناءَ مصرَ الناهضينَ تحيةً   كوِدادِكمْ إنْ لم أقلْ كوِدادي

. . .

من شاعرٍ كلِفٍ بكمْ وبأرضِكمْ   أبداً يُوالي فيكمْ ويُعادي

إنْ تُكرموا شيخَ الصحافةِ تُكرموا   أسنى الكواكبِ في سماءِ الضادِ

خلعَ الشبابُ على الكنانةِ مُطرفاً   هوَ كالربيعِ على ربىً ووِهادِ

ما زالَ يقحمُ في الجهالةِ نورُهُ   حتى تقاصرَ ليلُها المتمادي

بصحيفةٍ نورُ العيونِ سوادُها   وبياضُها مِنْ ناصعِ الأجيادِ

ينبوعُ معرفةٍ، وهيكلُ حكمةٍ،   ووعاءُ آدابٍ، وكنزُ رشادِ

أغلى المواهبِ والعقولِ رأيتُها   سكنتْ قصورَ مهارقٍ ومدادِ

ذِكرُ المجاهدِ في الحقيقةِ خالدٌ   ويزولُ ربُّ السيفِ والأجنادِ

لولا جبابرةُ القرائحِ لم يَسِرْ   في الأرضِ ذِكرُ جبابرِ القوّادِ

ما ذلّلتْ سُبُلَ المعالي أمةٌ   إلا بقوةِ مُصلحٍ أو هادي

. . .

«صرّوف» يسألكَ الأنامُ تقلْ لهمْ   كم في حياتكَ ساعةَ استشهادِ

طلعَ القنوطُ عليكَ من أغوارِهِ   فرددتَ طائرَهُ وجأشُكَ هادي

وتمضيتَ تستقصي الحياةَ وسرَّها   في كلِّ عاقلةٍ وكلِّ جمادِ

حتى لكدتَ تحسُّ هاجسةَ المنى   وتبينَ كم في النفسِ من أضدادِ

أنتَ الذي أسرتْ به عزماتُهُ   والدربُ غامضةٌ على الروّادِ

والليلُ آفاتٌ على أغوارِها   والهولُ أنجادٌ على الأنجادِ

إنَّ الحقائقَ أنتَ ناشرُ بندِها   في حينِ كانَ العلمُ كالإلحادِ

والعقلُ في الشرقيِّ من أوهامِهِ   كالنسرِ في الأوهاقِ والأصفادِ

تشقى متى تشقى الشعوبُ بجهلِها   وتعزُّ حينَ تعزُّ بالأفرادِ

ألساهرينَ الليلَ مثلَ نجومِهِ   فكأنهمْ للدهرِ بالمرصادِ

ألباذلينَ نفوسَهمْ لم يسألوا   وعلى النفوسِ مدارعُ الفولادِ

خفضُوا جناحهمُ وتحتَ برودِهمْ   هِمَمُ الملوكِ وصولةُ المُرّادِ

لهمُ الزمانُ قديمُهُ وحديثُهُ   ما الناسُ في الدنيا سوى الآحادِ

إنَّ الأنامَ على اختلافِ عصورِهم   جعلوا لأهلِ العلمِ صدرَ النادي

ما العيدُ للخمسينِ بل عيدُ النهى   وفنونِهِ والخاطرِ الوقّادِ

عبدُ الحصافةِ والصحافةِ كلِّها   في مصرَ ، في بيروتَ ، في بغدادِ

ما العيشُ بالأعوامِ كم من حقبةٍ   كالمحوِ في عمرِ السوادِ العادي

ألعمرُ ، إلا بالمآثرِ ، فارغٌ   كالقفرِ طالَ بهِ عناءُ الحادي

وسوى حياةِ العبقريِّ نقيسها   فتقاسُ بالآجالِ والآمادِ



يا بلادي

مثلما يكمنُ اللظى في الرّمادِ   هكذا الحبُّ كامنٌ في فؤادي

لستُ مغرىً بشادنٍ أو شادِ   أنا صبٌّ متيّمٌ ببلادي

يا بلادي عليكِ ألفُ تحيّةْ

. . .

هو حبٌّ لا ينتهي والمنيّةْ   لا ولا يضمحلُّ والأمنيّةْ

كانَ قبلي وقبلَ نفسي الشجيّةْ   كانَ من قبلُ في حشا الازليّةْ

وسيبقى ما دامتِ الأبديّةْ !

. . .

خلّياني من ذكرِ ليلى وهندِ   واصرفاني عنْ كل قدٍّ وخدِّ

كلُّ حسناءَ غيرُ حسناءَ عندي   أو أرى وجدَها بقومي كوجدي

لا حياةَ في الحبِّ والوطنيّةْ

. . .

كلُّ شيءٍ في هذهِ الكائناتِ   منْ جمادٍ وعالمٍ ونباتِ

وقديمٍ وحاضرٍ أو آتٍ صائرٌ للزوالِ أو للمماتِ
غيرَ شوقي إليكِ يا سوريّهْ

...

أنتِ ما دمتُ في الحياةِ حياتي فإذا ما رجعتُ للظلماتِ
واستحالتْ جوارحي ذرّاتٍ فلتقلْ كلُّ ذرّةٍ من رفاتي
عاشَ لبنانُ ولتعشْ سوريّهْ

...

ولتقلْ كلُّ نفحةٍ من ندٍّ ولتقلْ كلُّ دمعةٍ في خدٍّ
ولتقلْ كلُّ غرسةٍ فوقَ لحدي وليقلْ كلُّ شاعرٍ من بعدي
عاشَ لبنانُ ولتعشْ سوريّهْ

...

رُبَّ ليلٍ سهرتُهُ للصباحِ حائراً بينَ عسكرِ الأشباحِ
ليسَ لي مؤنسٌ سوى مصباحي ونداءِ الملاحِ للملاحِ
وصراخِ الزوارقِ الليليّهْ

...

تتهادى في السيرِ كالملكاتِ أو كسربِ النعامِ في الفلواتِ

مقبلاتٍ في النهرِ أو رائحاتِ تحتَ ضوءِ الكواكبِ الزاهراتِ
فوقَ ماءٍ كالبردةِ اليمنيّهْ

...

تتمشّى في صفحتيهِ النسائمْ فترى الموجَ فيهِ مثلَ الأراقمْ
يتلوّى ، وتارةً كالمعاصمْ كلِفَ الماءُ بالنسيمِ الهائمْ
ليتني كنتُ نسمةً شرقيّهْ

...

هجعَ الناسُ كلّهمْ في المدينهْ وتولّتْ على «نويورك» السكينهْ
وجفوني ، بغمضِها ، مستهينهْ لا ترى غيرَ طيفِ تلكَ الحزينهْ
لستُ أعني بها سوى سوريّهْ

...

ذاكَ ليلٌ قطعتُهُ أتأمّلْ رسمَها الصامتَ الذي ليسَ يعقلْ
وجَناني مع خاطري تتنقّلْ بينَ هذا الحمى وذاكَ المنزلْ
والربى والخمائلِ السندسيّهْ

...

ههنا رسمُ منزلٍ أشتهيهِ ههنا مربعٌ أحبُّ ذويهِ

هُنا رَسْمُ مَعهدٍ كُنتُ فيهِ   مَعْ رِفاقي أَجرُّ ذَيلَ التِّيهِ
في الضُّحى، في الأصيلِ، بَعدَ العَشيَّة

. . .

كَمْ تَطلَّعتُ في الخُطوطِ الدَّقيقَهْ   وَلَثمتُ الطَّرائقَ المَنسوقَهْ
قَنِعَتْ بالخَيالِ نفسي المَشوقَهْ   لَيتَ هذا الخَيالَ كانَ حَقيقَهْ
فَعَذابي في لذَّتي الوَهمِيَّة

. . .

يا رُسوماً قد هَيَّجتْ أشواقي   طالَ، لو تعلَمينَ، عَهدُ الفِراقِ
أينَ تلكَ الكؤوسُ، أينَ السَّاقي؟   أينَ تلكَ الأيَّامُ، أينَ رِفاقي؟
أينَ أحلامي الحِسانُ البَهيَّة؟

. . .

يا رُسومَ الرُّبوعِ والأصحابِ   بِحَيـاتي عَلَيْكِ بالأحبابِ
أَخبِريني فَقَدْ عَرَفتِ مُصابي   أَتُرى عائدٌ زَمانُ التَّصابي
أم طَوَتْهُ عنَّا يَدُ الأبديَّة؟

. . .

سَبَقَتني دُنيا أرادتْ لحاقي   فأنا الآنَ آخِرٌ في السِّباقِ

نِصفُ عُمري يَرثيهِ نِصفي الباقي   كَرِثاءِ الأوراقِ للأوراقِ
يَبِسَ الأصلُ والفُروعُ نَديَّة

. . .

مَا تُراني إذا تَغَنَّى الشَّادي   وَمَضَى في الغِناءِ والإنشادِ
فأطارَ الأسى عَنِ الأكبادِ   أحسبُ العُودَ في يَديهِ يُنادي
أيُّها القومُ أنقِذوا سوريَّة!

. . .

وإذا ما جَلَستُ تَحتَ الظَّلامِ   أرقُبُ البَدرَ مِن وراءِ الغَمامِ
رَنَّ في مَسمَعي فَهزَّ عِظامي   شِبهُ صَوتٍ يَقولُ للنُّوَّامِ
أيُّها القومُ أنقِذوا سوريَّة!

. . .

وإذا ما ذَهبتُ في البُستانِ   بَينَ زَهرِ الخُزامِ والأقحوانِ
أسمعُ الهاتِفاتِ في الأفنانِ   قائلاتٍ وللكلامِ مَعانِ
أيُّها القومُ أنقِذوا سوريَّة!

. . .

وإذا ما وَقَفتُ عِندَ الغَديرِ   حيثُ تَمشي الطُّيورُ خلفَ الطُّيورِ

خِلتُ أنَّ الأمواهَ ذاتَ الخَريرِ   قائِلاتٌ معي لأهلِ الشُّعورِ
أيُّها القومُ أنقِذوا سوريَّهْ

. . .

ما لقومي وقدْ دَهتها الدَّواهي   بالذي يُطفِئُ النُّجومَ الزَّواهي
ويُثيرُ (الحَماسَ) في الأمواه   قعَدوا بَيْنَ ذاهِلٍ أو لاه
أيْنَ أيْنَ الحَفيظةُ العربيَّهْ؟

. . .

هي أمٌّ لكمْ وأنتمْ بَنوها   حفِظتْ عهدَكم فلا تُنكِروها
أنتمْ أهلُها وأنتمْ ذَووهَـــا   لا تُعينوا بالصَّمتِ مَن ظلَموها
ذاكَ عارٌ على النُّفوسِ الأبيَّهْ

. . .

كُنْ نَبيّاً يَستنزِلُ الإلهاما   كُنْ مَليكاً يُصدِرُ الأحكاما
كُنْ غنياً، كُنْ قائِداً، كُنْ إماما   كُنْ حياةً، كُنْ غِبطةً، كُنْ سَلاما
لَسْتَ مِني أو تعشقَ الحُرِّيَّهْ!!!

شَوقٌ يروحُ معَ الزَّمانِ ويَغتدي   والشَّوقُ، إنْ جدَّدْتَهُ يَتجدَّدِ
دَعْ عَنكَ نُصحي بالتَّبلُّدِ ساعةً   يا صاحِ، قدْ ذَهبَ الأسى بتَبلُّدي
ما زادَ في أسَفِ الحَزينِ وشَجوِه   شيءٌ كقولِكَ للحَزينِ تَجلَّدِ
ما زلتُ أعصيهِ إلى أن هاجَني   ذِكرُ الحِمى فَعَصَيتُ كلَّ مُفنِّدِ
وأطارَ عن جَفني الكَرى وأطارَني   عن مَرقَدي مَشْيُ الهُمومِ بمَرقَدي
في جُنحِ ليلٍ مثلِ حظّي حالِكٍ   كالبَحرِ ساجٍ ... مُقفِرٍ كالفَدفَدِ
أقبلْتُ أنظرُ في النُّجومِ مُصَعِّداً   عَيني بَيْنَ مُصوَّبٍ ومُصَعَّدِ
أو واجِفٍ أو راجِفٍ مُترَجرِجٍ   أو نافِرٍ أو حائِرٍ مُتردِّدِ
يَمشينَ في هذا الفَضاءِ وفَوقَهُ   وكأنَّما يَمشينَ فوقَ الأكبُدِ
والبَدرُ مُنبَعِثُ الشُّعاعِ لطيفُهُ   صافٍ كَذِهنِ الشَّاعرِ المُتوقِّدِ
ما زالَ يَنفُذُ في الدُّجى حتَّى استَوى   فيهِ، فيا لكَ أبيضاً في أسوَدِ
والشُّهبُ تَلمَعُ في الرَّقيعِ كأنَّها   أحلامُ أرواحِ الصِّغارِ الهُجَّدِ
يَنظُرْنَ عن كَثَبٍ إليهِ خِلسةً   نَظَرَ المِلاحِ إلى الغَريرِ الأمرَدِ
فعَجِبْتُ مِمَّنْ نامَ مِلءَ جُفونِهِ   والكَونُ يَشهَدُ مِثلَ هذا المَشهَدِ

وَرَأَيْتُني فوقَ الغمامِ مُحلّقاً   في الأُفقِ ما بينَ السُّها والفرقدِ
فسمعتُ صوتاً من بعيدٍ قائلاً   يا أيُّها السّاري مكانَكَ محمّدِ
ما دُمتَ في الدُّنيا فلا تزهدْ بها   فأخو الزّهادةِ ميّتٌ لم يُلحَدِ
لا تقنطنَّ منَ النّجاحِ لعثرةٍ   ما لا يُنالُ اليومَ يُدركُ في غدِ
كمْ آكلٍ ثمراً سقاهُ غيرُهُ   دمَهُ، وكمْ من زارعٍ لم يحصُدِ
لو كانَ يحصدُ زرعَهُ كلُّ امرىءٍ   لم تُخلقِ الدُّنيا ولم تتجدّدِ
بالذكرِ يحيا المرءُ بعدَ مماتِهِ   فانهضْ إلى الذكرِ الجميلِ وخلِّدِ
فلئنْ وُلدتَ ومتَّ غيرَ مُخلِّدٍ   أثراً فأنتَ كأنّما لم تولَدِ
حتّامَ في لا شيءَ يقتتِلُ الورى   إنَّ الحِمامَ على الجميعِ بمرصَدِ
طاشتْ حلومُ المالكينَ، فذاهلٌ   لا يستفيقُ، وحائرٌ لا يهتدي
وأفقتُ، إذ قطعَ الكلامَ مُكلّمي   فنظرتُني فإذا أنا لم أصعَدِ

. . .

ما للكواكبِ لا تنامُ ولا تني   قد طالَ سُهدكِ يا كواكبُ فارقُدي
كمْ تنظرينَ إلى الثّرى من حالقٍ   ما في الثّرى لأخي الأسى من مُسعِدِ
أوَ ما تريني عندما اشتدَّ الدُّجى   واشتدَّ دائي نامَ عنّي عُوَّدي
حتّى لقدْ كادَ القريضُ يعقّني   ويصونُ عنّي ماءَهُ وأنا الصّدي
أُمسي أهمُّ بهِ ويظلعُ خاطري   فكأنّما أنا ماتحٌ من جلمَدِ

لا تسألِيني لِمْ سهدتُ فإنّني   لو كانَ في وسعي الكرى لم أسهدِ
صرفتْ يدُ البلوى يدي عن أمرِها   ما خلتُ أمري قطُّ يخرجُ من يدي
في أضلعي نارٌ أذابتْ أضلعي   ومشتْ إلى كبدي ولمّا تخمُدِ
أخشى على الأحشاءِ من كتمانِها   وأخافُ أن أشكو فيشمتَ حُسّدي

. . .

ومليحةٍ لا هندُ من أسمائِها   كلّا، وليستْ كالحسانِ الخُرَّدِ
نشزَ الجواري والإماءُ تمرّدتْ   ووَنتْ فلمْ تنشزْ ولم تتمرّدِ
في النّفسِ منها ما بها من دهرِها   أزكى السّلامِ عليكِ أرضَ الموعِدِ
يا ليتَ شعري كمْ أقولُ لها انهضي   وتقولُ أحداثُ الزّمانِ لها اقعُدي
ليسَ الذي لاقتهُ هيناً إنّما   حِملُ الأذى هيِّنٌ على المتعوِّدِ!

مرآة الغرب

في سنتها التاسعة عشرة

سَلامٌ عَليهـــا طِفلةً وَفَتيَّةً   كَزَهرِ الرُّبى البَسّامِ باكَرَهُ القَطرُ

كَعَابٌ تَلاقى الحُسنُ وَالفَضلُ عِندَها
كما يَلتَقي في الصَّفحةِ السَّطرُ وَالسَّطرُ

لَها صَولَةُ الأبطالِ إن حَسَّ الوَغى   وَفيها حَياءُ البِكرِ عمّا بِهِ وِزرُ

وفيها مِنَ الشّيخِ الحَكيمِ وَقارُهُ   وَفيها مِنَ الخُودِ المَلاحَةُ وَالطُّهرُ

ألا إنَّ حُسناً لا يُرافِقُهُ النُّهى   وإنْ دامَ يَوماً لا يَدومُ لهُ قَدرُ

. . .

هيَ الرَّوضُ فيهِ النَّبتُ والنَّدُّ والنَّدى
وفيهِ الشَّوادي المُطرِباتُكَ والزَّهرُ

هيَ الشّمسُ تَبدو كلَّ يومٍ جَديدةً   يَروحُ بها لَيلٌ ويَأتي بها فَجرُ

لِكُلِّ فَتاةٍ خِدرُها وسِوارُها   ولكنَّ هذي كلُّ قَلبٍ لها خِدرُ

يُريدُ سَناها الطَّيُّ والنَّشرَ رَونَقاً   ويَخلِقُ حَتّى المُصحَفَ الطَّيُّ والنَّشرُ

أنيسُ الفَتى إنْ غابَ عَنهُ أنيسُهُ   وَأنجُمُهُ إنْ غابَتِ الأنجُمُ الزُّهرُ

وَسِفرٌ تَلَذُّ المَرءَ مُحتَوَياتُهُ   إذا لم يَكُن في البَيتِ ناسٌ ولا سِفرُ

إذا رَضِيَتْ فالنُّورُ في كَلِماتِها   وإنْ غَضِبَتْ فهيَ الأسِنَّةُ وَالجَمرُ

وفي كلِّ حَربٍ يَعقِدُ الحَقُّ فَوقَها   أكاليلَ نَصرٍ يَشتَهي مِثلَها البَدرُ

وَلا غَروَ إن عَزَّتْ وَهانَ خُصومُها   فَلِلحَقِّ، مَهما جَعجَعَ الباطِلُ، النَّصرُ

فَكَم مُرجِفٍ أغراهُ فيها سُكوتُها   فَلَمّا أهابَتْ كادَ يَقتُلُهُ الذُّعرُ

وَكَم كاشِحٍ غاوٍ أرادَ بها الأذى   ثَنى طَرفَهُ عَنها وفي نَفسِهِ الضُّرُّ

لها في رُبوعِ الشَّرقِ جَيشٌ عَرَمرَمٌ   وَأعوانُها في الغَربِ لَيسَ لَهُم حَصرُ

وَلَو كانَ في المِرّيخِ أرضٌ وأُمّةٌ   لَكانَ لها في أرضِهِ عَسكَرٌ مَجْرُ

لِتَسحَبْ ذُيولَ الفَخرِ تيهاً فَوَحدَها   يَحِقُّ لَها مِن بَينِ أترابِها الفَخرُ

ولا غَروَ إن أهدى لها الشِّعرُ وَحيَهُ   فَيا طالَما سارَتْ وَسارَ بِها الشِّعرُ

ولا غَروَ إن صُغنا لها النَّثرَ حِليَةً   «فَفي عُنُقِ الحَسناءِ يُستَحسَنُ الدُّرُّ»

وإن يَكُنِ الأحرارُ مِن نُصَرائِها   فَكَم نَصَرَ الأحرارَ صاحِبُها الحُرُّ

أديبٌ عَفيفٌ قَلبُهُ وَيَراعُهُ   يَغيضُ إليهِ الطَّيشُ والفُحشُ والهُجرُ

ثمانٍ وَعشرٍ وهو يخدمُ قومَهُ ... ألا حبّذا تِلكَ الثّماني والعشْرُ

فَفي العُسْرِ لم يجهرْ بشكوى لِسانُهُ ... وفي اليُسرِ لم يَلعبْ بأعطافِهِ الكِبرُ

وَشَرُّ المزايا أن يُصيبكَ حادثٌ ... وَتجهرَ بالشكوى وفي وُسْعِكَ الصّبْرُ

أهذا كمن يمشي ويُضحي مُعربداً ... وَقُدّامُهُ طبلٌ ومِنْ خَلفِهِ زَمرُ؟

أهذا كمغتابٍ يَروحُ ويَغتدي ... وَفي نُطقِهِ شرٌّ وفي صَمتِهِ شرُّ؟

أهذا كمفطورٍ على الشرِّ والأذى ... أحاديثُهُ نُكرٌ وأعمالُهُ نُكرُ؟

أهذا كأفعى هَمُّها نفثُ سُمِّها ... وَنهشُ الّذي تلقى ولو أنّهُ صخرُ

أكمن يمشي إلى الوزرِ عامِداً ... وَيضحكُ مُختالاً إذا مَسّهُ الوزرُ؟

أهذا الذي قد حاربَ المكرَ جهدَهُ ... كمن شابَ فوداهُ وديدنُهُ المكرُ؟

إذا الدّهرُ لم يَعرفْ لِكلٍّ مَكانَهُ

إذنْ قُلْ لأهلِ الدّهرِ قد فَسدَ الدّهرُ

•

الغدير الطموح

قــالَ الغديرُ لنفسِهِ ... يا ليتني نهرٌ كبيرْ

مثلُ الفراتِ العَذبِ أو ... كالنيلِ ذي الفَيضِ الغزيرْ

تجري السفائنُ موقراتٍ ... فيهِ بالرِّزقِ الوفيرْ

هيهاتَ يرضى بالحقـيرِ ... من المنى إلّا الحقيرْ

وانسابَ نحوَ النهرِ لا ... يلوي على المرجِ النضيرْ

حتى إذا مــا جاءَهُ ... غَلَبَ الهديرُ على الخريرْ

•

الدمعة الخرساء

سمعتُ عويلَ النائحاتِ عشيةً — في الحيِّ يبتعثُ الأسى ويثيرُ

يَبْكينَ في جُنحِ الظلامِ صبيةً — إنَّ البكاءَ على الشبابِ مريرُ

فتجهّمتْ وتلفّتتْ مرتاعةً — كالظبيِ أيقنَ أنهُ مأسورُ

وتحيّرتْ في مقلتيها دمعةٌ — خرساءُ لا تَهمي وليسَ تغورُ

فكأنها بطلٌ تكنَّفَهُ العدى — بسيوفهمْ وحسامُهُ مكسورُ

وجمتْ، فأمسى كلُّ شيءٍ واجماً — ألنورُ، والأطلالُ، والديجورُ

ألكونُ أجمعُ ذاهلٌ لذهولها — حتى كأنَّ الأرضَ ليسَ تدورُ

لا شيءَ مما حولَنا وأمامنا — حَسَنٌ لديها والجمالُ كثيرُ

سكتَ الغديرُ كأنما التحفَ الثرى — وسها النسيمُ كأنهُ مذعورُ

وكأنما الفَلَكُ المنوّرُ بلقعٌ — والأنجمُ الزهراءُ فيهِ قبورُ

كانتْ تمازِحني وتضحكُ فانتهى — دَوْرُ المِزاحِ فضحكُها تفكيرُ

. . .

قالتْ وقد سَلَخَ ابتسامَتَها الأسى: — صدَقَ الذي قال ـ الحياةُ غرورُ!

أكذا نموتُ وتنقضي أحلامُنا — في لحظةٍ، وإلى الترابِ نصيرُ؟

وتموجُ ديدانُ الثرى في أكْبُدٍ — كانتْ تموجُ بها المُنى وتمورُ

خيرٌ إذن منّا الأُلى لم يولَدوا — ومِنَ الأنامِ جلامدٌ وصخورُ

ومنَ العيونِ مَكاحِلٌ ومَراوِدٌ — ومنَ الشفاهِ مَساحِقٌ وذُرورُ

ومنَ القلوبِ الخافقاتِ صبابةً — قَصَبٌ لوَقْعِ الريحِ فيهِ صفيرُ!

. . .

وتوقّفتْ فشعرتُ بعدَ حديثها — أنَّ الوجودَ مُشوَّشٌ مبتورُ

ألصيفُ ينفثُ حرَّهُ من حولنا — وأنا أحسُّ كأنني مَقرورُ

ساقتْ إلى قلبي الشكوكَ فنغّصتْ — ليلي، وليسَ مَعَ الشكوكِ سرورُ

وخشيتُ أن يغدو مع الرَّيْبِ الهوى — كالرسمِ لا عِطرٌ وفيهِ زهورُ

وكدُميةِ المِثالِ حُسنٌ رائعٌ — ملءُ العيونِ وليسَ ثَمَّ شعورُ

فأجبتُها: لِتَكُنْ لديدانِ الثرى — أجسامُنا إنَّ الجسومَ قشورُ

لا تجزعي فالموتُ ليسَ يَضيرُنا — فلَنا إيابٌ بعدَهُ ونشورُ

إنّا سنبقى بعدَ أن يمضي الورى — ويزولَ هذا العالَمُ المنظورُ

فالحبُّ نورٌ خالدٌ متجددٌ — لا ينطوي إلا ليسطعَ نورُ

وبنو الهوى أحلامُهم ورؤاهُمُ — لا أعينٌ ومَراشِفٌ ونحورُ

فإذا تطوّتنا الأرضُ عن أزهارها — وخلا الدُّجى منّا وفيهِ بدورُ

فسترجعينَ خميلةً معطارةً   أنا في ذُراها بلبلٌ مسحورْ
يشدو لها ويَطيرُ في جنباتها   فتَهشُّ إذ يشدو وحين يطيرْ
أو جدولاً مُترقرقاً مترنّمــاً   أنا فيهِ موجٌ ضاحكٌ وخريرْ
أو ترجعينَ فَراشةً خطّارةً   أنا في جَناحيها الضحى المَوشورْ
أو نسمةً أنا همسُها وحفيفُها   أبداً تُطوّفُ في الربى وتدورْ
تغشى الخمائلَ في الصباحِ بليلةً   وتؤوبُ حين تؤوبُ وهي عبيرْ
أو نلتقي عندَ الكثيبِ، على رضًى   وقناعةٍ ، صفصافةٌ وغديرْ
تمتدُّ فيهِ وفي ثَراهُ عروقُها   ويسيلُ تحتَ فروعِها ويسيرْ
ويغوصُ فيهِ خيالُها فيلفُّهُ   ويَشِفُّ فهو المنطوي المنشورْ
يأوي إذا اشتدَّ الهجيرُ إليهما   ألناسكانِ : الظبيُ والعصفورْ
لهما سكينتُها ووارفُ ظِلِّها   والماءُ إنْ عطشا لديهِ وفيرْ
أعجوبتانِ — زبرجدٌ متهدّلٌ   نامٍ تدفّقَ تحتَهُ البلّــورْ
لا الصبحُ بينهما يحولُ ولا الدجى   فكلاهما بكليهما مغمورْ
تتعاقبُ الأيامُ وهيَ نضيرةٌ   مخضرّةُ الأوراقِ ، وهو نميرْ
فالدهرُ أجمعُ لديهــا غبطةٌ   والدهرُ أجمعُ لديهِ حبورْ

. . .

فتبسمت وبدا الرضى في وجهها   إذ راقها التمثيلُ والتصويرْ

ما لجتُها بالوهمِ فهي قريرةٌ   ولكم أفادَ الموجَعَ التخديرْ
ثمّ افترقنا ضاحكَيْنِ إلى غدٍ   والشهبُ تهمُسُ فوقنا وتشيرْ
مني كالمسافرِ آبَ بعدَ مشقّةٍ   وأنا كأنّي قائدٌ منصورْ
لكنني لمّــا أويتُ لمضجعي   خَشُنَ الفراشُ عليَّ وهو وثيرْ
وإذا سراجي قد وَهَتْ وتلجلجتْ   أنفاسُهُ فكأنّهُ المصدورْ
وأجلتُ طرفي في الكتابِ فلاحَ لي   كالرسمِ مطموساً وفيه سطورْ
وشربتُ بنتَ الكرمِ أحسبُ راحتي   فيها ، فطاشَ الظنُّ والتقديرْ
فكأنني فُلكٌ وهتْ أمراسها   والبحرُ يطغى حولها ويثورْ
سلبَ الفؤادَ رواهُ والجفنَ الكرى   همٌّ عرا ، فكلاهما موتورْ
حامتْ على روحي الشكوكُ كأنها   وكأنهنَّ فريسةٌ وصقورْ
ولقد لجأتُ إلى الرجاء فعقّني   أما الخيالُ فخائبٌ مدحورْ
يا ليلُ أينَ النور ؟ إني تائهٌ   مُرْ يَنبثِقْ ، أمْ ليسَ عندكَ نورُ؟

. . .

«أكذا نموتُ وتنقضي أحلامُنا   في لحظةٍ وإلى الترابِ نصيرُ؟»
«خيرٌ إذن منّا الأُلى لم يولدوا   ومن الأنامِ جنادلٌ وصخورُ»

حديث موجة

قالها في حفلة تكريم سامي الشوا
التي أقامتها له الجالية في مدينة
نيويورك عندما زارها .

عندي لكُم نبأٌ عجيبٌ شيّقٌ ... سأقصّهُ وعليكمُ تفسيرهُ
إنّي رأيتُ البحرَ أخرسَ ساهياً ... كالشيخِ طالَ بما مضى تفكيرهُ
فسألتُ نفسي حائراً متلجلجاً ... يا ليتَ شِعري أينَ ضاعَ هديرهُ؟
«بالأمسِ» قالتْ موجةٌ ثرثارةٌ ... ومَضتْ، فأكملتِ الحديثَ صخورهُ:
بالأمسِ مرَّ بنا فتًى من قومكمْ ... رقّتْ شمائلهُ ودقَّ شعورهُ
مترنّحٌ من خمــرةٍ قدسيّةٍ ... فيها الهوى وفتونهُ وفتورهُ
مترفّقٌ في مَشيهِ يطأُ الثّرى ... وكأنّما بينَ النّجومِ مسيرهُ
يلهو بأوتارِ الكمنجةِ والدُّجى ... مرخيةٌ فوقَ العُبابِ سُتورهُ
يَهدي إلى الوطنِ القديمِ سلامَهُ ... ويُناشدُ الوطنَ الذي سيزورهُ
فَشجَا الخضمَّ نشيدهُ وهتافهُ ... فَسَها، فضاعَ هديرهُ وزئيرهُ
أعرفتموهُ؟.. إنّهُ هذا الفتى ... هذا الذي سَحرَ الخضمّ مرورهُ

«داودُ» والمزمارُ في نغماتِهِ ... و «الموصليُّ»، ومعبدٌ وسريرهُ
يا ضيفنَا، والأنسُ أنتَ رسولُهُ ... وبشيرهُ، والفنُّ أنتَ أميرهُ
لو شاعَ في الفِردوسِ أنكَ بيننا ... لَمشتْ إلينا سافراتٍ حورهُ
ذَهبَ الربيعُ وجئتنا فكأنّما ... جاءَ الربيعُ زهورهُ وطيورهُ
ألفنُّ هشَّ إليكَ في أمرائِهِ ... وتفتّحتْ لكَ دورهُ وقصورهُ
إنَّ الجواهرَ بالجواهرِ أنسُها ... أمّا الترابُ فبالترابِ حبورهُ
يا شاعرَ الألحانِ إنّيَ شاعرٌ ... أمسى ضئيلاً عندَ نورِكَ نورهُ
أسمى الكلامِ الشعرُ إلّا أنّهُ ... أسماهُ ما أعيا الفتى تصويرهُ
وأحبُّ أزهارِ الحدائقِ ورْدُها ... وأحبُّ من وَرْدِ الرياضِ عبيرهُ
أنتَ الفتى لكَ في النّسيمِ حفيفهُ ... ولكَ الغديرُ صفاؤهُ وخريرهُ
ألقومُ صاغيةٌ إليكَ قلوبهمْ ... والليلُ منصتةٌ إليكَ بدورهُ
وبهذهِ الأوتارِ سحرٌ جائلٌ ... متململٌ كالوَحْيِ حانَ ظهورهُ
إنْ كنتَ لا تهتاجهُ وتثيرهُ ... فَمَنِ الذي يهتاجهُ ويثيرهُ؟
دغدغ بريشتكَ الكمنجةَ يَنطلقْ ... ويَدُبُّ في أرواحِنا تأثيرهُ
وامشِ بنا في كلِّ لحنٍ فاتنٍ ... كالماءِ يجري في الغصونِ طهورهُ
وأدِرْ على الجلّاسِ أكوابَ الهوى ... في راحتيكَ سُلافُهُ وعصيرهُ

فيخفُّ في الرَّجلِ الحليمِ وَقارُهُ   ويراجعُ الشيخَ المسنَّ غرورُهُ

وتنامُ في صَدْرِ الشجيِّ همومُهُ   ويفيقُ في قَلْبِ الحزينِ سرورُهُ

هذي الجموعُ الآنَ شخصٌ واحدٌ   لكَ حكمةٌ وكما تشاءُ مصيرُهُ

إنْ شئتَ طالَ هتافُهُ ونشيدُهُ   أو شئتَ دامَ نُواحُهُ وزفيرُهُ

إنّا وَهَبْناكَ القلوبَ ولم نهبْ   إلّا الذي لكَ قبلَنا تدبيرُهُ !

شاعر الشهور

«أيّارُ» ، يا شاعرَ الشهورِ   وبسمةَ الحبِّ في الدهورِ

وخالقَ الزهرِ في الروابي   وخالقَ العطرِ في الزهورِ

وباعثَ المـــاءِ ذا خريرِ   وموجدَ السحرِ في الخريرِ

وغاسلَ الأفقِ والدراري   والأرضِ بالنورِ والعبيرِ

لقد كسوتَ الثَّرى لباساً   أجملَ عندي من الحريرِ

ما فيكَ قَرٌّ ولا هجيرٌ   ذهبتَ بالقرِّ والهجيرِ

فلا ثلوجٌ على الروابي   ولا غمامٌ على البدورِ

أتيتَ فالكونُ مِهرجانٌ   من اللذاذاتِ والحبورِ

أيقظتَ في الأنفسِ الأماني   والابتساماتِ في الثغورِ

وكدتَ تحيي الموتى البوالي   وتُنبتُ العشبَ في الصخورِ

وتجعلُ الشوكَ ذا أريجٍ   وتجعلُ الصخرَ ذا شعورِ

فأينما سرتُ صوتُ بُشرى   وكيفما ملتُ طيفُ نورِ

تشكو إليكَ الشتاءَ نفسي   وما جناهُ من الشرورِ

كم لذعَ الزمهريرُ جلدي   ودبَّ حتى إلى ضميري

قلدتُ بالصوفِ أتقيه   فأحترقَ الصوفَ كالحريرِ

وكم ليالٍ جلستُ وحدي   منقبضَ الصدرِ كالأسيرِ

يهتزُّ مع أنملي كتابي   ويرجفُ الحبرُ في السطورِ

تَعوِلُ فيها الرياحُ حولي   كنائحاتٍ على أميرِ

والغيثُ يهمي بلا انقطاعٍ ،   والرعدُ مستتبعُ الزئيرِ

والليلُ محلولكُ الحواشي   وصامتُ البدءِ والأخيرِ

والشهبُ مرتاعةٌ كطيرٍ   مختبئاتٍ من الصقورِ

في غرفتي موقدٌ صغيرٌ   للهِ مِنْ موقدي الصغيرِ !

يكادُ ينقدُّ جانباهُ   من شدَّةِ الغيظِ لا السعيرِ

لولا لظاهُ رقصتُ فيها   بغيرِ دفٍّ على سريري

وساعةٍ وجهُها صفيقٌ   كأنَّهُ وجهُ مستعيرِ

أبطأُ في السيرِ عقرباها   فأبطأَ الوقتُ في المسيرِ

حتى كأنَّ الزمانَ أعمى   يمشي على الشوكِ في الوعورِ

كنّا طوينا المنى وقلنا :   ما للأماني من نشورِ

فلو يزورُ الصدورَ حلمٌ   عرَّجَ منها على قبورِ

لقد تولّى الشتاءُ عنّا   فصفّقي ، يا منى وطيري !

قتل نفسه

تأملَ في أمسهِ الدابرِ   فكادَ يُجَنُّ من الحاضرِ

أهاجَ التذكُّرُ أشجانَهُ   وكمْ للسعادةِ من ذاكرٍ ؟

فتىً كانَ أنعمَ من جاهلٍ   فأصبحَ أتعسَ من شاعرِ

أضاعَ الغنى وأضاعَ الصِّحابَ   وربَّ مريضٍ بلا زائرِ

ويا طالما أحدقوا بالفتى   كما تُحدِقُ الجُندُ بالظافرِ

فلما انقضى مجدُهُ أعرضوا   وما الناسُ إلا معَ القادرِ

وما الناسُ إلا عبيدُ القوي   فكنْ ذاكَ أو كُنْ بلا شاكرِ

أشدُّ من الدَّهرِ مكراً بنوهُ   فويلٌ لمن ليسَ بالماكرِ

فكنْ بينهمْ خاتلاً غادراً   ولا تشتكِ الغدرَ من غادرِ

تعيسٌ تُعانقُهُ النائباتُ   عِناقَ الحبائلِ للطائرِ

كثيرُ الهمومِ بلا ناصرٍ   كسيرُ الفؤادِ بلا جابرِ

قضى ليلَهُ ساهياً ساهراً   إلى كوكبٍ مثلِهُ ساهرِ

يُفتّشُ عن آملٍ في الثَّرى   وما كانَ في الأفقِ بالسافرِ

وتاللهِ يُجدي فتىً بائساً   كلامُ المنجّمِ والساحرِ

ولمـا توَلَّتْ دراري السماء — وغابَ الهلالُ عن الناظرِ

بكى، ثمَّ صاحَ أحنى النجومْ — تَصُدُّ عن الرجلِ العاثرِ ؟

إلى مَ أُعانِدُ هذا الزمانَ — عِنادَ السفينةِ للزاخرِ

وأدعو وما ثَمَّ من سامعٍ، — وأشكو، ولكنْ إلى ساخرِ

وأرجو الوفاء وتأبى النفوسُ — وأنَّى الولادةُ للعـاقرِ

سئمتُ الحياةَ فَلَيْتَ الحِمامَ — يُعيدُ إلى أصلِهِ سائري

فتنطلقُ النفسُ من سجنِها — ويُسجنُ تحت الثرى ظاهري

وزادَ سوادُ الدُّجى يأسَهُ — وقد كادَ يُسفِرُ عن باهرِ

فشاء التخلُّصَ من دهرِهِ — الحَزُونِ، ومن عَيْشِهِ الحازرِ[1]

فـأغمدَ في صدرِهِ مُدْيَةً — أشدَّ مَضاءً من الباترِ

وكمْ مثلهُ قد قضى نحبَهُ — شهيدَ التأمُّلِ في الغـابرِ

•

(1) الحازر: الحامض.

بنت الدوالي

هاتَ اسْقِني بالقَدحِ الكبيرِ

صَفراءَ لونَ الذَّهبِ المصهورِ

كأنَّها في أكؤسِ البلُّورِ — شُعلةُ نارٍ في بقايا نُورِ

•

عَجِبتُ للكأسِ التي نحويها

كيفَ استقرَّتْ والحياةُ فيها

لوْ لمْ يُدِرْها بيننا ساقيها — دارتْ على القومِ بلا مُديرِ

•

هاتَ اسقنيها مِثْلَ عينِ الديكِ

صافيةً تنهضُ بالصُّعلوكِ

حتّى يرى التِّيهَ على الملوكِ — ولا يُبالي سَطوةَ الأميرِ

بنتَ الدوالي ضرّةَ الرُّضابِ
أختَ التصافي زوجةَ السَّحابِ
أنتِ، وإنْ لامَ الورَى شرابي   في الخالدين: القرّ والهجيرِ

•

أشربُها بلْ أشربُ الإكسيرا
تخلقُ في شاربِها السّرورا
فقلْ لمنْ يحسَبُها غرورا   ما العيشُ إلّا ساعةُ الغرورِ

•

مسرح العشاق

مِن سِحرِ طَرفِكِ مَن مُجيري   يا ضَرَّةَ الرَّشا الغَريرِ
جِسمٌ كَخَصرِكِ في النُّحو   لِ، ومثلُ جَفنِكِ في الفتورِ
أصبحتُ أضألَ مِن هِلا   لِ الشَّكِّ في عَينِ البَصيرِ
مَحَقَ الضَّنى جسدي فَبِـ   ـتُّ مِنَ الهلاكِ على شَفيرِ
ومَشى الرَّدى في مُهجتي   اللهَ في النَّفَسِ الأخيرِ
جَهِلَ النطاسي علَّتي   للهِ مِن جَهلِ الخبيرِ
كم سامَني جَرعَ الدَّوا   ءِ وكَمْ جَرَعتُ مِنَ المَريرِ
دَعْ، أيُّها الآسي، يَدي   الحُبُّ يُدرَكُ بالشُّعورِ
يَدري الصَّبابَةَ والهوى   مَنْ كانَ في البلوى نَظيري ا..

***

لو تنظُرينَ إليَّ كالمَيْـ   ـتِ المُسجّى في سَريري
يتَهامَسُ العُوّادُ حو   لي كلّما سَمِعوا زفيري
وأظنُّهُمْ قد أدركوا   لا أدركوا ما في ضميري

فأبيتُ مِن قلقي عليـك   كأنني فوقَ السَّعيرِ
وأدرتُ طرفي في الحضو   رِ لعلَّ شخصكِ في الحضورِ
فارتدَّ يعثرُ بالدمو   عِ تعثُّرَ الشيخِ الضريرِ
قد زارني مَن لا أحبُّ(م)   وأنتِ أولى أن تزوري
صدَّقتِ ما قالَ الحوا   سِدُ فيَّ مِن هجرٍ وزورِ
وأطعتِ فيَّ حتى العدى   وضننتِ حتى باليسيرِ
أمّا خيالكِ، يا بخيلـةُ،   فهو مثلكِ في النفورِ
روحي فداؤكِ وهيَ لو   تدرينَ تفدى بالكثيرِ
تيهي على العاني كما   تاهَ الغنيُّ على الفقيرِ
أنا لا أبالي بالمصـير   وأنتِ أدرى بالمصيرِ
أهواكِ رغمَ معنِّفي   ويلذُّ نفسي أن تجوري
ليسَ المحبُّ بصادقٍ   حتى يكونَ بلا عذيرِ

***

كم ليلةٍ ساهرتُ فيهـا   النجمَ أحسبهُ سميري
والشهبُ أقعدها الونى   والليلُ يمشي كالأسيرِ
أرعى البدورَ وليسَ لي   مِن حاجةٍ عندَ البدورِ
متذكراً زمنَ الصِّبى   زمنَ الغوايةِ والغرورِ

أيامَ أخطرُ في المجا   مِعِ والمعاهدِ كالأميرِ
أيامَ أمري في يدي   أيامَ نجمي في ظهورِ
لمعَ القتيرُ يلومُني   ويلُ الشبابِ مِنَ القتيرِ

***

لا بالغويرِ ولا النقا   كلفي ولا أهلِ الغويرِ
أرضَ (الجزيرة) كيفَ حا   لكِ بعدَ وقعِ الزمهريرِ
نزلَ الشتاءُ فأنتِ ملـعبُ   كلِّ سافيةٍ دبورِ
وتبدَّلتْ تلكَ العرا   صُ مِنَ النضارةِ بالدثورِ
أمسيتِ كالطللِ المحيـلِ   وكنتِ كالروضِ النضيرِ
آهاً عليكِ وآهِ كيـفَ   نأتكِ ربّاتُ الخدورِ
المائساتُ عنِ الغصو   نِ السافراتُ عنِ البدورِ
الذاهباتُ معَ النهو   دِ الذاهباتُ معَ الصدورِ
الحاسراتُ عنِ السوا   عدِ والترائبِ والنحورِ
القاسياتُ على القلو   بِ الجانياتُ على الخصورِ
المالكاتُ على اللآ   لىءِ في القلائدِ والثغورِ
الضاحكاتُ مِنَ الدلا   لِ اللاعباتُ مِنَ الحبورِ
الآخذاتُ قلوبَنا   في زيِّ طاقاتِ الزهورِ

بيضٌ نواعمُ كالدُّمى ... يرفُلنَ في حُلَلِ الحريرِ.
مثلُ الحمائمِ في الودا ... عةِ، والكواكبِ في السُّفورِ
من كلِّ ضاحكةٍ كأنَّ ... بوجهها وجهَ البشيرِ
أنّى أدرتُ الطرفَ فيـ ... ـها جالَ في قمرٍ منيرِ

***

يا مسرحَ العشّاقِ، كم ... لي فيكَ من يومٍ مطيرِ
تنسى البريّةُ عندهُ ... يومَ الخورنقِ والسديرِ
ولكم هبطتكِ والحبيـ ... ـبةَ فازعينِ من الهجيرِ
في زورقٍ بينَ الزوا ... رقِ كالحمامةِ في الطيورِ
متمهّلٍ في سيرهِ ... والماءُ يسرعُ في المسيرِ
والشمسُ إبّانَ الضحى ... والجوُّ صافٍ كالغديرِ
ولكم وثبنا في التلا ... لِ وكم ركضنا في الوعورِ
ولكم أصخنا للحفيـ ... ـفِ وكم شجينا بالخريرِ
ولكم جلسنا في الرياضِ ... وكم نشقنا من عبيرِ
ولكم تبرّدنا بما ... ءِ نهيركِ الصافي النميرِ
طوراً ننامُ على النبا ... تِ وتارةً فوقَ الحصيرِ
لا نتّقي عينَ الرقيـ ... ـبِ ولا نبالي بالغيورِ

فكأنّها وكأنّني الـ ... أبوانِ في ماضي العصورِ
حُسِدَتْ عليَّ من الإنا ... ثِ كما حُسِدتُ من الذكورِ
ظنَّ الأنامُ بنا الظنو ... نَ وما اجترحنا من نكيرِ
قد صانَ بُردتَها الحيا ... ءُ، وصانني شرفي وخيري

***

ومطيّةٍ رجراجةٍ ... لا كالمطيّةِ والبعيرِ
مما تأنّى في سيرها ... صخّابةٍ لا من نُبورِ
تجري على أسلاكِها ... جريَ الأراقمِ في الجدورِ
طوراً تُرى فوقَ الجسو ... رِ وتارةً تحتَ الجسورِ
آناً على قممٍ وآ ... ناً في كهوفٍ كالقبورِ
ترقى كما ترقى (المصا ... عِدُ) ثمّ تهبطُ كالصخورِ
فإذا علت حسبَ الورى ... أنّا نُصعَّدُ في الأثيرِ
وإذا هوت من حالقٍ ... هوتِ القلوبُ من الصدورِ
والركبُ بينَ مصفّقٍ ... ومهلّلٍ جذلٍ قريرِ
أو خائفٍ متطيّرٍ ... أو صارخٍ أو مستجيرِ
هي في التقلّبِ كالزّما ... نِ وإنّما هي للسرورِ

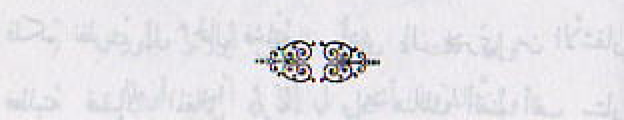
***

وَمُدارةٍ في الجـو يحسَبُها الجَهُولُ بلَا مدير
لو شِئتَ نَيلَ النَّجم منها مَـا صَبوتَ إلى عَسير
مَشْدُودَةٍ لكنّها أجرى مِن الفرَسِ المُغير
زَفّـافةٍ زَفَّ الرّئا لِ تَسفُّ إسفافَ النُّسُورِ
ولهـا حَفيفٌ كالرّيا حِ وَهَدرةٌ لا كالهدير
كالأرضِ في دورانها ولكالمِظلّةِ في النُّشُور
القومُ فيهـا جالِسو نَ على مَقَاعِدَ مِن وَبَر
والريح تخفقُ حولهمْ وكأنّما هُمْ في قُصُورِ
والجمعُ يَهتِفُ كلّما مرّتْ على الحَشْدِ الغفير

***

وَلَكمْ تأمّلنـا الجمْو عَ تموجُ كالبَحرِ الزَّخورِ
تمشي الخطيرُ مَعَ الحَقِـ يرِ كأنّما هو معْ خطير
وترى المَهـاةَ كأنّها لَيثٌ مَعَ اللَّيثِ الهَصُورِ
مُتوافِقُونَ على التّبا يُنِ كالقبيلِ أو العشير
لا يَرهَبُونَ يَدَ الخُطو بِ كأنّما هُمْ خلفَ سورِ
يَمضي النَّهارُ ونَحنُ نحسبُ مَـا بَرِحنا في البُكورِ
أنْهيتَ يا زَمَنَ الحُبو رِ بهجتي مِثلَ الحَرور

وَلّتْ شُهُورٌ كُنتُ أر جو أنْ تَخلُدَ كالدُّهور
وأتتْ شُهُورٌ بَعدَهَـا سَاعَاتُها مِثلُ الشُّهور
لَيسَتْ حَياةُ المَرءِ في الدُّ نيا سوى حُلمٍ قَصير
وأرى الشّبابَ مِنَ الحَيا ةِ لَكَاللُّبابِ مِنَ القُشُورِ
ذَهبَ الرّبيعُ ذَهابَهُ وأتى الشّتاءُ بلَا نَذيرِ
وَتَبدّدَ العُشّاقُ مِثل تَبدُّدِ الوَرَقِ النَّثيرِ
رَضِيَ المُهيمِنُ عَنهُمْ واللهُ يَعفو عَنْ كثير



الأسرار

يا ليتني امرُّ لأسرق في الضحى سرَّ اللطافةِ في النسيمِ الساري
وأجسُّ مؤتلقَ الجمالِ بإصبعي في زرقةِ الأفقِ الجميلِ العاري
ويبينَ لي كنهُ المهابةِ في الرُّبى والسرُّ في جذَلِ الغديرِ الجاري
والسحرُ في الألوانِ والأنغامِ وا لأنداءِ والأشذاءِ والأزهارِ
وبشاشةُ المرجِ الخصيبِ، ووَحشةُ الوادي الكئيبِ، وصولةُ التيّارِ
وإذا الدجى أرخى عليَّ سُدولَهُ أدركتُ ما في الليلِ من أسرارِ
فلكمْ نظرتُ إلى الجمالِ فخلتُهُ أدنى إلى بصري من الأشفارِ
فطلبتهُ فـإذا المغالقُ دونَهُ وإذا هنالكَ ألفُ ألفِ ستارِ
بادٍ ويعجزُ خاطري إدراكَهُ وفتنني بالظاهرِ المتواري !

إذا

إذا جدّفتَ جوزيتَ على التجديفِ بالنّارِ
وإنْ أحببتَ غُيّرتَ من الجارةِ والجارِ
وإنْ قامرتَ أو راهنتَ في النادي أوِ الدارِ
فأنتَ الرجلُ الآثمُ عندَ الناسِ والباري

. . .

وإنْ تسكرْ لكي تنسى هموماً ذاتِ أوقارِ
خسرتَ الدينَ والدنيا ولم تربحْ سوى العارِ

. . .

وإنْ قلتَ : إذنْ فالعيشُ أوزارٌ بأوزارِ
وإنَّ الموتَ أشهى لي إذا لم أقضِ أوطاري
وأسرعتَ إلى السيفِ أوِ السُّمِّ أوِ النـارِ
لكي تخرجَ من دنيا ذووها غيرُ أحرارِ
فهذا المنكرُ الأعظمُ في سرٍّ وإضمارِ
إذن فاحيَ ومتْ كالناسِ عبداً غيرَ مختارِ

أم القرى*

أبصرتُها ، والشمسُ عندَ شروقِها
فرأيتُها مغمورةً بالنّـارِ
ورأيتُها عندَ الغروبِ غريقةً
في لجـةٍ من سُندُسٍ ونُضارِ
ورأيتُها تحتَ الدُّجى ، فرأيتُها
في بُردَتينِ : سكينةٍ ووقارِ
فتنبّهتْ في النفسِ أحلامُ الصِبى
وغرقتُ في بحرٍ من التذكارِ

. . .

نفسي لهـا من جنّةٍ خلّابةٍ
نسجتْ غلائلَها يدُ الأمطارِ
أنّى مشيتَ تشقُّ مِسكاً أذفراً

(*) أو ملفرد الجميلة .

في أرضِها وسمعتَ صوتَ هزارِ

. . .

ذاتَ الجبالِ الشامخاتِ الى العُلا
يا ليتَ في أعلى جبالكِ داري
لأرى الغزالةَ قبلَ سُكانِ الحِمى
وأعانقَ النسَماتِ في الأسحارِ
لأرى رعاتكِ في المروجِ وفي الرُبى
والشاءُ سارحةٌ مـعَ الأبقارِ
لأرى الطيورَ الواقعاتِ على الثرى
والنحلَ حـائمةً على الأزهارِ
لأساجلَ الورقاءَ في تغريدِها
وتهزَّ روحي نفخةُ المزمـارِ
لأسامرَ الأقمـارَ في أفلاكِها
تحتَ الظلامِ إذا غفا سُمّاري
لأراقبَ «الدلوارَ» في جريانِهِ
وأرى خيالَ البدرِ في «الدلوارِ»

. . .

بِئسَ المدينةُ إنَّها سِجْنُ النُّهى

وَذَوِي النُّهى، وجهنَّمُ الأحرارِ

لا يملكُ الإنسانُ فيها نَفْسَهُ

حتَّى يُرَوِّعَهُ ضَجيجُ قِطَارِ

وَجدتْ بها نفسي المَفاسِدَ والأَذى

في كلِّ زاويةٍ وكلِّ جِدارِ

لا يَخدَعَنَّ الناظرينَ بُروجُها

تلكَ البُروجُ مَخابئٌ لِلعَارِ

لو أنَّ حاسِدَ أهلِها لاقى الذي

لاقيتُ لَمْ يَحْسُدْ سوى «بَشَّارِ»

غُفرانَكَ اللَّهُمَّ ما أنا كافِرٌ

فَلِمَ تُعذِّبُ مُهجتي بالنَّارِ؟

. . .

للهِ ما أشهَى القُرى وأحبَّها

لِفتًى بَعيدِ مَطَارِحِ الأفكارِ

إن شئتَ تَعرَى من قُيودِكَ كُلِّها

فانظرْ إلى صدْرِ السَّماءِ العاري

وَامْشِ على ضوءِ الصَّباحِ، فإنْ خبا

فامْشِ عَلى ضَوءِ الهِلالِ السَّاري

عِشْ في الخَلاءِ تَعِشْ خَليًّا هانئاً

كالطَّيْرِ ... حُراً، كالغديرِ الجاري

عِشْ في الخَلاءِ كَمَا تعيشُ طيورُهُ

الحُرُّ يأبى العَيْشَ تحتَ سِتَارِ!

. . .

شَلَّالُ «مَلْفِرْدٍ» لا يقِرُّ قرارُهُ

وأنا لِشَوْقي لا يَقِرُّ قَرارِي

فيهِ مِنَ السَّيفِ الصَّقيلِ بَريقُهُ

ولهُ ضَجيجُ الجَحْفَلِ الجَرَّارِ

أبداً يَرُشُّ صخورَهُ بدُموعِهِ

أَتُراهُ يغسِلُها مِنَ الأوزارِ؟

فإذا تطايرَ ماؤهُ مُتناثِراً

أبصرْتَ حولَ السَّفْحِ شِبهَ غُبارِ

كالبحرِ ذي التَّيارِ يَدْفَعُ بعضُهُ

ويصولُ كالضِّرغامِ ذي الأظفارِ

من قمّةٍ كالنّهدِ ، أيُّ فتى رأى
نهداً يَفيضُ بعارضٍ مِدرارِ ؟
فكأنّما هي مِنبرٌ وكأنّهُ
« ميزابٌ » بين عصائبِ الثوّارِ
مَن لمْ يُشاهدْ ساعةً وثَباتِهِ
لمْ يدرِ كيفَ تغطرُسُ الجبّارِ
ما زلتُ أحسبُ كلَّ صمتٍ حكمةً
حتّى بَصُرتُ بذلكَ الثرثارِ
أعددتُ ، قبلَ أراهُ ، وقفةَ عابرٍ
لاهٍ فكانتْ وِقفةَ استِعبارِ ! . .

. . .

يا أختَ دارِ الخلدِ ، يا أمَّ القرى ،
يا ربّةَ الغــاباتِ والأنهارِ
للهِ يومٌ فيــكِ قد قضّيتُهُ
معْ عُصبةٍ من خيرةِ الأنصارِ
نمشي على تلكَ الهضابِ ودونَنا
بحرٌ من الأغراسِ والأشجارِ

تنسابُ فيهِ العينُ بينَ جداولٍ
وخمائلٍ ومَسالكٍ وديارِ
أنا على جبلٍ مكينٍ راسخٍ
راسٍ ، وأنا فوقَ جُرفٍ هارِ
تهوي الحِجارةُ تحتنا من حالقٍ
ونكادُ أنْ نهوي معَ الأحجارِ
لو كنتَ شاهدتنا نهولُ من علٍ
لضحكتَ منّا ضِحكةَ استهتارِ
الريحُ ساكنةٌ ونحنُ نظنُّنا
للخوفِ مُندفعينَ معْ إعصارِ
والأرضُ ثابتةٌ ونحنُ نخالُها
تهتزُّ معْ دفعِ النّسيمِ السّاري
مــا زالَ يُسنِدُ بعضُنا بعضاً كما
يتماسكُ الرُّوّادُ في الأسفارِ
ويَشدُّ هذا ذاكَ من أزرارِهِ
فيشدُّني ذيّاكَ من أزراري
حتى رجعْنا سالمينَ ولم نعُدْ

لو لم يَمُدَّ اللهُ في الأعمـارِ

ولقد وقفتُ حيالَ نهرِكِ بُكرةً
والطيرُ في الوُكُناتِ والأوكارِ

مُتهيِّباً فكأنني في هيكلٍ
وكأنّهُ سِفرٌ مِنَ الأسفارِ

ما كنتُ من يهوَى السُكوتَ وإنّما
عَقَلَتْ لساني رَهبةُ الأدهارِ

مرَّ النَّسيمُ بـهِ فمرّتْ مقلتي
منهُ بأسطارٍ عَلى أسطـارِ

فالقلبُ مُشتغِلٌ بتذكاراتِهِ
والطرْفُ مُندفعٌ مـع التيّارِ

حتى تجلّتْ فوقَ هاتيكَ الرُّبى
شمسُ الصّباحِ تلوحُ كالدّينارِ

فعـلى جوانبِهِ وشاحُ زَبَرجدٍ
وعَلى غواربِهِ وشاحُ بهـارِ

لو أبصرتْ عيناكَ فيهِ خيالَها
لرأيتَ مرآةً بغيرِ إطـارِ

يَمَّمْتُهُ سَحَراً وأسرارِي معي
ورَجعتُ في أعماقِهِ أسراري !..

. . .

إني حسدتُ عَلى القُرى أهلَ القُرى
وغَبَطتُ حتّى نافخَ المِزمـارِ

ليلٌ وصُبحٌ بين إخوانِ الصّفا
مـا كانَ أجملَ ليلَتي ونهاري !



بنت القفر

أرسل الشاعر مسعود سماحة الى صاحب الديوان القصيدة التالية مصحوبة بكية من البن الفاخر .

أديرُها قهوةً كعصيرِ بكرٍ — تجلت في الكؤوسِ بكفِّ بكرِ
كأنَّ المسكَ يغلي حينَ تغلي — ويجري في الأواني حينَ تجري
تعيدُ إلى الضعيفِ قوىً وتهدي — إليهِ غبطةً وصفاءَ فكرِ
تعشّقها الشعوبُ فكلُّ شعبٍ — أعدَّ لها الثغورَ وكلَّ قطرِ
تلوّحَ حبُّها في كلِّ كوخٍ — ولاحَ حَبابُها في كلِّ قصرِ
يضوعُ عبيرُها برمالِ نجدٍ — ويعبقُ عطرُها بقصورِ مصرِ
تشمّ عنبراً في كلِّ أنفٍ — وتنزلُ قرقفاً في كلِّ ثغرِ
ويزري طعمُها حلواً ومراً — بما في الأرضِ من حلوٍ ومرِّ

***

وسمراءَ إذا زارتْ صباحاً — أحبُّ إليَّ مِنْ بيضٍ وسمرِ
يحوكُ لها البخارُ رداءَ ندٍّ — ويكسوها الحبابُ وشاحَ درِّ

كسرتُ الدنَّ من عهدٍ بعيدٍ — فأمستْ بعد خمرِ الدنِّ خمري
فإنْ حلّتْ قواكَ جيوشُ ضعفٍ — وهالكَ عبءُ همٍّ مسبطرٍّ
عليكَ بقهوةٍ رقّتْ وراقتْ — كشعركَ لا يُجارى أو كشعري

(مسعود)

فاجابهُ بالقصيدة التالية :

شربناهـا على سرِّ القوافي — وسرِّ الشاعرِ السمحِ الأبرِّ
سقانا قهوتينِ « بغيرِ منٍّ » — عصيرَ شجيرةٍ وعصيرَ فكرِ
فنحنُ اثنانِ سكرانُ لحينٍ — على أمنٍ ، وسكرانٌ لدهرِ
فمَنْ أمسى يهيمُ ببنتِ قصرٍ — فإنّا هائمونَ ببنتِ قفرِ
إذا حضرتْ فذلكَ يومُ سَعدٍ — وإنْ غابتْ فذلكَ يومُ قهرِ
لهـا من ذاتها سترٌ رقيقٌ — كما صَبغَ الحياءُ جبينَ بكرِ
إذا دارتْ على الجُلّاسِ هشّوا — كأنَّ كؤوسَها أخبارُ نصرِ
ونرشفُها فنرشفُ ريقَ خَودٍ — وننشقُها فننشقُ ريحَ عطرِ
ولا نخشى مِنَ الحكامِ حداً — وعندَ اللهِ لم نوصمْ بوزرِ
فـا في شربها إثمٌ ونكرٌ — وشربُ الخمرِ نكرٌ أيُّ نكرِ

وليستْ تستخفُّ أخا وقـارٍ ... وبنتُ الدنِّ بالأحلامِ تزري

وتحفظُ سرَّ صاحبِها مصوناً ... وبنتُ الكرمِ تفضحُ كلَّ سرِّ

وللصهباءِ أوقاتٌ ، وهذي ... شرابُ الناسِ في حرٍّ وقرٍّ

وتصلحُ أنْ يُطافَ بهـا مساءً ... وتحسنُ أنْ تكونَ شرابَ ظهرِ

فلو عرفتْ مزاياهـا الغواني ... لعلّقَ حبَّهـا في كلِّ نحرِ

كأنَّ حبوبَها خضراً وصفراً ... فصوصَ زمردٍ وشذورَ تبرِ

كأنَّ الجنَّ قد نفثتْ رؤاها ... على أوراقها في ضوءِ فجرِ

ألستَ ترى إليها كيفَ تطغى ... وكيفَ تثورُ إنْ مُسّتْ بجمرِ

كأنَّ نخيلَ مصرَ قد حساها ... وإلا ما اهتزازُ نخيلِ مصرِ ؟

جلوتُ بها من الأكدارِ ذهني ... كما أني غسلتُ هموم صدري

وما هيَ قهوةٌ تطغى وتُحسى ... ولكنْ نفحةٌ من روحِ حُرِّ

حوَى في شعرهِ عبثَ ابنِ هاني ... وزادَ عليهِ فلسفةَ المعرّي

فيـا لكَ شاعراً لبقاً لعوباً ... كأنَّ يراعَهُ أنبوبُ سحرِ

يفيضُ سلاسةً في كلِّ لفظٍ ... ويجري رقةً في كلِّ سطرِ

حوتْ دارُ «السميرِ» هديّتَيهِ ... وتحوي هذهِ الأوراقُ شكري

العاشق المخدوع

أبصرتُها في الخمسِ والعشرِ ... فرأيتُ أختَ الرئمِ والبدرِ

عذراءَ ليسَ الفجرُ والدَها ... وكأنّهـا مولودةُ الفجرِ

بسّامةٌ في ثغرِهـا دُرَرٌ ... يهفو إليها الشاعرُ العصري

ولهـا قوامٌ لو أشبّهُهُ ... بالغصنِ باءَ الغصنُ بالفخرِ

مثلُ الحمامةِ في وداعتِها ... وكزهرةِ النّسرينِ في الطهرِ

مثلُ الحمامةِ غيرَ أنَّ لهـا ... صوتَ الهزارِ ولفتةَ الصقرِ (٣)

. . .

شاهدتُها يوماً وقدْ جلستْ ... في الروضِ بينَ الماءِ والزهرِ

وبيدُ الفتى «هنري» تُطوّقُها ... فحسدتُ ذاكَ الطوقَ في الخصرِ

وحسدتُ مقلتَهُ ومسمعَهُ ... لجمالِهـا وكلامِها الدرّي

أغمضتُ أجفاني على مضضٍ ... وطويتُ أحشائي على الجمرِ

---

(١) الرئم : الغزال .

(٢) يهفو : يميل .

(٣) الهزار : طائر مغرد .

(٤) استعار الجمر لشدة الحزن الذي أصابه ، والمضض : الحزن الشديد .

وخشيتُ أنَّ الوجدَ يَسلبني   حِلمي ، ويغلبُني على أمري
فرجعتُ أدراجي أغالبُهُ   باليأسِ آونـةً وبالصبْرِ
ثمّ انقضى عـامٌ وأعقبهُ   ثانٍ وذاكَ السرّ في صدري
فعجبتُ ، مني كيفَ أذكرها   وقد انقضى حولانِ من عمري
حلتْ الليالي في تتابُعِها   تزري بها عندي فلم تزرِ (1)
زادتْ ملاحتها فزدتُ بهـا   كلفاً ، وموجدةً على «هنري» (2)

. . .

وسئمتُ داري وهي واسعةٌ   فتركتُها وخرجتُ في أمرِ (3)
فرأيتُ فتيانَ الحِمى انتظمُوا   كالعقدِ ، أو كالعسكرِ المَجرِ (4)
يتفكّهون بكلِّ نادرةٍ   وعلى الوجوهِ علائمُ البِشرِ
ساروا فأعجبني تدفّقُهمْ   فتبعتُهمْ أدري ولا أدري
ما بالهم ؟ ولأيةٍ وقفوا ؟   لِمَنِ البناءُ يلوحُ كالقصرِ
أوّاهُ ! هذي دارُ فاتنتي   من قالَ ما للشمسِ من خدرِ ؟
وعرفتُ من «فرجينَ» جارتَها   مـا زادني ضُرّاً على ضُرّ

(1) تزري : تتهاون .
(2) الكلف : شدة العشق .
(3) سئمت : مللت .
(4) العسكر المجر : الجند الكثير .

قد كانَ هذا يومَ خطبتِها   يا أرضُ ميدي ! يا سما خِرّي (1)
ورأيتُ ساعِدَها بساعِدِهِ   فوددتُ لو غُيّبتُ في قبرِ
وشعرتُ أنّ الأرضَ واجفةٌ   تحتي ، وأنّ النارَ في صدري (2)
وخشيتُ أنّ الوجدَ يَسلبني   حِلمي ويغلبُني على أمري
فرجعتُ أدراجي أغالبُهُ   اليأسِ آونةً وبالصبرِ

قالوا : الكنيسةُ خيرُ تعزيةٍ   لِمَنِ ابتُلي في الحبِّ بالهجرِ
فنذرتُ أنْ أقضي الحياةَ بها   وقصدتُها كيما أفي نذري
لازمتُها بدرينِ مـا التفتتْ   عيني إلى شمسٍ ولا بدرِ (3)
أتلو أناشيدَ النبيِّ ضُحى   وأطالعُ الإنجيلَ في العصرِ
حِيناً مع الرهبانِ ، آونةً   وَحدي ، وأحياناً معَ الحَبرِ (4)
في الغابِ فوقَ العشبِ مضطجعاً   في السّفحِ مستنداً إلى الصخرِ
في غرفتي ، والريحُ راكِدةٌ   بينَ المغارسِ ، والصَّبا تَسري
حتى إذا مـا القلبُ زايلَهُ   تبريحُهُ ، وصحوتُ من سُكري

(1) ميدي : اضطربي وتحركي . خري : اسقطي .
(2) واجفة : خائفة .
(3) أراد بالبدرين عشيقته والقمر .
(4) الحبر : الأسقف، أي المطران .

وَسَلوتُها وسَلَوْتُ خاطِبَها ... وألِفتُ عيشَ الضنكِ والعسرِ [1]
عـادَ القضاءُ إلى محاربتي ... ورجعتُ للشكوى من الدهرِ

. . .

في ضحوةٍ وقفَ النسيمُ بها ... مُتَرَدِّداً في صفحةِ النهرِ
كالشاعرِ الباكي على طَلَلٍ ... أو قارىءٍ حيرانَ في سِفرِ
والشمسُ ساطِعةٌ ولامعةٌ ... تكسو حواشي النهرِ بالتبرِ
والأرضُ حاليةٌ جوانبُها ... بالزَّهرِ من قـانٍ ومُصفَرِّ
فكأنَّها بالعشبِ كاسيةٌ ... حسناءُ في أثوابِهـا الخضرِ
وعلا هتافُ الطيرِ إذ أمنتْ ... بأسَ العُقابِ وصولةَ النسرِ
تتلو عَلى أهلِ الهوى سُوَراً ... ليستْ بمنظومٍ ولا نَثرِ [2]
يَحنو الهزارُ عَلى أليفتِهِ ... ويُداعِبُ القمريّةَ القُمري
وانسابَ كلُّ مصفقٍ عذبٍ ... واهتزَّ كلُّ مهفهفٍ نضرِ
فتذكَّرَتْ نفسي صَبابتَها ... ما أولَعَ المهجورَ بالذكرِ [3]
أرسَلتُ طرفي رائداً فجَرى ... وجَرى عَلى آثارِهِ فِكري [4]

---

(١) الضنك : العيش الضيق .
(٢) السور جمع السورة : الآية .
(٣) الصبابة : الشوق والولع الشديد .
(٤) طرفي : عيني .

حتى دَوَى صوتُ الرئيسِ بنا ... فهرعتُ والرهبانُ في إثري
وإذا بِنـا نَلقى كنيستَنا ... بالوافدينَ تموجُ كالبَحرِ
وإذا «بها» وإذا الفتى هزي ... في حـلّةٍ بَيضاءَ كالفجرِ
تمشي ويمشي بينَ ذي أدَبٍ ... حلوٍ ، وبينَ مليحةٍ بِكرِ
رفَعَ الرئيسُ عليهما يَدَهُ ... وأنا أرى ويدي على صَدري
يا قلبُ ذُبْ ! يا مُهجتي انفطري ... يا طرفُ فِضْ بالأدمعِ الحُمْرِ
أغمضتُ أجفاني على مَضَضٍ ... وطَوَيتُ أحشائي عَلى الجمرِ
وخشيتُ أنّ الوجدَ يَسلبني ... حلمي ، ويغلبُني عَلى أمري [1]
فرجعتُ أدراجي أغالبُهُ ... باليأسِ آونَـةً وبالصَّبرِ
وخرجتُ لا ألوي على أحدٍ ... ورضيتُ بعدَ الزّهدِ بالكُفرِ

. . .

أشفقتُ من همّي عَلى كَبِدي ... وخشيتُ من دَمعي عَلى نَحري [2]
فكلفتُ بالصهباءِ أشرَبُها ... في منزلي ، في الحانِ ، في القفرِ [3]
أبغي الشفاءَ مِنَ الهُمومِ بها ... فتَزيدُني وِقراً عَلى وِقرِ [4]

---

(١) الوجد : شدة الحب .
(٢) النحر : العنق ، من باب تسمية الجزء باسم الكل .
(٣) الصهباء : الخمرة . الحان : محل مبيع الخمرة .
(٤) الوقر : الحمل الثقيل وأراد به الهم .

وتزيدُني ولعـــاً بها وهوًى   وتزيدُني حِقداً على هنري
قالَ الطبيبُ وقد رأى سقمي :   قهِ من فعلِ الهوى العُذري
مـــا لي بدائِكَ يا فتى قِبَلٌ   السحرُ محتــــاجٌ إلى سِحرِ
ومضى يُقلّبُ كفّهُ أسفاً   وابثتُ كالمقتولِ في الوكرِ
مـــا أبصرَتْ عيناي غانِيَةً   إلا ذكرتُ إلى الدُّمى فقري[1]

. . .

وسئمتُ داري وهي واسعةٌ   فتركتُها وخرجتُ في أمرِ
فرأيتُها في السوقِ واقفَــةً   ودموعُها تنهلّ كالقطرِ
في بُردةٍ كالليْلِ حالِكَةٍ   لهفي على أثوابِهـــا الحُمرِ[2]
فدنَوْتُ أسألُها وقد جزِعَتْ   نفسي، وزلزلَ حزنُها ظهري[3]
قالَتْ: قضى هنري! فقلتُ: قضى   من كادَ لي كيداً ولم يدرِ[4]
لا تكرَهوا شرّاً يصيبُكُمُ   فلَرُبَّ خيرٍ جاءَ مِنْ شرِّ
رِفقاً هواها بي فقلتُ لها :   قد حلّ هذا الموتُ من أسري
قالت : ومن أسري! فقلتُ: إذن   لي أنتِ؟ قالت: أنت ذو الأمرِ

(١) الدمى جمع الدمية : الصورة المزينة فيها حمرة كالدم .
(٢) حالكة : شديدة السواد .
(٣) جزعت : خافت .
(٤) قضى : مات .

فأدرتُ زندي حولَ منكبِها   ولثمتُهـــا في النحرِ والثغرِ
وشفَيتُ نفسي من لواعجِها   وثأرتُ بالتصريحِ من سِرّي[1]
ثمّ انثنيتُ بها على عجلٍ   بابَ الكنيسةِ جاعِلاً شطري[2]
وهنـــاكَ باركَني وهنّأني   من هنّأوا قبلي الفتى هنري

. . .

من بعدِ شهرٍ مرّ لي معها   أبصرتُ وضحَ الشيبِ في شعري
ما كنتُ أدري قبلَ صُحبَتِها   أنّ المشيبَ يكونُ في شهرِ
فكرتُ في هنري وكيفَ قضى   فوجدتُ هنري واضحَ العذرِ
يا طالمـــا قد كنتُ أحسدُهُ   واليومَ أحسدُهُ على القبرِ

•

(١) لواعجها : حرقتها .
(٢) انثنيت : رجعت . شطري : جهتي .

أنا هو

كانت قُبَيلَ العَصرِ مركبةٌ ... تجري بمن فيهـــا من السَّفْرِ

ما بَيْنَ مُنخفضٍ ومُرتفعٍ ... عالٍ ، وبينَ السَّهلِ والوَعْرِ

وتَخُــطُّ بالعجلاتِ سائرةً ... في الأرضِ إسطاراً ولا تدري

كُتُبَتْ بلا حبرٍ وعزَّ على ... الأقلامِ حرفٌ دونَ ما حِبْرِ

سيارةٌ في الأرضِ ما فَتِئَتْ ... كالطَّيرِ من وكْرٍ إلى وكْرِ

تأبى وتأنفُ أن يُلِمَّ بهـــا ... تَعَبٌ، وأنْ تشكو سِوى الزَّجْرِ

حَمَلَتْ من الرُّكابِ كلَّ فتًى ... حَسَنَ الرُّواءِ وكلَّ ذي قَدْرِ

يتحدَّثونَ فذاكَ عن أملٍ ... آتٍ ، وذا عن سالفِ العُمْرِ

يتحدَّثونَ وتلـــكَ سائرةٌ ... بالقَوْمِ لا تلوي على أمْرِ

فكأنَّما ضَرَبَتْ لهـــا أجلاً ... أن تلتقي والشَّمسَ في خِدْرِ

حتى إذا صارتْ بداحيةٍ ... ممدودةٍ أطرافُها صفْرِ

سَقَطَتْ من العجلاتِ واحدةٌ ... فتحطَّمَتْ إرَباً على الصَّخْرِ

فتشاءمَ الرُّكابُ واضطربوا ... ممـــا ألمَّ بهمْ من الضُّرِّ

وتفرَّقوا بعـــدَ انتظامِهمِ ... بَدَداً وكمْ نَظْمٍ إلى نَثْرِ

والشَّمسُ قد سالَتْ أشعَّتُها ... تكسو أديمَ الأرضِ بالتِّبْرِ

والأُفْقُ مُحْمَرٌّ كأنَّ بهِ ... حنقاً على الأيامِ والدَّهْرِ

والقـــومُ واجفةٌ قلوبُهُمُ ... قلقـــاً ، كأنهم على الجَمْرِ

قد كانَ بَيْنَ الجمعِ ناهدةُ ... الثديينِ ذاتُ ملاحةٍ تُغري

تبكي بكاءَ القانطينَ ومـــا ... أسخى دموعَ الغادةِ البِكْرِ

وَقَفَتْ وشَمسُ الأُفْقِ غاربةٌ ... تذري علَى كالوردِ ، كالقَطْرِ

شمسانِ لولا أنَّ بينهما ... صلةٌ لما بَكَتا من الهَجْرِ

وتديرُ عينَيها على جزَعٍ ... كالظَّبْيِ ملتفتاً من الذُّعْرِ

وإذا فتًى كالفَجْرِ طلعتُهُ ... بل ربمـــا أربى على الفَجْرِ

وافى إليهـــا قائلاً عجباً ... ممَّ البُكاءُ شقيقةَ البَدْرِ ؟

قالتْ أخافُ الليلَ يدهمُني ... ما أوحشَ الظلماءَ في القَفْرِ !

وأشدُّ ما أخشاهُ سَفْكُ دمي ... بِيَدِ الأثيمِ اللصِّ ذي الغَدْرِ

«هنري» ، اللَّعينُ وما الفتى هنري ... إلّا ابنُ أُمِّ الموتِ لو تدري

رَصَدَ السبيلَ فمـــا تَمُرُّ بهِ ... قَدَمٌ ولا النسماتُ إذ تَسري

وا شقوتي إنَّ الطريقَ إلى ... سَكَني على مُستخشَنِ الكَرِّ

إني لأعلمُ إنَّمـــا قَدَمي ... تسعى حثيثاً في " القَبْرِ

قالَ الفتى هيهاتِ خوفكِ لنْ   يجديكِ شيئاً ربَّـةَ الطُّهْرِ
فتشجعي وعـليَّ فاتكلي   فأنا الذي يحميكِ من هذي
قالتْ أخافُ من الحَزونِ على   هذا الشبابِ الناعمِ النَّضْرِ
فأجابها لا تجزعي وثقي   أني على ثقةٍ من النَّصْرِ
عادتْ كأنْ لم يعرُها خللُ   تخِذُ القفـارَ سفينةُ الـبَرِّ
والليلُ معتكرٌ يجيشُ كما   جاشتْ همومُ النفسِ في الصدْرِ
فكأنَّهُ الآمـالُ واسعةٌ   والبحرُ في مدٍّ وفي جزْرِ
وكأنَّ أنجمهُ وقد سطعتْ   دمعُ الدَّلالِ وناصعُ الدُّرِّ
والبدرُ أسفرَ رغمَ شاحبةٍ   قد حاولتْ تطويهِ كالسِّرِّ
ألقى أشعتَهُ فكانَ لها   لونُ اللُّجَيْنِ ولؤلؤُ الثغْرِ
فكأنَّهُ الحسناءُ طالعةٌ   من خِدرِها أو دميةُ القصْرِ
وكأنَّما جُنحُ الظلامِ جَنى   ذنباً فجاءَ البدرُ كالعُذْرِ
وضحتْ مسالكُ للمطيَّةِ قد   كانتْ شبيهَ غوامضِ البَحْرِ
فغدتْ تحاكي السَّهمَ منطلقاً   في جريِها والطيفَ إذ يَسري
والقومُ في لهوٍ وفي طربٍ   يتناشدونَ أطايبَ الشِّعْرِ
حتى إذا صارتْ بمنعرجٍ   وقفتْ كمنتبهٍ من السُّكْرِ
فترجَّلتْ «ليزاء» وصاحبها   ومشتْ وأعقبَها على الأثْرِ

واستأنفتْ تلكَ المطيَّةُ مـا   قد كانَ مِنْ كرٍّ ومن فرِّ
مشتِ المليحةُ وهي مُطرِقةٌ   مـا ثَمَّ من تيهٍ ولا كِبْرِ
أنَّى تتيهُ وقد أناخَ بهـا   همٌّ وبعضُ الهمِّ كالوِقْرِ
لم تحتسي خمراً وتحسبُها   ممـا بها نشوى من الخمْرِ
في غـايةٍ تحكي ذوائبُها   في لونِها والَّلفِّ والنَّشْرِ
ضاقتْ ذوائبُها فما انفرجتْ   إلا لِسيْرِ الذئبِ والنَّمِرِ
كالليلةِ الليـلاءِ ساجيةٌ   ولرُبَّ ليلٍ ساطعٍ غِرِّ
قد حاولَ القمرُ المنيرُ بهـا   ما حاولَ الإيمانُ في الكفْرِ
تحنو على ظبيٍ وقسورةٍ   أرأيتمْ سرينِ في صدرِ ؟
صقرٌ وورقاءُ ، ومن عجبٍ   أنْ تحتمي الورقاءُ بالصقْرِ
هذا وأعجبُ أنهـا سلِمتْ   منهُ على ما فيهِ من غدْرِ
ظلَّتْ تسيرُ وظلَّ يتبعُها   ما ثَمَّ من إثمٍ ولا وِزْرِ
طالَ الطريقُ وطالَ سيرُهما   لكنَّ عُمْرَ الليلِ في قِصَرِ
حتى إذا سفرَ الصباحُ وقد   رفعَ الظلامُ وكانَ كالسِّتْرِ
والغابُ أوشكَ أن يبوحَ بها   وبهِ ، بلا حذرٍ، إلى النَّهْرِ
نظرتْ إليهِ بمقلةٍ طفحتْ   سحراً ووجهٍ فاضَ بالبِشْرِ
قالتْ لهُ لم يبقَ من خطرٍ   جمٌّ نحاذرُهُ ولا نذرِ

أنظرْ فإنَّ الصُّبحَ أوشكَ أنْ   يمحو ضياءَ الأنجمِ الزُّهرِ

وأراهُ دبَّ إلى الظَّلامِ فَهلْ   هذا دبيبُ الشَّيبِ في الشَّعرِ

وأسمعْ ، فأصواتُ الطيورِ علَتْ   بينَ النَّقا والضالِ والسدْرِ ؟

قالَ الفتى أوَ كُنتَ في خطرٍ ؟   قالتْ لَهُ عجباً ألم تدرِ ؟

فأجابها ما كانَ في خطرٍ   مَنْ كانَ صاحبةُ الفتى هَزْري

فتقهقرتْ فزعاً فقالَ لها   لا تهلعي واصغي إلى حُرّ

ما كنتُ بالشريرِ قطُّ ولا   الرَّجلُ الذي يرتاحُ للشَّرِّ

لكنني دهرٌ يجورُ على   دهرٍ يجورُ على بني الدَّهرِ

بل إنني خطرٌ على فئةٍ   منها على خطرٍ ذوي الضُّرِّ

قتلوا أبي ظلماً فقتلهمُ   عدلٌ وحسبي العدلُ أن يجري

لا سلمَ ما بيني وبينهمُ   لا سلمَ بينَ الهرِّ والفأرِ

سيَرونَ في الموتِ منتقماً   لا شافعَ في الأخذِ بالثأرِ

تاللهِ ما أنساكَ يا أبتي   أبداً ولا أغضي على الوترِ

قالتْ لقد هيَّجتَ لي شجناً   فإليكَ ما قد كانَ من أمري

بعثَ المليكُ إلى أبي فمضى   وأخي معاً توّاً إلى القصرِ

فإذا أبي في القبرِ مرتهنٌ   وإذا أخي في ربقةِ الأسرِ

يا ساعديَّ بترتُما ويدُ   الدَّهرِ الخؤونِ أحقُّ بالبترِ

نابي وظفري بتُّ بعدكما   وحدي بلا نابٍ ولا ظفرِ

ويلاهُ من جورِ الزَّمانِ بنا   والويلُ منهُ لكلِّ مُغترِّ

وكأننا والموتُ يرتعُ في   أرواحنا مرعىً ومُستمرِي

لما انتهتْ وإذا بهِ دهِشٌ   حيرانُ كالمأخوذِ بالسِّحرِ

شاهَ الكلامَ فنالَهُ خرسٌ   كلُّ البلاغةِ تحتَ ذا الحصرِ

وكذلكَ الغيداءُ أذهلَها   ميلٌ إلى هذا الفتى الغِرِّ

قالتْ أخي واللهِ — واقتربتْ   ترنو إليهِ بمقلةِ العفرِ

وإذا بهِ ألقى عباءتَهُ   برحَ الخفاءُ بما عنِ الجهرِ

صاحتْ أخي فيكتورُ وا طربي   روحي ، شقيقي ، مهجتي ، ذخري

وتعانقا ، فبكى الفتى فرحاً   إنَّ البخارَ نتيجةُ الحرِّ

وتساقطتْ في الخدِّ أدمعُها   كالقطرِ فوقَ نواضرِ الزَّهرِ

. . .

قلْ للألى يشكونَ دهرَهُمُ   لا بدَّ من حلوٍ ومنْ مُرِّ

صبراً إذا جَللٌ أصابكمُ   فالعسرُ آخرهُ إلى اليسرِ

فنون الوصف

كأني في روضٍ أرى الماءَ جارياً   أمامي، وفوقي الغيمُ يجهدُ بالنشرِ

توهّمتهُ هماً فقلتُ لهُ انجلي   فإنّ همومي ضاقَ عنْ وسعِها صدري

بربِّكَ سِرْ حيثُ الخليُّ فإنني   فتىً لا أرى غيرَ المصائبِ في دهري

فأقشعَ حتى لم أشكَّ بأنّهُ   أصاخَ إلى قولي وماشكَّ في أمري

رعى اللهُ ذيّاكَ الغمامَ الذي رعى   عهودي وأولاني الجميلَ ولم يدرِ

تظلّلتُ بالأشجارِ عندَ اختفائهِ   ويا رُبَّ طلٍّ كانَ أجملَ من قطرِ

جلستُ أبثُّ الزّهرَ سراً كتمتهُ   عنِ الناسِ حتى صرتُ أخفى من السرِّ

ولماشكوتُ الوجدَ وجدي تمايلتْ   كأنَّ الذي أشكوهُ ضربٌ من الخمرِ

وأدهشها صبري فأدهشني الهوى   دهشتُ لأنَّ الزّهرَ أدهشها صبري

ولما درتْ أني محبٌّ متيّمٌ   بكتْ وبكاني كلُّ ضاحكٍ مُفترِ

عجبتُ لها تبكي لما بي ولم يكنْ   عجيباً على مثلي البكاءُ من الصخرِ

كأني بدرٌ، والزهورُ كواكبٌ،   وذا الروضُ أفقٌ حاطهُ بالبدرِ والزهرِ

كأني وقد أطلقتُ نفسي من العَنا   مليكٌ لي الأغصانُ كالعسكرِ المجرِ

فما أسعدَ الإنسانَ في ساعةِ المُنى   وما أجملَ الأحلامَ في أوّلِ العمرِ؟

وهاتفةٍ قد أقلقتني بنوحِها   فكنتُ كمخمورٍ أفاقَ من السُّكرِ

تُرى روّعتْ مثلي من الدّهرِ بالفرا   قِ، أم بُدّلتْ مثلي من اليُسرِ بالعُسرِ

بكيتُ ولو لم أبكِ مما بكتْ لهُ   بكيتُ لما بي من سُقامٍ ومن ضرِّ

ونهرٍ إذا والى التجعُّدَ ماؤهُ   ذكرتُ الأفاعي إذ تلوي على الجمرِ

تحيطُ به الأشجارُ من كلِّ جانبٍ   كما دارَ حولَ الجيدِ عقدٌ من الدُّرِّ

وقد رقمتْ أغصانَها في أديمِهِ   كتاباً من الأوراقِ، سطراً على سطرِ

كأنَّ دنانيراً تساقطُ فوقهُ   وليسَ دنانيرٌ سوى الورقِ النّضرِ

كأني بهِ المرآةُ عندَ صفائِها   تمثّلُ ما يدنو إليها ولا تدري

فما كانَ أدرى الغصنَ بالنظمِ والنثرِ؟   وما كانَ أدرى الماءَ بالطيِّ والنشرِ؟

ذرِ المدحَ والتشبيبَ بالخمرِ والمَهى   فإني رأيتُ الوصفَ أليقَ بالشعرِ

وما كانَ نظمُ الشعرِ دأبي وإنّما   دعاني إليهِ الحبُّ والحبُّ ذو أمرِ

ولي قلمٌ كالرمحِ يهتزُّ في يدي   إلى الخيرِ يسعى والرماحُ إلى الشرِّ

وتفتكُ هاتيكَ الأسنّةُ في الحشى   ويحيى الحشى إن راحَ يفتكُ بالحِبرِ

إذا ما شدا بالطرْسِ أذهَبَ شدوُهُ
همومَ ذوي الشّكوى ووَقْرَ ذوي الوقرِ

تَبختَرَ فوقَ الطرْسِ يسحبُ ذيلَهُ
فقالوا بهِ كِبْرٌ ، فقلتُ عن الكِبْرِ

لكلٍّ من الدنيا حبيبٌ وذا الذي
أشدُّ به أزري ويعلو به قَدْري

ويَبقى به ذكرى إذا غالني الرّدى
حسبُ الفتى ذكرٌ يدومُ إلى الحَشْرِ

•

غرامية

عيناكِ والسحرُ الذي فيهما ... صيرتاني شاعراً ساحرا
عَلّمتَني الحبَّ وعلمتَهُ ... بَدْرَ الدجى ، والغصنَ ، والطائرا
إنْ غبتِ عن عيني وجَنَّ الدجى ... سألتُ عنكِ القمرَ الزاهرا
وأطرقُ الروضةَ عندَ الضحى ... كما أناجي البلبلَ الشاعرا
وأنشقُ الوردةَ في كُمّها ... لأنَّ فيهـا أرجاً عاطرا
يُذكِّرُ الصبَّ بذاكَ الشذا ... هل تذكرينَ العاشقَ الذاكرا ؟
كم نائمٍ في وكره هانىءٍ ... نَبّهتِهِ من وكْرِهِ باكرا ؟
أصبحَ مثلي تائهـاً حائراً ... لمـا رآني في الربى حائرا
وراحَ يشكو لي وأشكو لهُ ... بَطْشَ الهوى ، والهجرَ ، والهاجرا
وكوكبٍ أسمعتهُ زفرتي ... فباتَ مثلي ساهياً ساهرا
زَجرتُ حتى النومَ عن مُقلتي ... ولم أبالِ اللائمَ الزاجرا
يا ليتَ . أني مَثَلٌ ثائرٌ ... كما تقول المَثَلَ السائرا

عيناك

عيناكِ والسِّحرُ الذي فيهما
صيَّرتاني شاعراً ساحِرا
علَّمتِني الحُبَّ وعلَّمتُهُ
بدرَ الدُّجى والغُصنَ والطّائرا

إن غِبتِ عن عيني وجنَّ الدُّجى
سألتُ عنكِ القمرَ الزّاهِرا
وأطرُقُ الرَّوضةَ عِندَ الضُّحى
كيما أناجي البُلبُلَ الشّاعِرا

وأنشقُ الوردةَ في كُمِّها
لأنَّ فيها أرجاً عاطِرا
يُذكِّرُ الصَّبَّ بذاكَ الشّذى
هل تذكُرينَ العاشِقَ الذّاكِرا؟

كَم نائمٍ في وَكرِهِ هانِئٍ
نَبَّهتُهُ مِن وَكرِهِ باكرا
أصبحَ مِثلي تائِهاً حائِراً
لمّا رآني في الرُّبى حائِرا

وراحَ يشكو لي وأشكو لهُ
بطشَ الهوى والهجرَ والهاجِرا
وكوكبٍ أسمعتُهُ زفرتي
فباتَ مِثلي ساهِياً ساهِرا

زجرتُ حتّى النّومَ عن مُقلتي
ولم أُبالِ اللائِمَ الزّاجِرا
يا ليتَ أنّي مَثَلٌ سائِرٌ
كيما تقولي المَثَلَ السّائِرا

•

الشاعر

قالت وصفتَ لنا الرحيقَ وكوبَها   وصريعَها ومُديرَها والعاصِرا

والحقلَ والفلّاحَ فيه سائراً   عند المسا يرعى القطيعَ النافرا

ووقفتَ عند البحر يهدُرُ موجُه   فرجعتَ بالألفاظِ بحراً هادرا

صوّرتَ في القرطاسِ حتى الخاطرا   فخلبْتَنا وسحرتَ حتى الساحرا

وأريتَنا في كلِّ قفرٍ روضةً   وأريتَنا في كلِّ روضٍ طائرا

لكن إذا سألَ امرؤ عنك امرءاً   أبصرتَ محتاراً يخاطب حائرا

من أنتَ يا هذا؟ فقلت لها: أنا   كالكهرباء أرى خفيّاً ظاهرا

قالت: لعمرُكَ زدتَ نفسي ضلّةً   ما كانَ ضرّكَ لو وصفتَ الشاعرا؟

. . .

فأجبتُها: هو مَن يسائلُ نفسَه   عن نفسِهِ في صُبحِهِ ومسائِهِ

والعينَ سرَّ سُهادِها ورقادِها   والقلبَ سرَّ قنوطِهِ ورجائِهِ

فيَحارُ بينَ مجيئِهِ وذهــابِهِ   ويحــارُ بينَ أمامِهِ وورائِهِ

ويَرى أفولَ النجمِ قبلَ أفولِه   ويَرى فناءَ الشيءِ قبلَ فنائِهِ

ويسيرُ في الرّوضِ الأغنِّ فلا ترى   عيناهُ غيرَ الشوكِ في أرجائِهِ

إنْ نامَ لم ترقدْ هواجسُ روحِه   وإذا استفاقَ رأيتَهُ كالتائِهِ

ما إنْ يُبالي ضحكَنا وبُكاءنا   ويُخيفُنا في ضحكِهِ وبُكائِهِ

كالنارِ يلتهمُ العواطِفَ عقلُهُ   فيميتُها ويموتُ في صحرائِهِ!!

. . .

قالت: أتعرفُ مَنْ وصفتَ؟ فقلت: مَن؟

قالتْ: وصفتَ الفيلسوفَ الكافرا

يا شاعرَ الدُّنيــا وفيكَ حصافةٌ

ما كانَ ضرّكَ لو وصفتَ الشاعرا؟

. . .

فقلتُ: هو امرؤ يهوى العُقارا   كما يهوى مُغازلَةَ العذارى

إذا فرغتْ مِن الرّاحِ الدِّنانُ   توهّمَ أنّمــا فرغَ الزمانُ

يُعاقرُها علَى ضوءِ الدّراري   فإنْ غربتْ، علَى ضوءِ النهارِ

ويَحسَبُ مِهرجانَ الناسِ مأتَمْ   بلا خمرٍ، وجنّتَهُمْ جهنّمْ

مَلولٌ لا يدومُ علَى ولاءِ   ولكنْ لا يدومُ علَى عِداءِ

أخو لُبٍّ ولكنْ لا إرادَهْ   وذو زُهدٍ ولكنْ بالزَّهادَهْ

يميلُ إلى الدُّعابَةِ والمُزاحِ   ولو بينَ الأسنّةِ والصِّفاحِ

ويوشكُ أنْ يُقهقِهَ في الجَنازَهْ — ويَرقُصَ كالعواصِفِ في المَفازَهْ

إذا بَصُرتْ به عينُ الأديبِ — فقد وقعتْ على رجلٍ مُريبِ

يُعنِّفهُ الصِّحابُ فـلا يُنيبُ — ويَزجرُهُ المَشيبُ فلا يتوبُ

فقالتْ: جئتَ بالكلِمِ البديعِ — ولكنْ ما وصفتَ سوى «الخليعِ»

. . .

وخفتُ إعراضَها عني فقلتُ: إذن — هو الذي أبداً يَبكي منَ الزمَنِ

كأنما ليسَ في الدُّنيا سواهُ فتى — معرَّضٌ لخطوبِ الدهرِ والمحنِ

يشكو السَّقامَ وما في جسمه مرضٌ — والسُّهدَ وهو قريبُ العهدِ بالوَسَنِ

والهجرَ، وهو بمرأىً من أحبَّتِهِ — والأَسرَ، وهو طليقُ الروحِ والبَدَنِ

ولا يَرى حَسَناً في الأرضِ يألفُهُ — أو يشتهيهِ وكم في الأرضِ من حَسَنِ

ينوحُ في الرَّوضِ والأشجارُ مورقةٌ — كما يَنوحُ على الأطلالِ والدِّمَنِ

فقاطعتني وقالت: قد بَعدتَ بنا — ما ذي الصفاتُ صفاتُ الشاعرِ الفَطِنِ

. . .

قلتُ: مهلاً إذا ضللتُ وعُذراً — ربمـا أخطأَ الحكيمُ وضلّا

هو من ترسُمُ الجمالَ يداه — فتراهُ في الطِرسِ أشهى وأحلى

لوذعيُّ الفؤادِ يلعبُ بالأل — بابِ لعباً إنْ شاء أنْ يتسلّى

ويُرينا ما ليسَ يَبقى سيَبقى — ويُرينا ما ليس يَبلَى سيبلى

يطبعُ الشُّهبَ للأنامِ نُقوداً — وهو يشكو الإملاقَ كيفَ تولّى

أفما ذا من تبتغينَ وأبغي — وصفَه؟ قالت المليحةُ: كلا!..

. . .

يا هذهِ إني عييتُ بوصفهِ — وعجزتُ عن إدراكِ مكنوناتِهِ

لا تستطيعُ الحرُّ سَردَ صِفاتِها — والرَّوضُ وصفَ زهورِهِ ونباتِهِ

هو من تراهُ سائراً فوقَ الثرى — وكأنَّ فوقَ فؤادِهِ خُطواتِهِ

إنْ ناحَ فالأرواحُ في عَبَراتِهِ — وإذا شَدا فالحبُّ في نَغماتِهِ

يبكي مع النائي على أوطانهُ — ويُشاركُ المحزونَ في عَبَراتِهِ

وتُغيِّرُ الأيامُ قلبَ فتاتِهِ — ويَظلُّ ذا كَلَفٍ بقلبِ فتاتِهِ

هو مَن يعيشُ لغيرِهِ ويظُنُّهُ — مَن ليسَ يفهمُهُ يعيشُ لِذاتِهِ!!!

•

في القطار*

سَرى يَطوي بنا الأميالَ طَيّاً ... كما تطوي السِّجِلَّ أو الإزارا
فَلَم ندرِ وجُنحُ اللّيلِ داجٍ ... أبرقاً ما ركِبنا أم قِطارا
بنا وبِهِ حَنينٌ واشتياقٌ ... ولَولا ذانِ ما سِرنا وسارا
ولكنّا وسِعنا الشّوقَ ذرعاً ... وضاقَ بِهِ فصَعّدَهُ بُخارا
وتَمّنينا الّذي يُخفيهِ وَجداً ... وتَمّنينا الّذي يُخفيهِ نارا
غَفا صَحبي وبَعضُهم تَغافى ... ولَم أذُقِ الكَرى إلّا غِرارا
جَلَستُ أراقِبُ الجَوزاءَ وَحدي ... كما قد يَرقُبُ السّاري المَنارا
يَسيرُ بنا القِطارُ ونحنُ نَرجو ... لَو اختصَرَ الطّريقَ بنا اختِصارا
وأقسِمُ لَو أحدّثُهُ بِما بي ... لَحلَّقَ في الفضاءِ بنا وطارا
إلى البَلَدِ الأمينِ إلى كرامٍ ... يُراعونَ المَوَدَّةَ والجِوارا
إلى المُزدادِ وِدُّهم لَدينا ... إذا زدنا صِفاتِهُم اختبارا

(*) ألقاها في الحفلة الشائقة التي أقامتها الطائفة الأرثوذكسية في مونتريال كندا لسيادة الارشمندريت أفثيموس عفيش عندما انتخب لأسقفية بروكلن وكان مع الوفد النيويوركي .

إذا سَتَرَت مَحَبّتَها قُلوبٌ ... فَحُبّي لا أطيقُ لَهُ استِتارا
فَيا إخوانَنا في كلّ أمرٍ ... أصيخوا كي أخاطِبَكُم جِهارا
طَويناها سَباسِبَ شاسِعاتٍ ... تَسيرُ الواخِداتُ بها حَيارى
ولَولا أن تَسيرَ بنا إليكُم ... وكابَدنا مَشيناها اختِيارا
لِنَنقُلَ مِن «نويورك» لَكُم تَحايا ... تُحاكي في لَطافَتِها العُقارا
ونَنقُلَ عَنكُم أخبارَ صِدقٍ ... تُحاكي النَّدَّ في الرّوضِ انتِشارا
سَمِعنا بالهَزارِ ونَحنُ قومٌ ... كما نَهوى الغِنا نَهوى الهَزارا
لَدَيكُم كَوكَبٌ وبِنا ظَلامٌ ... وأنتُم تَكرَهونَ لَنا العِثارا
جَعَلنا رَسمَهُ في كلّ نادٍ ... وَصَيّرنا القُلوبَ لَهُ إطارا
أجلْ، هذا الّذي نَبغيهِ مِنكُم ... ونَرجو لا اللُّجَينَ ولا النُّضارا
أتيناكُم على ظَمَأٍ لأنّا ... عَرَفنا فيكُمُ السُّحبَ الغِزارا
وأنتُم مَعشَرٌ طابوا نُفوساً ... وأخلاقاً كما كَرُموا نِجارا
بَقيتُم في سَلامٍ واغتِباطٍ ... تُضيءُ وجوهُكُم هذي الدّيارا

●

معركة شمولبو

دَبَّتْ وقد أرخى الظَّلامُ سِتارا … وَلَطالما كَتَمَ الدُّجى الأسرارا
سُفُنٌ هي الأطوادُ لولا سَيْرُها … أعهدتُمُ جبلاً مَشى أو سارا ؟
كالطَّيرِ أسراباً ولكنْ إنْ عَدَتْ … تَفُتِ الرِّياحَ وتَسبِقُ الأطيارا
مِثْلُ الكواكبِ في النِّظامِ وإنها … لَكما الكواكبُ تَبعثُ الأنوارا
هيَ كالمدائِنِ غيرَ أنَّ نزيلَها … أبداً بهـــا يتوقعُ الأخطارا
وأظنُّها فَقَدَتْ حبيباً أو أخاً … ولذلك ارتدَتِ السوادَ شِعارا
تَغشى المياهَ لعلَّ ما في قلبِها … يُطفى ، فتزدادُ الضلوعُ أوارا
وتَميدُ حتى لا يُشكُّ بأنها … سَكْرى ولَمْ تَذُقِ السَّفينُ عقارا
وتَسرُّ إن رأتِ الثغورَ كأنها … المقرورُ أبصرَ بَعْدَ جُهدٍ نارا
وبوارجٌ قد سُيِّرتْ كالجحفلِ … الجرّارِ تحملُ جحفلاً جرّارا
حَمَلَتْ أناساً كالقرودِ ، وجوهُهُم … صفراءُ يحكي لونُها الدينارا
فُطْسُ الأنوفِ ، قصيرةٌ قاماتُهم … هيهاتَ لا تتجاوزُ الأشبارا
قد قادَها (طوغو) فقادَ ذُلولةً … تَهوى الصِّعابَ وتَعشَقُ الأسفارا

في قلبِهِ نارٌ وفي أحشائِها … مِثْلُ الذي في نَفْسِهِ قد ثارا
ما زالَ يدفعُها البُخارُ فترتمي … كالسَّهمِ أُطلِقَ في الفضاءِ فسارا
طَوْراً تَراها في السَّحابِ وتارةً … في القاعِ يُوشِكُ جُرْمُها يتَوارى
حتى دَنَتْ من ثَغرِ شمولبو الذي … جَمَعَ الألى لم يَعرِفوا ما صارا
نَفَرٌ من الرُّوسِ الذينَ سمعتُ عَنْ … أفعالهمْ فيما مضى الأخبارا
من كلِّ مِغوارٍ إذا زارَ الوغى … زارَ الحِمامُ الفارسَ المِغوارا
ما كانَ غيرَ (الفارياجِ) لديهمُ … وسفينةٌ أُخرى أخفُّ دِثارا
قالَ العدوُّ لهمْ ، وقد داناهُمُ ، … وكَفى بما وافى بهِ إنذارا
« أمّا القتالُ فتلحقونَ بمن مَضَوا … أو تُحسِنونَ فتؤخذونَ أُسارى »
كانَ الجوابُ قذائفاً ناريةً … تهوى الوُرودَ وتكرهُ الإصدارا
مِثْلُ الرُّجومِ إذا هَوتْ لكنَّها … لا تعرفُ الأخيارَ والأشرارا
وأقلُّها خطباً فكيفَ أشدُّها … لو نالتِ الجَبَلَ الأشمَّ انهارا
حَفَّتْ بهم سُفُنُ العُداةِ وأحدقَتْ … حتى لكِدْتُ إخالُها أسوارا
مــا بَيْنَ بارجةٍ وطَرّادٍ الى … نسّافةٍ والكلُّ يَقذِفُ نارا
ملأَ الفضاءَ دخانُها وذُكاءُ … احتجبتْ ، وما بَرِحَ النهارُ نهارا
والجوُّ أظلَمَ واكفهرَّ أديمُهُ … حتى كأنَّ على السَّماءِ سِتارا
والبحرُ خُضِّبَ بالدِّماءِ وأصبحتْ … أمواجُهُ وهيَ اللُّجينُ نُضارا

ذا والقنابلُ لَمْ تَزَلْ مُنْهَلَّةً   منها تُحاكي الصَّيِّبَ المدْرارا

والمركبانُ «الفاوياجُ» وأختُها   في هَبْوَةٍ لا يَعْرِفانِ قَرارا

إحداهُما ظَفِرَتْ بها مقذوفةٌ   فكأنَّ صاعقةً أصابتْ دارا

فَهَوَتْ بمن فيها، وقد فَتَحَتْ لها   الأمواجُ صَدْراً يكتمُ الأسرارا

هَبَطَتْ وزادَ هبوطَها المُتَقاتِلِـ   ـينَ على مُداومةِ الوَغَى إصرارا

لكنَّما الأخرى أُصيبتْ بالأذى   حتى غَدَتْ لا تملكُ التسيارا

فرأى الفتى ربَّانُها أن يَفتدي   الجُنْدَ الكرامَ من المماتِ فِرارا

قد فَرَّ بعضهم ولكنْ جُلُّهمْ   طَلَبوا الفِرارَ من الفِرارِ خِيارا

أودوا بها نَسْفاً، وماتوا عندها   غَرَقاً، ويأبى الباسلونَ العارا

هذي حكايتُهُمْ أُسطِّرُها لكمْ   لا دِرْهماً أبغي ولا دينارا

فلَئِنْ أفادتكمْ فخيرٌ جاء من   شَرٍّ، وإلّا فلْتكنْ تذكارا

•

الذئاب الخاطفة

ما بالُهمْ نقضوا العهودَ جِهارا   وتعمَّدوا الإيذاءَ والإضرارا؟

واستأسدوا لما رأوا لَيْثَ الشَّرى   عافَ الزئيرَ وقلَّمَ الأظفارا

داروا بهِ والشرُّ في أحداقهمْ   ذا يدَّعي حقاً وذلكَ ثارا

لؤمٌ لَعَمْرُ أبيكَ لم يَرَ مثلَهُ   التاريخُ منذ استقرأَ الأخبارا

وخيانةٌ ما جاءها القومُ الأُلى   تخِذوا مَعَ الوَحْشِ القفارَ ديارا

أمسى يحرِّضُ عاهلَ الألمانِ عن   أمسى يحرِّضُ في الخَفا البلغارا

أمعاشرَ الإفرنجِ ليسَ شهامةً   ما تفعلونَ إذا أَمِنتُمْ عـــارا

أمِنَ المروءةِ أن يُساءَ جِوارُنا   في حينِ أنّا لا نسيءُ جوارا؟

أمِنَ المروءةِ أن يُطأطئَ تاجَهُ   مَلِكٌ ليملكَ في الثرى أشبارا؟

البغيُ مرتعُهُ وخيمٌ فاعلموا   والظلمُ يُعقِبُ للظلومِ دَمارا

إنْ تُحرِجوا الرئبالَ في عرينه   يَذَرُ السكوتَ ويركبُ الأخطارا

وكما علمتمْ ذلكَ الجيشُ الذي   يأبى ويأنفُ أن يُرى خوّارا

فالويلُ للدنيا إذا نَقضَ الكرى   والويلُ للأيامِ إمّــا ثارا

إني أرى ليلًا يخيّمُ فوقَنا   لا ينجلي حتّى يُشبَّ النارا

فحذارِ ثمَّ حذارِ من يومٍ بِـهِ   يجري النجيعُ على الثرى أنهارا

يومٌ تُباعُ بهِ النفوسُ رخيصةً   يومٌ يقصّرُ هولُهُ الأعمارا

يومٌ يكونُ به الجميعُ عساكراً   والكلُّ يدخُلُ في الوغى مختارا



باخرة الإغاثة

سيري تُراعيكِ النُّجومُ السَّاهِرهْ
لَيلاً ، وعَينُ الشَّمسِ عِندَ الهاجرَهْ
فَلأَنتِ عِندَ الشَّرقِ أجملُ باخِرَهْ
تجري إليهِ بهــا المِياهُ الزَّاخِرَهْ
يا لَيتَ أنّي فيكِ أو إيّاكِ

سِيري تُداعِبُ فَوقكِ الرِّيحُ العَلَمْ
وتُلاطِفُ البحرَ الخِضَمُّ إذا احتَدَمْ
بُورِكتِ باخِرةً وبورِكَ مِنْ عَلَمْ
فيكِ الخَلاصُ لِساكني تِلكَ الأُكَمْ
يا لَيتَ أنّي فيكِ أو إيّاكِ

في الشَّرقِ أحبابٌ عَلى جمرِ الغَضا
نَقمَ الزّمانُ عَليهِمْ بَعدَ الرِضى

هَجَروا الكرى وتَطَلَّعوا نحوَ الفضا
يَتَوَقَّعونَكِ كُلَّما بَرقٌ أضا

سيري فإنَّ الحربَ في مَسراكِ

بيروتُ ... يا بنتَ البحارِ الجاريَهْ
فإذا سُئِلتِ مِنَ البقايا الباقِيَهْ
قولي لهمْ إنَّ الحياةَ الهانِيَهْ
لمْ تُنسِنا سُكَّانَ تِلكَ النّاحِيَهْ

أمّا الدّليلُ، فحَسْبُنا إيّاكِ !.

•

الشاعر والأمة

خيرُ ما يكتبه ذو مرقمٍ   قِصةٌ فيها لِقومٍ تذكِرَهْ

...

كانَ في ماضي اللّيالي أمّةٌ   خَلَعَ العِزُّ عليها حِبَرَهْ
يَجدُ النّازِلُ في أكنافِها   أوجُهاً ضاحكةً مستبشِرَهْ
ويَسيرُ الطَّرفُ من أرباضِها   في مَغانٍ حالياتٍ نَضِرَهْ
لم يَقِسْ شعبٌ إلى أمجادِها   مجدَهُ الباذخَ إلا استَصغرَهْ
همُّها في العِلمِ تُعلي شأنَهُ   بينَها، والجهلِ تمحو أثَرَهْ
ما تَغيبُ الشمسُ إلا أطلعت   للورى مَحْمَدَةً أو مأثُرَهْ
فتمنَّى الصُّبحُ تغدو شمسَهُ   وتمنَّى اللّيلُ تغدو قمرَهْ
ومشى الدّهرُ إليها طائعاً   فمشتْ تائهةً مفتخِرَهْ

...

كانَ فيها مَلِكٌ ذو فِطنَةٍ   حازمٌ يصفحُ عندَ المقدِرَهْ
يَعشقُ الأمرَ الذي تعشقُهُ   فإذا ما استنكرَتْهُ استنكرَهْ

بلغتْ في عهدِهِ مرتبةً   لم تنلها أمّةٌ أو جمهرةْ

فإذا أعطت ضعيفاً موثقاً   أشفقت أعداؤه أن تخفرَهْ

وإذا حـــاربها طاغيةٌ   كانتِ الظافرةَ المنتصرةْ

ماتَ عنها، فأقامت ملكاً   طائشَ الرأي كثيرَ الثرثرةْ

حولَهُ عصبةُ سوءٍ، كلّما   جاء إدّاً أقبلت معتذرةْ

حسّنت في عينِهِ آثامَهُ   وإليهِ نفسَهُ المستكبرةْ

وتمادى القومُ في غفلتِهم   فتمادى في الملاهي المنكرهْ

زحزحَ الأمّةَ عن مركزها   وطوى رايتَها المنتشرةْ

ورأت فيها الليالي مقتلاً   فرمتها فأصابت مدبرهْ

فهوت عن عرشها منعفرةً   مثلما ترمي بسهمٍ قُبّرهْ

. . .

كانَ فيها شاعرٌ مشتهَرٌ   ذو قوافٍ بينها مشتهرةْ

كلّما هزّت يداهُ وتراً   هزّ من كلّ فؤادٍ وترَهْ

تعِسَ الحظُّ، وهل أتعسُ من   شاعرٍ في أمّةٍ محتضرةْ؟

يقرأ الناظرُ في مقلتِهِ   ثورةً طاهرةً مستترةْ

ما يراهُ الناسُ إلّا واقفاً   في مغاني قومِهِ المندثرةْ

حائراً كالريحِ في أطلالِها   باكياً والسحبَ المنهمرةْ

وهيَ في أهوائها لاهيةٌ   وكذاكَ الأمّةُ المستهترةْ

ما رأت مهجتهُ المنفطرةَ   لا ولا أدمعَهُ المنحدرةْ

فشكاهُ الشعرُ مما سامَهُ   وشكاهُ الليلُ مما سهرَهْ

ثمّ لمّا عبثَ اليأسُ   مزّقَ الطرْسَ وشجَّ المحبرةْ!!

. . .

مرّ يوماً فرأى أش[illegible]ا   جلسوا يبكونَ عندَ المقبرةْ

قالَ ما لكمُ؟.. مـــا خطبكمْ

أيُّ كنزٍ في الثرى أو جوهرةْ؟

ومَن الثاوي الذي تبكونَهُ   قيصرٌ، أم تُبّعٌ، أم عنترةْ؟

قالَ شيخٌ منهمُ محدودِبٌ   ودموعُ اليأسِ تغشى بصرَهْ

إنّ مَن نبكيهِ لو أبصرَهُ   قيصرٌ أبصر فيهِ قيصرَهْ

كيفَ يا جاهلُ لا تعرفُهُ   وحداةُ العيسِ تروي خبرَهْ؟

هو مَلكٌ كان فينا ومضى   فمضت أيّامُنا المزدهرةْ

ولبثنا بعدهُ في ظُلَـــمٍ   داجياتٍ فوقَنا معتكرةْ

والذي كانَ بنا «معرفةً»

لِصروفِ الدهرِ أمسى «نكرةً»

فانتهى التاجُ إلى مُعتسِفٍ   لم يزلْ بالتاجِ حتى نثرَهْ

كلُّ ما تَصبو إليه نفسُهُ   مُغتصَرٌ أو خمرةٌ معتصَرَهْ

مُستهينٍ بالليالي وبنـا   مستعينٍ بالطَّغام الفَجَرَهْ

كلَّما جـاءَ إليهِ خائنٌ   وَاشياً قَرَّبَهُ واستوزَرَهْ

فإذا جـاءَ إليهِ ناصِحٌ   شكَّ في نِيَّتِهِ فانتهرَهْ

مُستبدٍ باخلٍ في لحظةٍ   ما ادَّخرْناه لهُ وادَّخرَهْ

يهبُ المرءَ ومـا يملكهُ   وعَلى الموهوبِ أنْ يَستغفرَهْ

هزَأ الشاعرُ منهم قائلاً :   بلغَ السُّوسُ أُصولَ الشجَرَهْ

رحمةُ اللهِ عَلى أسلافكمْ   أنهم كانوا تُقاةً بَرَرَهْ

رَحمةُ اللهِ عليهمْ إنَّهمْ   لم يكونوا أُمَّةً مُنشَطِرَهْ

إنَّ من تبكونَهُ يا سادتي   كالذي تشكونَ فيكُمْ بَطَرَهْ

إنَّما بأسُ الأُلى قد سَلَفوا   قَتلَ النَّهمَةَ فيه والشَّرَهْ

فاحبسوا الأدمُعَ في آماقِكُمْ

واتركوا هذي العِظَامَ النَّخِرَهْ

لو فعلتمْ فِعْلَ أجدادِكُم   ما قضى الظالمُ منكم وَطَرَهْ

ما لكمْ تَشكونَ من مُحتكِمٍ

رُضْتُمْ ألسِنَكُمْ أنْ تَشكُرَهْ ؟

وجعلتمْ منكُمُ عَسكرهُ

وحلفتُمْ أنْ تُطيعوا عَسكَرَهْ ؟

كيفَ لا يبغي ويطغَى آمرٌ   يتَّقي أشجعُكُمْ أنْ ينظُرَهْ ؟

ما استحَالَ الهِرُّ ليثاً إنَّمـا

أُسدُ الآجامِ صارَتْ هِرَرَهْ

وإذا الَّليثُ وَهَتْ أظفـارهُ

أنشَبَ السِّنَّوْرُ فيهِ ظُفُرَهْ !!



أيلول الشاعر

من قصيدة يصف بها المناظر الرائعة التي مرّ بها في طريقه الى مونتريال .

أَلحسنُ حولكَ في الوهادِ وفي الذرى

فانظرْ ، ألستَ ترى الجمالَ كما أرى؟

« أيلولُ » يمشي في الحقولِ وفي الربى

والأرضُ في أيلولَ أحسنُ منظرا

شهرٌ يوزّعُ في الطبيعةِ فنّهُ   شجراً يُصفّقُ أو سناً متفجّرا

فالنورُ سحرٌ دافقٌ، والماء شعرٌ   رائقٌ، والعطرُ أنفاسُ الثرى

لا تحسبِ الأنهارَ ماء راقصاً   هذي أغانيهِ استحالتْ أنهرا

وانظرْ إلى الأشجارِ تخلعُ أخضراً   عنها، وتلبسُ أحمراً أو أصفرا

تعرى وتُكسى في أوانٍ واحدٍ   والفنُّ في ما ترتديهِ وفي العُرا

فكأنما نارٌ هناكَ خفيةٌ   تنحلُّ حينَ تهمّ أن تستشعرا

وتذوبُ أصباغاً كألوانِ الضحى   وتموجُ ألحاناً وتسري عنبرا

صورٌ وأطيافٌ تلوحُ خفيفةً   وكأنها صورٌ تراها في الكرى

للهِ من « أيلولَ » شهرٍ ساحرٍ   سَبَقَ الشهورَ وإن أتى متأخرا

من ذا يدبّجُ أو يحوكُ كَوَشْيِهِ   أو من يصوّرُ مثلما قد صوّرا ؟

لمستْ أصابعُهُ السماء فوجهُها   ضاحٍ ، ومرَّ على الترابِ فنوّرا

ردَّ الجلالَ إلى الحيـــاةِ وردّني

من أرضِ نيويوركَ إلى أمّ القرى

لوس انجيلوس

القصيدة التي ألقاها الشاعر في «الحفلة التكريمية» التي أقيمت على شرفه في لوس انجلوس برعاية الجمعية السورية اللبنانية في فندق امباسادور.

أنا لستُ في دنيا الخيالِ ولا الكرى … وكأنني فيها لِرَوْعَةِ ما أرى

يا قومُ هلْ هذي حقائقُ أم رؤىً … وأنا؟ أصاحٍ أم شربتُ مخدّرا؟

لا تعجبوا من دهشتي وتحيّري … وتعجّبوا إنْ لم أكنْ متحيرا

كيفَ التفتُّ رأيتُ آيةَ شاعرٍ … لَبِقٍ تعمّدَ أنْ يُجيدَ ليبهرا

مسحتْ بإصبعها الحياةُ جفونَهُ … فرأى المحاسنَ، فانتقى وتخيّرا

ما «لوس انجلوس» سوى أنشودةٍ … اللهُ غنّاها فَجُنَّ لها الورى

خَلَعَ الزمانُ شبابَهُ في أرضِها

فهو اخضرارٌ في السفوحِ وفي الذرى

أخذتْ مِنَ المُدُنِ العواصمِ مجدَها

وجلالَها، وحوتْ حلاواتِ القُرى

هيَ واحةٌ للمتعبينَ، وجنةٌ للعاشقينَ، وملعبٌ لذوي الثرا

كفّنتُ في نيويوركَ أحلامَ الصبا … وطويتُها، وحسبتُها لَنْ تنشرا

لكنني لمـا لمحتُ زهورَها … شاهدتُ أحلامي تطلُّ من الثرى

تتنفسُ الهضباتُ في رأدِ الضحى … تبراً، وفي الآصالِ مسكاً أذفرا

فالسحرُ في ضَحِكِ الندى مترقرقاً … كالسحرِ في رَقْصِ الضياءِ معطّرا

قلْ للألى وصفوا الجنانَ وأطنبوا … ليستْ جنانُ الخلدِ أعجبَ منظرا

كلُّ الفصولِ هنا ربيعٌ ضاحكٌ … فإذا ترى شهراً رأيتَ الأشهرا

إنْ كنتَ تجهلُ ما حكاياتُ الهوى … فانصتْ لوشوشةِ النسيمِ إذا سرى

وانظرْ إلى الغبراءِ تُنبتُ سندساً … وتأملِ الغدرانَ تجري كوثرا

واشربْ بعينيكَ الجمالَ فإنّهُ … خمرٌ بغيرِ يَدِ الهوى لَنْ تُعصرا

حاولتُ وصفَ جمالِها فكأنني … ولدٌ بأنمله يحوشُ الأبحرا

واستنجدتُ روحي الخيالَ فخانني، … وكبا جوادُ فصاحتي وتعثّرا

أدركتُ تقصيري وضعفي عندما … أبصرتُ ما صَنَعَ الإلهُ وصوّرا

إني شهدتُ الحسنَ غيرَ مزيّفٍ … بِئْسَ الجمالُ مزيفاً ومزوّرا

أحببتُ حتى الشوكَ في صحرائها … وعشقتُ حتى نخلها المتكبرا

أللابسَ الورقَ اليبيسَ تنسكاً … والمشمخرَّ إلى السماءِ تجبُّرا

هو آدمُ الأشجارِ أدركَهُ الحيا … لمـا تبدّى عُرْيُهُ فتسترا

إبنُ الصحارى قد تحضّرَ وارتقى … يا حسنَهُ متبدياً متحضرا

وبدتْ غياضُ البرتقالِ فأشبهتْ   جلبابَ خَوْدٍ بالنُّضارِ مزرَّرا

من فوقها انتشرَ الضياءُ ملاءةً   من فوقِهِ جوٌّ صفا وتبلورا

وكأنما تلكَ القصورِ على الربى   عَقْدٌ لغـــانيةٍ هوى وتبعثرا

لمـــا تراءتْ من بعيدٍ خلتُها   سفناً ، وخلتُ الأرضَ بحراً أخضرا

نَفَضَ الصباحُ سناهُ في جدرانهـــا   وأتى الدجى فرأى منارَ للسرى

متألقاتٍ كابتساماتِ الرّضى   تُنسيكَ رؤيتُها الزمانَ الأعسرا

أنا شاعرٌ ما لاحَ طيفُ ملاحةٍ   إلا وهلَّلَ للجمالِ وكبرا

وزعتُ نفسي في النفوسِ محبةً   لا شاكياً ألماً ولا متضجرا

ومشيتُ في الدنيا بقلبٍ يابسٍ   حتى لقيتُ أحبتي فاخضوضرا

قد كنتُ أحسبني كياناً ضائعاً   فاذا أنا شخصٌ يعيشُ مكرَّرا

فكأنني ماءُ الغمامِ إذا انطوى   في الأرضِ ردَّتْهُ نباتاً مثمرا

ما أكرمَ الأشجارِ في هذا الحمى   فيها لقاصدها البشاشةُ والقِرى

تَقري الفقيرَ على خَصاصةِ حالِهِ   كرَماً ، كما تُقري الغنيَّ الموسرا

ألبذلُ ديدنُها سواءٌ جئتَها   متقدماً أمْ جئتَها متأخرا

فكأنها منكمْ تعلّمتِ الندى   كيما تغيثُ الناسَ إنْ خطبٌ عرا

طفلة والقمر

دميةٌ حسناءُ تُغري النّظرا   أم ملاكٌ طاهرٌ فوقَ الثّرى ؟

طفلةٌ ساذجـــةٌ أطهرُ من   زهرةِ الرّوضِ وأنقى جوهَرا

شرُفتْ أصلاً، وطابتْ عُنصراً،   وارتقتْ نفساً ، وراقتْ منظرا

خُلِقَتْ قلباً أبى أن يحملَ   الحقدَ أو يكتمَ نفساً كَدَرا

تجهلُ الشرَّ ولا تُحسنُ أن   تخدعَ الغيْرَ ولا أن تغدرا

لا تبالي ببناتِ الدّهرِ إنْ   أقبلَ الدّهرُ بهـــا أو أدبرا

يعظمُ الكونُ لدينا جرمُهُ   وتراهُ عندهـــا قد صَغُرا

إنما الدُّنيا لديها كلُّها   أبواها وهمـــا كلُّ الورَى

جُوذُرٌ لكنّها آنِسَةٌ   لم يرُعْها ما يَروعُ الجوذرا

سرَقَ التُّفاحُ من وَجنتِها   واستعارَ الظّبيُ منها الحَوَرَا

ذاتُ شعرٍ ذهبيٍّ لَوْنُهُ   قد حَكى نورَ الضُّحى مُنتشرا

وعيونٍ بالنُّهى عابثةٍ   جَذَبَ الغنجُ إليهـــا الخفَرا

شُغفتْ بالبَدْرِ حباً فهي لا   تعرفُ الغمضَ إلى أن يُسفرا

وقفتْ ترقُبُهُ في ليلةٍ … مثلِ حظِّ الأدباء الشُعَرا
تكتمُ الظلماءُ من لألأها … أيُّ بَدرٍ في الظلامِ استَترا ؟
أرسلتْ نحوَ الدَّراري لفتةً … أذكرتْ تلكَ الدَّراري القمرا
وإذا بالبدرِ قد مزّقَ عن … وجهِهِ بُرْقُعَهُ ثُمَّ انبرى
فأضاء الجوُّ والأرضَ معاً … نورُهُ الفضيُّ لما ظهرا
فرَنَتْ عن فاترٍ وابتسمتْ … عَنْ نظيمٍ قد أكنَّ الدُّرَرا
ثُمَّ قالتْ يا حبيبي مرحباً — … لا رآكَ الطَّرْفُ إلا نيّرا
قفْ قليلًا أو كثيراً فعسى … نورُكَ الباهرُ يجلو البَصَرا
إن تَغِبْ فالصبحُ عنديَ كالدُّجى … والدُّجى إنْ جئتَ بالصُّبحِ ازدرى
لمْ تُحِبُّ السَّيْرَ ليلاً فإذا … ذرَّ قرْنُ الشَّمسِ عانقتَ الكرَى؟
أتخافُ الشمسَ أم أنتَ كذا … تعشقُ اللَّيلَ وتهوى السَهرا ؟
ثُمَّ ناجتْ نفسَها قائلةً … أترى أبلغُ منه وطَرا ؟
لَيْتَ لي أجنحةً بل ليتني … نجمةٌ أتبعهُ أنّى سَرَى
وَهُمُ البعضُ فقالوا درهمٌ … ما أرى الدرْهَمَ إلَّا حجرا
ولقد أضحكني زعمهمْ … أنهُ يُشبهُ في الحجْمِ الثرى
زعموا ما زعموا لكنَّا … هو عندي لعبةٌ لا تُشترى

طبيبي الخاص

بتُّ أرعى في الظلامِ الأنجما … ليسَ للعشّاقِ حظٌّ في الكرى
صرّعتني نظرةٌ حتى لقدْ … كدتُ أنْ أحسدَ منْ لا يبصرُ
نظرةٌ قد أورثتْ قلبي الكمَدْ — … ما بلاءُ القلبِ إلا النَّظرْ
لا رعاكَ اللهُ يا يومَ الأحدِ … لا ولا حيّاكَ عنّي المطرْ
أنتَ منْ أطلعتَ هاتيكَ الدُّمى … سافراتٍ فتنةً للشُعَرا
هِمْتَ فيمنْ حسُنَتْ صورتُها … مِثلما قد حسُنَتْ منها الخِصالْ
أخجلتْ شمسَ الضحى طلعتُها … واستحى من لحظِها لحظُ الغزالْ
كلُّ ما فيها جميلٌ يُشتهى … ما بها عَيْبٌ سوى فَرْطِ الجمالْ
لَوْ رآها لائمي فيها لَما … لامني في حبّها بلْ عذرا
ذاتُ حُسنٍ خدُّها كالوَرْدِ في … لوْنِهِ والطِّيبِ في نكهتِهِ
زهرةٌ لكنها لم تُقطفِ … وجمالُ الزَّهرِ في روضتِهِ
دُرَّةٌ ما خرجتْ من صدفِ … تُرْخِصُ الدُّرَّ على قيمتِهِ
بَضَّةُ الخدَّينِ والنهدَينِ ما … سَفَرَتْ إلا رأيتُ القمرا

ذاتُ شَعْرٍ مُسْبَلٍ كالأفعوانْ   يتهادى فَوقَ رِدْفٍ كالكثيبْ

وقوامٌ لَوْ رآهُ الغُصنُ بانْ   خجلاً من ذلك الغُصنِ الرَّطيبْ

كادَ لولا ما بِهِ من عُنفوانْ   يَقِفُ الوِرقُ به والعَندليبْ

وجفونٌ أشبهتني سقما   كَمَنَ السِّحْرُ بهــا واستترا

تبعثُ الحبَّ إلى قلبِ الخليّْ   وهو لا يدري ولا يَستشعرُ

والهوى في بدنه عذبُ شهيّْ   كلُّ شيءٍ بعدَهُ محتقرُ

كلُّ من لا يعرفُ الحبَّ شقيّْ   لا يرى في دَهرِهِ ما يُشكرُ

يَصرفُ العُمْرَ ولكنْ سأما   عبثاً يطلبُ أن لا يَضجرا

لم أكنْ أعرفُ ما معنى الهنا   قبلَ أن أعرفَ ما معنى الغرامْ

يضحكُ النّاسُ سروراً وأنا   عابسٌ حتى كأني في خصامْ

عَجبوا مني وقــالوا علَنا   قد رأينا الصَّخْرَ في زي الأنامْ

أوشكوا أن يحسبوني صنما   لو رأوا الأصنامَ تخفي كَدَرَا

لم أزلْ في رِبقةِ اليأسِ إلى   أن أعادَ الحبُّ لي بعضَ الرَّجا

كنتُ قَبْلَ الحبِّ أسري في ظلا   مٍ ولا ألقى لنفسي مخرجا

فجلاهُ الحبُّ عني فانجلى   مثلما يجلو سَنا الشمسُ الدُّجى

باتَ قلبي بالأماني مُفعَمَا   وهوَ قبلاً كانَ منها مقفرا

روَّعتني بالنّوى بعد اللقــاء   وكذا الدُّنيا دنوٌ وافتراقْ

غَضِبَ الدَّهرُ على كأس الصفاء   مُذْ رآهــا فأبى ألا تُراقْ

ولو أنَّ الدَّهرَ يدري بالشقاء   ساعدَ الصبَّ على نَيلِ التلاقْ

لم أجدْ لي مُشبِهاً تحتَ السَّما   في شقائي ، لا ولا فوق الثّرى

وأبي لو أن ما بي بالجبالْ   أصبحتْ تهتزُّ من مرِّ النسيمْ

فاعذروني إن أكُنْ مثلَ الخيالْ   واعذلوني إنْ أكُنْ غيرَ سقيمْ

إنَّ دائي جاء من صادٍ ودالْ   ودواءُ القلبِ في صادٍ وميمْ

باتَ صبري مثلُ جسمي عَدَمَا   إنَّمــا يصبرُ مَنْ قد قَدَرَا

ربَّ لَيلٍ عادني فيه السهادْ   ونأى عن مُقلتي طيبُ الكرَى

هاجتِ الذِّكرى شجوناً في الفؤادْ   فبكى طرفي عقيقاً أحمرا

نبَّهَ الأهلَ بكائي والعبادْ   فــأتوا يستطلعونَ الخبَرَا

قلتُ داءٌ في الفؤادِ استحكما   كادَ قلبي منهُ أنْ ينفطرا

صدَّقوا مــا قلته ثم مضى   واحدٌ منهمْ يَستدعي الطبيبْ

سارَ والكلُّ على جَمْرِ الغضا   وأنا بينَ أنينٍ ونحيبْ

لم يَكُنْ إلا كَبرقٍ ومَضا   وإذا (الدكتور) من مَهدي قريبْ

قالَ للجمهورِ مــاذا الاجتماع   أخرجوا أو زدتموهُ خطَرَا

خَرجَ الكلُّ فأمستْ غرفتي   مثلَ قَلْبِ الطفلِ أو جيبِ الأديبْ

فَدَنَا يسألني عن علّتي   وأنا أسمعُ لكنْ لا أجيبْ

قَنَصَا الثَّوبَ فأبصرتُ التي   كادَ جسمي في هواها أن يغيبْ
خَلَعَتْ عنها لباسَ الحُكَما   فرأت عيناي بَدْراً نيِّرا
واعترتني دهشةٌ لكنَّها   دهشةٌ ممزوجةٌ بالفرَحِ
كدتُ أن أخرجَ عن طورِ النُّهى   ربَّ سُكْرٍ لم يكُنْ من قدحِ
يا لها من ساعةٍ لو أنَّهـــا   بقيتْ كالدَّهرِ لم تُستقبحِ
عانقتني وأنا أبكي دمـــا   وَهيَ تبكي لبكائي دُرَرا
وَجعلْنا بعد أن طالَ العناقْ   نتناجى بأحاديثِ القلوبْ
بينما نحنُ على هذا الوفـــاقْ   قُرِعَ البابُ فأوشكنا نذوبْ
فأشارتْ ليَ قد حانَ الفراقْ   فانقطعنا وارتدتْ ثوبَ الطبيبْ
أقبلَ القومُ فقالتْ كلُّ مـــا   كانَ يشكو منهُ عنهُ قد سَرى

•

بائعة الورود

مِنَ الفرنسيس قيدَ العينِ صورتَها   عذراءُ قد مُلِئتْ أجفانُها حَوَرا
كأنَّما وَهبتها الشمسُ صفحتَها   وَجهاً وَحاكتْ لها أسلاكَها شعرا
يدُ المنيَّةِ طاحتْ غِبَّ مولدِها   بأمِّها ، وأبوها ماتَ منتحِرا
في قريةٍ من قُرى باريسَ ما صَغُرتْ   عَنِ الفتاةِ ولكنْ همُّها كَبُرا
والنَّفسُ تعشقُ في الأهلينَ موطنَها   وَليسَ تعشقُهُ بحويهمْ حُفَرا
وَتعظمُ الأرضُ في عينَيكَ محترماً   وَليسَ تعظمُ في عينيكَ محتقَرا
فغادَرَتْها وما في نفسِها أثرٌ   منها ولا تَركتْ في أهلِها أثرا
إلى التي تفتِنُ الدُّنيا محاسِنُها   وَحسنُ مَنْ سكنوها يفتنُ البشرا
إلى التي تجمعُ الأضدادَ دارتُها   ويحرسُ الأمنُ في أرجائها الخطَرا
إذا رآها تقيٌّ ظنَّها «عدناً»   وإن رآها شقيٌّ ظنَّها «سقرا»
تودُّ شمسُ الضُّحى لو أنَّها فلكٌ   والأفقُ لو طلعتْ في أوجِهِ قمَرا
والغربُ لو كانَ عوداً في منابرِها   والشرقُ لو كانَ في جدرانِها حجَرا
في كلِّ قلبِ هوًى منها كأنَّ لهُ   في أهلِها صاحِباً، في أرضِها وطرا

(باريس) أعجوبة الدنيا وجنتها ... وربة الحسن مطروقاً ومبتكرا

. . .

حلت عليها فلم تنكر زخارفها ... فطالما أبصرت أشباهها صورا

ولا خلائق أهليها وزيهم ... فطالما قرأت أخلاقهم سيرا

وإنما أنكرت في الأرض وحدتها ... كذلك الطير إما فارق الوكرا

يتيمة مالها أم تلوذ بهـــا ... ولا أب إن دعته نحوها حضرا

غريبة يقتفيها البؤس كيف مشت

ما عز في أرض «باريس» من افتقرا

مرت عليها ليال وهي في شغل ... عن سالف الهم بالهم الذي ظهرا

حتى إذا عضها ناب الطوى نفرت ... تستنزل الرزق فيها الفرد والنفرا

تجني اللجين ويجني الباذلوه لها ... من كفها الورد منظوماً ومنتثرا

لا تتقي الله فيه وهو في يدها ... وتتقي فيه فوق الوجنة النظرا

تغار حتى من الأرواح سارية ... فلو تمر قبول أطرقت خفرا

أذالت الورد قانيه وأصفره ... كيما تصون الذي في خدها نضرا

حمته عن كل طرف فاسق غزل ... لو استطاعت حمته الوهم والفكرا

تضاحك الخلق لا زهواً ولا لعباً ... وتجحد الفقر لا كبراً ولا أشرا

فإن خلت هاجت الذكرى لواعجها

فاستنفدت طرفها الدمع الذي ادخرا

. . .

تعلقته فتى كالغصن قامته ... حلو اللسان أغر الوجه مزدهرا

وهام فيها تريه الشمس غرتها ... والفجر مرتصفاً في ثغرها دررا

إذا دنا رغبت أن لا يفارقها ... وإن نأى أصبحت تشتاق لو ذكرا

تغالب الوجد فيه وهو مقترب ... وتهجر الغمض فيه كلما هجرا

كانت توقى الهوى إذ لا يخامرها ... فأصبحت تتوقى في الهوى الحذرا

قد عرضت نفسها للحب واهية ... فنال منها الهوى الجبار مقتدرا

والحب كاللص لا يدريك موعده ... لكنه قلما، كالسارق، استترا

. . .

وليلة من ليالي الصيف مقمرة ... لا تسأم العين فيها الأنجم الزهرا

تلاقيا فشكاها الوجد فاضطربت ... ثم استمر فباتت كالذي سحرا

شكا فحرك بالشكوى عواطفها ... كما تحرك كف العازف الوترا

وزاد حتى تمنت كل جـــارحة

لو أصبحت مسمعاً أو أصبحت بصرا

وانَ الهيامُ على الصبَّيْنِ فاعتنقا   لا يملكانِ النُّهى وِرْداً ولا صَدَرا

«وكانَ ما كانَ مما لستُ أذكُرُهُ»،

تكفي الإشارةُ أهلَ الفِطنَةِ الخُبَرا

. . .

هامتْ بهِ وهيَ لا تدري لِشقوَتِها

بأنَّهـا قد أحبَّتْ أرقَماً ذكَرا

رأتهُ خِشْفاً فأدنتهُ فراءَ بها   شاةً فأنشبَ فيها نابَهُ نمِرا

ما زالَ يؤمنُ فيها غيرَ مكترثٍ   بالعاذِلينَ فلمّا آمنتْ كفَرا

جنَى عليها الّذي تخشَى، وقاطعَها

كأنّما قدْ جنتْ ما ليسَ مُغتفَرا

كانتْ وكانَ يرَى في خدِّها صَعَراً

عنهُ فباتتْ ترى في خدِّهِ صَعرا

فكلّما استعطفتهُ ازوَرَّ مُحتدِماً   وكلّما ابتسمتْ في وجهِهِ كشَرا

قالَ النّفارُ و«فرجيني» على مضضٍ

تجرّعُ الأنقعَينِ: الصّابَ والصّبِرا

. . .

قالتْ، وقدْ زارَها يوماً، مُعرِّضةً

متى، لعمرِكَ، يجني الغارسُ الثّمرا؟

كم ذا الصّدودُ ولا ذنبٌ جنتهُ يدي

أرجو بكَ الصّفوَ لا أرجو بكَ الكدَرا

تركتَني لا أذوقُ المـاءَ من وَلَهي

كما تركتَ جفوني لا تذوقُ كرَى

أشفِقْ عليَّ ولا تنسَ وُعودَكَ لي   فإنَّ ما بي لوْ بالصّخرِ لانفطَرا

أطالتِ العتبَ ترجو أنْ يرِقَّ لها   فؤادُهُ فأطالَ الصّمتَ مُختصِرا

وأحرجتهُ لأنَّ الهمَّ أحرجَها   وكلّما أحرجتهُ راغَ مُعتذِرا

وضاقَ ذرعاً بما يُخفي فقالَ لها   إلى مَ ألزمُ فيكِ العيَّ والحصرا

أهواكِ صاحبةً . . . أمّا اقترانُكِ بي

فليسَ يخطرُ في بالي ولا خطَرا

أهوى رضاكِ ولكنْ إنْ سعيتُ لهُ   أغضبتُ نفسي والدّيّانَ والبشَرا

عنيتُ ما ليَ مِنْ قلبينِ في جسَدي   وليسَ قلبي إلى قسمينِ مُنشطِرا

تُطالبيني فؤادي وهوَ مرتهَنٌ

في كفِّ غيرِكِ، رُمتِ المطلبَ العسِرا

يكفيكِ أني فيكِ خنتُ إمرأتي !   ولم يخن قلبها عهدي ولا خفرا

قد كان طيشاً هيامي فيكِ بل نزقاً
وكان حبكِ ضعفاً منكِ بل خورا

قالت متى صرت بعلاً ؟ قال من أمدٍ
لا أحسبُ العمرَ إلاهُ وإن قصرا

يا هولَ ما أبصرت يا هولَ ما سمعت
كادت تكذّبُ فيهِ السمعَ والبصرا

لولا بقيةُ صبرٍ في جوانبها   طارت له نفسها من وقعهِ شذرا

يا للخيانةِ ! صاحت وهي هائجةٌ   كما تهيّجَ ليثٌ بابنهِ وترا

الآنَ أيقنتُ أني كنتُ واهمةً   وأنّ ما كلُّ برقٍ يصحبُ المطرا

وهبتَ قلبكَ غيري وهو ملكُ يدي
ما خفتَ شرعاً ولا باليتَ مزدجرا

ليستْ شرائعُ هذي الأرضِ عادلةً
كانَ الضعيفُ ولا ينفكُّ محتقرا

قد كنتُ أخشى يدَ الأقدارِ تصدعُنا
كانَ أجدرَ أن أخشاكَ لا القدرا

وصلتني مثلَ شمسِ الأفقِ ناصعةً   وعفتني مثلَ جنحِ الليلِ معتكرا

كما تعافُ السراةُ الثوبَ قد بليتْ
خيوطهُ والرواةُ الموردَ القذرا

خفتَ الأقاويلَ بي قد نامَ قائلُها
هلّا خشيتَ انتقامي وهوَ قد سهرا

يا سالبي عفّتي من قبلِ تهجرَني[1]
أردد عليّ عفافي واردد الطهرا

هيهاتَ هيهاتَ ما من عفّتي عوضٌ
لاحَ الرشادُ وبانَ الغيُّ وانحسرا ...

. . .

وأقبلتْ نحوهُ تغلي مراجلُها   كأنّها بركانٌ ثارَ وانفجرا

في صدرها النارُ، نارُ الحقدِ، مضرمةٌ
لكنّما مقلتاها تقذفُ الشررا

وأبصرَ النصلَ تخفيهِ أناملُها   فراحَ يركضُ نحوَ البابِ منذعرا

---

(١) التقدير : من قبل أن تهجرني .

لكنّها عاجلتهُ غيرَ وانيةٍ   بطعنةٍ فجّرت في صدرهِ نَهرا

فخرّ في الأرضِ جِسماً لا حَراكَ بهِ

لكنّ «فرجينَ» ماتَتْ قبلَهُ احتضرا

جُنّتْ من الرُّعبِ والأحزانِ فانتَحَرت

ما خِفْتِ الموتَ لكنْ خافَت الوَضَرا

. . .

كانَتْ قُبيلَ الرَّدى مَنسِيّةً فَغَدَت   بَعدَ الحِمامِ حديثَ القَومِ والسَّمَرا

تَتلُو الفتاةُ عِظاتٍ في حِكايَتِها   كَما يُطالِعُ فيها النّاشِئُ العِبَرا

الغبطة فكرة

أقبلَ العيدُ، ولكنْ ليسَ في الناسِ المسرّةْ

لا أرى إلّا وُجوهاً كالحاتٍ مُكفهرّةْ

كالرَّكايا لم تَدَعْ فيها يدُ الماتحِ قَطرةْ

أوْ كَمِثْلِ الرَّوضِ لم تترُكْ به النكباءُ زهرَةْ

وعيوناً دَنِقَتْ فيــــها الأماني المستحِرّةْ

فَهْيَ حَيرى ذاهلاتٌ في الذي تَهوى وتَكرَهْ

وخدوداً باهتاتٍ قد كساها الهمُّ صُفرَةْ

وشفاهاً تحذَرُ الضحكَ كأنَّ الضحكَ جمرَةْ

ليسَ للقومِ حديثٌ غيرُ شكوى مستمرّةْ

قد تَساوى عندهُمْ لليأسِ نفعٌ ومضرّةْ

لا تَسَلْ مــــاذا عراهُمْ كلّهم يجهلُ أمرَهْ

حائرٌ كالطائرِ الخائفِ قد ضيّعَ وكرَهْ

فوقهُ البازيُّ ، والأشراكُ في نجدٍ وحفرَهْ

فهو إن حطَّ إلى الغبراء شكَّ السهمُ صدرَهْ

وإذا مـــا طارَ لاقى قشعمَ الجوِّ وصقرَهْ

كلُّهم يبكي عَلَى الأمسِ ويَخشى شرَّ «بُكرَهْ»

فهمُ مثلُ عجوزٍ فقدتْ في البحرِ إبرَهْ

***

أيُّهـــا الشاكي الليالي إنّما الغبطةُ فكرَهْ

ربَّما استوطَنَتِ الكوخَ وما في الكوخِ كسرَهْ

وخلتْ منهـــا القصورُ العالياتُ المشمخرَّهْ

تلمسُ الغصنَ المعرَّى فإذا في الغُصنِ نُضرَهْ

وإذا رفَّتْ على القفرِ استوى ماءٌ وخضرَهْ

وإذا مسَّتْ حصـــاةً صَقَلَتْها فهيَ درَّهْ

لكَ ، ما دامتْ لكَ ، الأرضُ وما فوقَ المجرَّهْ

فـــإذا ضيَّعتَها فالكونُ لا يَعدِلُ ذرَّهْ

أيُّهـــا الباكي رويداً لا يسدُّ الدمعُ ثغرَهْ

أيُّها العابسُ لن تُعطى على التقطيبِ أجرَهْ

لا تكنْ مُرّاً ، ولا تجعلْ حياةَ الغيرِ مُرَّهْ

إنَّ من يبكي لهُ حَولٌ على الضحكِ وقدرَهْ

فتهلَّلْ وترنَّمْ ، فالفتى العابسُ صخرَهْ

سكنَ الدهرُ وحانتْ غفلةٌ منهُ وغِرَّهْ

إنَّهُ العيدُ . . . وإنَّ العيدَ مثلُ العُرسِ مَرَّهْ

قطرة الطل

إنْ ترَ زهرةَ وردٍ فوقها للطلِّ قطرهْ
فتأمّلها كلُغزٍ غامضٍ تجهلُ سرّهْ
ولتكنْ عينكَ كفّاً وليكنْ لمسكَ نظرهْ
ليستِ الحمراءُ جمرهْ ، لا ولا البيضاءُ درّهْ

***

ربَّ روحٍ مثلُ روحي عافتِ الدنيا المضرّهْ
فارتقتْ في الجوّ تبغي منزلاً فوقَ المجرّهْ
علّها تحيا قليلاً في الفضاءِ الحرِّ حرّهْ
ذرّفتْها مقلةُ الظلماءِ عندَ الفجرِ قطرهْ

الكنار الصامت

نسيَ الكنارُ نشيدهُ   فتعالَ كي ننسى الكنارْ
وليقذفنْ بـهِ المَلالُ   من القصورِ إلى القفارْ
ولترمينْ بريشهِ   للأرضِ عاصفةُ النِفارْ
ولنستعضْ عنه بطيرٍ   من لُجَينٍ أو نُضارْ
لا ، لا ، فإن سكتَ الكنا   رُ فلم يزلْ ذاكَ الكنارْ
أو كانَ فارقهُ الصُدا   حُ فلم يفارقْهُ الوقارْ
صمتُ الكنارِ ، وإنْ قسا ،   خيرٌ من النَغمِ المُعارْ
صبراً فسوف يعودُ لل   تغريدِ إنْ عـادَ النهارْ

•

اليك عني

كَمْ تستثيرَ بِيَ الصبابةَ والهوَى عني إليكَ، فإنَّ قلبيَ من حَجرْ

مالي وللحسناء أغري مُهجتي بوِصالها، والشيبُ قد وَخطَ الشَعَرْ؟

كم «بالجزيرة» لو يتاحُ ليَ الهوى من غادةٍ تحكي بِطَلعتها القمَرْ؟

ولكَمْ بها من جدولٍ وحديقةٍ من صَنْعةِ الرحمنِ لا صُنعِ البَشَرْ

فيا اللواتي إنْ رَمَتْ ألحاظَها شلَّتْ يدَ الرامي وقطَّعتِ الوتَرْ

قد كانَ لي في كلِّ خودٍ مطمعٌ ولكلِّ رائعةِ المحاسنِ بي وَتَرْ

أيامُ شعري كالدُّجى حلولكٌ، أيامُ عَيْشي لا يُخالطهُ كَدَرْ

***

دَرْنيِ وأشجاني، وجسمي، والضَّنى، ويَدي، وأقلامي، وطَرْفي، والسهَرْ

أأبيتُ ألهو والهمومُ تُحيطُ بي وأنامُ عن قومي، وقومي في خَطَرْ؟

صوتُ المصفّقِ موعدٌ ما بَيْننَا ماذا أقولُ لَهُمْ إذا الديكُ استحَرْ؟

أما أنا ...

لا تَنْثني في الرَّوضِ أغصانُ الشَّجَرْ

حتَّى تُدغدِغَها النَّسائمُ في السَّحَرْ

وأنا كذلك لا يُفارقُني الضَّجَرْ

حتَّى تُداعِبَ لِمَّتي بِيَدَيـهـا

***

الشَّمسُ تُلقِي في الصَّباحِ حِبالَها

وتَبيتُ تَنظرُ في الغَديرِ خَيالَها

أمَّا أنا فإذا وَقَفتُ حِيالَها

أبصَرتُ نورَ الشَّمسِ في خَدَّيها

***

الطَّوْدُ يقرأُ في السَّماء الصَّافِيَة

سِفْراً، جَميلٌ مَتْنُهُ والحاشِيَة

أمّـــا أنا فإذا فقدتُ كتابِيَهْ
أتـــلُو كِتابَ الحُبِّ في عَيْنَيْها

***

الطّيرُ إنْ عَطِشَتْ ولجّ بها الظّما
هَبَطَتْ إلى الأنْهارِ من عَلوِ السّما
أمّـــا أنا فإذَا ظَمِئْتُ فإنّما
ظَمأي الشّديدُ إلى لَمى شَفَتَيْها

***

النّدُّ يَطْلُبُهُ الخَلائقُ في الرُّبى
بَيْنَ الوُرُودِ وفي نُسَيْمَاتِ الصَّبا
أمّا أنا فالنّدُّ مِنْ نَشْرِ الكَبا
عِنْدِي، الّذي قَدْ فاحَ مِن نَهْدَيْها

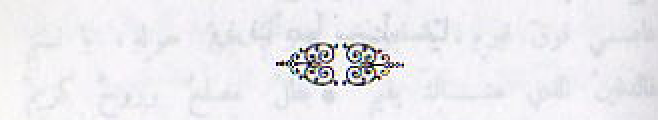
***

الرّاحُ تَصْرِفُ ذا العَناءِ عَنِ العَنا
وتَطيرُ بالصُّعْلُوكِ في جَوِّ المُنى

فَيَرَى الكَواكِبَ تَحْتَهُ، أمّا أنا
فَتَظَلُّ أفكاري تَحُومُ عَلَيْها

***

فِيهـــا وَمِنْها ذُلّي وسَقامي
وبِهـــا غَرامي، القاتِلي؛ وهُيامي
أشتاقُهـــا في يَقْظَتِي ومَنامي
واطُولَ شَوْقِ المُسْتَهامِ إلَيْهـــا



ما زال في الارض حياً

قال الشاعر هذه القصيدة عندما جاءه نبأ وفاة صديقه الأديب الكبير الخالد أمين الريحاني وقد تأثر بالنبأ المفاجىء .

أيُّ خَطْبٍ دها فباتَ المهجرْ   مثلَ حقلٍ مرّتْ عليهِ صرصرْ
ضربتْ عَقْدَ زهرِهِ فتبعثرْ   ومشتْ فوقَ عشبِهِ فتنكرْ
بَعْدَ أن كانَ عبهرياً نديًّا

•

قد سمعنا، يا ليتَنا لمْ نسمعْ   نبأً زعزعَ القلوبَ وضعضعْ
فجزعنا، وحقنا أنْ نجزَعْ   لفراقِ الفتى الأديبِ الألمعْ
وذرفنا دمعاً سخيناً سخيًّا

•

قد بكينا كما بكى لبنانُ   وحنتنا كأرزِهِ الأحزانُ
ليسَ بَعْدَ الأمينِ ثَمّ مكانُ   غيرَ مستوحشٍ ولا إنسانُ
ذو وفاءٍ لم يبكِ ذاكَ الوفيّا

•

ألمعيٌّ قد غابَ تحتَ الرغامِ   إنما لم يَغِبْ عن الأفهامِ
فهو باقٍ فينا مدى الأيامِ   فعليهِ تحيتي وسلامي
عاشَ حراً، وماتَ حراً أبيًّا

•

لم يعفّرْ جبينَهُ في الترابِ   لم يوارِبْ في موقفٍ، لم يُحابِ
لم يَبِعْ قومَهُ من الأغرابِ   لم يَسِرْ في سوى طريقِ الصوابِ
لم يكن خائناً ولا إمعيًّا

•

عاشَ في الأرضِ مثلَ زهرِ البنفسجْ   كلما زادَ فوحُهُ يتأرّجْ
وكنجمٍ في بُرْجِهِ يتوهّجْ   لا يبالي أحبّهُ مَنْ أدلَجْ
أم أحبَّ الليلَ البهيمَ الدجيّا

•

فابسمي فوقَ قبرِهِ، يا نجومُ   وترنّمْ مِنْ حولِهِ، يا نسيمُ
فالدفينُ الذي هنـاكَ يقيمُ   بَطَلٌ مصلحٌ وروحٌ كريمُ
ولسانٌ تخالُهُ نبويّا

•

وتنصّتْ إذا رأيتَ الأقاحي   جاثياتٍ في هيكلِ الأرواحِ
قائلاتٍ بلهجةِ النصّاحِ   أيها الناسُ، بعضَ هذا النواحِ
«فأمينٌ» ما زالَ في الأرضِ حيّا

التمثال

من المرمرِ المسنونِ صاغوا مثالَهُ   وطافوا بهِ مِنْ كلِّ ناحيةٍ زُمَرْ
وقالوا — صنعناه لتخليدِ رسمهِ ،   فقلتُ — ألا يفنى كما فَنِيَ الأَثَرْ؟
وقالوا — نصبناه اعترافاً بفضله ،   فقلتُ إذنْ مَنْ يعرفُ الفضلَ الحجَرْ؟
وقالوا — غنيٌّ كانَ يسخو بمالِهِ   فقلتُ لهم هل كانَ أسخى من المطَرْ؟
وقالوا — قويٌّ عاش يحمي ذِمارَنا   فقلتُ لهم هلْ كانَ أقوى من القدَرْ؟
أكانَ غنياً أمْ قوياً فإنهُ   بمالكمْ استغنى وقوتكمْ ظفرْ
فلَمْ يَتعشقْكمْ ولا همتمْ بهِ   كما خلتمْ لكنهُ النفعُ والضررْ
ولم ترفعوا التمثالَ للبأسِ والنَّدى   ولكنْ لِضعفٍ في نفوسكمُ استترْ
فلستمْ تحبونَ الغنيَّ إذا افتقرْ   ولستمْ تحبونَ القويَّ إذا اندحرْ
رأيتكمُ لا تعرجونَ بروضةٍ   إذا لم يكنْ في الروضِ فيءٌ ولا ثمرْ
ولا تعلفونَ الشاةَ إلا لتسمنوا ،   ولا تقتنونَ الخيلَ إلا على سفَرْ
إذا كانَ حبُّ الفضلِ للفضلِ شأنكمْ   ولم تخطئوا في الحسِّ والسّمعِ والبَصَرْ
فما بالكُمْ لم تُكرموا الليلَ والضُّحى   ولم تَنصبوا التمثالَ للشمسِ والقمَرْ؟

بلاء أم نعمة

أحبُّ مُعانقةَ النرجسِ   لِعينيكِ يا ابنةَ كولمبسِ
وأهوى الشقيقَ ولثمَ العقيقِ   لِخدِّكِ والثغرِ الألعسِ
أعندَكِ إنْ غِبتِ عنْ ناظري   مَشيْتُ منَ الصُّبحِ في حِندسِ
وأنَّ الظّلامَ عَلَى هَولِهِ   إذا جئتِ حالَ الى مُشمِسِ
وفي الصَّدرِ قلباً ولا كالقلوبِ   متى شِئتِ يَسعَدِ أوْ يَتعسِ
وَدِدتُ الإفاضةَ قبلَ اللقاء   فلَمَّا لَقيتُكِ لم أنبسِ
وَبتُّ وإيّاكِ في مَعزلٍ   كأنّي وإيّاكِ في مَجلسِ
ولو أنَّ ما بيَ بالطَّودِ دُكَّ   وبالأسدِ الوَرْدِ لم يَفرِسِ
هَمَمْتُ فأنكرني مِقْوَلي   وشاء الغرامُ فلم أهجِسِ
كأنّيَ لستُ أميرَ الكلامِ   ولا صاحبَ المنطقِ الأنفسِ
جلالُكِ ، والليلُ في صمتِهِ   فلا غروَ أنْ رُحتُ كالأخرسِ

. . .

وَمَرَّتْ بِنَا سَاعَةٌ خِلْتُنَا   خَلَعْنَا الجُسُومَ عنِ الأَنْفُسِ

وأَنَّا مِنَ الرَّوضِ في جَنَّةٍ   وأَنَّا مِنَ العُشْبِ في سُنْدُسِ

كَذَاكَ الهَوَى فِعْلُهُ في النُّفُوسِ   كَفِعْلِ المُدَامَةِ في الأَرْؤُسِ

تَنَبَّهَ فِينا وفِيَّ الهَوَى   فَلَوْ نَعِسَ النَّجْمُ لَمْ نَنْعَسِ

وكلُّ فُؤَادٍ شَدِيدُ الغَرَامِ   إذَا رِضْتَهُ بالهَوَى يَسْلَسِ

فَمَالَتْ فَطَوَّقَهَا سَاعِدِي   مُنَعَّمَةً بَضَّةَ المَلْمَسِ

وإنَّ العَفَافَ لَفِي بُرْدِهَا   وإنَّ الإِباءَ لَفِي مِعْطَسِ

وقلتُ وكَفِّيَ في كَفِّهَا   أَلا صَرِّحِي لِيَ أو فَاهْمِسِي

بَلاءٌ هُوَ الحُبُّ أَم نِعمَةٌ   أَجابَتْ : تَجَلَّدْ ولا تَيْأَسِ

•

الحاجة الى الخرس

مَـا كانَ أَحوَجَني يوماً إلى أُذُنٍ   صَمَّاءَ إلَّا عَنِ المَحْبُوبِ ذي الأُنُسِ

كَي لا يُصَدِّعَ رَأْسِي صَوتُ نائحةٍ   ولا تُقَطِّعَ قَلبي أَنَّـةُ التَّعِسِ

ولا يُبَرِّزَ نَفسي الأَدعِيَاءُ ولا   ذَمُّ الأَفَاضِلِ مِن ذي خِسَّةٍ شَرِسِ

أَقولُ هذا عَسَى حُرٌّ يَقولُ مَعي   مَا كانَ أَحوجَ بَعضَ النَّاسِ للخَرَسِ



سبيل التوحيد

مَـا كانَ أحوجَ سوريًا إلى بَطَلٍ
يَرُدُّ بالسَّيف عَنْهَا كلَّ مُفترسِ
ولَا يَزالُ بهـا والسَّيفُ في يَدِهِ
حَتَّى يُطَهِّرَهَا مِن كلِّ ذي دَنَسِ
ويَجعَلُ الحبَّ دينَ القَاطِنِينَ بهـا
دينٌ يُقَرِّبُ بَينَ «البيتِ» والقُدُسِ
حَتى أرى ضَاربَ النَّاقوس يُطربُهُ
صَوتُ الأذينِ، وَهذا رَنَّةُ الجَرَسِ

لو أستطيع

لو أستطيعُ سكبتُ رو	حي خمـرةً في كأسها
حتى إذا حالَ النوى	بيني وبين كِناسها
وتجاهلتْ أو أنكرتْ	أمري لدى جلاَّسها
أطللتُ مِنْ أجفانهـا	وجريتُ مَعْ أنفاسها !



الاشباح الثلاثة

راودني النومُ وما برحا — حتى طأطأتُ له راسي
أطبقتُ جفونيَ فانفتحا — باب الرؤيا والوسواسِ
أبصرتُ كأنيَ في موضعْ — ما فيه غيرُ الأرواحِ
فوقفتُ بعيداً أتطلّعْ — فلمحتُ ثلاثةَ أشباحِ
ولدٌ يتهادى في العشرِ — وفتًى في بُرْدِ العشرينا
والثالثُ شيخٌ في طمرِ — ذو جسمٍ يحكي العُرجونا[1]
وإذا بالأوّلِ يقتربُ — مني كالطائرِ في الوثْبِ
فشعرتُ كأنيَ أضطربُ — وكأنَّ خطاهُ على قلبي
يا نفسي ما هذا الفَرَقُ ؟ — لا رمحٌ معه ولا نَبلُ
ولمـاذا الخشيةُ والقلقُ — والخَلْقُ أحبهمُ الطِفلُ
وإذا بالطفلِ يخاطبني — بكلامٍ لا يتكلّفهُ
ويمازحني ، ويداعبني ، — فكأنيَ شخصٌ يعرفهُ

(1) العُرجون : أصل العِذْق الذي يعوج ويبقى على النخل يابساً

« ما بالكَ منكمشاً كذا ؟ — قُمْ تلعبْ في فيءِ الشجَرِ
ونهزُّ الأغصنَ والعُمُدا — ونذودُ الطيرَ عن الثمَرِ
أو نصنعُ خيلاً من قَصَبِ — أو طيّاراتٍ من وَرَقِ
ومُدًى وسيوفاً من خَشَبِ — ونجولُ ونركضُ في الطُرُقِ
أو نأتي بالفحمِ القاتِمْ — ونصوّرُ فوقَ الأبوابِ
تنّيناً في بحرٍ عــائِمْ — أو ليثاً يخطرُ في غابِ
أو كلباً يعدو ، أو جَمَلا — يرعى ، أو نهراً ، أو هضبة
أو ديكاً ينقدُ ، أو رَجُلا — يمشي ، أو مهراً ، أو عربة
أو نجبلُ مــاءً وترابا — ونشيدُ بيوتاً وقبابا
أو نجعلُ منهُ أنصابا — أو نصنعُ حلوى وكبابا »
مثّلتُ الطفلَ ودنياهُ — فأحبّتْ نفسي دنيــاهُ
ووددتُ لو أنيَ إيّاهُ — بَلْ خلتُ كأنيَ إيّاهُ
فضحكتُ ولجّ بيَ الضحكُ — حتى استلقيتُ على ظهري
فاستيقظَ في الوَلَدِ الشكُّ — فتوقفَ يعجبُ من أمري
ويقولُ : أيا هذا قَدْكا — فوحقِّكَ ذا الطيشُ الأكبرْ
ما تضحكُ مني بل منكا — إيّاكَ أنا لو تتذكّرْ !

وتوارى عني واحتجبا   كالموجةِ في عرضِ النهرِ
فتضايقَ قلبي واضطربا   وارتجّتْ روحي في صدري

٢

وإذا الشبحُ الثاني أقبلْ   يترنّحُ مثلَ المخمورِ
ألليلُ على الدنيا مُسدَلْ   وعليهِ وشاحٌ من نورِ
معصوبُ المقلةِ والدربُ   وعرٌ وكثيرُ الآفاتِ
كسَفينٍ ليسَ لها ربُّ   تجري في بحرِ الظلماتِ
ماذا في الأُفقِ؟ فقد وقفا   يتـأملُ فيه ويبتسمُ
هل لاحَ له وجهٌ عرَفا   أم هزَّ جوارحهُ نغمُ؟
أم أبصر آلهــةَ الحبِ   تدعوهُ إليهــا إيماءْ
لا شيءَ في الأُفقِ الرحبِ   وكأنَّ هنالكَ أشياءْ
ألطيرُ تغني للزّهرِ   ويظنُّ الطيرَ تساجلُهُ
والزهرُ ترحّبُ بالفجرِ   ويظنُّ الزهرَ تغـازلُهُ
ونظرتُ إليه في البـرّ   يتمنى لوْ خاضَ البحرا
ونظرتُ إليه في البحرِ   يتمنى لو بَلَغَ البرّا
يتأفّفُ من بطءِ الدهرِ   والدهرُ يسيرُ به وثْبا
وينامُ ليحلـمَ بالفجرِ   والفجرُ يضيءُ له الدربا

ويسائِلُ عن كأسِ الخمرِ   ويسائلهُ عنهــا الناسُ
في الليلِ، وفي وضحِ الفجرِ   والخمرةُ فيه والكأسُ
فصبرتُ ولازمتُ الصمتا   حتى دانى الظلُّ الظلَّ
فأشرتُ إليهِ: من أنتا؟   فأجابَ: أنا ذاكَ الطفلُ
ومضى كالظلّ إذا انتقلا   وأنا أرجو لو لم يمضِ
فأعدتُ لنفسي ما ارتجلا   فتعجّبَ بعضي من بعضي

٣

ألشمسُ تزولُ عن الأُفقِ   كالروحِ المحتضرِ الساجي
غمرتْها أمواجُ الغسَقِ   فتوارتْ خلفَ الأمواجِ
والغيمُ الأسودُ يحتشدُ   طبقاً في الجوّ على طبَقِ
والليلُ يطولُ ويطّرِدُ   والأرضُ كسارٍ في نَفَقِ
وإذا شيخٌ في صحراءْ   كالزورقِ في عرضِ البحرِ
أعياهُ الصلحُ مع المــاءْ   وأضاعَ الدربَ إلى البرِّ
يمشي في الأرضِ على مَهَلٍ   وعلى حذرٍ، لكنْ يمشي
كالشاةِ تُساقُ إلى القتلِ   بعصا جبّارٍ ذي بطشِ
يا شيخُ.. لماذا لا تقفُ؟   دميتْ رجلاكَ من الركضِ
فأجابَ بصوتٍ يرتجفُ   ألأرضُ تسيرُ على الأرضِ!

يا شيخُ . . . ويداً فالبدرُ سيضيءُ الدربَ فتستهدي
فأجابَ : ويتلوهُ الفجرُ لكنْ سيضيءُ لمن بَعْدي

أبلهُ لغصنٍ منكسرٍ عرّتهُ الريحُ من الوَرَقِ
أن يبصرَ في ضوءِ القمرِ ما كانَ عليه على الطرُقِ ؟

ما لذّةُ مَيْتٍ في الرمسِ بالزّهرِ الفوّاحِ العطرِ
نورٌ لا يشرقُ في النفسِ كغِنَاءٍ في أذُنِ الحجرِ

ما استخفَتْ عني الأفلاكُ والشهبُ، بل استخفى حبّي
لم تملأْ دربي الأشواكُ إنّ الأشواكَ لفي قلبي

يا شيخُ : شجاني ما قلتا وزرعتَ بنفسي آلامَكْ
من أنتَ ؟ أجابَ : أنا أنتا أنا ذاتُكَ تمشي قدّامَكْ

. . .

كم أبحثُ بينَ الأجرامِ عني وأنقّبُ في الأرضِ
أحلامي تطمرُ أحلامي بعضي مدفونٌ في بعضي

لم أبصرْ ذاتي بالأمسِ في لوحِ زجاجٍ أو ماءِ
بل لاحتْ نفسي في نفسي فهي المرئيّةُ والرائي

يا نفس

يا نفسُ لو كنتِ ترينَ الشؤونْ كما يراهـا سائرُ الناسِ
لما رماني بعضهم بالجنونْ ولم أجدْ في الناسِ من باسِ

. . .

بالأمسِ مرّ الموكبُ الأكبرْ فيهِ الفتى الراكبُ والناعلْ
وأقبلتْ غيدُ الحمى تخطرْ يهتفنَ : عـادَ البطلُ الباسلْ
مـا لَكِ يا هذهِ لا تهتفينْ لصاحبِ الدولةِ والباسِ ؟
فقلتِ لي ضاحكةً تسخرينْ : ويلكَ ! هذا قاتلُ الناسِ !

. . .

ومجلسٍ دارتْ بهِ الأكؤسُ فشربَ القومُ ولم تشربي
وامتلأتْ بالطربِ الأنفسُ وأنتِ في صمتكِ لم تطربي
كأنّما غيّبكِ الحِندسُ أو تاهت اللذّاتُ في سَبسبِ
ما لَكِ يا هذهِ لا تضحكينْ للحَبَبِ الضاحكِ في الكاسِ ؟
قالتْ : نهاني أنّ موجَ السنينْ سيغمرُ الأقداحَ والحاسي !

وسرتِ في الروضةِ شاعَ الجمالْ — فيها ، وشاعَ الحبُّ بينَ الطيورْ
ألطلُّ فيها كدموعِ الدلالْ — والشوكُ فيها كحديثِ الغرورْ
مشيتِ في أرجائها كالخيالْ — يطوفُ في الظلماءِ بينَ القبورْ
كأنّما لا وردَ في الياسمينْ — كأنّمــا لا عطرَ في الآسِ
ويحكِ ! لا في عزلتي تطربينْ — ولا إذا كنتُ معَ الناسِ

...

كانَ زمانٌ كنتِ تستأنسينْ — بكلِّ وهمٍ خادعٍ كالسرابْ
حتى إذا أسفرَ وجهُ اليقينْ — رأيتهِ كالوهمِ شيئاً كُذابْ
دنيا الورى ليلٌ وصبحٌ مبينْ — وليسَ في دنياكِ إلّا الضبابْ
ما لاحتِ الأشجارُ للناظرينْ — إلّا رأيتِ شبحَ الفــاسِ !
ولا سمعتِ الكأسَ ذاتِ الرنينْ — إلا سمعتِ حطمةَ الكاسِ !

...

مسختِ في عينيَّ لونَ النهارْ — لمّــا لمحتِ الليلَ بالمرصدِ
وماتَ في أذنيَّ لحنُ الهزارْ — لمّــا سبقتِ الصمتَ للمنشدِ
فررتِ باللذّاتِ قبلَ الفرارْ — فضاعَ يومي حائراً في غدي
خالفتِ مقياسَ الورى أجمعينْ — فكيفَ يرضونَ بمقياسي ؟
ما برحَ الناسُ كما تعلمينْ — ولم أزلْ فرداً منَ الناسِ

لم يبق غير الكاس

لم يبقَ ما يُسليكَ غيرُ الكاسِ — فاشربْ ، ودعْ للناسِ ما للناسِ !
ذهبَ الشبابُ على الشجونِ تبثُّها — لأخٍ مؤاسٍ أو لغيرِ مؤاسِ
وعلى الحياةِ تحارُ في أطوارِها — وتحارُ في تعليلِ كلِّ نطاسي
ثم استفقتَ وليسَ في روضِ المنى — إلّا الضبابُ وغيرُ شوكِ الياسِ
وجراحُ نفسٍ ينظرُ الآسي لها — فيعودُ محتاجاً لآخرَ آسِ
ألحسُّ مجلبةُ الكآبةِ والأسى — قمْ نَنطلقْ من عالمِ الإحساسِ
وأرى السعادةَ لا وصولَ لعرشِها — إلّا بأجنحةٍ من الوسواسِ
فكأنّما هي صورةٌ زيتيّةٌ — للشطِّ فيه مراكبٌ ومراسي
تبدو لعينيكَ السفائنُ عوّماً — وتكادُ تسمعُ رعشةَ الأمراسِ
لكن إذا أدنيتها ولمستها — لم تلقَ غيرَ الصبغِ والقرطاسِ
دنيا مزيّفةٌ ودهرٌ ماذقٌ — ما في انفلاتِكَ منهما من باسِ
إنَّ اللذاذاتِ التي ضيّعتَها — رجعتْ إليكَ عصارةً في الكاسِ
فاصبغْ رؤاكَ بها تَعُدْ ذهبيّةً — عطريّةَ الألوانِ والأنفاسِ
واخلُقْ لنفسِكَ بالمُدامةِ جنّةً — في الأربعِ المهجورةِ الأدراسِ

الحبُّ فيها بلبلٌ وخميلةٌ … وندًى وأضواءٌ على الأغراسِ
للقصرِ يخلقهُ خيالكَ روعةٌ … كالقصرِ من جُذرٍ ومن آساسِ

. . .

يا أيها الساقي أدرْ كاساتِها … كمشاعلِ الرهبانِ في الأغلاسِ
وانسَ الهمومَ فليس يسعدُ ذاكرٌ … واسقِ النجومَ فإنها جلاّسي
واصرعْ بها عقلَ النديمِ ولبّهُ … ما نغّصَ الحاسي كعقلِ الحاسي
واهجرْ أحاديثَ السياسةِ والأُلى … يتعلّقونَ بحبلِ كلِّ سياسي
إني نبذتُ ثمارَها مذ ذقتُها … ووجدتُ طعمَ الغدرِ في أضراسي
وغسلتُ منها راحتي فغسلتُها … من سائرِ الأوضارِ والأدناسِ
وتركتُها لاثنينِ: غِرٌّ ساذجٌ … ومشعوذٍ كذَبْذبٍ دسّاسِ
يرضى لموطنِهِ يصيرُ مُواطِناً … وتصيرُ أمّتهُ إلى أجناسِ
ويبيعها بدراهمٍ معدودةٍ … ولو انها جاءتْ من الخنّاسِ
ما للمنافقِ من ضميرٍ رادعٍ … أيُّ الضميرِ لِحيّةِ الأجراسِ؟

. . .

ولربَّ قائلةٍ تعاتبُني على … صمتي وبعضُ القولِ حزٌّ مواسي:
إثنانِ ما لاقيتُ أقسى منهما … صمتُ الدجى والشاعرِ الحسّاسِ
فأجبتُها: أقسى وأهولُ منهما … في مِسمعي هذا العتابِ القاسي

لم تعلمي، والخيرُ أنْ لا تعلمي، … كم في السكوتِ فواجعاً ومآسي
قالت: أظنكَ قد نسيتَ. فقلتُ: لا … ما كنتُ بالناسي ولا المتناسي
لكنَّ جرحاً كلّما عالجتهُ … غمرَ القنوطَ جوارحي وحواسي
ولو انه في الرأسِ كنتُ ضمدتُهُ … لكنّهُ في القلبِ لا في الراسِ
إنَّ الأُلى قد كنتُ أرمي دونهم … غلّوا يديَّ وحطّموا أقواسي
واستبدلوا سيفي الجرازَ بأسيفٍ … خشبٍ وباعوا عسجدي بنحاسِ
والطلُّ غيرُ الماسِ، إلا أنهم … خُدعوا برقرقةِ الندى عن ماسي
وإذا حسبتَ الروضَ تُغني صورةٌ … عنهُ فذلكَ مُنتهى الإفلاسِ
أسدُ الرُّخامِ وإن حكى في شكلهِ … شكلَ الغضنفرِ ليس بالفرّاسِ

. . .

قد كانَ لي حُلمٌ جميلٌ مُونقٌ … فأضعتُهُ لمّا أضعتُ نعاسي
فكّرتُ في ما نحنُ فيه كأمّةٍ … وضربتُ أخماسي إلى أسداسي
فرجعتُ أخيبَ ما يكونُ مؤمّلٌ … راجٍ وأخسرَ ما يكونُ الحاسي
نرجو الخلاصَ بغاشمٍ من غاشمٍ … لا يُنقذُ النخّاسَ من نخّاسِ
ونقيسُ ما بينَ الثريّا والثرى … وأمورنا تجري بغيرِ قياسِ
نغشى بلادَ الناسِ في طلبِ العلى … وبلادنا متروكةٌ للناسِ
نكادُ نفترشُ الثرى وبأرضنا … للأجنبيِّ موائدٌ وكراسي

ونلومُ هاجرَها على نسيانِهِ   واللائمُ الناسينَ أوّلُ ناسي
ونبيتُ نفخرُ بالصوارمِ والقنا   ورقابُنا ممدودةٌ للفاسِ
كم صيحةٍ للدهرِ في آذاننا   مرّتْ كما مرّتْ على أرماسِ

. . .

تُغنيكَ أوجههمْ وحسنُ خلاقهمْ   عن كلِّ وردٍ في الرياضِ وآسِ
أنا بينهم أسدٌ وجدتُ عرينتي   أنا بينهمْ ظبيٌ وجدتُ كِناسي
وطني أحبُّ إليَّ من كلِّ الدُّنى   وأعزُّ ناسٍ في البريةِ ناسي
فلتحيَ سوريا التي نحيا لها   وليحيَ لبنانُ الأشمِّ الراسِ

•

الخمر والدنيا

يشربُ بنتَ الكرمِ بعضُ الناسِ   لكربةٍ في النفسِ أو وسواسِ
وبعضهمْ لأنــهُ قد ظفِرا   وبعضهمْ لأنــهُ قد خَسِرا
وبعضهمْ لأنــهُ في فَرَحِ   وبعضهمْ لأنــهُ في ترحِ
وبعضهمْ كي يستردَّ الأمسا   وبعضهمْ يجرعها كي ينسى
وبعضهمْ ليستفيدَ قوّهْ   وبعضهمْ لسورةِ الفتوّهْ
وبعضهمْ كيما يحلُّ مشكلهْ   وبعضهمْ لأنهُ لا شغلَ لهْ
وبعضهمْ عن رغبةٍ وعن هوَى   وبعضهمْ لعلّهُ يَرضي السوَى
وبعضهمْ من حبِّهِ للبائعِ   وبعضهمْ نكايةً للمانعِ
وبعضهمْ يشربهـا أحيانا   وبعضهمْ في أيِّ وقتٍ كانا
وبعضهمْ مع صَحْبِهِ في الدارِ   وبعضهمْ في حـانةِ الخمّارِ
وبعضهمْ مع زمرةِ الندمانِ   وبعضهمْ في وحدةِ الرهبانِ
وبعضهمْ في الصيفِ ذي الرمضاءِ   وبعضهمْ في زمنِ الشتاءِ

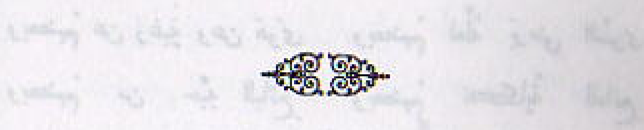
وبعضهمْ عندَ انجيابِ الظلمةْ   وبعضهمْ عندَ طلوعِ النجمةْ

وبعضهمْ يذمُّهـــا استهجانا   وبعضهمْ يمدحُها استحسانا

لكنّهمْ كلّهمْ يحسوها   ألمادحوهـــا والمقبِّحوها

فما وجدتُ في زماني رَجُلا   وقلتُ : هل تحبُّها؟ فقال : لا

وسرُّ هذا أنهـــا كالدنيا   تؤذي ولكن مع أذاها تُهوى



ضيف ثقيل

أقصُّ عليكمْ ما جَرَى لي بالأمسِ   فلي قَصَصٌ تجلو الهمومَ عن النَّفْسِ

إذا قلتُ قالَ الدهرُ أحسنتَ يا فتى   ولو كانَ ذا حسٍ لَغَابَ عَنِ الحِسِّ

فدونكمُ هذا الحديثُ فـــإنّهُ   ألذُّ وأشهى مِنْ مُعاقرةِ الكأسِ

جلستُ إلى طِرْسي وقد عَسْعَسَ الدُّجى

أسطِّرُ مـــا توحيهِ نفسيَ في طِرْسي

وليسَ سوى نورِ ضئيلٍ بجانبي   يلوحُ ويَخفى كالرَّجاءِ لدى اليأسِ

وكالنَّقْعِ في جَوْفِ الدواةِ أو الدُّجى

وكالهِنْدَواني بَيْنَ أنمـــليَ الخَمْسِ

فصاحةُ قسٍ أودعتْ في لسانِهِ   وحكمةُ لقمانَ، ويُحْسَبَ في الخُرْسِ

ضعيفُ الخطى، بادي النحولِ كأنما   يُشدُّ إلى قيْدٍ، يُشَدُّ إلى حَبْسِ

أقلّبهُ فوقَ الطروسِ وإنمـــا   أقلّبُ فوقَ الطِرْسِ سعديَ أو نحسي

فنبَّهني طَرْقٌ على بابِ غُرفتي   وصَوْتٌ ضعيفٌ وهو أقربُ للهَمْسِ

نهضتُ، ولـحنٌ مثلما يَنهضُ الذي   بِهِ نشوةٌ ، أو من يَفيقُ من المَسّ

ولمّــا فتحتُ البابَ أبصرتُ راهباً
ولو كنتُ طفلاً قلتُ غولٌ من الإنسِ

فأزعجني مَرْآهُ حتى كأنما
رسولُ الرّدى قد جاء يَنعى ليَ نفسي

فقلتُ وَقاني اللهُ شرّكَ مــا الذي
أتى بِكَ ، يامشؤومُ ، في ساعةِ الأُنسِ

أجابَ كُفيتَ السوء جِئتُكَ طالباً   مَديحَكَ لي بَيْنَ الأعاربِ والفُرْسِ

فقلتُ وحقّ الشِعْرِ مَدْحُكَ واجبٌ   ومثلي يَقْضيهِ على العَيْنِ والرأسِ

خَبِرتُ بني الدنيا وفتّشتُ فيهمُ   فلَمْ تَرَ عَيْنيَ قطُّ أثقلَ من قَسّ

ذكرى وعبرة

عاطيتُها في الكأسِ مثلَ رُضابِها   تسري إلى قلبِ الجبانِ فيشجعُ
يطفو الحبابُ على أديمِ كؤوسِها   فكأنّ تبراً باللُّجَيْنِ يرصّعُ
وكأنما تلكَ الكؤوسُ نواظرٌ   تبكي ، وهاتيكَ الفواقعُ أدمعُ
مشمولةٌ تُغري بصُفْرتِها البخيـ   ـلَ بها فَيَطْمَعُ بالنُّضارِ وتطمعُ
شمطاءُ إلّا أنهــا محجوبةٌ ،   عَذراءُ إلّا أنهــا لا تُمنعُ
ما زلتُ أسقيها إلى أنْ أخضعتْ   منها فؤاداً للهوى لا يخضعُ
فَعَلَتْ بها مثلُ الذي فَعَلَتْ بنا   ألحاظُها ، إنّ اللّحاظ لَتَصْرَعُ
لمّا انتشتْ ومضى الحَفاءُ لشأنِهِ   باحتْ إليَّ بما تُكِنُّ الأضلعُ
بَرِحَ الحَياءُ وأعلنتْ أسرارَها   إنّ الحياءَ لكلِّ خَوْدٍ بُرْقُعُ
فَعَلِمتُ أني قد خُدِعتُ بحبِّها   زَمَناً ، وكنتُ أظنّني لا أُخدَعُ
ما كنتُ أعلمُ قبلَ أنْ أسكرتُها   أنّ الفؤادَ بحُبِّ غيريَ مُولَعُ
فتركتُها تَشْوى تُغالِبُ أمرَها   والأمرُ بعدَ وقوعِهِ لا يُدْفَعُ
ورَجَعْتُ عنها واثقاً من أنَّ ما   قد كانَ مِنْ حبّي لها لا يَرْجِعُ
لبكيتُ لو أن البكاءَ أفادَني   وندمتُ لو أنّ الندامةَ تَنفَعُ

من أنا

أنا . من أنا يا تُرى في الوجودِ ؟ … وما هُوَ شأني ، وما موضعي ؟
أنا قطرةٌ لَمَعَتْ في الضحى … قليلاً على ضِفَّةِ المشرَعِ
سيأتي عليهـا المساء فتغدو … كأنْ لم تَرَقرَقْ ولم تلمعِ
أنا نغمةٌ وقّعتها الحيـاةُ … لمنْ قد يَعي ولمنْ لا يعي
سيمشي عليها السكوتُ فتُمسي … كأنْ لم تمرّ على مِسمعِ
أنا شبحٌ راكضٌ مسرعٌ … مع الزمنِ الراكضِ المسرعِ
سيُرخى عليه الستارُ ويَخفى … كأنْ لم يجدّ ولم يهطعِ
أنا موجةٌ دفعتها الحيـاةُ … إلى أوسعٍ فـإلى أوسعِ
ستنحلُّ في الشطِّ عمّا قليلٍ … كأنْ لم تَدفّعْ ولم تُدفعِ
فيا قلبُ لا تغترِرْ بالشبابِ ، … ويا نفسُ بالخلدِ لا تطمعي
فإنَّ الكهولةَ تمضي كما … تولّى الشبابُ ولم يرجعِ
ولكنّ فيها جمـالاً بديعاً … وفيها حنينٌ إلى الأبدعِ
ومن لا يَرى الحسنَ في ما يراهُ … فما هو بالرجلِ الألمعي
بَني وَطَني من أنا في الوجودِ … وما هو شأني وما موضعي ؟

أنا أنتمُ إنْ ضحكتمْ لأمرٍ … ضحكتُ ، وأدمعكمْ أدمعي
وتَطربُ أرواحَكُمْ مطربي … وتُوجعُ أكبادَكمْ موجعي
أمَا نحنُ مِنْ مصدرٍ واحدٍ ؟ … ألسنا جميعاً إلى مرجعِ ؟
رفعتمْ مُقـامي وأعليتموهُ … لمـا قد صنعتُ ولم أصنعِ
أحقٌّ بإكرامكمْ طائرٌ … يُغرّدُ في الرّوضِ والبلقعِ
وأولى بـهِ كوكبٌ طالعٌ … على سُهّدٍ وعلى هُجّـعِ
أنا واحدٌ منكمُ ، يا نجوم … بلادي ، متى تسطعوا أسطعِ
فمَنْ قـامَ يمدُحني بينكمْ … فقد تُمدَحُ الكفُّ بالإصبعِ
وما الغيثُ غيرُ الخضمِّ ، وليسَ … الغديرُ سوى السُحْبِ الهُمّعِ
فلولاكمُ لم أكنْ بالخطيبِ … ولا الشاعرِ الساحرِ المبدعِ
أنا الآنَ في سكرةٍ لا أعي … فيـا لَيتَني دائماً لا أعي
فذي ليلةٌ بجميعِ الزمانِ … إذا كانَ في الدهرِ من أجمعِ
فيا أيُّهـا الليلُ باللهِ قِفْ ، … ويا أيُّهـا الصبحُ لا تطلعِ
إذا كنتُ قد بِنْتُ عن مربعي … فـإنّي وجدتُ بِكمْ مربعي
يميناً سأحملُ في أضلعي … هواكمْ مـا بقيَتْ أضلعي
وأشكرُكمْ بلسانِ النسائمِ … والروضِ والجدولِ المُترَعِ
فلا عذرَ للطيرِ إمّـا رأى … جمالَ الربيعِ ولم يسجعِ
إذا لم أكنْ معَكمْ في غدٍ … فـإنّي سأمضي وأنتمْ معي

لو

لو أنني، يا هندُ، بدرَ السما   نزلتُ من أفقي إلى مُخدعِكْ

وصرتُ عقداً لكِ أو خاتماً   في جيدكِ الناصعِ أو إصبعِكْ

أو بلبلَ الروضِ، ما لذّ لي   الانشادُ إنْ لم يكُنْ في مسمعِكْ

ولو أكونُ الأرَجَ الذاكي

لما هجرتُ الروضَ لولاكِ

وما حواني غيرُ مغناكِ

ولم أفحْ حتى تكوني معي

•

فيكِ وفي الوردةِ سرُّ الصبا   وفي الصبا سرُّ الهوى والجمالْ

فــإنْ ترَيْني واجماً باهتاً   حيالها أخشى عليها الزوالْ

فإنني شاهدتُ طيفَ الردى   ينسلُّ كالسارقِ بينَ الظلالْ

ولاحَ لي في الورَقِ النامي

منطرحاً في الأرضِ قدّامي

أشباحُ آمالي وأحلامي

أحلامُ مَنْ؟ أحلامُ مضناكِ

ليتهم عرفوه!

رثى بها صديقه يعقوب روفائيل
صاحب مجلة الأخلاق.

يا نفسُ قد ذَهبَ الرفيقُ الألمعي   فتجلّدي لفراقِهِ أو فاجزعي

هذي النهايةُ، لا نهايةَ غيرَها،   للحيِّ إنْ يُسرِعْ وإنْ لم يُسرِعِ

للموتِ مَنْ مَلَكَ البسيطةَ كلَّها   أو حازَ مِنْ دُنياهُ بضعةَ أذرعِ

فازرعْ طريقَكَ بالورودِ وبالسنا   لا يحصدُ الإنسانُ إنْ لم يزرعِ

واعملْ لكي تمضي وتبقى رقةً   في مَبْسِمٍ، أو نغمةً في مِسمعِ

أو صورةً مثلَ الربيعِ جميلةً   في خاطرٍ أو ناظرٍ مُستمتعِ

***

يا صحبَ يعقوبٍ، ويا عشراءَهُ   مَنْ مِنكُمُو أبكي ولا يَبكي معي

إنّا تَساوَيْنا فَبَيْنَ ضُلوعِكُم   نارٌ وَمِثلُ سَعيرِها في أضلُعِي

***

لُبنانُ، هذا مِنْ رِياضِكَ زَهرةٌ   ذَهبتْ كأنْ في الأرضِ لم تتضوّعِ

لُبنانُ هذا مِنْ سَمائِكَ كَوكَبٌ   غرّبتَهُ حتى انطوى في بَلقَعِ

لُبنانُ هذا مِن مُروجِكَ قِطعةٌ ... فيهِ بَشاشَةُ كُلِّ مَرجٍ مُمرِعِ
قُلْ لِلبنفسجِ في سُفوحِكَ والرُّبى ... وَلْي شَبيهُكَ في الوَداعَةِ فاخْشَعِ
وأْمُرْ طُيورَكَ أن تَنوحَ على فَتى ... قد كانَ يَهواها وإنْ لَم تَسْجَعِ
قَد عاشَ مِثلَكَ لِلمُروءةِ والعُلى ... مُتعفِّفاً كالزاهِدِ المتورِّعِ
مُترفِّعاً في قَولِهِ وفِعالِهِ ... عَمّن غَوى وهَوى ولَم يَترفَّعِ
كَم حَرَّضتْهُ النفسُ في نَزواتِها ... لِيكونَ صاحِبَ حيلَةٍ أو مَطمَعِ
فأجابها: يا نَفسُ لا تتورَّطي ... صَدأُ النفوسِ هِيَ المطامِعُ فاقنَعي
لَيسَ المحارِبُ في الوَغى بِأشدَّ بأ ... ساً مِن مُحارِبِ نَفسِهِ أو أشجَعِ

***

يا صاحبي أضنيتَ جسمَكَ فاسترِحْ
وأطلتَ، يا يعقوبُ، سُهدَكَ فاهجَعِ

حدّثتَ قومَكَ حقبةً فتسمَّعوا ... والآنَ دورُ حديثِهِمْ فتسمَّعِ
هجروا الكلامَ إلى الدموعِ لأنَّهُمْ ... وجدوا البلاغةَ كلَّها في الأدمُعِ
كيفَ التفتُّ وسرتُ لا ألقى سوى ... مُتوجِّعٍ يشكو إلى متوجِّعِ
حتى الأُلى نفثوا عليكَ سمومَهُمْ ... حزَّ الأسى أكبادَهُمْ كالمبضَعِ
عرفوا مكانَكَ بَعدَ ما فارقتَهُمْ ... يا ليتَهُمْ عرفوهُ قبلَ المصرَعِ
ولكَمْ تمنَّوا لو تعودَ إليهِمُ ... أنتَ الشبابُ إذا مضى لم يرجِعِ

حنّوا إلى أرَجِ الأزاهِرِ بعدما ... عَبثَتْ بها أيدي الرياحِ الأربعِ
واستعذبوا الماءَ المسلسلَ بعدما ... نَضَبَ الغديرُ وجفَّ ماءُ المشرعِ
يا لوعةَ الأحبابِ حينَ تساءلوا ... عنهُ وعادوا بالجوابِ الموجِعِ
إنَّ الذي قد كانَ مَعْكُمْ قد مضى ... من موضعٍ أدنى لأرفعِ موضعِ
من عــالمٍ متكلِّفٍ متصنِّعٍ ... تشقى نفوسٌ فيهِ لم تتصنَّعِ
للعالمِ الأسمى الطهورُ، ومن بجا ... ورةِ الأنامِ إلى جِوارِ المُبدِعِ

لُبنانُ هذا مِن مُروجِكَ قِطعةٌ   فيهِ بَشاشَةُ كُلِّ مَرجٍ مُمرِعِ

قُلْ لِلبَنفسجِ في سُفوحِكَ والرُّبى   وَلْي شَبيهُكَ في الوَداعَةِ فاخْشَعِ

وأْمُرْ طُيورَكَ أن تَنوحَ على فَتًى   قَد كانَ يَهواها وإنْ لَمْ تَسْجَعِ

قَد عاشَ مِثْلَكَ لِلمُروءةِ والعُلى   مُتعفِّفاً كالزاهِدِ المُتَورِّعِ

مُترفِّعاً في قَولِهِ وَفِعــالِهِ   عَمّن غَوى وَهَوى وَلَمْ يَترَفَّعِ

كَم حَرَّضَتْهُ النفسُ في نَزَواتِها   لِيكونَ صاحِبَ حيلةٍ أوْ مَطمَعِ

فأجابَها : يا نَفْسُ لا تَتَورَّطي   صَدأُ النفوسِ هِيَ المَطامِعُ فاقْنَعي

لَيسَ المُحارِبُ في الوَغى بِأشَدَّ بَأ   ساً مِن مُحارِبِ نَفسِهِ أو أشجَعِ

***

يا صاحِبي أضنَيتَ جِسمَكَ فاسْتَرِحْ

وأطلتَ ، يا يعقوبُ ، سُهدَكَ فاهْجَعِ

حدَّثتَ قومَكَ حقبةً فتسمَّعوا   والآنَ دورُ حديثِهِمْ فتَسَمَّعِ

هجروا الكلامَ إلى الدموعِ لأنَّهُمْ   وجدوا البلاغةَ كلَّها في الأدْمُعِ

كيفَ التفتُّ وسِرتُ لا ألقى سوى   مُتَوجِّعٍ يشكو إلى مُتوجِّعِ

حتى الأُلى نَفَثوا عليكَ سمومَهُمْ   حَزَّ الأسى أكبادَهُمْ كالمِبضَعِ

عرفوا مكانَكَ بَعْدَ ما فارقْتَهُمْ   يا ليتَهُمْ عرفوهُ قَبْلَ المَصرَعِ

ولكمْ تمنَّوا لو تعودَ إليهِمْ   أنتَ الشبابُ إذا مضى لم يرجِعِ

حَنّوا إلى أرَجِ الأزاهِرِ بعدما   عَبِثَتْ بها أيدي الرياحِ الأربعِ

واستعذبوا الماءَ المُسَلسَلَ بعدما   نَضَبَ الغديرُ وجفَّ ماءُ المَشْرعِ

يا لوعةَ الأحبابِ حينَ تساءلوا   عنهُ وعادوا بالجوابِ المُوجِعِ

إنّ الذي قد كانَ مَعْكُمْ قد مضى   مِن موضعٍ أدنى لأرفعِ موضعِ

من عــالَمٍ متكلِّفٍ متصنِّعٍ   تَشقى نفوسٌ فيهِ لم تَتَصنَّعِ

لِلعالَمِ الأسمى الطهورُ ، ومن نجا   وَرَدَ الأنامِ إلى جوارِ المُبدِعِ

ليالي بوسطن

إن أغِبْ، ياصحبُ، عن ذاكَ الحمى   لم أزلْ مَعْكُمْ كما أنتمْ معي
فإذا الأنجمُ شعَّتْ في السما   قلتُ هذي أنتمْ في مجمعِ
وإذا الشادي بلحنٍ رنَّما   خلتهُ أصواتكمْ في مسمعي

***

آهِ لو يُغني خيالُ عن عيانِ   كانَ كالمنهلِ رسمَ المنهلِ
ولَعاشَ المرءُ في دنيا الأماني .   يقطعُ الدنيا ولم ينتقلِ
وَسَلَونا عن مكانٍ بمكانِ   ولأغنى آخرٌ عن أولِ

***

ولنابتْ عن نجومٍ نيّراتْ   صُوَرٌ مطبوعــةٌ في الورقِ
واكتفينا بخريرِ الساقياتْ   في الدُّجى عن مائها المندفقِ

***

يا ليالي «بوسطنٍ، هلْ ترجعين   فأرى صَحْبي الكرامَ البررَهْ ؟

ويزولُ الهمُّ عن قلبي الحزينْ   بالوجوهِ المشرقاتِ النضِرَهْ
إنــه يسألني في كلِّ حينْ   أينَ تلكَ الجنّةُ المختصرَهْ ؟

***

ذهبتْ ، يا قلبُ، إلا ذكرياتْ   كبروقٍ ضحكتْ في الغسَقِ
تأنسُ العينُ بها في الظلماتْ   وهي تفنى في رحابِ الأفْقِ
يا ليالي بوسطنٍ ليتَ الحياةْ   عَدَلَتْ فينا فلم نفترقِ

•

العنقاء

أنا لستُ بالحسناء أولَ مولَعِ   هيَ مطمعُ الدنيا كما هي مطمعي
فاقصصْ عليَّ إذا عرفت حديثَها   واسكنْ إذا حدَّثتَ عنها واخشعِ
ألَمحْتها في صورةٍ ؟ أشهِدْتها   في حالةٍ ؟ أرأيتها في موضعٍ ؟
إني لذو نفسٍ تهيمُ وإنهـا   لجميلةٌ فوقَ الجمالِ الأبدعِ
ويزيدُ في شوقي إليهـا أنها   كالصَّوتِ لم يُسفرْ ولم يتقنَّعِ
فتَّشتُ جيبَ الفجرِ عنها والدُّجى   ومددتُ حتى للكواكبِ إصبعي
فـإذا هما متحيرانِ كلاهما   في عاشقٍ متحيرٍ متضعضعِ
وإذا النجومُ لِعِلْمِها أو جَهْلِها   مترجرجاتٌ في الفضاء الأوسعِ
رقصت أشعّتُها على سطحِ الدجى   وعلى رجاءٍ فيَّ غيرَ مشعشعِ

. . .

والبحرُ... كم سائلتُهُ فتضاحكتْ   أمواجُهُ من صوتيَ المتقطِّعِ
فرجعتُ مرتعشَ الخواطرِ والمُنى   كحمامةٍ محمولةٍ في زعزعِ
وكأنَّ أشباحَ الدهورِ تألبتْ   في الشطِّ تضحكُ كلُّها من مرجعي

. . .

ولكم دخلتُ إلى القصورِ مفتشاً   عنها، وعجتُ بدارساتِ الأربعِ
إنْ لاحَ طيفٌ قلتُ: يا عينُ انظري،   أو رنَّ صوتٌ قلتُ: يا أذنُ اسمعي
فإذا الذي في القصرِ مثلي حائرٌ   وإذا الذي في القفرِ مثلي لا يعي

. . .

قالوا: تورَّعْ، إنها محجوبةٌ   إلَّا عنِ المتزهِّدِ المتورِّعِ
فوأدتُ أفراحي وطلَّقتُ المنى   ونسختُ آياتِ الهوى من أضلعي
وحطمتُ أقداحي ولما أرتوِ   وعففتُ عن زادي ولما أشبعِ
وحسبتُني أدنو إليها مسرعاً   فوجدتُ أني قد دنوتُ لمصرعي
ما كان أجهلَ نُصَّحي وأضلَّني   لما أطعتهمُ ولم أتمنَّعِ
إني صرفتُ عن الطاعةِ والهوى   قلبي، ولا ظفرٌ لمنْ لم يطمعِ
فكأنني البستانُ جَرَّدَ نفسَهُ   من زهرِهِ المتنوِّعِ المتضوِّعِ
ليحسَّ نورَ الشمسِ في ذرّاتِهِ   ويقابلَ النسماتِ غيرَ مقنَّعِ
فمشى عليه من الخريفِ سُرادقٌ   كالليلِ خيَّمَ في المكانِ البلقعِ
وكأنني العصفورُ عرَّى جسمَهُ   من ريشِهِ المتناسقِ المتلمِّعِ
ليخفَّ محملُهُ، فخرَّ إلى الثرى   وسطا عليهِ النملُ غيرَ مروَّعِ

. . .

وهجعتُ أحسب أنها بنتَ الرؤى ... فصحوتُ أسخرُ بالنيامِ الهجّعِ

ليستْ حُبوراً كلها دنيا الكرى ... كم مؤلمٍ فيها بجانبِ مفزعِ

تخفي أمـــانيَّ الفتى كهمومهِ ... عنه، وتحجبُ ذاتهُ في برقعِ

ولربما التبستْ حوادثُ يومهِ ... بالغـــابرِ الماضي وبالمتوقَّعِ

يا حبّذا شططُ الخيالِ وإنمـــا ... تُمحى مشاهدهُ كأن لم تُطبعِ

لمـــا حلمتُ بها حلمتُ بزهرةٍ ... لا تُجتنى، وبنجمةٍ لم تطلعِ

ثم انتبهتُ فلم أجد في مخدعي ... إلا ضلالي والفراش ومخدعي

من كان يشربُ من جداولِ وهمهِ ... قَطَعَ الحياةَ بغلةٍ لم تُنقعِ

. . .

ذهبَ الربيعُ فلم تكنْ في الجدول الشادي، ولا الروضِ الأغنّ الممرعِ

وأتى الشتاءُ فلمْ تكنْ في غيمهِ ... الباكي، ولا في رعدهِ المتفجعِ

ولمحتُ وامضةَ البروقِ فخلتها ... فيها، فلم تكُ في البروقِ اللمّعِ

صفرتْ يدي منها وبي طيشُ الفتى ... وأضلّني عنها ذكاءُ الألمعي

حتى إذا نشرَ القنوطُ ضبابهُ ... فوقي، فغيّبني وغيّبَ موضعي

وتقطّعتْ أمراسُ آمالي بهـــا ... وهي التي من قبل لم تتقطّعِ

عَصَرَ الأسى روحي فسالتْ أدمعاً ... فلمحتها ولمستها في أدمعي

وعلمتُ حينَ العلمُ لا يجدي الفتى ... أنّ التي ضيّعتها كانت معي!

رسم سياسي

وقال يصف رسماً سياسياً رآه
في «جريدة النيل» الأسبوعية

رَسْمٌ تعلَّمَ منهُ ناظري الوَلَعَا ... كأنَّ طَرْفيَ قلبي فيه قدْ وُضِعَا

يُمثِّلُ البيضَ حولَ الصِّينِ قد وَقَفوا ... وذلكَ الدُّبُّ في (منشوريا) رَتَعَا

مشى بهِ نحوَها في نَفْسِهِ أملٌ ... وراحَ يمشي إلى ما بعدَها جَشِعَا

كالنّارِ تأكلُ أكلاً ما يُصادفُها ... والسيلُ يَجرفُ ما يَلقاهُ مندفِعَا

فقامَ (بالصُّفْرِ) داعٍ من حليفَتِهِمْ ... مليكةِ الهندِ أنْ هُبُّوا فقد طَمِعَا

قالتْ أحذركُمْ مَنْ يُخادِعُكُمْ ... فطالما خَدَعَ الإنسانُ فانخَدَعَا

إني مَحَضْتُكُمْ نُصْحَ الصَّديقِ عَسَى ... خيراً يُفيدكُمْ فالنُّصْحُ كم نَفَعَا

(٣٢)

وغيرُ مُنتفعٍ بالنصحِ غيرُ فتى
إذا تحدَّثَ ذو عقلٍ صَغى ووَعى

سارتْ إليهمْ فتاةٌ وانثنتْ وَجِلاً
ومـــا رأى أحدٌ هذا ولا سَمِعَا

حتّى إذا ما رأتْ منشوريا اختَنَقَتْ
بالقومِ ضِيقاً وَخرقُ الشَّرِّ مُتَّسِعَا

كادتْ تطيرُ سروراً بالنَّجاحِ وَقَدْ
كادتْ على الهندِ تقضي قبلَ ذا جزَعا

نُبِّئتُ أنَّ الوَغى في الصينِ دائرةٌ
فمـــا لها صادفَتْ في النيلِ مُرْتَبَعا ؟

•

تعالي

تعاليْ نتعاطاها كَلَوْنِ التبرِ أو أسطع
ونسقي النرجسَ الواشي بقايا الراحِ في الكاسِ
فلا يعرفُ مَنْ نحنُ ولا يُبصرُ ما نصنعْ
ولا ينقلُ عندَ الصُّبحِ نجوانا إلى الناسِ

***

تعالي نسرقُ اللذاتِ ما ساعفنا الدهرُ
وما دمنا وما دامتْ لنا في العيشِ آمالُ
فإنْ مرَّ بنا الفجرُ وما أوقظنا الفجرُ
فما يوقظنا علمٌ ، ولا يوقظنا مـــالُ

***

تعالي نطلقُ الروحينِ منْ سجنِ التقاليدِ
فهذي زهرةُ الوادي تذيعُ العطرَ في الوادي
وهذا الطيرُ تياهٌ فخورٌ بالأغاريدِ
فمن ذا عنَّفَ الزهرةَ أو من وبَّخَ الشادي ؟

أرادَ اللهُ أن نعشقَ لما أوجدَ الحسنا
وألقى الحبَّ في قلبكِ إذ ألقاهُ في قلبي
مشيئتهُ ... وما كانت مشيئتهُ بلا معنى
فإنْ أحببتِ ما ذنبكِ أو أحببتُ ما ذنبي ؟

***

دعي اللاحي وما صنَّفَ والقالي وبهتانَهْ
أللجدولِ أن يجري وللزهرة أن تعبقْ ،
وللأطيارِ أن تشتاقَ أياراً وألوانَهْ ،
وما للقلبِ، وهو القلب، أن يهوى وأن يعشقَ؟

***

تعالي ، إنَّ ربَّ الحبِ يدعونا إلى الغابِ
لكي يمزجنا كالمـاء والخمرةِ في كأسِ
ويغدو النورُ جلبابكِ في الغابِ وجلبابي
فكم نصغي إلى الناس ونعصي خالقَ الناسِ

***

يريد الحبُّ أن نضحكَ فلنضحكْ مع الفجرِ
وأن نركضَ فلنركضْ مَعَ الجدولِ والنهرِ

وأن نهتفَ فلنهتفْ مع البلبلِ والقمري
فمن يعلمُ بعدَ اليومِ ما يحدثُ أو يجري ؟

***

تعالي ، قبلما تسكتُ في الروضِ الشحاريرُ
ويذوي الحورُ والصفصافُ والنرجسُ والآسُ
تعالي ، قبلما تطمرُ أحلامي الأعاصيرُ
فنستيقظُ لا فجرٌ ، ولا خمرٌ ، ولا كاسُ



الابريق

ألا أيها الابريقُ ما لكَ والصلَفْ   فما أنتَ بلّورٌ ولا أنتَ من صَدَفْ

وما أنتَ إلّا كالأباريقِ كلّها   ترابٌ مَهينٌ قد ترقّى إلى خزَفْ

أرى لكَ أنفاً شامخاً غيرَ أنّهُ   تلفَّعَ أثوابَ الغُبارِ وما أنِفْ

ومسّتْهُ أيدي الأدنياء فما شكا   ومصّتْهُ أفواهُ الطَّغامِ فما وَجفْ

وفيكَ اعتزازٌ ليسَ للديكِ مثلُهُ   ولستَ بذي ريشٍ تضاعَفَ كالزَّغَفْ

ولا لكَ صوتٌ مثلُهُ يصدعُ الدجى   وتهتِفُ فيه الذكرياتُ إذا هتَفْ

...

وأنصتُّ أستوحيهِ شيئاً يقــولهُ

كما يسكتُ الزوّارُ في معرضِ التُّحَفْ

وبعدَ ثوانٍ خِلتُ أني سمعتُهُ

يُثرثرُ مثلَ الشيخِ أدركَهُ الخرَفْ

فقالَ: «سقيتُ الناسَ»، قلتُ له: أجلْ

سقيتَهُمْ ماءَ السحابِ الذي وَكَفْ

ودمعَ السواقي والعيونِ الذي جرى،

وماءَ الينابيعِ الذي قد صفا وشَفّْ

فقالَ: لِيذكُرْ فضلَ الماءِ وليُشِدْ

بمدحي، ألمْ أحمِلْهُ؟ قلتَ: لكَ الشَرَفْ!

فقالَ: ألم أحفظْهُ؟ قلتُ: ظلمتَهُ

فلولاهُ لم تُنقَلْ، ولولاكَ ما وَقَفْ!

•

الكرنفال

أمستْ ثيابي وكلُّها خِرَقُ   تُشبِهُ روضاً ألوانُهُ فِرَقُ

من أزرقٍ كالسماء جاوَرَهُ   أحمرُ قـانٍ كأنَّهُ الشَّفَقُ

وأبيضٍ ناصعٍ ، وأسودِ فا   حمٍ ، فذاكَ الضُّحَى وذا الغَسَقُ

كأنَّ قوسَ السَّحابِ باتَ على   جسمي رداء ، وما أنا الأُفُقُ

بُرْدٌ عجيبٌ قد خاطَهُ لَبِقٌ   فليسَ بِدْعاً إنْ حازَهُ لَبِقُ

لمـا تنكرتُ لَمْ يَعُدْ صَحْبي   يَدرونَ أني الصديقُ إن رَمَقوا

لِذاكَ لم يَشفقوا على جَسَدي   مِنَ الرَّمايا ولو دَرَوْا شَفِقوا

مَرَرْتُ بالحانقينَ فابتسموا   لمـا رأوني وكلُّهم قَلِقُ

لَوْ عَـلِموا أنني عدوُّهُمُ   أوشكَ يقضي عليهمُ الفَرَقُ

أرخى الدُّجى ذَيْلَهُ وَرُحْتُ أجرُّ   الذيلَ عُجْباً وغيري النَّزِقُ

والجمعُ حولي يَضِجُّ مبتهجاً   كأنَّهُ السيلُ حينَ يندفِقُ

تألبوا كالغَمامِ واتَّصلوا   بعضٌ ببعضٍ كأنهم حَلَقُ

وانتشروا والدروبُ واسعةٌ   كالأنجمِ الزُّهرِ حينَ تَنبثِقُ

أطلقتُ نفسي مِنَ القيودِ إلى   أنْ صِرتُ كالسَّهمِ حينَ يَنطلِقُ

وبتُّ والقومُ كلَّما اجتمعُوا   رَمَيْتُهُمْ (بالبذورِ) فافترقوا

أسخرُ منهمْ لأنهمْ سَخِروا   مني ، اختلفنا ونحنُ نَتَّفِقُ

والحربُ بيني وبينهمْ نَشِبَتْ   حربٌ ، ولكنْ سهامُها الوَرَقُ

فلا رماحٌ هناكَ مُشْرَعَةٌ ،   ولا سيوفٌ هناكَ تُمْتَشَقُ

لم أخشَ غيرَ الحسانِ ناظرةً   أشدُّ فعلاً من الظُّبى الحَدَقُ

هذا هو الكرنفالُ فاستبقوا   إليهِ فهو السرورُ يُختَلَقُ

ضرة جلق

ألقاها في الحفلة التكريمية التي أقامتها له الجالية في مونتريال .

لا تقلقي يومَ النوى أو فاقلقي   يا نفسُ كلُّ تجمُّعٍ لتفرُّقِ
أللهُ قدّرَ أنْ تمسَّ يدُ الأسى   أرواحنا كيما ترقَّ وترتقي
أوفى على الشهبِ الدُّجى فتألقتْ   لولا اعتكارُ الليلِ لم تتألقِ
والفحمُ ليس يَضيء إنْ لم يضطرمْ   والندُّ ليسَ يضوعُ إنْ لم يحرقِ
لا أضرِبُ الأمثالَ مدحاً للنوى   ليتَ الفراقَ ويومه لم يُخلقِ
ما في الوداع سوى تعلثمِ ألسُنٍ   وذهولِ أرواحٍ وهمٍّ مطبقِ

. . .

عنَّفتُ قلبي حينَ طالَ خفوقُهُ   فأجابَ : بل لُمني إذا لم أخفقِ
أنا طائرٌ قد كانَ يمرَحُ في الربى   وعلى ضفافِ الجدولِ المترقرقِ
فطوى القضاءُ مروجَهُ وفضاءهُ   ليَزجَّ في قفصِ الحديدِ الضيِّقِ
لا ، بل أنا مَلِكٌ صحوتُ فلم أجِدْ   عرشي ، ولا تاجي ، ولا إستبرقي

. . .

هانتْ معاذيري وضاعتْ حكمتي   لما سمعتُ حكايةَ القلبِ
لوْ تعدِلُ الدنيا بنا لم ينتثرْ   شَمْلٌ نظمناهُ ولم

. . .

لله مونتريالِكُمْ ذاتُ الحِـلَى   ومدينةُ الطودِ الأشمِّ
كم وقفةٍ لي عند شاطىء نهرِها   لا أستقي منهُ ، وروحي
متعلماً منهُ التواضعَ والندى   والصفحَ عن عَبَثِ الجهولِ
أعطى الحقولَ حياتَها ومضى كأنْ   لم يُعطِها شيئاً ولم
من كانَ لا يَدري فيقظةُ زرعِها   من فضلِ هذا الهاجعِ
ضيَّعتُ عند الواعظينَ سعادتي   ووجدتُها في واعظٍ لم
ملءَ المدائنِ والقرى آلاؤهُ   وهباتُهُ ، ويعيشُ عَيْشَ
لولاهُ لم يخضرّ قـاعٌ مجدبٌ   لولاكُمُ شَجَرُ المنى لم
عَرَضَتْ محاسنَها الحياةُ عليكمُ   فأخذتمْ بأحبِّها
أنا منكمُ في روضةٍ معطارةٍ   من مُونِقٍ فيها اللحاظُ
العطرُ يعبَقُ من جميعِ ورودِها   ما أنْ مررتَ بزهرةٍ لم

. . .

للهِ مونتريالكُمْ وجلالَهـا   هي رومةُ الصغرى وضرّةُ
رقَّتْ عليَّ نجومُها وتواضعتْ   حتى لكدتُ أحسُّها في

فكأنما هي أنتمُ وكأنما   أرواحكمْ من نورها المتدفّقِ
رَجَعَ الشبابُ إليَّ حينَ هبطتُها   واليومَ أخرجُ من شبابي الريّقِ
سأطيرُ عنها في غدٍ بحشاشةٍ   مكلومةٍ ، وبناظرٍ مُغْرَورقِ
ويغيبُ عنّي طودُها وقبابُها   وقصورها خلفَ الفضاء الأزرقِ
وتظلُّ صورتُها تلوحُ لخاطري   بعضُ الرؤى سلوى وإنْ لم تَصْدُقِ

عبد الحميد بعد اعلان الدستور

أبا الشعبِ إطلعْ من حجابِكَ يلتقي   بطرفكَ مثلُ العارضِ المُتَدَفّقِ
جماهيرُ لا يحصي اليَراعُ عديدَهَا   هيَ الرملُ إلا أنهُ لمْ يُنسّقِ
هوَ الشعبُ قد وافاكَ كالبحرِ زاخراً   وكالجيشِ يقفو فيلقٌ إثرَ فَيلَقِ
تطلَّعْ تجدْهُ حولَ قصرِكَ واقفاً   يحدّقُ تحديقَ المُحِبِّ لموفَقِ
لقد لبستْهُ الأرضُ حلياً كأنها   أياديكَ فيهِ لم تَزَلْ ذاتَ رونقِ
وألقتْ عليهِ الشمسُ نظرةَ عاشقٍ   غيورٍ تلقّاها بنظرةِ مُشفِقِ
يهشُّ لمرآكَ الوسيمِ وإنمـــا   يهشُّ لمرأى الكوكبِ المتألّقِ
ويعشقُ منكَ البأسَ والحلمَ والنّدَى   كذلكَ من ينظُرْ إلى الحسنِ يَعشَقِ
يكادُ بهِ يَرقى إليكَ اشتياقُهُ   فيا عَجَباً بحرٌ إلى البَدْرِ يرتقي
تفرّقَ عنكَ المفسدونَ وطالما   رموا الشعبَ بالتفريقِ خوفَ التفرُّقِ
وكم أقلقوا في الأرضِ ثمَّ تراجعوا   يقولونَ شعبٌ مقلقٌ أي مُقلِقِ
وكم زوّروا عنهُ الأراجيفَ وادّعوا   وأيّدَهُمْ ذيّاكُمُ الزاهدِ التقي
لمن يرفعُ الشكوى؟ وقد وقفوا لَهُ   على البابِ بالمرصادِ فاسألهُ يَنطقِ

وأما ولا واشٍ ولا متجسسٌ ... فقد جاء يسعى سَعْيَ جذلانَ شيِّقِ

يُطارحكَ الحبَّ الذي أنتَ أهلُهُ ... وحسبُكَ منهُ الحبُّ غيرَ مزوَّقِ

وها جيشُكَ الطامي يضجُّ مكبِّراً ... بما نالَ من عهدٍ لديكَ ومَوثِقِ

يُطأطىء إجلالاً لشخصِكَ أروُساً ... يطأطىء إجلالاً لها كلُّ مفرقِ

لهامٍ متى تنذرْ بهِ الدهرَ يصعقُ ... وإنْ يتعرَّضْ للحوادثِ تَفرَّقِ

يفاخرُ بالسِّلمِ الجيوشَ وإنَّهُ ... لأضربها بالسيفِ في كلِّ مأزقِ

وأشجعها قلباً وأكرمها يداً ... إذا قالَ لم يتركْ مجالاً لأحمقِ

ألا أيها الجيشُ العظيمُ ترفُّقاً ... ملكتَ قلوبَ الناسِ بالعرفِ فاعتقِ

ويا أيها المَلِكُ المقيمُ (بيلدزٍ) ... أرى كلَّ قلبٍ سِدَّةً لكَ فارتقِ

ألا حبَّذا الأجنادُ عَوناً لخائفٍ ... ويا حبَّذا الأحرارُ ورداً لِمُستقِ

ويا حبَّذا عيدُ الجلوسِ فإنَّهُ ... أجلُّ الذي وَلَّى وأجلُّ ما بقي

•

لما ...

عجباً لمن أمسى وكلُّ فخارهِ ... بنضارهِ المخبوءِ في الصندوقِ

ماذا يقولُ إذا اللصوصُ مضوا بهِ ... وأقامَ بعد نضارهِ المسروقِ ؟

إنْ يرفعِ المالُ الكريمَ فإنه ... للذلِ مثلُ الحبلِ للمشنوقِ

لمّا صديقي صارَ من اهلِ الغنى ... أيقنتُ أني قد أضعتُ صديقي ! ..

•

وداع وشكوى

أزفَ الرّحيلُ وحانَ أن نتفرّقا
فـإلى اللّقا يا صاحبيّ إلى اللّقا

إن تبكيا فلقد بكيتُ من الأسى
حتى لكِدتُ بأدمعي أن أغرقا

وتسعّرتْ عندَ الوَداعِ أضالعي
ناراً خشيتُ بحرّها أنْ أحرقـا

ما زلتُ أخشى البَينَ قبلَ وقوعِهِ
حتى غدوتُ وليسَ لي أنْ أفرَقا

يومَ النوى، للهِ ما أقسى النّوى
لولا النّوى ما أبغضتْ نفسي البقَا

رُحنا حيارَى صامتينَ كأنّما
للهَولِ نحذرُ عندَه أن ننطِقا

أكبادُنا خفّـاقةٌ وعيونُنا
لا تستطيعُ، من البكا، أن ترمُقا

نتجاذبُ النظَراتِ وهيَ ضعيفةٌ
ونغالبُ الأنفاسَ كيلَا تزهقَا

لو لمْ نُعلّلْ باللقـاءِ نفوسَنَا
كادَتْ مع العَبَراتِ أن تتدفّقا

يا صاحبيّ تصبّرا فلَرُبّما
عُدنا وعـادَ الشّملُ أبهى رونَقَا

إن كانَتِ الأيّامُ لم ترْفُقْ بنا
فمِنَ النُّهى بنفوسنا أنْ نَرفُقَا

إنَّ الذي قدّرَ القطيعةَ والنّوى
في وُسعِهِ أنْ يجمعَ المُتفرّقا!..

•

ولقدْ ركبتُ البحرَ يزأرُ هائجـاً
كالليثِ فارقَ شِبلَهُ بـل أحنَقَا

والنفسُ جازعةٌ ولستُ ألومُها
فالبحرُ أعظمُ ما يُخافُ ويُتّقى

فلقدْ شهدتُ بـــه حكيماً عاقلا
ولقدْ رأيتُ بــهِ جهولًا أخرقا

مُستَوفِزٌ ما شاء أنْ يلهو بنا
مُترَفِّقٌ مـــا شاء أنْ يترفَّقا

تتنازعُ الأمواجُ فيهِ بعضَهـــا
بعضاً عَلَى جَهْلٍ تُنازِعُنا البقـــا

بينـــا يَراها الطَرفُ سُوراً قائماً
فاذا بها حالتْ فصارتْ خَندَقا

والفُلكُ جاريةٌ تَشُقُّ عُبابَهُ
شَقًّا ، كما تَفري رداء أخلقـــا

تَعلو فنحسبُها تَؤمُّ بِنـــا السَّما
ونَظنُّ أنَّا راكبونَ مُحلِّقا

حتَّى إذا هبطتْ بنـــا في لُجَّةٍ
أيقنتُ أنَّ الموتَ فينا أحدَقا

والأفقُ قد غطَّى الضبابُ أديمَهُ
فكأنَّما غَشِيَ المدادَ المُهرَقا

لا الشمسُ تسطعُ في الصَّباحِ، ولا نَرى
إمَّا استطالَ اللَّيلُ، بَدْراً مُشرِقا

عِشرونَ يوماً أو تزيدُ قَضيتُها
كيفَ التفتُّ رأيتُ ماءً مُغدِقا

(نيويوركُ) يابنتَ البُخارِ، بنا اقصِدِي
فلعلَّنا بالغَرْبِ نَنْسَى المَشرِقا

وطنٌ أردناهُ عَلَى حُبِّ العُــلى
فأبَى سِوى أن يستكينَ إلى الشقَا

كالعَبْدِ يَخْشَى ، بعدما أفنَى الصِبَى
يلهُو بـــه ساداتُهُ ، أن يُعتَقَا

أوَ كلَّما جـــاءَ الزمانُ بمصلحٍ
في أهلِهِ قالوا· طَغَى وتزندقا ؟

فكأنَّما لم يكفِهِ ما قد جَنَوا
وكأنَّما لم يكفهِمْ أن أخفقا

هذا جزاءُ ذَوي النُّهَى في أمَّةٍ
أخذَ الجمودُ عَلَى بَنيها مَوْثِقا

وطنٌ يَضيقُ الحرُّ ذرعـاً عندهُ
وتراهُ بالأحرارِ ذرعاً أضيقَا

ما إنْ رأيتُ به أديباً مُوسراً
فيما رأيتُ، ولا جهولاً مُملِقَا

مَشتِ الجهالةُ فيهِ تَسحبُ ذيلَها
تِيهاً، وراحَ العِلمُ يمشي مُطرِقا

أمسَى وأمسَى أهلُهُ في حـالةٍ
لو أنها تعرُو الجمـادَ لأشفقَا

شعبٌ كما شاءَ التخاذُلُ والهوى
مُتفرّقٌ ويكادُ أن يَتمزّقا

لا يرتضي دينَ الآلهِ مُوفِّقاً
بينَ القلوبِ ويَرتضيهِ مُفرِّقا

كلِفٌ بأصحابِ التعبُّدِ والتُقى
والشرُّ مـا بينَ التعبُّدِ والتُقى

مُستضعَفٌ، إنْ لم يُصِبْ متملقاً
يوماً تملّقَ أنْ يرى متملقا

لم يعتقدْ بالعِلمِ وهو حقائقٌ
لكنّهُ اعتقدَ التمائمَ والرُّقى!

ولربمـا كرِهَ الجمودَ وإنما
صَعبٌ على الانسانِ أن يتخلّقا!..

وحكومةٌ ما إنْ تُزحزحُ أحمقاً
عن رأسِها حتى تُولّي أحمقا

راحتْ تُناصبُنا العداءَ كأنما
جئنا فريّاً أو ركبنا مُوبِقـا

وأبتْ سِوى إرهاقِنا فكأنما
كلُّ العدالةِ عندها أنْ نُرهقا

بينَا الأجانبُ يَعبثونَ بهـا كما
عَبِثَ الصَّبا سَحَراً بأغصانِ النَّقا

(بغدادُ) في خطرٍ (ومِصرُ) رهينةٌ
وغداً تنالُ يدُ المطامعِ (جِلّقا)

ضَعُفتْ قواهُما ولمـا ترعوي
عن غيّها حتى تزولَ وتُمحقا

قيلَ أعشقوها قلت: لم يَبْقَ لنا
مَعَها قلوبٌ كي نُحِبَّ ونَعْشَقَا

إن لم تكنْ ذاتُ البنين شفيقةً
هيهاتَ تَلقى من بنيها مُشفِقَا

أصبحتُ حيثُ النفسُ لا تَخشَى أذىً
أبداً وحيثُ الفكرُ يغدو مُطلَقَا

نَفْسي اخلُدي ودَعي الحنينَ فإنما
جهْلٌ بُعَيْدَ اليومِ أن تَتَشَوَّقا

هذي هي «الدُّنيا الجَديدةُ» فانظُري
فيها ضياءَ العِلمِ كيفَ تألَّقَا

إني ضَمِنْتُ لكِ الحياةَ شَهيَّةً
في أهلِها والعيشَ أزهرَ مُونِقَا

•

عام ١٩١٠

إني سكتُّ وما عدمتُ المنطقا   لولا أخوكَ سبقتُ فيكَ الأسبقا
وهززتُ أوتارَ القلوبِ بصامتٍ   يشتاقُ كلُّ مهذبٍ أن ينطقا
فبعثتُ في أفواههم مثلَ الطلى   ونفثتُ في أسماعهم شبهَ الرقى
وألنتُ قاسي الشعرَ حتى يُبتغى   وشددتُ منه اللينَ حتى يُتّقى
وجلوتُ للأبصارِ كلَّ خريدةٍ   عصماءَ تحسدُها النجومُ تألقا
تبدو فتتركُ كلَّ قلبٍ شيّقٍ   خلواً، وتتركُ كلَّ خالٍ شيّقا
ولى أخوكَ فما أمضنيَ النوى   ولقد قدمتَ فما هششتُ إلى اللقا
أقبلتَ والدنيا إليَّ بغيضةٌ   هلّا سبقتَ إليَّ أسبابَ الشقا؟!
حنقتَ بلا سببٍ عليَّ وإنــهُ   سببٌ جديرٌ عندهُ أن أحنقا
علقتْ أخي كفُّ المنونِ وكدتُ أن   أسعى على آثارِهِ لولا التُّقى
ما أشفقتْ نفسي عليَّ وإنما   أشفقتُ أن أبكي الصديقَ المُشفِقا
ودّعتهُ كالبدرِ عندَ تمامِهِ   والبدرُ ليسَ بآمنٍ أن يُمحقا
ولقدْ رجوتُ لهُ البقاءَ وإنما   يدنو الحِمامُ لمن يحبُّ له البقـ

قيلَ اعشَقوها قلت: لم يَبْقَ لنا
مَعَهَا قلوبٌ كي نُحِبَّ ونَعْشَقَا

إن لم تكنْ ذاتُ البنين شفيقةً
هيهاتَ تَلقَى من بنيها مُشفِقَا

أصبحتُ حيثُ النفسُ لا تَخشَى أذىً
أبداً وحيثُ الفكرُ يغدو مُطلَقَا

نَفْسي اخلُدي ودَعي الحنينَ فإنما
جهلٌ بُعَيْدَ اليومِ أن تَتَشوَّقا

هذي هي «الدُّنيا الجَديدةُ» فانظُري
فيها ضياءَ العِلمِ كيفَ تألَّقا

إني ضَمِنْتُ لكِ الحياةَ شَهيَّةً
في أهلِها والعيشَ أزهرَ مُونِقَا

•

عام ١٩١٠

إني سكتُّ وما عدمتُ المنطقا   لولا أخوكَ سبقتُ فيكَ الأسبقا

وهززتُ أوتارَ القلوبِ بصامتٍ   يشتاقُ كلُّ مهذبٍ أن ينطقا

فبعثتُ في أفواههم مثلَ الطلى   ونفثتُ في أسماعهم شبهَ الرقى

وألنتُ قاسي الشعرَ حتى يُبتغى   وشددتُ منه اللينَ حتى يُتَّقى

وجلوتُ للأبصارِ كلَّ خريدةٍ   عصماءَ تحسدُها النجومُ تألُّقا

تبدو فتتركُ كلَّ قلبٍ شيِّقٍ   خلواً، وتتركُ كلَّ خالٍ شيِّقا

ولي أخوكَ فما أمضَّني النوى   ولقد قدمتَ فما هششتُ إلى اللقا

أقبلتَ والدنيا إليَّ بغيضةٌ   هلَّا سبقتَ إليَّ أسبابَ الشّقا؟

حنقتَ بلا سببٍ عليَّ وإنــهُ   سببٌ جديرٌ عندَهُ أن أحنقا

علقتْ أخي كفُّ المنونِ وكدتُ أن   أسعى على آثارِهِ لولا التُّقى

ما أشفقتْ نفسي عليَّ وإنما   أشفقتُ أن أبكي الصديقَ المُشفقا

ودَّعتهُ كالبدرِ عندَ تمامِهِ   والبدرُ ليسَ بآمنٍ أن يُمحقا

ولقدْ رجوتُ لهُ البقاءَ وإنما   يدنو الحِمامُ لمن يحبُّ له البقـ

أصبحتُ مثلَ النسرِ قُصّ جناحُهُ — فهَوَى، ولو سَلِمَ الجناحُ لحلّقا

نائي الرجاء فلا أسيرٌ موثَقٌ — أرجو الفكاكَ، ولستُ حراً مُطلقا

ولقدْ لبستُ من السَّوادِ شعاراً — حتى خضبتُ من الحِدادِ المَفرِقا

وزجرتُ عيني أن تُسَرّ بمنظرٍ — ومنعتُ قلبي بعدَهُ أن يَخفقا

لا أظلمُ الأيامَ فيما قد جَنَتْ — لا تأمنِ الأيامَ أن تتفرّقـا

كُنْ كيفَ شئتَ فلستُ أسكنُ للغنى — بعدَ الحبيبِ، ولستُ أحذرُ موبقا

عامٌ نسيتُ سعودَهُ بنحوسِهِ — قد يَحجبُ الليلُ الهلالَ المُشرقا

لم أنسَ طاغيةَ الملوكِ وقد هوَى — عن عرشِهِ وأسيرهُ لما ارتقى

والشاهُ منخلعُ الحشاشةِ واجفٌ — أرأيتَ شاهاً قطُّ أصبحَ بَيْدقا؟

ما زالَ يحتقرُ الظبى حتّى غدا — لا تُذكرُ الأسيافُ حتى يُصعقا

بِتْنا إذا التركيُّ ضجّ مهللاً — عَبَثَ الهوى بالفارسيِّ فصفّقا

ذكرى تحرّكُ كلّ قلبٍ ساكنٍ — حتّى ليعشقَ بعدَها أن يعشقا

فيمَ على النيلِ النحوسُ ولم يَكُنْ — دونَ الخليجِ ولا الفراتِ تدفّقا

إن لم أذُدْ عن أرضِ مصرَ موفقاً — أودى بآمالي الزمانُ موفقا

ما بالها تشكو زوالَ بهائها — وهيَ التي كانتْ تزينُ المشرقا

قدْ أخلقتْ كفُّ السياسةِ عهدَها — إنّ السياسةَ لا تُراعي موثقا

كذبوا على مصرَ وصُدّقَ قولُهمْ — والشرُّ إن يجدِ الكذوبَ مصدّقا

وأبوا علينا أننا لا ننتهي — من مأزقٍ حتى نصادفَ مأزقا

سلكوا بنا في كلّ وادٍ ضيّقٍ — حتّى قنطنا أن يُصيبوا ضيّقا

مَنَعوا الصحافةَ أن تبثّ شكاتَنا — منعوا الكواكبَ أن تبينَ وتشرقا

لوْ أنصفوا رَفَعوا القيودَ فإنّما — يشكو الأسيرُ الأسرَ إمّا أرهقا

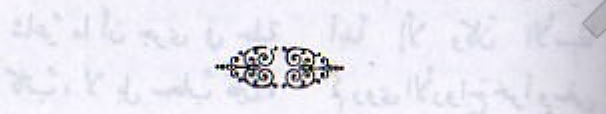
وسعوا إلى سَلْبِ القناةِ فأخفقوا — سعياً، وشاءَ اللهُ أن لا تُخفقا

عَرَضَ الحسابَ المستشارُ ولم يَكُنْ — لولا السياسةِ حاسباً ومدقّقا

أيكونُ غاصبنا ويزعمُ أنّهُ — أسى علينا مُحسناً متصدّقا

أبني الكنانةِ لستُمْ أبناءَهـا — حتى تَقوا مصرَ البلاءَ المُطبقا

إن تحفظوها تحفظوا في نسلِكمْ — ذكراً يخلّدُ في الليالي رونقا



في يوبيل شكيب أرسلان

امنحيني، يا نجومُ، الألقا — وَهَبيني، يا زهورُ، العبقا

أبعثُ الشعرَ إلى الدنيا هوًى — وضياءً وغنــاءً شيِّقا

فإذا خامرَ نفساً طربتْ — وإذا لامسَ قلباً خفَقَا

وإذا يُتْـلى لمشتاقٍ سلا — وإذا يُروى لباكٍ صفقّا

فمِنَ الشعرِ لقومٍ حكمةٌ — ومن الشعرِ لأقوامٍ رُقَى

أنا لا أستعذبُ الشعرَ إذا — لم أجِدْهُ روضةً أو أفقا

. . .

حبَّذا ليلتَنَا من ليلةٍ — يُكرمُ الأحرارُ حراً لَبِقَا

شاعرٌ ما أن جرى في حلبةٍ — أبداً إلّا وكانَ الأسبقا

كاتبٌ، لا بل سحابٌ هَتِنٌ، — كم روى الأرواحَ خمراً وسقى

قُلْ لمن حاولَ أن يلحقَهُ — إنَّ هذا عارضٌ لن يُلحقا

قَـلَمٌ يهمي على أُمّتِهِ — رحمةً إذ تمطرُ الدنيا شقا

وإذا ما أوذيتْ أو ظُلِمَتْ — أمطرَ الدنيا شواظاً محرقا

ودوَتْ زعقاتُهُ كابنِ الشّرى — ربعَ في عِرّيسهِ أو ضُويقا

هُوَ للحقّ إلى أن ينجلي — وعلى الباطلِ حتى يُزهقا

أنفقَ العمرَ على خدمتها — آهِ ما أغلى الذي قد أنفقا

قُلْ لِمن أرجفَ كي يقلقَهُ — في حماهُ إنهُ لن يَقلقــا

ولمنْ حاولَ أن يغضبَهُ — إنــه أعلى وأسمى خُلُقَا

أأمــيرٌ تتقيه دولةٌ — يتوقى كاشحاً مختلقا ؟

وَهوَ مثلُ الشمسِ لن يبلغَهَا — صاعدٌ مهما تعالى وارتقى

إنَّ يوبيلَكَ يوبيلُ النهى — هنأتْ بغدادُ فيه جُلّقا

●

الفراشة المحتضرة

لو كانَ لي غيرُ قلبي عندَ مرآكِ   لمـا أضافَ إلى بلواهُ بلواكِ

فيمَ ارتجاجُكِ هلْ في الجوِّ زلزلةٌ   أم أنتِ هاربةٌ من وجهِ فتّاكِ ؟

وكمْ تدورينَ حولَ البيتِ حائرةً   بنتَ الربى ليسَ مأوى الناسِ مأواكِ

قالوا فراشةُ حقلٍ لا غَناءَ بها   ما افقرَ الناسَ في عيني وأغناكِ !

سيماءُ غاويةٍ ، أطوارُ شاعرةٍ ،   على زَهــادةِ عبّادٍ ونسّاكِ

طغراءُ مملكةٍ وشْيُ حواشيها   مَنْ ذوّبَ الشمسَ ألواناً ووشّاكِ

رأيتُ أحلامَ أهلِ الحبِّ كلِّهمِ   لّما مثلتِ أمامي عندَ شبّاكي

من نائمينَ على ذلٍّ ومَتربةٍ   ومن تجّارٍ وأشرافٍ وأملاكِ

وقصَّ شكواكِ قلبي قصةً عجباً   من قبلُ أنْ سمعتْ أذناي شكواكِ

أليسَ فيكِ من العشّاقِ حيرتُهمْ ؟   فكيفَ لا يَفهمُ العشّاقُ نجواكِ ؟

*

حلمتُ أنَّ زمانَ الصيفِ منصرمٌ   ويلاهُ ! حقّقتِ الأيامُ رؤياكِ

فقد نعاهُ إليكِ الفجرُ مرتعشاً   وليسَ منعاهُ إلّا بعضَ منعاكِ

فالزهرُ في الحقلِ أشلاءٌ مبعثرةٌ   والطيرُ ؟.. لا طائرٌ إلّا جناحاكِ

مدَّ النهارُ إليهِ كفَّ مختلسٍ   وفتّحَ الليلُ فيهِ عينَ سفّاكِ

شاءَ القضاءُ بأنْ يَشقى فجرّدهُ   مِنَ الحليِّ وأنْ تشقَي فأبقاكِ

لم يبقَ غيرُكِ شيءٌ من محاسنهِ   ولا من العابدينَ الحسنَ إلّاكِ

تزوّدَ الناسُ منه الأُنسَ وانصرفوا   وما تزوّدَ إلّا اليأسَ جفناكِ

*

يا روضةً في سماءِ الروضِ طائرةً   وطائراً كالأقاحي ذا شذى ذاكِ

مضى مع الصيفِ عهدٌ كنتِ لاهيةً   على بساطٍ من الأحلامِ ضحّاكِ

تمسينَ عندَ مجاري الماءِ نائمةً   وللأزاهرِ والأعشابِ مَغداكِ

فكلّما سمعتْ أذناكِ ساقيةً   حنّتْ للسفحِ من شوقٍ مطاياكِ

وكلّما نوّرتْ في السفحِ زنبقةٌ   صفّقتِ من طربٍ واهتزَّ عطفاكِ

فما رشفتِ سوى عطرٍ ولا انفتحتْ   إلا على الحسَنِ المحبوبِ عيناكِ

وكم لثمتِ شفاهَ الوردِ هائمةً   وكمْ مسحتِ دموعَ النرجسِ الباكي

وكم ترجّحتِ في مَهدِ الضياءِ على   توقيعِ لحنِ الصبا أو رجعهِ الحاكي

*

وكم ركضتِ فأغريتِ الصغارَ ضحًى   بالركضِ في الحقلِ ملهاهمْ وملهاكِ

منّوا بأسرهمِ إياكِ أنفسَهمْ   فأصبحوا بتمنّيهمْ أساراكِ

جروا قُصَاراهُمْ حتى إذا تعبوا وقفتِ ساخرةً منهمْ قُصَاراكِ
لولا جَناحاكِ لم تسلمْ طريدتُهُمْ ، قد نجّياكِ ، ولكنْ أينَ منجاكِ ؟
ها أنتِ كالحقلِ في نزعٍ وحشرجةٍ وَهَتْ قُواكِ كما استرخى جَناحاكِ
أصبحتِ للبؤسِ في مغناكِ تائهةً كأنهُ لم يَكُنْ بالأمسِ مغناكِ

★

فراشةَ الحقلِ ... في روحي كآبتهُ ممـــا عراهُ وممّا قد تولّاكِ
أحببتُهُ وهو دارٌ تلعبينَ بها وسوفَ تهواهُ نفسي وهوَ مثواكِ
قد باتَ قلبيَ في دنيا مشوّشةٍ منذُ التفتُّ إلى آثارِ دنياكِ
لا يستقرُّ بها إلّا على وَجَلٍ كالطيرِ بينَ أحابيلٍ وأشراكِ

★

خلتْ أرائكُ كانتْ أمسِ آهلةً غنّاءَ ، فاليومُ لا شادٍ ولا شاكِ
أرضٌ خلاءٌ وجوٌّ غيرُ ذي ألقٍ بلى ، هناكَ ضبابٌ فوقَ أشواكِ
فيا رياحَ الخريفِ العاتياتِ كفى عصفاً فقد كثُرت في الأرضِ قتلاكِ
يفَ اعتذارُكِ إنْ قالَ الآلهُ غداً: هل الفَراشةُ كانتْ مِنْ ضحاياكِ ؟
يا نغمةً تلاشى كلّما بَعُدَتْ إنْ غبتِ عنْ مسمعي ما غابَ معناكِ
ما أقدرَ اللهَ أنْ يُحييكِ ثانيةً مع الربيعِ كما مِن قبلُ سوّاكِ
فيرجعُ الحقلُ يزهو في غلائلهِ وترجعينَ وأغشاهُ فألقاكِ !

روحي فداك

لما رأيتُ الوردَ في خدّيكِ
وشقائقَ النعمانِ في شفتيكِ
وعلى جبينكِ مثلَ قطراتِ الندى
والنرجسَ الوسنانَ في عينيكِ
ونشقتُ من فَوْدَيْكِ ندّاً عاطراً
لـمّا مشتْ كفّاكِ في فَوْديكِ
ورأيتُ رأسكِ بالأقاحِ متوّجاً
والفلُّ طـاقاتٌ على نهديكِ
وسمعتُ حولكِ همسَ نسماتِ الصَبا
عندَ الصباحِ تهزُّ من عطفيكِ
أيقنتُ أنكِ جنةٌ خـلابةٌ
فحننتُ من بعدِ المشيبِ إليكِ

ولذاكَ قد صيَّرتُ قلبي نحـلةً
يا جنّتي حتى يحـومَ عليكِ
روحي فداؤكِ إنها لو لم تكُنْ
في راحتيكِ هوَتْ على قدميكِ...

•

يا جنّتي

ـــا رأيتُ الوردَ في خدّيكِ	وشقائقَ النعمانِ في شفتيكِ
ونشقتُ من فَوْديكِ ندّاً عاطراً	لمّا مشتْ كفّاكِ في فوديكِ
ورأيتُ رأسكِ بالأقاحِ متوّجاً	والفلُّ طاقاتٍ على نهديكِ
وسمعتُ حولكِ همسَ أرواحِ الصبا	عندَ الصباحِ تهزُّ من عطفيكِ
أيقنتُ أنكِ جنّةٌ خلّابةٌ	فحننتُ من بعدِ المشيبِ إليكِ
ولذاكَ قد صيّرتُ قلبي نحلةً	يا جنّتي كيما يحومَ عليكِ
روحي فداؤكِ إنّها لو لم تكنْ	في راحتيكِ هوَتْ على قدميكِ

•

هدية العيد

أيُّ شيءٍ في العيدِ أهدي إليكِ ... يا ملاكي، وكلُّ شيءٍ لديكِ؟

أسواراً؟ أم دُملجاً من نُضارٍ؟ ... لا أحبُّ القيودَ في معصميكِ

أم خموراً؟ وليسَ في الأرضِ خمرٌ ... كالتي تسكبينَ مِنْ لحظيكِ

أم وروداً؟ والوردُ أجملُه عندي ... الذي قد نشقتُ من خدّيكِ

أم عقيقاً كمهجتي يتلظّى؟ ... والعقيقُ الثمينُ في شفتيكِ

ليسَ عندي شيءٌ أعزُّ من الروحِ ... وروحي مرهونةٌ في يديكِ



أخت البلبل

يا لوعةً حارَ النطاسي فيكِ ... كَمْ يشتكي غيري وكَم أُخفيكِ

إنْ بحتُ بالشكوى فغايةُ مجهدٍ ... لم تُبقِ لي كبداً فأستبقيكِ

أجنايةُ الطرفِ الكحيلِ على الحشا ... اللهُ حسبي في الدمِ المسفوكِ

مَا في الشرائعِ لا ولا في أهلِها ... مَن يستحِلُّ الأخذَ مِن جانيكِ

يا هذهِ كم تشحذينَ غِرارَهُ ... أو ما خشيتِ حدَّهُ يؤذيكِ

يا أختَ ظبي القاعِ لو أعطيتِهِ ... لحظيكِ صادَ الصائديهِ أخوكِ

روحي فدى عينيكِ معاً جارتا ... في مهجتي وأبي فِداءُ أبيكِ

زمناً فكلُّ مصمّمٍ ومقوّمٍ ... تابٍ وكلُّ مُسرَّدٍ وحبيكِ

اللهَ في قتلى جفونكِ إنَّهم ... ظلموا نفوسَهمُ وما ظلموكِ

إنْ تبصريني أحتمي فتكاتِها ... فلقد أصولُ على القنا المشبوكِ

كم تجحدينَ دمي وقد أبصرتِهِ ... ورداً على خدّيكِ غيرَ مشوكِ

رُدّي حياتي إنّها في نظرةٍ ... أو زورةٍ أو رشفةٍ مِن فيكِ

لو تنظرينَ إلى قتيلكِ في الدجى ... يرعى كواكبَهُ ويسترعيكِ

والليلُ مِن همِّ الصباحِ وصونهِ ... حيرانُ حيرةَ عاشقٍ مهتوكِ

لعجبتِ من زورِ الوشاةِ وإفكِهمْ ... ومنَ الذي قاسيتُ في حُبّيكِ
حولي إذا أرخى الظلامُ سجوفَهُ ... ليلانِ: ليلُ دجى وليلُ شكوكِ
تمتدُّ فيهِ بيَ الكآبةُ والأسى ... مثلَ امتدادِ الحرفِ بالتحريكِ
مالي إذا شئتُ السلوَّ عنِ الهوى ... وقدرتُ أنْ أسلوكِ لا أسلوكِ
فكّي إساري إنَّ خلفي أمةً ... مضنوكةً في عالمٍ مضنوكِ
وأحبةٌ سدَّ القنوطُ عليهمُ ... والخوفُ كلَّ معبّدٍ مسلوكِ
لا تسأليني كيفَ أصبحَ حالهُمْ ... إني أخافُ حديثَهُمْ يُشجيكِ
باتوا برغمِهمِ كما شاءَ العِدى ... لا حزنُهُمْ واهٍ ولا بركيكِ
لا يملكونَ سوى التحسّرِ إنّهُ ... جهدُ الضعيفِ الواجدِ المفلوكِ
تترقرقُ العبراتُ فوقَ خدودِهمْ ... يا منْ رأى دُرراً بغيرِ سلوكِ
أخذَ العزيزَ الذلُّ منْ أطواقِهِ ... والجوعُ يأخذُ مهجةَ الصعلوكِ
قلْ للمبذّرِ في الملاهي مالَهُ ... ماذا تركتَ لذي الأسى المتروكِ
أيبيتُ يشربُ منْ معينِ دموعِهِ ... وتبيتُ تحسوها كعينِ الديكِ؟
ويروحُ في أطمارِهِ وتميسُ في ... ثوبٍ لأيامِ الهناءِ محوكِ
إنْ كنتَ تأبى أن تشاركَهُ سوى ... نُعمى الحياةِ فأنتَ غيرُ شريكِ
يا ضرّةَ البلجيكِ في أحزانِها ... تبكيكِ حتى أمّةُ البلجيكِ
حُمّلتُ ما يُعيي الشواهقَ حملُهُ ... يا ليتَ ما حُمّلتِ في شانيكِ

سلْ البغاةَ عليكِ حمرَ سيوفِهمْ ... لا أنتِ جانيةٌ ولا أهلوكِ
جنَّ القضاءُ فغالَ حسنَكِ قبحُهُ ... وأذلَّ أبناءُ الطغامِ بنيكِ
لا أشتكي الدنيا ولا أحداثَها ... هذي مشيئةُ ذي المشيئةِ فيكِ
لو أملكُ الأقدارَ أو تصريفَها ... لأمرتُها فجرتْ بما يُرضيكِ
ولوَ انّها تدري وتعقلُ لانثنتْ ... ترمي بأسهمِها الذي يرميكِ
إنْ يفتديكِ أخو الغنى بنضارِهِ ... فبدرهمي وبمهجتي أفديكِ
ومنازلُ البؤساءِ أولى بالندى ... ولأنتِ أولاها بمـالِ ذويكِ

***

يا أمةً في الغربِ ينعمُ شطرُها ... رفقاً بشطرٍ بائسٍ منهوكِ
جادتْ عليكمْ، قبلما كنتمْ، بكمْ
جودوا ببعضِ العسجدِ المسبوكِ !!!

الشعر والشعراء

بعيشك هل جزيت عن القوافي … بغير (أجدت) أو (لافض فوك)؟

جزاؤك من كريم أو بخيل … رقيقاً كان شعرك أو ركيكا

كلام ليس يغني عنك شيئاً … إذا لم يقتل الآمال فيكا

وربما يمن عليك قوم … كأنك قد غدوت بهم مليكا

إذا أرسلت قافية شروداً … فقد أيقظت في الناس الشكوكا

وقد تبلى بأحمق يدعيها … فإن تغضب لذلك يدعيكا

•

سقوط ارضروم

أعد حديثك عندي أيها الرجل … وقل كما قالت الأنباء والرسل

قد هاج ما نقل الراوون بي طرباً … ما أجمل الرسل في عيني وما نقلوا

فاجمع رواياتهم واملأ بها أذني … حتى تراني كأني شارب ثمل

دع زخرف القول فيما أنت ناقله … إن المليحة لا يزري بها العطل

فكل سمع إذا قلت «السلاف» فم … وكل قول، إليهم ينتمي، عسل

لا تسقني الراح إلا عند ذكرهم … أو ذكر قائدهم أو ذكر ما فعلوا

هم المساميح يحيي الأرض جودهم … إذا تنكب عنها العارض الهطل

هم المصابيح تستهدي العيون بها … إذا اكفهر الدجى واحتارت المقل

هم الغزاة بنو الصيد الغزاة، بهم … وبطشهم بالأعادي، يضرب المثل

قوم يبيت الضعيف المستجير بهم … من حوله الجند والعسالة الذبل

فما يلم بمن صافاهم ألم … ولا يدوم لمن عاداهم أمل

تجري العلوج إذا هزوا صوارمهم … أي الدماء بها في الأرض تنهمل

***

أيطلب الترك أن تعلو أهلتهم … ... ...

« وَللغَرَنْدَقِ » رأيٌ مِثلُ صَارِمِهِ   يَزِلُّ عن صَفحتَيهِ الحَادِثُ الجَلَلُ

المُقبِلُ الصَّدْرِ ، وَالأَبطَالُ نَاكِصَةٌ   تحتَ العَجَاجَةِ لا يَبدُو لَهَا قُبُلُ

وَالبَاسِمُ الثَّغرِ ، وَالأَشلاءُ طَائِرَةٌ   عَن جَانِبَيهِ وَحَرُّ الطَّعْنِ مُتَّصِلُ

سَعدُ السُّعُودِ عَلَى السُّؤالِ طَالِعُهُ   لَكِنَّهُ في مَيَادِينِ الوَغَى زُحَلُ

في كلِّ سَيفٍ سِوَى بَتَّارِهِ فَلَلٌ   وَكلُّ رَأيٍ سِوى آرَائِهِ زَلَلُ !

***

يا ابنَ المُلُوكِ الأُلى قَد شَادَ وَاحِدُهُمْ   مَا لَمْ تُشَيِّدْهُ أَملاكٌ ولا دُوَلُ

وَقَائدِ الجَيشِ مَا لِلرِّيحِ مُنْفَرَجٌ   فيهِ ، وَلَكِن لَهَا مِنْ حَولِهَا زَجَلُ

تَوَهَّمَ التُّرْكُ لَمَّـا حَانَ حَيْنُهُمُ   أَنَّ الأُلى وَتَرُوا آبَاءَهُمْ غَفَلُوا

حَتَّى طَلَعْتَ مِنَ « القُوقَاسِ » في لَجِبٍ   تَضِيقُ عَنهُ فِجَاجُ الأَرضِ وَالسُّبُلُ

فَأَدرَكُوا أَنَّهُم نَامُوا عَلَى غَرَرٍ   وَأَنَّكَ البَدرُ في الأَفلاكِ تَنتَقِلُ

يَا يَومَ صَبَّحتَهُمْ وَالنَّقعُ مُعتَكِرٌ   كَأَنَّهُ اللَّيلُ فَوقَ الأَرضِ مُنسَدِلُ

لَيلٌ يَسِيرُ عَلَى ضَوءِ السُّيُوفِ بِهِ   وَيَهتَدِي بِالصَّلِيلِ الفَارِسُ البَطَلُ

بِكُلِّ أَروَعَ مَا فِي قَلبِهِ خَوَرٌ   عِندَ الصِّدَامِ ، وَلا في زَندِهِ شَلَلُ

وَكُلِّ مُنجَرِدٍ في سَرجِهِ أَسَدٌ   في كَفِّهِ خَذِمٌ ، في حَدِّهِ الأَجَلُ

وَكُلِّ رَاعِفَةٍ بِالمَوتِ هَادِرَةٍ   كَأَنَّهَا الشَّاعِرُ المَطبُوعُ يَرتَجِلُ

سَودَاءَ تَقذِفُ مِن فُوهَاتِهَا حِمَماً   هِيَ الصَّوَاعِقُ إِلا أَنَّهَا شُعَلُ

لا تَحفَظُ الدِّرعُ مِنهَا جِسمَ لابِسِهَا   وَلا يُنَجِّي الحُصُونَ الصَّخرُ وَالرَّمَلُ

فَالبِيضُ تَأخُذُ مِنهُم كَيفَمَا انفَتَلَتْ   وَالذُّعرُ يُمعِنُ فيهِم كَيفَمَا انفَتَلُوا

وَكُلَّمَا وَصَلُوا مَا انبَتَّ بَاغَتَهُمْ   لَيثٌ يُقَطِّعُ بِالفَصَّالِ مَا وَصَلُوا

فَأَسلَمُوا « أَرضَرُومَ » ، لا طَوَاعِيَةً   لَو كَانَ في وُسعِهِمْ إِمسَاكُهَا بَخِلُوا

كَم حَوَّطُوهَا وَكَمْ شَادُوا الحُصُونَ بِهَا   حَتَّى طَلَعتَ فَلا حِصنٌ وَلا رَجُلُ

وَفَرَّ قَائِدُهُم لَمَّـا عَرَضتَ لَهُ   كَمَا يَفِرُّ أَمَامَ القَشعَمِ الحَجَلُ

وَمَن يَشُكُّ بِـأَنَّ الوَغْلَ مُنهَزِمٌ
إِذا التَقَى الأَسَدُ الضِّرغَامُ وَالوَعِلُ ؟

لَمْ يَقصُرِ الرُّمحُ عَن إِدرَاكِ مُهجَتِهِ
لَكِن تَحَمَّى صَدرَهُ وَقعَ الظُّبَى ، الكَفَلُ[1]

تَعَلَّمَ الرَّكضَ حَتَّى لَيسَ تَلحَقُهُ   هُوجُ الرِّيَاحِ وَلا خَيلٌ وَلا إِبِلُ

يَخَالُ مِن رُعبِهِ الأَطوَادَ رَاكِضَةً   مَعْهُ وَمَا رَكَضَتْ قُدَّامَهُ القُلَلُ

وَيَحسَبُ الأَرضَ قَد مَادَتْ مَنَاكِبُهَا
كَذَاكَ يَمسَخُ عَينَ الخَائِفِ الوَجَلُ

وَبَاتَ « أَنوَرُ » في « يَلدِزَ » مُحتَبِئاً
لِأُمِّهِ وَأَبِيهِ الثُّكلُ وَالهَبَلُ

---

(١) المعنى أن الرمح لم يقصر عن ادراك صدر التركي لقتله ، ولكن التركي لم يستقبل الرمح بصدره وإنما استقبله بظهره ... كناية عن الجبن والفرار .

يطيرُ، إن صرّتِ الأبوابُ، طائرُهُ / ويصرخُ «الغوثَ» إمّا وسوسَ القُفلُ

في جفنِهِ أرقٌ، في نفسِهِ فَرَقٌ / في جنبِهِ سقَمٌ، في عقلِهِ دَخَلُ

في وجهِهِ صُفرةٌ حارَ الطبيبُ بها / ما يصنعُ الطبُّ فيمن داؤهُ الخَبَلُ؟

لم يبقَ فيهِ دمٌ كيما يجمّعهُ / في وجهِهِ، عندَ ذكرِ الخيبةِ، الخَجَلُ

يطوفُ في القصرِ لا يلوي على أحدٍ / كأنّهُ ناسكٌ في القفرِ معتزلُ

لا بهجةُ الملكِ تنسيهِ هواجسَهُ / ولا تروّحُ عنهُ الأعينُ النُّجُلُ

يزيدُ وحشتَهُ إعراضُ عُوّدِهِ / وينكأُ الجرحَ في أحشائِهِ العَذَلُ

إذا تمثّلَ جيشَ التركِ مندحراً / ضاقتْ بهِ، مثلما ضاقتْ بذا، الحِيَلُ

***

يا كاشفَ الضرِّ عمّن طالَ صبرُهُمُ / على النوائبِ، لا مرّتْ بكَ العِلَلُ

أطلقتَهم من قيودِ الظلمِ فانطلقوا / وكلُّهم ألسنٌ تدعو وتبتهلُ

لو كانَ ينشرُ ميتاً غيرُ بارئِهِ / نشرتَ، بعدَ الردى، أرواحَ من قُتِلوا

بغى عليهم علوجُ التركِ بغيَهمُ / لم يشحذوا للوغى سيفاً ولا صقلوا

خانوهُمُ وأذاعوا أنّهم نفرٌ / خانوا البلادَ بما قالوا وما عملوا

يا للطَّغامِ! ويا بهتانَ ما زعموا / متى أساءَ إلى ذي المخلبِ الحَمَلُ؟

هبوا الرجالَ لأمرٍ أحدثوا حدثاً / فما الذي جنتِ العذراءُ والطفلُ؟

أجدُّكم، كلّما جوٌّ خلا، «أسدٌ» / وجدُّكم، كلّما شبّت وغى، «ثُعَلُ»؟

قد جاءَ من يمنعُ الضعفى ويرغمُكم / إن تحملوا عنهمُ النيرَ الذي حملوا

أمنتَ «أرمينيا» ممّا تحاذرُهُ / فلن تعيثَ بها الأوغادُ والسّفَلُ

***

ظنّوكَ في شغلٍ حتى دهمتَهمُ / فأصبحوا ولهم عن ظنّهم شُغُلُ

مزّقتَ جمعَهمُ تمزيقَ مقتدرٍ / على المهنّدِ، بعدَ اللهِ، يتّكلُ

فهم شراذمُ حيرى لا نظامَ لها / كأنّهم نُوَرُ الآفاقِ أو هَمَلُ

ألبستَهم ثوبَ عارٍ لا تطهّرُهُ / نارُ الجحيمِ ولو في حرّها اغتسلوا

«جاويدُ» فوقَ فراشِ الذلِّ مضطجعٌ / و«طلعتٌ» بردِاءِ الخوفِ مشتملُ

أتستقرُّ جنوبٌ في مضاجعِها   وفي مضاجعِها الأرزاءُ والغِيَلُ ؟

وتعرفُ الأمنَ أرواحٌ تروّعُها

ثلاثةٌ : أنتَ والنيرانُ والأسَلُ ؟!

لو لم تقاتِلْهُمُ بالجيشِ قاتَلَهمْ   جيشٌ بغيرِ سلاحٍ إسمُهُ الوَجَلُ

أجريتَ خوفَ المنايا في عروقِهمُ   فلَنْ يعيشَ لهمْ نسلٌ إذا نَسلُوا

قدْ ماتَ كهلُهمُ مِن قبلِ ميتَتِهِ   وشاخَ ناشئُهُمْ من قبلِ يكتَهِلُ

وقد ظفِرتَ بهمْ والرأسُ مشتعِلٌ   كما ظفِرتَ بهمْ والعمْرُ مقتبِلُ

فتحٌ تهلّلتِ الدنيا بِهِ فرحاً   فكلُّ ربعٍ ، خلاءأستانةَ ، جذِلُ

الشعبُ مبتهجٌ ، والعرشُ مغتبِطٌ

وروحُ جدّكَ في الفردوسِ تحتفِلُ !..

•

حكمة المتنبي

جلستُ أناجي روحَ أحمدَ في الدجى

وللهمّ حــولي كالظلامِ سدولُ

أفكرُ في الدنيا وأبحثُ في الورى

وعينيَ مــا بينَ النجومِ تجولُ

طويلاً ، إلى أنْ نالَ من خاطري الوَنى

ورانَ على طرفي الكليلِ ذبولُ

فأطرقتُ أمشي في سطورِ كتابِهِ   بطرفي ، فألفيتُ السطورَ تقولُ

« سوى وجعِ الحسّادِ داوِ فإنّهُ   إذا حلَّ في قلبٍ فليسَ يحولُ »

« فلا تطمَعَنْ من حاسدٍ في مودةٍ   وأن كنتَ تبديها لهُ وتنيلُ »

•

عطبة حال

هَجرتُ القَوافي ما بِنَفسي مَلالةٌ   سِواي، إذا اشتدَّ الزّمانُ، مَلولُ
ولكنْ عدَتني أن أقولَ حوادثٌ   إذا نَزلَتْ بالطودِ كادَ يَزولُ
وبَغَّضَني الأشعارَ أنَّ دُعاتَها   كثيرٌ، وأنَّ الصّادقينَ قَليلُ
وأنَّ الفتى في ذي الرُّبوعِ عَقارُهُ   وأموالُهُ والباقياتُ فضولُ
سَكَتُّ سُكوتَ الطّيرِ في الرَّوضِ بعدَما   ذوى الرَّوضُ واجتاحَ النّباتَ ذُبولُ
فما هَزَّني إلّا حديثٌ سَمِعتُهُ   عَنِ الغيدِ كالغيدِ الحِسانِ جَميلُ
فما أنا في هذي الحِكايةِ شاعِرٌ   ولكنْ كما قالَ الرُّواةُ أقولُ

***

فَتًى مِن سَراةِ النّاسِ، كلُّ جُدودِهِ   سَرِيٌّ، كريمُ النَّبعَتَينِ، نَبيلُ
قضى في ابتِناءِ المُكرماتِ زَمانَهُ   يَنالُ ويَرجوهُ السِّوى فَيَنيلُ
فَدكَّ مَباني عِزّهِ الدَّهرُ بَغتَةً   وقَلَّ مِنهُ الظُّفرُ فهو كليلُ

هَوى مِثلما يَهوي إلى الأرضِ كوكبٌ   كذاكَ اللّيالي بالأنامِ تدولُ
وكانَ لهُ في الدَّهرِ بَطشٌ وصَولةٌ   فأمسَتْ عَليهِ الحادِثاتُ تَصولُ
وكانَ لهُ ألفا خليلٍ وصاحِبٍ   فأعوَزَهُ، عِندَ البَلاءِ، خَليلُ
تَفرَّقَ عنهُ صَحبُهُ فكأنَّما   بهِ مَرَضٌ، أعيا الأُساةَ، وَبيلُ
وأنكرَهُ مَن كانَ يَحلِفُ باسمِهِ   كما يُنكرُ الدَّينَ القديمَ عَميلُ
فأصبحَ مِثلَ الفُلكِ في البحرِ ضائعاً   يَميلُ مَعَ الأمواجِ حيثُ تَميلُ
يَكادُ يَمدُّ الكفَّ لولا بَقيّةٌ   مِنَ الصّبرِ في ذاكَ الرِّداءِ تَجولُ

***

زَوى نَفسَهُ كي لا يَرى النّاسُ ضُرَّهُ   فيَشمتَ قالٍ أو يُسرَّ عَذولُ
بدارٍ ... أناخَ البؤسُ فيها رِكابَهُ   وجَرَّتْ عَليها لِلخرابِ ذُيولُ
مُهدّمةِ الجُدرانِ مِثلَ ضُلوعِهِ   بِها اليأسُ صَمتٌ والسَّقامُ يَجولُ
تَمرُّ عليها الرّيحُ وهيَ حَزينةٌ   ويَرنو إليها النّجمُ وهو ضَئيلُ
إذ ما تجلّى البدرُ في الأفقِ طالعاً   رَعاهُ، إلى أن يَعتريهِ أفولُ
جِبالُ الأماني عِندَ قومٍ شُعاعُهُ   ولكنّهُ في مُقلَتيهِ نُصولُ
فيا عَجَبا حتّى النّجومُ تُضِلُّهُ   وفي نورِها لِلمُدلِجينَ دَليلُ
وهَلْ تَهتدي بالبدرِ عَينٌ قَريحةٌ   عَلَيها مِنَ الدَّمعِ السّخينِ سُدولُ؟

***

غفا الناسُ ، واستولتْ عليهم سكينةٌ ،
فما بالُه استولى عليهِ ذهولُ ؟

تأمّلَ في أحزانِه وشقائِه   فهانَ عليه العيشُ وهو جميلُ
فمدّ إلى السكّينِ كفاً نقيّةً   أبتْ أن يراها تستغيثُ بخيلُ
وقرّبها من صدرِه ثمّ هزّها   وكاد بها نحو الفؤاد يميلُ
وإذ شبحٌ يستعجلُ الخطوَ نحوَه   وصوتٌ لطيفٌ في الظلامِ يقولُ :

رويدَكَ ، فالضنكُ الذي أنتَ حاملٌ
متى زالَ هذا الليلُ سوفَ يزولُ

نعم ، هي إحدى محسناتِ نسائِنا   ألا إنّ أجرَ المحسناتِ جزيلُ
أبتْ نفسُها أن يكحلَ النومُ جفنَها   وجفنُ المعنّى بالسهادِ كحيلُ
وأن تتولّى الابتساماتُ ثغرَها   وفي الحيِّ مكلومُ الفؤادِ عليلُ
فألقتْ إليه صرّةً وتراجعتْ   وفي وجهِها نورُ السرورِ يجولُ
فلم تتناقلْ صنعَها ألسنُ الورى   ولا قُرعتْ في الخافقينَ طبولُ

ولا أحسنتْ كي تعلنَ الصحفُ إسمَها
فتعلمَ جاراتٌ لها وقبيلُ

كذا فليواسِ البائسينَ ذوو الغنى   وإني لهم بالصالحاتِ كفيلُ
فإنّ القصورَ الشاهقاتِ إذا خلتْ   من البرِّ والإحسانِ فهي طلولُ

وخيرُ دموعِ الباكياتِ هي التي   متى سالَ دمعُ البائسينَ تسيلُ !

***

ألا إنّ شعباً لا تعزُّ نساؤهُ   وإن طارَ فوقَ الفرقدينِ ، ذليلُ
وكلُّ نهارٍ لا يكنّ شموسَهُ   فذلكَ ليلٌ حالكٌ وطويلُ
وكلُّ سرورٍ غيرهنّ كآبةٌ   وكلُّ نشاطٍ غيرهنّ خمولُ

رثاء *

أودى فُتُورُ الفرقدينِ ضئيلُ   وعلى المنازلِ رهبةٌ وذهولُ

خَلَقَ الأسى في قلبِ مَن جهلَ الأسى

قولُ المخبِّرِ : مـاتَ رافائيلُ

فمنَ الجوى بينَ الضلوعِ صواعقٌ   وعلى الخدودِ منَ الدموعِ سيولُ

قالَ الذي وجدَ الأسى فوقَ البكا   وبكى الذي لا يستطيعُ يقولُ

يا مؤنسَ الأمواتِ في أرماسِها   في الأرضِ بعدكَ وحشةٌ وخمولُ

لا الشمسُ سافرةٌ ولا وجهُ الثرى   حالٍ ، ولا ظلُّ الحياةِ ظليلُ

ما زالَ هذا الكونُ بعدكَ مثلَهُ   لكنَّ نورَ الباصراتِ كليلُ

نبراسُنا في ليـلِ كلِّ مُلِمَّةٍ   الليلُ بعدكَ حالكٌ وطويلُ

هبني بيانكَ ، إنَّ عقلي ذاهلٌ   ساهٍ وغربُ يراعتي مفلولُ

قد فتَّ في عضدِ القريضِ وهدَّهُ   هولُ المصابِ ، فعقدُهُ محلولُ

مالي أرى الدنيا كأنّي لا أرى   أحداً كأنَّ العالمينَ فضولُ

(*) المثلث الرحمة المغفور له المطران رفائيل هواويني .

أبكي إذا مرَّ الغناءُ بمسمعي   فكأنَّ شدوَ الشادياتِ عويلُ

نفسي التي علَّلتني بلقائِهِ   اليومَ لا أمـلٌ ولا تعليلُ

ذوبي فـإنَّ العلمَ مادَ عمادُهُ   والدينَ أغمِدَ سيفُهُ المسلولُ

هذا مقامٌ لا التفجُّعُ سُبَّةٌ   فيهِ ولا الصبرُ الجميلُ جميلُ

ما كنتُ أدري قبلَ طارَ نعيُّهُ   أنَّ النفوسَ منَ العيونِ تسيلُ

ما أحمقَ الإنسانَ يسكنُ للمنى   والموتُ يخطرُ حولَهُ ويجولُ

يهوى الحياةَ كأنّما هو خالدٌ   أبداً ويعلـمُ أنَّهُ سيزولُ

ومنَ العجائبِ أن يحنَّ إلى غدٍ   وغدٌ ، وما يأتي بهِ ، مجهولُ

لا تركنَنَّ إلى الحياةِ فإنَّهـا   دنيا هلوكٌ للرجالِ قتولُ

سكتَ الذي راضَ الكلامَ وقادَهُ

حتى كأنَّ لسانَهُ مكبولُ

يا قائلَ الخطبِ الحسانِ كأنَّها   لجمالِها ، الإلهـامُ والتنزيلُ

إنْ كانَ ذاكَ الوجهُ حجَّبَهُ الثرى

للنجمِ في كبدِ السماءِ أفولُ

ليسَ الحِمامُ بناقدٍ لكنَّما   قدرُ العظيمِ على العظيمِ دليلُ

نمْ تحرسِ الأملاكُ قبرَكَ إنَّهُ   فيهِ الوقارُ وحولَهُ التبجيلُ

فلكم قطعتَ الليلَ خافَ نجمُهُ   متهجِّداً ، والساهرونَ قليلُ

مُستنزلاً عفوَ الإلهِ عنِ الورى … حتى كأنّكَ وحدكَ المسئولُ

تبغي اللذاذاتِ النفوسُ وتشتهي … واللهُ ما تبغيهِ والإنجيلُ

لولا مدارسُ شدتَها وكنائسٌ … ما كانَ إلّا الجهلُ والتعطيلُ

أنفقتَ عمرَكَ في الإلهِ مجاهداً … أجرُ المجاهدِ في الإلهِ جزيلُ



المرأة والمرآة

أقامتْ لدى مرآتِها تتأمّلُ … على غفلةٍ ممّنْ يلومُ ويعذلُ

وبينَ يديها كلّما ينبغي لِمَنْ … يصوّرُ أشباحَ الورى ويمثّلُ

منَ الغيدِ تُغلي كلَّ ذاتِ ملاحةٍ … كما باتَ يغلي صاحبَ المالِ مرمِلُ

تغارُ إذا ما قيلَ تلكَ مليحةٌ … يطيبُ بها للعاشقينَ التغزّلُ

فتحمرُّ غيظاً ثمّ تحمرُّ غيرةً … كأنَّ بها حمّى تجيءُ وتُقفِلُ

وتُضمِرُ حقداً للمحدّثِ لو درى … بهِ ذلكَ المسكينُ ما كادَ يهزلُ

أثارَ عليهِ حقدَها غيرَ عامدٍ … وحقدُ الغواني صارمٌ لا يفلّلُ

فلو وجدتْ يوماً على الدهرِ غادةً … لأوشكَ منْ غلوائهِ يتحوّلُ

فتاةٌ هي الطاووسُ عُجباً وذيلُها ، … ولمْ يكُ ذيلاً ، شعرُها المتهدّلُ

سعتْ لاحتكارِ الحسنِ فيها بأسرِهِ … وكمْ حاولتْ حسناءُ ما لا يؤمّلُ

وتجهلُ أنّ الحسنَ ليسَ بدائمٍ … وإنْ هوَ إلّا زهرةٌ سوفَ تذبلُ

وأنّ حكيمَ القومِ يأنفُ أنْ يرى … أسيرَ طِلاهِ بعدَ حينٍ سينصلُ

وكلُّ فتى يرضى بوجهٍ منمّقٍ … منَ الناعماتِ البيضِ فهو مغفّلُ

إذا كانَ حسنُ الوجهِ يدعى فضيلةً … فإنّ جمالَ النفسِ أسمى وأفضلُ

ولكنّ أسماء بالغيدِ تقتدي — وكلُّ الغواني فِعلُ أسماء تفعلُ

فلو أمنتْ سُخطَ الرّجالِ وأيقنَتْ — بسخطِ الغواني أوشكتْ تترجّلُ

قَدِ اتخذَتْ مرآتَها مُرشداً لها — إذا عنَّ أمرٌ أو تعرّضَ مُشكِلُ

وما ثمّ من أمرٍ عويصٍ وإنّما — ضعيفُ النُّهى في وَهْمِهِ السّهلُ مُعضِلُ

تُكتِّمُ عمّنْ يَعقِلُ الأمرَ سرَّها — ولكنها تُفشيهِ ما ليسَ يَعقِلُ

فلو كانتِ المرآةُ تحفظُ ظلّها — رأيتَ بعينيكَ الذي كُنتَ تجهلُ

وزادَ بها حبُّ التبرّجِ أنّهُ — حبيبٌ إلى فتيانِ ذا العصرِ أوّلُ

ألَمّوا بهِ حتى لقدْ أشبهوا الدُّمى — فما فاتَهُمْ، واللهِ، إلا التكحّلُ

فتى العصرِ أضحى في تطرِّيهِ حجةً — تُعاتلنا فيهـا النساءُ فتقتلُ

إذا ابتذلتْ حسناءُ ثمّ عذلتَها — تولّتْ وقالتْ: كلُّكمْ متبذّلُ

•

عصر الشبيبة

القصيدة التي ألقاها الشاعر في الحفلة التكريمية التي أقامها له صديقه السيد مالك الدرماني في فندق روزفلت بكاليفورنيا .

يا ليتما رَجعَ الزمانُ الأوّلُ — زَمَنُ الشبابِ الضاحكُ المتهلّلُ

عهدٌ ترحلتِ البشاشةُ إذ مضى — وأتى الأسى فأقامَ لا يترحّلُ

ولّى الصبا وتبددتْ أحلامهُ — أودى به وبها قضاءٌ حُوّلُ

حصدتْ أناملهُ المنى فتساقطتْ — صرعى، كما حصدَ السنابلَ منجلُ

فالروحُ قيثارٌ وهتْ وتقطعتْ — أوتارُهُ، والقلبُ قفرٌ ممحلُ

والشيبُ يضحكُ برْقُهُ في لِمّتي — هذي الضواحكُ، يا فؤاديَ، أنصلُ

أشتاقُ عصركِ، يا شبيبةُ، مثلما — يشتاقُ للماءِ النميرِ الأيّلُ

إذ كانتِ الدنيا بعيني هيكلاً — فيهِ إلاهاتُ الجمـالِ ترتلُ

من كلِّ حسناءَ كأنَّ حديثَها — السلوى أو الوحيُ الطهورُ المُنزَلُ

وأنا وصحبي لا نفكّرُ في غدٍ — فكأنَّ ليسَ غدٌ ولا مستقبلُ

نلهو ونلعبُ لا نُبـالي ضمّنا — كوخٌ حقيرٌ أم حوانا منزلُ

تتوهَّمُ الدنيا لِفَرْطِ غرورِنا   كَمُلَتْ بنا وبغيرِنا لا تكمُلُ

ونخالُ أنّ البدرَ يطلعُ في الدجى   كيما يسامرَنا فـــلا نتململُ

ونظنُّ أنَّ الروضَ ينشرُ عطرَهُ   من أجلنا ، ولنا يغنّي البلبلُ

فكأنما الأزهارُ سِرْبَ كواعِبٍ   وكأنما هُوَ شاعرٌ يتغزّلُ

في كلِّ منظورٍ نراهُ ملاحةٌ   وسعادةٌ في كلِّ ما نتخيّلُ

لا شيء يزعجُ في الحياةِ نفوسَنا   لا طارئٌ، لا عارضٌ، لا مشكلُ

فكأننا في عـــالمٍ غيرِ الذي   تتزاحمُ الأيدي بِهِ والأرجلُ

وكأننا رَهْطُ الكواكبِ في الفضا   معراجُنا في الأرضِ لا تتزلزلُ

ألناسُ في طَلَبِ المعاشِ وهمُّنا   كأسٌ مُشَعشعةٌ وطَرْفٌ أكحلُ

كم عنّفونا في الهوى واسترسلوا   لو أنهم عَرَفوا الهوى لم يعذلوا

ولو انهُمْ ذاقوا كما ذُقنا الرؤى   شبعتْ نفوسهُمُ وإنْ لم يأكلوا

زعموا تبذُّلَنا ولم يتبذلوا ،   إنَّ الحقيقةَ كلُّنا متبذِّلُ

حُرموا لذاذاتِ الهُيامِ وفاتَنا   دَرَكُ الحطامِ ، فأينا هو أجهلُ ؟

إني تأملتُ الأنامَ فراعني   كيفَ الحياةُ بهمْ تجدُّ وتهزلُ

لا يضبطونَ مع الصُّروفِ قيادَهُمْ   إلا كما ضَبَطَ المياهَ المنخلُ

بينا الفتى ملءُ النواظرِ والنُّهى   فـــ اذا به رَقْمٌ خفيٌّ مُهمَلُ

يا صاحبي ، والعمرُ ظلٌّ زائلٌ ،   إنْ كنتَ تأملُ فيهِ أو لا تأملُ

ألذكرُ أثمنُ ما اقتنيتَ وتقتني   والحبُّ أنفسُ ما بذلتَ وتبذلُ

قيلَ اغتنى زيدٌ فليتكَ مثلَهُ   أنا مثلُهُ ، إنْ لم أقلْ ، أنا أفضلُ

ألشمسُ لي وله ، ولألاءُ الضحى   والنيِّراتُ ، ومثلنا المتسوِّلُ

أمـــا النُّضارُ فإنه ، يا صاحبي   عَرَضٌ يزولُ وسلعةٌ تتنقّلُ

ما دمتُ في صحبي ودامَ وفاؤهُمْ   فأنا الغنيُّ الحقُّ لا المتموِّلُ

أنا لستُ أعدلُ بالمناجمِ واحداً   وأبيعُ من عقلوا بما لا يُعقَلُ

ريح الشمال

سألتُ ، وقدْ مرّتِ الشمألُ … تنوحُ وآونـــةً تُعْوِلُ
إلى أيما غايةٍ تركضينَ ؟ … ألا مستقرٌ ؟ ألا موئلُ ؟
وكم تعولينَ، وكم تصرخين ، … كعصفورةٍ راعها الأجدلُ ؟
لقد طرَحَ الغصنُ أوراقهُ … من الذعرِ، واضطربَ الجدولُ
وضلَّ الطريقَ إلى عشهِ … فهامَ على وجههِ البلبلُ
وغطى السُّهى وجهَهُ بالغمامِ … كما ينزوي الخائفُ الأعزلُ
وكادتْ تخرُّ لديكِ الهضابُ … وتركضُ قدّامكِ الأجبلُ

***

أبنتَ الفضاءِ أضاقَ الفضاءُ … فأنتِ إلى غيره أميلُ ؟
أغاظكِ أنّ الدجى لا يزولُ … وأن الكواكبَ لا تأفلُ ؟
أتبكينَ آمالكِ الضائعاتِ ؟ … هل الريحُ مثل الورى تأملُ ؟
أيعدو وراءكِ جيشٌ كثيفٌ ؟ … أمثلكِ يرهبه الجحفلُ ؟
وما فيكِ عضوٌ ولا مفصلٌ … فتقطعُ أوصالكِ الأنصلُ

فجاوبني هاتفٌ في الظلام : … غلطتَ فما هذه الشمألُ
ولكنها أنفسُ الغابرينَ … تجوسُ الديارَ ولا تنزلُ
فقلتُ: أينهضُ مَنْ في القبورِ … وفوقهمُ التربُ والجندلُ ؟
أجابَ الصدى ضاحكاً ساخراً … إلى كم تحارُ ، وكم تسألُ ؟
وترفعُ عينيكَ نحوَ السماء … وليستْ تُبالي ولا تحفلُ ؟
من البحرِ تصعدُ هذي الغيوثُ … وتهطلُ في البحرِ إذ تهطلُ
وفي الجوِّ إنْ خفيتْ نسمةٌ … وفي الأرضِ إنْ نضبَ المنهلُ

***

لقد كان في أمسِ ما قبلهِ … وفي غدهِ يومُكَ المقبلُ
عجبتُ لباكٍ على أوّلٍ … وفي الآخرِ النائحُ الأولُ

***

هُمُ في الترابِ الذي نحتسي … وَهُمْ في الطعامِ الذي نأكلُ
وَهُمْ في الهواءِ الذي حولنا … وفي ما نقولُ وما نفعلُ
فمَنْ حسِبَ العيشَ دنيا وأخرى … فذا رجلٌ عقله أحولُ

●

هملت

يا نبأ سرّ به مسمعي — حتى تمنّى أنه النّاقل

أنعش في نفسي المنى مثلما — يحيي الجديب الواكف الهاطل

عرفت منه أنّ ذاك الحمى — بالصّيد من فتياننا آهل

عصابة كالعقد في «أكرن» — يعتزّ فيها الفضل والفاضل

من كلّ مقدام رجيح النُّهى — كالسّيف إذ يصقله الصّاقل

البدر من أزراره طالع — والغيث من راحته هاطل

وكلّ طلق الوجه موفوره — في بردتيه سيّد ماثل

***

شبيبة الشّرق؛ انعمي واسلمي — كي تسلم الآمال والآمل

بكم وبالرّاقين أمثالكم — يفتخر العالم والعامل

بعثتم «هملت» من رمسه — «فهملت» بينكم ماثل

تمشي ويمشي الطّيف في إثره — كلاهما ممّا به ذاهل

لا يضحك السّامع من هزله — كم عظة جاء بها الهازل

رواية يظهر فيها لكم — كيف يداجي الصّادق الخاتل

وتنكث المرأة ميثاقها — وكيف يجزى المجرم القاتل

وإنّما الانسان أخلاقه — لا يستوي النّاقص والكامل

والنّفس كالمرآة إن أهملت — يعلو عليها الصّدأ الآكل

والنّاس أدوار، فذا صاعد — يراود الشّهب وذا نازل

والدّهر حالات، فيوم به — نحس، ويوم سعده كامل

فمثّلوا الجهل وأضراره — حتّى يعادي جهله الجاهل

ومثّلوا الفضل وآياتـه — كي يستزيد الرّجل الفاضل

وصوّروا المجد بلألائه — عسى يفيق الهاجع الغافل

ويرجع الشّرق إلى أوجه — كما يعود القمر الآفل

وابنوا إلى الآتين من بعدكم — يبن لمن يخلفه القابل

مـا دمتم للحقّ أنصاره — هيهات أن ينتصر الباطل

لِمن الديار؟

لِمن الدِّيارُ تَنوحُ فيها الشَّمألُ ... ما ماتَ أهلوها ولم يترحَّلوا

ماذا عَراها، ما دَها سُكّانَها ... يا لَيتَ شِعري كُبِّلوا أم قُتِّلوا؟

مَثَّلتُها فتَمثَّلَتْ في خاطِري ... دِمَناً لِغيرِ الفِكرِ لا تَتمثَّلُ

تَمشي الصَّبا مِنها بِرَسْمٍ دارِسٍ ... لا رِكزَ فيهِ كأنَّما هي هَوجَلُ

وإذا تأمَّلَ زائِرٌ آثارَهـا ... شَخَصَتْ إليهِ كأنَّها تتأمَّلُ

أصبحتُ أندبُ أُسدَها وظِباءَها ... ولَطالما أبصَرتَني أتغزَّلُ

أيّامَ أ طْرُ في الحِمى مُتهلِّلا ... وأرى الدِّيارَ كأنَّهـا تتهلَّلُ

وأروحُ في ظلِّ الشَّبابِ وأغتدي ... جَذلانَ لا أشكو ولا أتعلَّلُ

إذ كلُّ طَيرٍ صادِحٌ مُترنِّمٌ ... إذ كلُّ غُصنٍ يانِعٌ مُتهدِّلُ

والأرضُ كاسِيةٌ رِداءً أخضراً ... فكأنَّها ديباجةٌ أو مُخمَلُ

يجري بها، فوقَ الجُمانِ مِنَ الحَصى ... بَينَ الزَّبرجَدِ والعَقيقِ، الجَدولُ

والزَّهرُ في الجنّاتِ فَيّاحُ الشَّذا ... بِنَدى الصَّباحِ مُتوَّجٌ ومُكلَّلُ

والشَّمسُ مُشرِقةٌ يَلوحُ شُعاعُها ... خَلَلَ الغُصونِ، كما تَلوحُ الأنصُلُ

والظِّلُّ مَمدودٌ على جَنباتِها ... والماءُ مَغمورٌ بِهِ المُخضَوضِلُ

للهِ كيفَ تبدَّلَتْ آياتُها ... مَن كانَ يحسبُ أنَّها تتبدَّلُ؟..

***

زَحفَ الجرادُ بقَضِّهِ وقَضيضِهِ ... سَيرَ الغَمامِ إذا زَفَتهُ الشَّمألُ[1]

حَجبَ السَّماءَ عنِ النَّواظرِ والثَّرى ... فكأنَّهُ اللّيلُ البهيمُ الأليَلُ

مِن كلِّ طيّارٍ أرقَّ جناحَهُ ... لَفحُ الحَرورِ وطولُ ما يتنقَّلُ

عَجِلٍ إلى غـايـاتِهِ مُستوفِزٍ ... أبداً يَشُدُّ العجزَ مِنهُ الكلكلُ

خَشِنِ الاهابِ كأنَّهُ في جَوشنٍ ... وكأنَّما في كلِّ عُضوٍ مِنجَلُ[2]

وكأنَّما حَلقَ الدُّروعِ عُيونُهُ ... وكأنَّهنَّ شَواخِصاً تتخيَّلُ

مَصقولةٌ صَقلَ الزُّجاجِ يَخالُها ... في مَعزِلٍ عن جِسمِهِ، المُستقبِلُ

ومِنَ العَجائبِ معْ صَفاءِ أديمِها ... ما إنْ تَرِفُّ كأنَّما هي جَندَلُ[3]

ضَيفٌ أخفَّ على الهواءِ مِنَ الهوا ... لكِنَّهُ في الأرضِ مِنها أثقَلُ

مَلأَ المَسارحَ والمَطارِحَ والرُّبى ... فإذا خَطَت فَعلَيهِ تَخطو الأرجُلُ

حَصَدَ الّذي زرَعَ الشُّيوخُ لِنَسْلِهِم ... وقَضى على القُطّانِ أن يتحوَّلوا

مـا تمَّ مِن فَنَنٍ إلى أوراقِهِ ... يأوي، إذا اشتدَّ الهَجيرُ، البُلبُلُ

---

(١) بقضهم وقضيضهم : أي جميعهم .

(٢) الجوشن : الدرع .

(٣) الجندل : الصخر العظيم .

وإذا القضاء رمى البلاد ببؤسه   جف السحاب بها وجف المنهل

***

وقع الذي كنا نخاف وقوعه   فعلى المنازل وحشة لا ترحل
أشتاق لو أدري بحالة أهلها   فإذا عرفت وددت أني أجهل
لم تبق أرجال الدبى في أرضهم   ما يستظل به ولا ما يؤكل[1]
أمست سماؤهم بغير كواكب   ولقد تكون كأنها لا تأفل
يمشون في نور الضحى وكأنهم   في جنح ليل حالك لا ينصل
فإذا اضمحل النور واعتكر الدجى   فالخوف يعلو بالصدور ويسفل
يتوسلون إلى الظلوم وطالما   كان الظلوم إليهم يتوسل
أمسى الدخيل كأنه رب الحمى   وابن البلاد كأنه متطفل
يقضي، فهذا في السجون مغيب   رهن، وهذا بالحديد مكبل
ويرى الجمال كأنما هو لا يرى   ويرى العيوب كأنما هو أحول
حال أشد على النفوس من الردى   الصاب شهد عندها والحنظل

***

مالي أنوح على البلاد كأنما   في كل أرض لي أخ أو منزل
يا ليت كفاً أضرمت هذي الوغى   يبست أناملها وشل المفصل

---

(١) الدبى: صغار الجراد.

تتحول الأفلاك عن دورانها   والشر في الانسان لا يتحول
ما زال حتى هاجها من هاجها   حرباً يشيب لها الرضيع المحول
فالشرق مرتعد الفرائص جازع   والغرب من وقعاتها متزلزل
والأرض بالجرد الصواهل والقنا   ملأى تجيش كما تجيش المرجل
والطود آفات تلوح وتختفي   والسهل أرصاد تجيء وتقفل
والجو بالنقع المثار ملثم   والبحر بالسفن الدوارع مثقل
في كل منفرج الجوانب جحفل   لجب ينازعه عليه جحفل
مات الحنان فكل شيء قاتل   وهما القضاء فكل عضو مقتل
فمعفر بثيابه متكفن   ومجرح بدمائه متسربل
كم ناكص عن مأزق خوف الردى   طلع الردى من خلفه يتصلصل
شقي الجميع بها وعز ثلاثة   ذئب الفلاة ونسرها والأجدل
حامت على الأشلاء في ساحاتها   فرقاً تعل من الدماء وتنهل
لهفي على الآباء كيف تطوحوا   لهفي على الشبان كيف تجندلوا
حرب جناها كل عات غاشم   وجنى مرارتها الضعيف الأعزل
ما للضعيف مع القوي مكانة   إن القوي هو الأحب الأفضل
تتنصل السواس من تبعاتها   إن البريء الذيل لا يتنصل
قد كان قتل النفس شر جريمة   واليوم يقتل كل من لا يقتل

والمالكون على الخلائق، عدلهم | جور، فكيف إذا هم لم يعدلوا
كتبوا بمسفوك النجيع نعوتهم | وبنوا على الجثث العروش وأثّلوا
صرف الجنود عن الملوك وظلمهم | قول الملوك لهم: جنود بُسَّل
يا شرّ آفات الزمان المنقضي | لا جاءنا فيك الزمان المقبل

***

إن أبكِ سوريا فقبلي كم بكى | «أعشى» منازل قومه «والأخطل»
ما في الديار وإنما قطّانها | إن النفوس لها المقام الأول
يا قوم إن تنسوا فلا تنسوهم | أو تبخلوا فعليهم لا تبخلوا
لبّوا نداء ذوي المروءة والندى | ليقال: أمّ الشام أمّ مشبل
لا تبتغوا شكر الأنام وأجرهم | عفو الإله هو الثناء الأجزل
في كل يوم بينكم مسترفد | أو طالب أو راهب متجوّل
يأتيكم بادي الوفاض فينثني | وكأنما في بردِه المتوكّل
يبني بمالكم القصور لأهله | وقصوركم أثوابكم «والمعمل»
قد حان أن تستيقظوا فاستيقظوا | كم تخجلون وكلّهم لا يخجل
يا ليت من بذلوا نضارهم لمن | خبأوه في أكياسهم لم يبذلوا
بل ليتهم جادوا على ذي فاقة | فحرى بعطف المحسنين المرمل[1]

(1) الحرا: الخليق، يقال: بالحرا أن يكون ذلك، وترسم بالمقصورة، بمعنى الأخلق والأجدر.

يا من نريد صلاحه وصلاحنا | إن العدول عن الهوى بك أجمل
أيبيت قومك فوق أشواك الغضى | وتبيت تخطر بالحرير وترفل؟
أين الهدى، يا من يبشّر بالهدى | أين التقى، يا أيها المزّمّل
ظنّت بك الناس الظنون وإنني | لأخاف بعد الظن أن يتقوّلوا
لك مقلة فانظر بها متأملاً | قد يستفيد الناظر المتأمل
لا قدر للجهلاء حتى يعملوا | لا فضل للعلماء حتى يعملوا
سكّان لبنان العزيز وجلّق | حيّاكم عنّا النسيم المرسل
لا ناب غير عدوّكم ما نابكم | وبلغتم ما تأملون ونأمل
كم تتّقون الطارئات ونتّقي | كم تحملون الكارثات ونحمل
لو يعقل القدر الخؤون عذلته | وعذلته، لكنّه لا يعقل
أبكي وأستبكي العيون عليكم | أيّ الدموع عليكم لا تهطل
إن تغفل الدنيا ويغفل أهلها | عنكم، فخالق أهلها لا يغفل

الفتى الأفضل

(معربة)

مضى زَمنٌ كانَ فيهِ الفتى   يباهي بما قومهُ أثّلوا

ويرفعهُ في عُيونِ الأنامِ   ويخفضُ من قدرهِ المنزلُ

فلا تقعدنْ عن طلابِ العلى   وتعذلْ بلادَكَ إذ تُعذلُ

فإنَّ الخلائقَ حتى عِداكَ   متى ما سبقتهمُ هلَّلوا

فثابرْ بجدٍّ على نَيلِها   فليسَ يخيبُ الذي يعملُ

وكنْ رجلاً ناهضاً ينتمي   إلى نفسهِ عندما يُسألُ

فلستَ الثيابَ التي ترتدي   ولستَ الأسامي التي تحملُ

ولستَ البلادَ التي أنبتتكَ   ولكنَّما أنتَ ما تفعلُ

إذا كنتَ من وطنٍ خاملٍ   وفزتَ فأنتَ الفتى الأفضلُ

•

١٩١٦

كَمْ ، قبلَ هذا الجيلِ ، ولّى جيلُ   هَيهاتَ ، لَيسَ إلى البَقاءِ سَبيلُ

ضَحِكَ الشّبابُ مِنَ الكُهولِ فأغرَقوا   واستَيقَظوا ، فإذا الشّبابُ كُهولُ

تأتي وتمضي والزّمانُ مُخلَّدٌ   الصُّبحُ صُبحٌ والأصيلُ أصيلُ

حَرٌّ وقَرٌّ يُبلِيانِ جُسومَنا   لَيتَ الزّمانَ ، كما نحولُ ، يَحولُ

إنَّ التّحوّلَ في الجَمادِ تقلُّصٌ   في الحيِّ موتٌ ، في النّباتِ ذبولُ

قِفْ بالمقابرِ صامِتاً مُتأمِّلاً   كَم غابَ فيها صامِتٌ وسَؤولُ

وسَلِ الكَواكِبَ كَم رأتْ مِن قَبلِنا   أُمماً ، وكَم شَهِدَ النُّجومَ قَبيلُ

تَتَبدَّلُ الدُّنيا تَبدُّلَ أهلِها   واللهُ لَيسَ لأمرِهِ تَبديلُ

. . .

يا طالِعاً لَفتَ العُيونَ طُلوعُهُ   بَعدَ الطُّلوعِ ، وإنْ جهلتَ ، أفولُ

عَطفاً ورِفقاً بالقُلوبِ فإنّما   حِقدُ القُلوبِ عَلى أخيكَ طَويلُ

أنظُرْ فوَجهُ الأرضِ أغبَرُ شاحِبٌ   واسمَعْ ! فأصواتُ الرِّياحِ عَويلُ

ومنَ الحَديدِ صَواعِقٌ ، ومِنَ العَجا   جِ غَمائمٌ ، ومِنَ الدِّماءِ سُيولُ

ما كنتُ أعلمُ قبلما حسَّ الوغى — أنَّ الضواري والأنامَ شكولُ
يا أرضَ أوربّا ويا أبناءَها — في عنقِ من هذا الدمُ المطلولُ ؟
في كلِّ يومٍ منكمُ أو عنكمُ — نبأٌ تجيءُ به الرواةُ مهولُ
مزّقتمُ أقسامكم وعهودكم — ولقد تكونُ كأنها التنزيلُ
وبعثتمُ الأطماعَ فهي جحافلٌ — من خلفهنَّ جحافلٌ وخيولُ
ونشرتمُ الأحقادَ فهي مدافعٌ — وقذائفٌ وأسنّةٌ ونصولُ
لو لم تكن أضغانكم أسيافكم — أمسى بها، مما تسامُ، فلولُ
علّمتمُ «عزريلَ» في هذي الوغى — ما كانَ يجهلُ علمهُ عزريلُ
إن كانَ هذا ما يُسمّى عندكمْ — علماً، فأينَ الجهلُ والتضليلُ
إنْ كانَ هذا ما يُسمّى عندكم — ديناً فأينَ الكفرُ والتعطيلُ
عوداً إلى عصرِ البداوةِ، إنّهُ — عصرٌ جميلٌ أن يُقالَ جميلُ
قابيلُ، يا جدَّ الورى، نمْ هانئاً — كلُّ امرىءٍ في ثوبهِ قابيلُ
لا تفخروا بعقولكمْ ونتاجها — كانتْ لكمْ، قبلَ القتالِ، عقولُ
لا أنتمُ أنتمْ ولا أرباضُكمْ — تلكَ التي فيها الهناءُ يقيلُ
لا تطلبوا بالمرهفاتِ ذحولكمْ — في نيلها بالمرهفاتِ ذحولُ
إنَّ الأنامَ على اختلافِ لغاتهم — وصفاتهم، لو تذكرونَ، قبيلُ

. . .

يا عامَنا ! هل فيكَ ثمّةَ مطمعٌ — بالسلمِ أم هذا الشقاءُ يطولُ
مرّتْ عليها حِجّتانِ ولم تزلْ — تتلو الفصولَ مشاهدٌ وفصولُ
لم يعشقِ الناسُ الفناءَ وإنما — فوقَ البصائرِ والعقولِ سدولُ
أنا إن بسمتُ، وقد رأيتكَ مقبلاً — فكما يهشُّ لعائديهِ عليلُ
وإذا سكتُّ إلى الهمومِ فقلّما — رضيَ القيودَ الموثقُ المكبولُ
لا يستوي الرجلانِ، هذا قلبهُ — خالٍ وهذا قلبهُ (لجهولُ)
لا يخدعنَّ العارفونَ نفوسهم — إنَّ المخادعَ نفسهُ لجهولُ
في الشرقِ قومٌ لم يسلّوا صارماً — والسيفُ فوقَ رؤوسهم مسلولُ
جهلوا ولم تجهلْ نفوسهمُ الأسى — أشقى الأنامِ العارفُ المجهولُ
أكبادهمْ مقروحةٌ كجفونهم — وزفيرهمْ بأنينهمْ موصولُ
أمّا الرجاءُ، وطالما عاشوا به — فالدمعُ يشهدُ أنّهُ مقتولُ
واليأسُ موتٌ غيرَ أنَّ صريعهُ — يبقى، وأمّا نفسهُ فتزولُ
ربّاهُ، قد بلغَ الشقاءُ أشدّهُ — رحماكَ إنَّ الراحمينَ قليلُ

. . .

في اللهِ والوطنِ العزيزِ عصابةٌ — نُكِبوا، فهذا عانٍ وذاكَ قتيلُ
لو لم يمتْ شممُ النفوسِ بموتهم — [illegible] الشآمُ، لموتهم، والنيلُ

يا نازحينَ عَنِ الشّآمِ تَذَكّروا ... مَنْ في الشّآمِ وما يَليهِ نُزولُ
هُمْ المَمالِكُ في الجِهادِ، وهَمُّكم ... قالٌ تَسيرُ بِهِ الطُّروسُ وقيلُ
هُبّوا، اعْمَلوا لِبِلادِكُمْ ولِنَسْلِكُمْ ... بِئسَ الحَياةُ سَكينَةٌ وخُمولُ
لا تَقْبِضوا الأيْدي فَهذا يَوْمُكُمْ ... شَرُّ الوَرى جَعْدُ البَنانِ بَخيلُ
وَعَدَ الإلهُ المُحسنينَ بِبِرِّهِ ... وكَما عَلِمْتُمْ، وَعْدُهُ تَنْويلُ

بنت سورية

لَيسَ يدري الهَمَّ غَيرُ المُبتَلي
طالَ جُنحُ اللّيلِ أوْ لَمْ يَطُلِ

ما لِهذا النَّجمِ مِثلي في الثَّرى
طائرَ النَّوْمِ شَديدَ الوَجَلِ

أتَراهُ يَتَّقي طارِقَةً
أمْ بِهِ أنّي غَريبُ المَنزِلِ ؟

كلَّما طالَعَتُ خَطباً جَلَلا
جاءَني الدَّهرُ بِخَطبٍ جَلَلِ

أشتكي اللّيلَ ولَوْ وَدَّعتُهُ
بِتُّ مِن هَمّي بِلَيلٍ ألْيَلِ

يا بَناتِ الأُفقِ ما لِلصَّبِّ مِنْ
مُسعِدٍ في النّاسِ، هل فيكُنَّ لي؟

لا عَرفْتَنَّ الرّزايا إنّها
شَيّبَتْ رأسي ولَمْ أكتهِلِ

سَهدتْ سُهْدِي الدّراري إنّما
شَدَّ ما بَيْنَ المُعنّى والخَلي

ليتَ شِعْري ما الذي أعجَبَها
فهيَ لا تنفكُّ ترنو من علِ

أنا لا أغبِطُها خــالِدَةً
ولقــدْ أحسُدُها لَمْ تَعْقلِ

كلّما راجَعْتُ أحلامَ الصِبى
قلتُ يا ليْتَ الصِبى لمْ يَزَلِ !..

أيُّها القلبُ الذي في أضلعي
إنّما اللذّةُ جهْلًا فاجْهلِ [1]

تَجمُلُ «الرقّةُ» في الغضبِ فإن
كنتَ تهْواها فكنْ كالمنصُلِ

---

(1) لعل «جهلا» مفعول «فاجهل»، وخبر «اللذة» محذوف، أو أن «جهلا» نصبت على المصدرية، أو التقدير: انما اللذة أن تجهل جهلا ... فاجهل.
(زهير)

هيَ في الغيدِ الغواني قوّةٌ
وهيَ ضَعْفٌ في فؤادِ الرّجلِ

لا يغرَّ الحُسْنُ ذا الحُسنِ فقدْ
يَصْرَعُ البُلبلَ صوتُ البُلبلِ

تُقتَلُ الشاةُ ولا ذَنْبَ لهـا
هيَ، لوْلا ضَعفُها، لم تُقتَلِ

إنْ تكنْ في الوحْشِ كنْ ليثَ الشّرى
أو تكنْ في الطّيرِ كُنْ كالأجدلِ

أو تكنْ في النّاسِ كنْ أقوامُهُمْ
ليْسَتِ العلياءُ حظَّ الوُكّلِ!

. . .

ما لِقومي لا وَهى حبلُهُمُ
قنِعوا من دهرهِمْ بالوَشَلِ

أنا مِنْ أمرهِمُ في شُغُلٍ
وَهُمُ عن أمرِهِمْ في شُغُلِ

كلما فكرتُ في حاضرِنا
عاقني اليأسُ عنِ المستقبلِ

نحنُ في الجهلِ عبيدٌ للهوى
ومعَ العلمِ عبيدُ الدوَلِ

نعشقُ الشمسَ ونخشى حرَّها
ما صعِدنا وهيَ لمـا تنزلِ

قدْ مشى الغربُ على هامِ السُّهى
ومشينا في الحضيضِ الأسفلِ

سجّلَ العـارَ علينا معشرٌ
سجّلوا المرأةَ بينَ الهمَـلِ

فهي إمّـا سلعةٌ حاملةٌ
سلعـاً أو آلةٌ في معملِ

أرسلوها تزرعُ الأرضَ خطًى
وتباري كلَّ بيتٍ مثلِ

تتهاداها الموامي والرُّبى
فهي كالدينارِ بينَ الأنملِ

لا تُبالي القيظَ يشوي حرُّهُ
لا ولا تحذرُ بردَ الشمألِ

ولهـا في كلِّ بابٍ وقفةٌ
كامرىءِ القيسِ حِيالَ الطللِ

تتّقي قولَ «اغربي» خشيتَها
قولةَ القائلِ «يا هذي ادخُلي»

فهيَ كالعصفورِ وافى صادياً
فرأى الصيّادَ عِندَ المنهلِ

كامناً، فانصاعَ يذويهِ الظَّما
ثمّ يُقصيهِ اتّقـاءُ الأجلِ

ولكمْ طافتْ بهِ آملةً
وانثنتْ تقطعُ خيطَ الأملِ

ولكمْ مدّتْ إلى الرِّفدِ يداً
خُلقتْ في مثلِهـا للقُبلِ

. . .

ما بها؟ لا كانَ شرّاً ما بها
ما لها مِنْ أمرِها في خبلِ؟

سائِلوها أوْ سَلوا عَنْ حالِها،
إنْ جَهلتمْ، كلَّ طِفلٍ مُخولِ

في سَبيلِ المالِ أوْ عُشّاقِهِ
تَكدحُ المرأةُ كدحَ الابلِ

ما تَراها وَهيَ لا حولَ لها
تحتَ عِبءٍ فادحٍ كالجَبَلِ

شُدّتِ الأمراسُ في ساعِدِها
مَنْ رأى الأمراسَ حولَ الجدولِ؟

جَشّموها كلَّ أمرٍ مُعضِلِ
وهيَ لمْ تُخلَقْ لِغيرِ المنزلِ

فإذا فارَقَت الدّارَ ضُحىً
لمْ تعُدْ إلّا قُبيلَ الطَّفَلِ

أَلِفتْ ما عوّدوها مِثلَما
تألفُ الظّبيةُ طعمَ الحنظلِ!

بِنتَ سوريّا التي أبكي بها
هِمّةَ اللّيثِ وروحَ الحَمَلِ

ما أطاعوا فيكِ أحكامَ النُّهى
لا ولا قولَ الكتابِ المُنزَلِ

قدْ أضاعوكِ وما ضيّعتِهِمْ
فأضاعوا كلَّ أمٍّ مُشبِلِ

•

هديتي الى مدارس الشعب بالاسكندرية

ما للهمومِ الطارقاتِ ومـالي ... أسهرنني ورقدْنَ عن أوجالي

أمسَيْنَ ملءَ جوانحي ما نابني ... خطْبٌ ولا خطرَ الغرامُ ببالي

أهوى وقد عبثَ المشيبُ بمفرقي ... ليسَ الغوايةُ للكبيرِ البـالي

ما ثمَّ داءٌ يُستطارُ لهُ الكرى ... مـا ثمَّ غيرُ كآبةٍ وملالِ

أرعى الثواقبَ في الظلامِ كأنها ... زهرُ الحدائقِ أو نثيرُ لآلي

وكأنما شوكُ القتادِ بمضجعي ... وكأنَّ حشوَ وسادتي بلبالي

حتى إذا عكفتْ عليَّ وساوسي ... ونبا الفراشُ نزعتُ للتجوالِ

فخرجتُ كالمنشورِ بعدَ مماته ... وركبتُ متنَ الليلِ غيرَ مُبالِ

وذهبتُ أخترقُ المسالكَ مُدلجاً ... وكأنمـا أطلقتُ من أغلالِ

أسعى وما مِنْ غايةٍ أسعى لها ... سَعْيي إلى أملٍ من الآمالِ

فاستوقفتني ضجةٌ في حـانةٍ ... حبستْ مقاعدَها على الجهّالِ

حاموا على الصهباءِ يرتشفونها ... كالطيرِ حولَ مصفَّقٍ سلسالِ

في غفلةِ العذّالِ في غسقِ الدجى ... إنَّ السعادةَ غفـلةُ العذّالِ

نهبَ الكؤوسِ عقولَهم ونضارَهم ... نهبَ المدبرِ الخادعِ الختّالِ

أمسى يسوقُ إليهمُ آجـالَهم ... وحتوفَهمْ في صورةِ الجريالِ

شرُّ الشرابِ الخمرُ يُصبحُ صبُّها ... قيدَ الضنى ويبيتُ رهنَ خبالِ

يا سالبَ الأرواحِ بعضَ ترفُّقٍ ... يكفيكَ أنكَ سالبُ الأموالِ

لا تدفعنَّ تلكَ النفوسَ إلى الردى ... إنَّ النفوسَ وإنْ صغُرْنَ غوالي

وإذا بمخمورٍ يتيهُ معربداً ... خبِلٌ بهِ ما ذاكَ تيهُ دلالِ

حيرانُ مضطربُ الخطى فكأنما ... قد راحَ يمشي فوقَ جمرٍ صالِ

متخمِّطٌ في سيرِهِ ، متأوِّدٌ ... كالغصنِ بينَ صباً وبينَ شمالِ

عقدَ الشرابُ لسانَهُ ولقد يُرى ... طلْقاً وفكَّ مجامعَ الأوصالِ

فكبا كما يكبو الجوادُ على الثرى ... شُدَّتْ عليهِ فوادحُ الأثقالِ

وتقدَّمَ الشرطيُّ يمشي نحوَهُ ... مشيَ الفخورِ بنفسِهِ المختالِ

متلفتاً عن جانبيْهِ كعاشقٍ ... متلفتٍ حذرَ الرقيبِ القالي

ورأيتُهُ وبنـانُهُ في جيبِهِ ... فعلمتُ سرَّ تلفُّتِ المختالِ

لا تعجبوا ممـا أحدِّثُكم بهِ ... كم تحتَ ذاكَ الثوبِ من نشّالِ

ثمَّ انثنى متبسماً وإذا فتًى ... غضُّ الإهابِ ممزَّقُ السربالِ

وافى فحرَّكَهُ فألفى جثةً ... همدتْ فأجفلَ أيمـا إجفالِ

وحنى عليهِ يضمُّهُ ودموعُهُ ... تنهلُّ مثلَ العارضِ الهطّالِ

وأتى ذويهِ نعيُهُ فتـألّبوا ... والغيدُ تعولُ أيما إعوالِ

أرخصنَ ماءَ الجفنِ ثمَّ أذلْنَهُ ... ولقد يكونُ الدمعُ غيرَ مذالِ

ولقد شهدتُ صِغارَهُ في حيرةٍ … من أمرهم ، تَخفى على الأشبالِ

لا يفقهونَ الحُزنَ غيرَ تأوُّهٍ … ما الحُزنُ غيرُ تأوُّهِ الأطفالِ

ما كنتُ أعلمُ قبلما حَفُوا بهِ … أنَّ الشقيَّ الجدِّ رَبُّ عِيالِ

أسفي عليهِ مُضرَّجاً لم تَمتشقْ … يدُهُ الحسامَ ولم يَسِرْ لِقتالِ

أودى ضحيةَ جَهلِهِ كم بائسٍ … أودى شهيدَ الجَهلِ والاهمالِ

فَرَجعتُ مصدوعَ الفؤادِ أبُكمُ … شَجوي وأندُبُ حالةَ العُمّالِ

باتوا من الأرزاء بينَ مخالبٍ … من دونِهنَّ مخالبُ الرئبالِ

خطرانِ من جَهلٍ وفقرٍ ما الردى … غيرُ اجتماعِ الجَهلِ والاقلالِ

فخذوا بِناصِرِهمْ فإنَّ حياتَهمْ … في مأزقٍ حَرِجٍ من الأهوالِ

ما أجدرَ الجُهلاء أنْ يتعلَّموا … فالعِلمُ مَصدَرُ هَيبَةٍ وجَلالِ

فاسعوا لنشرِ العِلمِ فيهمْ إنَّما … فَضلُ الغمامِ يَبينُ في الامحالِ

إنَّ الجهولَ إذا تعلَّمَ واهتدَى … بثَّ الهُدى في صَحْبِهِ والآلِ

يا قومُ إن لم تُسعفوا فُقراءكمْ … فلِمَ ادّخارُكُمُ إذنْ للمالِ

هلّا رَضيتُمْ بالمحامدِ قِنيةً … إنَّ المحامدَ قِنيةُ المِفضالِ

أوَ لستُمُ أبناء من سارتْ بهمْ … في المَكرُماتِ روائعُ الأمثالِ

جُودوا فَغيرُ الحمدِ غيرُ مُخَلَّدٍ … ما المالُ إنَّ المالَ طيفُ خيالِ

هيهاتِ ما يَبقى ولو عَدَدَ الحَصى … أنّى يدومُ وربُّهُ لِزوالِ

الكأسان

كانَ على خِوانِ ربِّ المالِ

كأسانِ : منْ خمرٍ ومنْ زُلالِ

هاتيكَ في الحُمرةِ مثلُ العَندَمِ

وتلكَ في بياضِها كالدِّرهَمِ

فقالتِ السُّلافةُ الثرثارَهْ

عندي حديثٌ فاسمَعي يا جارَهْ

أنا التي تخضعُ لي الرؤوسُ

أنا التي يَعبُدُني المجوسُ

كَمْ قائدٍ أضحكتُ مِنهُ جندَهْ

وسيِّدٍ حكّمتُ فيهِ عبدَهْ !

ومَلِكٍ أسقطتُ عنهُ التاجا

وساكنٍ هيَّجتُهُ فهاجا

وزوجةٍ علّمتها الخيانةْ
ووالدٍ أنسيتهُ الأمانةْ
وحدثٍ خدعتهُ فانخدعا
حتى إذا ما شبَّ عضَّ الإصبعا
إنَّ الغنى والصيتَ والذكاءْ
متى أردْ صيّرتُها هباءْ
فسمعَ الماءُ فهاجَ غضبا
وقالَ: مهلاً، بلغَ السيلُ الزُّبى(١)
إنْ تفخري، يا جارتي، بالشرّ
فإنَّ بالفعلِ الجميلِ فخري
أنا الذي تُغسلُ بي الكلُومْ
ويرتوي الظامِئُ والمحمومْ
يُحِبّني المالكُ والمملوكْ
والسيدُ المطاعُ والصعلوكْ

(١) يقال: بلغ السيل الزبى: أي اشتد الأمر.

حيثُ أكونُ جارياً يكونُ
الوردُ والأقاحُ والنسرينُ
إنَّ المروجَ الخضرَ لا يحييها
غير وجودي حولها وفيها
كم سِرتُ في الوادي وفي الغديرِ
على شبيهِ الدرِّ والكافورِ
وتجلسَ العشاقُ حولي في السحَرْ
على بساطِ العشبِ في ضوءِ القمَرْ
كم اشتهوا، إذ سمعوا خريري،
لو أنني أسيرُ في الصدورِ
أنا الذي لولاهُ ماتَ الناسُ
والطيرُ والأسماكُ والأغراسُ
يا خمرُ كمْ ذا تدّعينَ الفضلا
وبالمياهِ تقتلينَ قتلا
وأمكِ الكرمةُ يا صهباءْ
ما وُجدتْ في الأرضِ لولا الماءْ!

المجنون

أطار عني النومَ صوتٌ في الدجى   كأنه دمدمةُ الشلّالِ
يصرخُ، والريحُ تردّدُ الصدى   في أذُنِ الفضاء والتلالِ
يا ليلُ قفْ هنيهةً قبالي
ترَ البرايا وأرَ الليالي

أنا الشادي، أنا الباكي،   أنا العاري، أنا الكاسي
أنا الخمرةُ والدنُّ،   أنا الساقي، أنا الحاسي

. . .

خلعتُ ثوباً لم تفصّلهُ يدي   وهمتُ في الوادي بلا سربالِ
وخلتُني انطلقتُ من سلاسلي   وخلصتْ ذاتي من الأوحالِ
فلم أزلْ أرسفُ في أغلالي
ولم أزلْ في حندسِ المحالِ

فما أبكي من الغربةِ   عن جارٍ وعن خدنٍ
فقد يرجعُ جيراني   وتبقى غربتي عني

. . .

عرفتُ في النهارِ كلَّ مقبلٍ   ومدبرٍ، وما عرفتُ حـ
واستترتْ عني السهولُ والربى   تحتَ الدجى، والبحرُ ذو الأ
لكنّها لم تستترْ آمالي
عني ولا نقصي ولا كمالي

ولا ضعفي، ولا عزمي،   ولا قبحي، ولا
فكم أهربُ من نفسي   وما لي مهربٌ

. . .

فقلتُ من هذا؟ فقالَ صحبي   موسوسٌ يهذي من الخ
يأوي إلى الأدغالِ في نهارهِ   كأنه جزءٌ من الأدغ
وفي الدجى لهُ صراخٌ عالِ
كأنهُ والليلَ في نضالِ

كأنَّ الليلَ يوثقهُ بأغلالِ   وأ
ويضربُ جسمهُ العاري   بِسَوْطِ الظالم

. . .

ما أن رآهُ أحدٌ إلّا رآهُ   شاخصَ الطرفِ إلى ال
كأنّما يرقبُ ركباً صاعداً   أو هابطاً وليس غير
كأنّما يخشى على الهلالِ
وسائرِ الشهبِ منَ الزوالِ

فصاحَ الصوتُ: ما أرجوهُ في نفسي وما أحذرْ
فما رحبَ الأُفقُ فنفسي الأُفقُ الأكبرُ

...

ليس جلالُ الليلِ ما أدهشني وإنما أدهشني جلالي
ولا جمالُ الشهبِ ما حيّرني وإنما حيّرني جمالي
إنْ كانَ بي شوقٌ إلى وصالِ
فإنما شوقي إلى خيالي

توشحتُ الضحى والليلَ في أنسي وفي حزني
فما زادَ الدجى خوفي ولا زادَ الضحى أمني

...

لم أهجرِ الناسَ فأصنافُ الورى من السلاطينِ إلى الموالي
إلى ذوي العلم، إلى أهلِ الغنى من واصلٍ وهاجرٍ وسالِ
وحاضرٍ وسابقٍ وتالِ
في قبضتي «اليمنى» بلاجدالِ

تلاقى الأحمقُ الجاهلُ والعالمُ في كفي
ومن كانَ لَهُ إلفٌ ومن كانَ بلا إلفِ

...

وفي يدي «الشمال» أشكالُ المنى وصورُ اليقينِ والضلالِ
وكلُّ ما لعاقلٍ أو جاهلٍ من لذةٍ أو ألمٍ قتّالِ
وسائرُ الأمورِ والأحوالِ
وكلُّ شيءٍ قالَ شخصٌ: ذا لي

وكانَ الليلُ قد أزمعَ أن يحدو مطاياهُ
فسادَ الصمتُ في الوادي كأن الموتَ يغشاهُ

...

فسرتُ والفجرُ دليلي باحثاً في الغابِ والسفوحِ والتلالِ
فلم أجدْ غير صريعٍ هامدٍ منطرحٍ في جانبِ الشلالِ
«لا شيء» في قبضتهِ الشمالِ
وليس في اليمنى سوى «صلصالِ»

تأملات

ليتَ الذي خلقَ الحياة جميلةً ... لم يُسدلِ الأستارَ فوقَ جمالِها

بل ليتهُ سلبَ العقولَ فلم يكنْ ... أحدٌ يعلّلُ نفسهُ بمنالِها

للهِ كم تُغري الفتى بوصالها ... وتضنُّ حتى في الكرى بوصالها

تدنيهِ من أبوابها بيمينها ... وتردُّهُ عن خِدرِها بشمالِها

كم قلتُ هذا الأمرُ بعضُ صوابها ... فوجدتهُ بالخُبْرِ بعضَ محالِها

ولكم خُدعتُ بآلها ونعيمهُ ... ورجعتُ أظمأ ما أكونُ لآلها

قد كنتُ أحسبني أمنتُ ضلالها ... فإذا الذي خمّنتُ كلُّ ضلالها

إنَّ النفوسَ تغرُّها آمالها ... وتظلُّ عاكفةً على آمالها

ذَهبَ الصبا وأنا أعالجُ سرَّها ... متحيّراً في كنهها ومآلها

حتى رأيتُ الشمسَ تُلقي نورَها ... في الأرضِ فوقَ سهولها وجبالها

ورأيتُ أحقرَ ما بناهُ عنكبٌ ... متلففاً ومطوّقاً بحبالها

مثلَ القصورِ العالياتِ قبابُها ... ألشامخاتِ على الثرى بقلالها

فَعلِمتُ أنَّ النفسَ تخطرُ في الحلى ... والوشيِ مثلُ النفسِ في أسمالها

ليستْ حياتكَ غيرَ ما صوّرتَها ... أنتَ الحياةُ بصمتها ومقالها

ولقدْ نظرتُ إلى الحمائمِ في الربى ... فعجبتُ من حالِ الأنامِ وحالها

للشوكِ حظُّ الوَرْدِ من تغريدِها ... وسريكهُ من بَعْدُ في إعوالها

تشدو وصائدُها يمدُّ لها الردى ... فاعجبْ لمحسنةٍ إلى مغتالها

فغبطتُها في أمنها وسلامها ... ووددتُ لو أُعطيتُ راحةَ بالها

وجعلتُ مذهبَها لنفسي مذهباً ... ونسجتُ أخلاقي على منوالها

من لجَّ في ضيمي تركتُ سماءهُ ... تبكي عليَّ بشمسها وهلالها

وهجرتُ روضتهُ فأصبحَ وَرْدُها ... لليأسِ كالأشواكِ في أدغالها

وزجرتُ نفسي أن تميلَ كنفسهِ ... عن كوثرِ الدنيا إلى أوحالها

نسيانكَ الجاني المسيءِ فضيلةٌ ... وخمودُ نارٍ جدَّ في إشعالها

فاربأْ بنفسِكَ والحياةُ قصيرةٌ ... أنْ تجعلَ الأضغانَ من أحمالها

***

زمنَ الشبابِ رحلتَ غيرَ مذمّمٍ ... وتركتَ للحسراتِ قلبي الوالها

دبّتْ عقاربُها إليهِ تنوشُهُ ... ورمتْ بقاياهُ إلى أصلالها

لم يبقَ من لذّاتهِ إلّا الرؤى ... ومن الصبابةِ غيرُ طيفِ خيالها

ومن الكؤوسِ سوى صدى رنّاتها ... والراحِ غيرُ خُمارها وخبالها

يا جنّةً عوجلتْ عنْ أثمارها ... ولذاذةً عُرّيتُ من سربالها

ما عابها شيءٌ سوى اضمحلالها ... والذنبُ للأقدارِ في اضمحلالها

ومليحةٍ في وجهها ألَقُ الضحى — والسحرُ والصهباءُ في أقوالها

قالتْ : أينسى النازحونَ بلادهم ؟ — ما هاجَ حزنَ القلبِ غيرُ سؤالها

الأرضُ، سوريّا، أحبُّ ربوعها — عندي، ولبنانُ أعزُّ جبالها

والناسُ أكرمهمْ عليَّ عشيرُها — روحي الفداءُ لرهطها ولآلها!

والشهبُ أسطعها التي في أفقها — ليسَ الجلالُ الحقُّ غيرَ جلالها

وأحبُّ غيثٍ ما همَى في أرضها — حتى الحيَا الباكي على أطلالها

مرحُ الصَّبا الجذلانِ في أسحارها — ومنى الصَّبا الولهانِ في آصالها

إني لأعرفُ ريحها من غيرِها — بنوافحِ الأشذاءِ في أذيالهـــا

تلكَ المنازلُ كم خطرتُ بساحِها — في ظلِّ صَيْفيها وعطفِ غزالها

وشدوتُ مع أطيارها، وسهرتُ مع — أقمارها، ورقصتُ مع شلّالها

وسجدتُ للإلهامِ مَعْ صفصافها — وضحكتُ للأحلامِ مع وزّالها

وملأتُ عقلي من حديثِ شيوخها — وأخذتُ شعري من لَغَى أطفالها

تشتاقُ عيني قَبْلَ يُغمضَها الردى — لو أنها اكتحلتْ ولو برمالها

مرّتْ بيَ الأعوامُ تقفو بعضَها — وثبَ القطا تعدو إلى آجالها

وتعاقبتْ صورُ الجمالِ فلم يدمْ — في خاطري منها سوى تمثالها

•

ابن الليل

أشرقَ البدرُ على الغابةِ في إحدى الليالي
فرأى الثعلبَ يمشي خِلْسةً بين الدوالي
كلما لاحَ خيالٌ، خافَ من ذاكَ الخيالِ
واقشعرَّا

ورأى ليثاً هصوراً واقفــاً عند الغديرْ
كلما استشعرَ حساً مَــلأَ الوادي زئيرْ
فــإذا بالماءِ يجري خائفاً عندَ الصخورْ
مكفهرَّا

ورأى البدرَ ابنُ آوى يتهادى في الفضاءْ
كمليكٍ حولَهُ الشهبُ جنودٌ وإمــاءْ
قالَ: لو كنتُ رفيقَ البدرِ، أو بدرَ السماءْ
أو خيالَهْ

عشتُ حراً جيرتي الشهبُ ولي الظلماءُ مركبْ

آمناً ، ألعب بالبرقِ وطوراً بيَ يلعب
لا أبالي سطوةَ الراعي ولا الكلبَ المجرَّبْ
وصيالَهْ

غيرَ أنَّ الليثَ لما أبصرَ البدرَ الضحوكا
قالَ : يا ابنَ الليلِ مهما أشتهي لا أشتهيكا
أنتَ وضّاحٌ ولكنْ قاحلٌ لا صيدَ فيكا
أو حيالَكْ

لكَ هذا الأفق، لكنْ هو أيضاً للكواكبْ
إنمـــا لو كنتَ ليثاً ذا نيوبٍ ومَخالبْ
لم تَعِثْ في وجهكَ الوضّاحِ ألحاظُ الثعالبْ
عن جمالَكْ

عبد

من أغاني الزنوج في أميركا

فـــوقَ الجمّيزةِ سنجابُ — والأرنبُ تمرَحُ في الحقلِ
وأنا صيّـــادٌ وثّابُ — لكنَّ الصيدَ على مثلي
محظورٌ إذ أني عبدُ

والديكُ الأبيضُ في القِنِّ — يختالُ كيوسفَ في الحسنِ
وأنا أتمنّى لو أنّي — أصطادُ الديكَ ولكنّي
لا أقدرُ إذ أني عبدُ

وفتاتي في تلكَ الدارِ — سوداءُ الطلعةِ كالقــارِ
سيجيءُ ويأخذُها جاري — يا ويحي من هذا العــارِ
أفلا يكفي أني عبدُ؟

في السفينة

تَسيرُ بنا على عجَلٍ　　وإنْ شاءتْ على مَهَلِ
وتَسعى سَعْيَ مُشتاقٍ　　بِلا قَلْبٍ ولا عَقلِ
وتَمشي في عُبابِ الما　　ءِ مَشْيَ الصِّلِّ في الرَّملِ
فَمــا تَعبِسُ للحَزَنِ　　ولا تَضحَكُ للسَّهلِ
أبتْ أنْ تعرِفَ الشكوى　　مِنَ التَّرحالِ والحِلِّ
فطَوْراً في قَرارِ اليَمِّ　　للغــامِضِ تَستَجلي
وآوِنــةً تُناجيها　　دَرارِي الأُفقِ بالوَصْلِ
وأحياناً تُوافي　　ســيرَها ساكِنةَ الظِّــلِّ
ولِلْمَوجِ حَوالَيها　　زَئيرُ اللَّيثِ ذي الشِّبْلِ
رَكِبناها ونارُ الشَّو　　قِ في أحشائِها تَغلي
فَيــا للهِ حَتّى السُّفْــنُ　　مِثْلي ما لَها مُسْلِ
فَلا تَعجَبْ إذا أعجَــبُ　　مِنْ أطوارِها مِثْلي
فَما أعرِفُ مَرْكوباً　　سِوى الأفراسِ والإبْلِ
وَما أعلَمُ قَبْلَ الآ　　نِ أنَّ الطَّوْدَ ناقَ لي
تَرَكْنا «غادَةَ الشَّرقِ»　　إلى «لُبنانَ» ذي الفَضْلِ
فَمِنْ وَطَنٍ إلى وَطَنٍ　　وَمِنْ أهلٍ إلى أهلِ

مداعبة

نُبِّئتُ أنكَ تعشقُ التمثيلا　　عشقاً يمثّلُ في حشاكَ فصولا
وتكادُ من فَرْطِ الصبابةِ والجوى　　أن تهجرَ المشروبَ والمأكولا
علّلتَ نفسَكَ بالمحالِ فأصبحتْ　　في غمرةٍ وَغَدَوْتَ أنتَ عليلا
والنفسُ تقنعُ بالقليلِ فحبّذا　　لو أنتَ صيّرتَ القليلَ السولا
تأبى المراسحُ أن تُنيلَكَ ودَّها　　إنَّ المراسحَ لا تحبُّ ثقيلا

●

ستعود دنيانا أحب وأجملا

أنسَ حينَ مشتْ إليَّ تلومني   لما رأتني ناعماً متهللا

قالتْ — أتطربُ والمنايا حومٌ

في الأرضِ كيفَ رمتْ أصابتْ مقتلا ؟

أنظرْ ، فقد خلتِ البيوتُ من الشبابِ

ولا جمالُ لمنزلٍ منهمْ خلا

فسألتها — أوَ ليسَ من أجلِ العُلى

وهنائِنا خاضوا الوغى ؟ قالتْ — بلى

يا هذهِ ، أإذا بكيتُ لبعدهمْ

يتبسمونَ ؟ أجابتِ الحسناءُ — لا

كُفّي الملامَ إذنْ فما أنا جاهلٌ   ما تعامين ، وكيفَ لي أنْ أجهلا

لكنْ بعثتُ الفكرَ في آثارهمْ

في البحرِ ، في الأجواءِ ، في عَرْضِ الفلا

فرأيتُ نورَ المجدِ فوقَ بنودهمْ

ورأيتهمْ يمشونَ من نَصْرٍ إلى ...

سدّوا على الباغي المسالكَ كلّها   فالموتُ إنْ ولى وإنْ هُوَ أقبلا

فـإذا شممتِ اليومَ رائحةَ الدماءِ

وطالعتْ عيناكِ آثارَ البلى

فاستبشري ، فغداً إذا النَّقْعُ انجلى

ستعودُ دنيانا أحبُّ وأجملا

قنبلة الفناء

إذا سحقتْ أرضَنا القُنْبُلَهْ   كما يسحقُ الحجرُ الخردلهْ

وقوّضَ مفعولُها الراسياتِ   فصارتْ غباراً لهُ جلجلهْ

ودبَّ الفنا في ذواتِ الجناحِ   وغلغل في النَّبتِ فاستاصلهْ

وفي الماشياتِ وفي الزاحفاتِ   عليهـــا إلى آخرِ السلسلهْ

فلا زهرَ يأرجُ في روضةٍ   ولا ديكَ يصدحُ في مزبلهْ

وضاعَ الزمانُ ومقياسُهُ   وأشبهَ آخرُهُ أولهْ

ولم يبقَ حيٌّ على سطحِها   وأصبحَ عزريلُ لا شغلَ لهْ

فذلكَ خطبٌ يهولُ النفوسَ   تصورُهُ قبلَ أنْ تحملهْ

ولكنْ أمراً يعزي الجميعَ   إذا سحقتْ أرضنَا القنبلهْ

فلنْ يُدعَ الموتُ حيـــاً يلومُ   سواهُ على هذهِ المقتلهْ !

فتح اورشليم

للهِ مـــا أحلى البشيرَ وقولَهُ   سقطَ الهلالُ إلى الحضيضِ ودالا(1)

بُشرى نسينا كلَّ شيءٍ قبلَها   الناسَ والدولاتِ والأجيالا

رَدَّتْ على الشيخِ المسِنِّ شبابَهُ   وعلى الحزينِ اليائسِ الآمالا

وعلى الصديقِ صديقَهُ ، وعليهِما   أبويهِما ، وعلى الأبِ الأطفالا

لو ساوَمَ الخلقَ الذي وافى بها   بذلوا لهُ الأرواحَ والأموالا

***

مَن مُبلغُ الأبطالِ عنيَ أنني   أهوى القرومَ الصيدَ والأبطالا

بالأمسِ قُطعتِ الجزيرةُ قيدَها   ورَمتْ بوجهِ الغاشمِ الأغلالا

واليومَ ودّعتِ المظالمَ أختُها   ومشتْ تجرُّ ذيولَهـــا إدلالا

أبناتِ أورشليمَ ضمِّخنَ الثرى   بالطيبِ واملأنَ الدروبَ جمالا

حتى يمرَّ الفاتحونَ فـــإنهمْ   كشفوا الأذى عنكنَّ والإذلالا

فاخلَعنَ أثوابَ الكآبةِ والأسى   والبسنَ مِن نورِ الضحى سربالا

---

(1) يريد بالهلال دائماً : الأتراك .

وانفحن بالبسماتِ كلَّ سُمَيذَعٍ   خاضَ العَجاجَ وَوجهُهُ يتلألا
هذا مَجالٌ للفتى أن يَزدهي   فيهِ ، وللحسناء أن تختالا
يا قائدَ الصِّيدِ الغطارِفةِ الأُلى   تُحنى الرؤوسُ ، لذكرهم ، إجلالا
ظنَّ المغولُ جنودَهُمْ تحميهمُ   والقِردُ يحسَبُهُ أبوهُ غزالا
فتألَّبوا وتهدَّدوا وتوعَّدوا   حتَّى طلعتَ فأجفلُوا إجفالا
ذُعرَ الطُّيورِ سطا عليهم باشِقٌ   وَبناتِ آوى أبصرَتْ رِئبالا
كم جحفلٍ بعثوا إليكَ معَ الدُّجى   لاقاهُ جيشُكَ ، والصَّباحُ ، فزالا
طاردتَهمْ فوق الجبالِ وتحتَها   كالليثِ يَطرُدُ دونَهُ الأوعالا
فملأتَ هاتيكَ الأباطحَ والرُّبى   بجسُومِهِمْ وملأتَهمْ أهوالا
وحَميتَ إلَّا السُّهدَ عن أجفانهمْ   ومنعتَ إلَّا عنهمُ الأوجالا
ساقوا إليكَ بنيهِمْ وألوفَهمْ   فِرقاً وسُقتَ إليهمُ الآجالا
وصنعتَ من أسيافِهم ودروعِهمْ   لِرقابِهِمْ وزنودِهِمْ أغلالا
لو لم تُساقِطْهم إليكَ جبالُهمْ   عِندَ الضحى زلزلتَها زِلزالا
إن يأمنوا وجدوا المنايا يَمْنةً   أو يأسِروا وجدوا الجيوشَ شِمالا
وشكَتْ خيولُكَ في الميادينِ الوَجى   فجعلتَ أرؤسَهم لهنَّ نِعالا
ورأوكَ قد عرَّضتَ صدرَكَ للظُّبى   عِندَ الحصونِ فعرَّضوا الأكفالا

***

هُنِّئتَ بالنَّصرِ المُبينِ فإنهُ   نَصرٌ يَعزُّ على سِواكَ مَنالا
هذي القلوبُ نسجتُها لكَ أحرُفاً   لو أستطيعُ صنعتُها تمثالا
أرضيتَ موسى والمسيحَ وأحمداً   والنَّاسَ أجمعَ والإلهَ تعالى

كتابي

وسائلةٍ: أيَّ المذاهبِ مذهبي ... وهل كانَ فرعاً في الديانات أم أصلا

وأيَّ نبيٍّ مُرسَلٍ أقتدي به ... وأيَّ كتابٍ مُنزلٍ عنديَ الأعلى؟

فقلتُ لها: لا يقتني المرءُ مذهباً، ... وإنْ جلَّ، إلّا كانَ في عنقِهِ غُلّا

فما مذهبُ الإنسانِ إلّا زجاجة ... تقيّده خمراً وتضبطه خــلّا

فإنْ كانَ قبحاً لم يبدّلْهُ لونُها ... جمالًا، ولا نُبلاً إذا لم يكنْ نُبلا

أنا آدميٌّ كانَ يحسبُ أنهُ ... هو الكائنُ الأسمى وشرعتهُ الفضلى

وأنَّ لهُ الدنيا التي هو بعضُها ... وأنَّ له الأخرى إذا صامَ أو صلّى

أمنُّ على الصّادي إذا ما سقيتهُ ... وألزمهُ شكري، ولستُ أنا الوَبْلا

وأزهى إذا أطعمتُ جوعانَ لقمةً ... كأني خلقتُ الحبَّ في الحقلِ والحقلا

تلمذتُ للإنسانِ في الدّهرِ حقبةً ... فلقّنني غيّاً، وعلّمني جهــلا

نهانيَ عن قتلِ النّفوسِ وعندما ... رأى غرّةً منّي تعلّمَ بي القتلا!

ونمَّ إليَّ الرقَّ ثم استرقّني ... وصوّرَ ظلماً فيه تمجيدهُ عدلا

وكادَ يُريني الإثمَ في كلِّ ما أرى ... وكلَّ نظامٍ غيرَ ما سنَّ مختلّا

فصارَ الورَى عندي عدوّاً وصاحباً

وأقسمهمُ صنفينِ عليـــاءَ أو سُفلى

وصرتُ أرى بغضاً، وصرتُ أرى هوًى،

وصرتُ أرى عبداً، وصرتُ أرى مَولى

ويا رُبَّ شرٍّ خِلتهُ الخيرَ كلَّهُ ... ويا رُبَّ خيرٍ خِلتهُ نكبةً جُلّى

***

إلى أنْ رأيتُ النجمَ يطلعُ في الدجى

لذي مقلةٍ حسرى وذي مقلةٍ جَذلى

وشاهدتُ كيفَ النهرُ يبذلُ ماءه

فلا يبتغي شُكراً ولا يدّعي فضلا

وكيفَ يزينُ الطلُّ ورداً وعَوسجاً

وكيفَ يُروّي العارضُ الوعرَ والسهلا

وكيفَ تغذّي الأرضُ الأمَّ نبتها

وأقبحهُ شكلاً كأحسنه شكلا

فأصبحَ رأيي في الحياةِ كرأيها

وأصبحتُ لي دينٌ سوى مذهبي قَبلا

وصارَ نبيّي كلُّ ما يطلقُ العقلا

وصارَ كتابي الكونُ لا صحفٌ تُتلى

***

فديني كَدينِ الرَّوضِ يعبقُ بالشذى ... ولو لم يكُنْ فيهِ سوى اللصِ منسلا

فليستْ تخومُ المالكيهِ تخومَهُ ... وإنَّ له إنْ يعلموا غيرَهم أهلا

فكم هشَّ للأنسامِ والنورِ والندى ... وآوى إليهِ الطيرَ والنَّزَّ والنملا

وكم بعثتهُ للحياةِ من البِلى ... قريحةُ فنَّانٍ فأورقَ واخضلَّا

وأصبحَ يُجلى «طيفهُ» في قصيدةٍ ... وفي رقعةٍ أو لوحةٍ «وهو» لا يُجلى

وديني الذي اختار الغديرُ لنفسهِ ... وياحسنَ ما اختارَ الغديرُ وماأحلى!

تجيءُ إليهِ الطيرُ عطشى فترتوي ... وإنْ وردتْهُ الإبلُ لم يَزْجُرِ الإبلا

ويغتسلُ الذنبُ الأثيمُ بمائهِ ... فلا إثمُ ذا يُمحى، ولا طهرُ ذا يَبلى!

وديني كدينِ الشُّهبِ تبدو لعاشقٍ ... وقالٍ، وفيها ما يُحبُّ وما يُقلى

فما استترتْ كيا يضلُّ مسافرٌ ... ولا بزغتْ كي يستنيرَ الذي ضلَّا

وليسَ لها أن تمنعَ الناسَ ضوءها ... ولو فتلوا منهُ لتكبيلها حبْلا

وديني كدينِ الغيثِ إن سحَّ لم يبلْ

أروّى الأقاحي أم سقى الشوكَ والدَّغلا

فلم يتخيّرْ في الفضاء مسيرَهُ، ... ولم ينهمرْ جوداً، ولم ينحبسْ بخلا

وان لم أكنْ كالروضِ والنجمِ والحيا ... فحسبي اعتقادي أنَّ خطَّتها المثلى

***

يرى النحلَ غيري اذ يرى النحلَ حائماً ... وأبصرُ قرصَ الشهد اذ أبصرُ النحلا

وألمحُ واحاتٍ من النخلِ في النوى ... اذا جرفَ الإعصارُ من واحتي النخلا

وانْ أشربِ الصهباء أعلمُ أنني ... شربتُ بشاشاتِ الزمانِ الذي ولّى

وما همستْهُ الريحُ في أذنِ الثرى ... وما ذرّفتْ في الليلِ نجمتُهُ الثكلى

وغصّاتِ من ماتوا على اليأسِ في الهوى ... فيا شاربيها هلْ لمحتْ دمَ القتلى؟

وانْ مرَّ بي طفلٌ رأيتُ به الورى ... من المَثَلِ الأدنى الى المثلِ الأعلى

فيا لكِ دنيا حسنُها بعضُ قبحِها ... ويا لكَ كوناً قد حوى بعضُهُ الكلّا

الشباب والحب

بكيتَ الصِّبا من قبلِ أنْ يذهبَ الصِّبا
فيا ليتَ شعري ما تقولُ اذا ولّى ؟

توهّمتَهُ يبقى اذا أنتَ صنتَهُ   عن الشفقِ الحمراء والمقلةِ الكحلا
وخلتَ الهوى جهلاً فلَمْ يكنِ المدى
أخيراً سوى الأمرِ الذي خِلتَهُ جهلا
خشيتَ عليهِ أنْ يطوّحهُ الهوى   فألقاكَ هذا الخوفُ في الهوّة السفلى
أتلجمُ ماء النهرِ عن جريانهِ   مخافةَ أنْ يفنى؟ اذن، فاشرب الوحلا
سبيلُ الصِّبا معها حرصتَ على الصبا   فدعهُ يذوقُ الحبَّ من قبلِ أنْ يبلى

***

فما ديمةٌ صبّتْ على الصخرِ ماءها   فما أنبتتْ زهراً ولا أطلعتْ بقلا
بأضيعَ من بُردِ الشبابِ على امرىء   اذا استطعمَتْهُ النفسُ أطعمها العَذْلا

***

فلا تكُ مثلَ الأقحوانةِ راعها   من الحقلِ أنْ تجنى فلم تسكنِ الحقلا
وأعجبها الوادي فلاذتْ بقاعهِ   فجاء عليها السيلُ في الليلِ واستقلى
فعانقتْ نورَ الكواكبِ في الدجى   ولا لثمتْ فجراً ولا رشفتْ طلّا
وزالتْ فلمْ يستشعرِ النورُ والندى   على فقدِها غمّاً كأنْ لم تكنْ قبلا
ولا تكُ كالصدّاحِ اذ خالَ أنّهُ   اذا اذّخرَ الألحانَ أكسبها نُبلا
فضنَّ بها والشمسُ تنثرُ تِبرَها   وفضّتها والأرضُ ضاحكةٌ جذلى
فلمّا مضى نورُ الربيعِ عن الربى   ودبَّ الى أزهارها الموتُ منسلّا
تحفّزَ كي يشدو فلَمْ يلقَ حولَهُ   سوى الورَقِ الهاوي كأحلامهِ القتلى

فلسفة الحياة

أيّهذا الشاكي وما بكَ داءٌ   كيفَ تغدو اذا غدوتَ عليلا؟

انّ شرَّ الجناةِ في الأرضِ نفسٌ   تتوقّى، قبلَ الرحيلِ، الرحيلا

وترى الشوكَ في الورودِ، وتعمى   أن ترى فوقَها الندى إكليلا

هو عبءٌ على الحياةِ ثقيلٌ   مَنْ يظنُّ الحياةَ عبئاً ثقيلا

والذي نفسُهُ بغيرِ جمالٍ   لا يرى في الوجودِ شيئاً جميلا

ليسَ أشقى ممن يرى العيشَ مرّاً   ويظنُّ اللذّاتِ فيه فضولا

أحكمُ الناسِ في الحياةِ أناسٌ   علّلوها فأحسنوا التعليلا

فتمتّعْ بالصبحِ ما دمتَ فيه   لا تخفْ أنْ يزولَ حتى يزولا

وإذا ما أظلَّ رأسكَ همٌّ   قصّرِ البحثَ فيه كيلا يطولا

أدركَتْ كنهَها طيورُ الروابي   فمِنَ العارِ أنْ تظلَّ جهولا

ما تراها ــ والحقلُ مِلكُ سواها   تخذَتْ فيه مسرحاً ومقيلا

تتغنّى، والصقرُ قد ملكَ الجوَّ   عليها، والصائدونَ السبيلا

تتغنّى، وقد رأت بعضَها يؤ   خذُ حيّاً والبعضَ يقضي قتيلا

تتغنّى، وعمرُها بعضُ عامٍ   أفتبكي وقد تعيشُ طويلا؟

فهي فوقَ الغصونِ في الفجرِ تتلو   سورَ الوجدِ والهوى ترتيلا

وهيَ طوراً على الثرى واقعاتٌ   تلقطُ الحبَّ أو تجرُّ الذيولا

كلّما أمسكَ الغصونَ سكونٌ   صفّقَتْ للغصونِ حتى تميلا

فاذا ذهّبَ الأصيلُ الروابي   وقفتْ فوقَها تناجي الأصيلا

فاطلبِ اللهوَ مثلما تطلبُ الأطـ   ـيارُ عندَ الهجيرِ ظلاًّ ظليلا

وتعلّمْ حبَّ الطبيعةِ منها   واتركِ القالَ للورى والقيلا

فالذي يتّقي العواذلَ يلقى   كلَّ حينٍ في كلِّ شخصٍ عذولا

***

أنتَ للأرضِ أولاً وأخيراً   كنتَ مَلْكاً أو كنتَ عبداً ذليلا

لا خلودَ تحتَ السماءِ لحيٍّ   فلماذا تراودُ المستحيلا؟..

كلُّ نجمٍ إلى الأفولِ ولكنْ   آفةُ النجمِ أنْ يخافَ الأفولا

غايةُ الوردِ في الرياضِ ذبولٌ   كنْ حكيماً واسبقْ إليه الذبولا

وإذا ما وجدتَ في الأرضِ ظلاًّ   فتفيّأ بهِ إلى أنْ يحولا

وتوقّعْ، إذا السماءُ اكفهرّتْ   مطراً في السهولِ يحيي السهولا

قلْ لقومٍ يستنزفونَ المآقي   هل شفيتُم معَ البكاءِ غليلا؟

ما أتينا إلى الحيــاةِ لنشقى   فأريحوا، أهلَ العقولِ، العقولا

كلُّ مَنْ يجمعُ الهمومَ عليهِ   أخذتْهُ الهمومُ أخذاً وبيلا

***

كُنْ هَزاراً في عُشِّهِ يتغنّى ... ومعَ الكَبْلِ لا يبالي الكبُولا
لا غُراباً يطاردُ الدُّودَ في الأرْ ... ضِ وبُوماً في اللّيلِ يَبكي الطُّلولا

***

كُنْ غديراً يسيرُ في الأرضِ رقرا ... قاً فيَسقي من جانبَيْهِ الحقولا
تستحمُّ النُّجومُ فيه ويلقى ... كلُّ شخصٍ وكلُّ شيءٍ مثيلا
لا وِعاءً يُقيِّدُ المـــاء حتى ... تستحيلَ المياهُ فيه وُحولا

***

كُنْ معَ الفجرِ نسمةً تُوسِعُ الأزْ ... هـــارَ شمّاً وتارةً تقبيلا
لا سموماً من السَّوافي اللَّواتي ... تملأُ الأرضَ في الظّلامِ عَويلا
ومعَ اللّيلِ كوكباً يُؤنِسُ الغا ... باتِ والنّهرَ والرُّبى والسُّهولا
لا دُجًى يَكرَهُ العوالمَ والنّا ... سَ فيُلقي على الجميعِ سُدولا

***

أيُّهذا الشّاكي وما بكَ داءٌ ... كُنْ جميلاً ترَ الوجودَ جميلا

•

وردة وأميل

يا ليتما خُلِقَ الزمانُ أصيلا ... إني أراهُ كالشّبابِ جميلا
وَلّى، فودَّعتِ السماءَ بهاءَها ... مِنْ بَعدِهِ . وهَوى النّهارُ عليلا
جنحتْ ذُكاءُ إلى الغروبِ كأنّما ... تبغي رقاداً أو تريدُ مَقيلا
وتناثرتْ قِطَعُ السحابِ كأنّها ... الجيشُ اللُّهامُ إذا انثنى مفلولا
هذا وقد بَسَطَ السكونُ جَناحَهُ ... والليلُ أسى سِتْرَهُ مسدولا
قد باتَ كلُّ مُسهَّدٍ طوعَ الرّقا ... دِ، وكلُّ جَفنٍ بالكرى مكحولا
إلا مهفهفةٌ بهـــا نَزَلَ الهوى ... ضيفاً ولكنْ لا يُريدُ رحيلا
غَيداءُ قد وَصلَتْ ذوائبُها الثّرى ... إني لأحسدُ ذلكَ الموصولا
تحكي المُدامةَ رِقّةً وقساوةً ... تحكي المهاةَ لواحظاً وتليلا
ماءُ الحياءِ يجولُ في وَجَناتِها ... فكأنَّ في تلكَ الكؤوسِ شَمولا
والخدُّ أبهجُ ما يكونُ مورداً ... والطرفُ أفتنُ ما يكونُ كحيلا
نظرتْ وربَّ منيةٍ من نَظرةٍ ... قد كانَ عنها ربُّها مشغولا
فَوتٌ وربَّ هوًى تُنالُ بِهِ المُنى ... وهوًى يُنالُ به الحِمامُ نبيلا
والحبُّ مصدرُهُ العيونُ وربّما ... تخِذَ السماعَ إلى القلوبِ سبيلا

فإذا عشقتَ فلا تلُمْ أحداً سوى … عينيكَ ، إنَّ من العيونِ قتولا
وثَنتْ وقد نالَ النُّحولُ خدودَها … لو أن في الشَّوقِ المُقيمِ ذبولا
وإذا تملَّكتِ الصَّبابةُ في أمرىءٍ … لم يُجدِ عذلُ العاذلينَ فتيلا
سمعتْ دوياً في الظَّلامِ فهرولَتْ … مذعورةً بعدَ الوقوفِ طويلا
وأنينُ مُحتضرٍ يقولُ قتلتني … ثكلتكَ أُمُّكَ لم أنلْ مأمولا
تعدو وتجذُبُها روادِفُها إلى … خلفٍ فتجهدُ خصرَها المتبولا
فكأنَّ في ذاكَ الوشاحِ مُتيَّماً … وكأنَّ في ذاكَ الإزارِ عذولا
تجِدَتْ من الليلِ البهيمِ صاحباً … ومنَ الأنينِ إلى الأنينِ دليلا
تبغي الوقوفَ على حقيقةِ أمرِهِ ، … تبغي خليلاً لا تراهُ جليلا
وتديرُ في تلكَ البَنانِ مُسدَّساً … تركَتْ قذائفُهُ السهامَ فضولا
في طرفِهِ كمَنَ الهلاكُ فلوْ رنا … طرفُ الزَّمانِ إليه عادَ كليلا
قدْ أسكنتْ أكرُ الرَّصاصِ جفونَهُ … فكأنَّ أكباداً تُجِنُّ غليلا
يحمي الضعيفَ من القويِّ وربّما … قتلَ الجبانُ بهِ الفتى البهلولا
ومن الأسى لم تعرفِ الحسناءُ هل … قطعَتْ ذراعاً في السُّرى أم ميلا
حتى إذا رأتِ المُرادَ وما رأتْ … إلا خيالاً واقفــاً مجهولا
حسبتْهُ قاتلَ مَنْ تُحِبُّ وأيقنتْ … أنَّ الذي علِقَتْ به المقتولا
فدَنَتْ وأطلقتِ المُسدَّسَ نحوَ من … بَصُرَتْ به عرَضاً فخرَّ قتيلا

صرعَتْ فتى صرعَ الرَّقيبَ وجندلَتْ … أسداً يخرُّ له الهِزَبْرُ ذليلا
كالبدرِ حُسناً ، كالغَمامِ سماحةً ، … كالغُصْنِ غضّاً ، كالحسامِ صقيلا
ثَبْتَ الجَنانِ قويَّهُ ، عفَّ الإزا … رِ تقيَّهُ ، ما خانَ قطُّ خليلا
هذا هو الذِّئبُ الذي أرضى الهوى … فيها ، وأغضبَ كاشحاً وعذولا
ما نالَ بعدَ جهادِهِ إلا الرَّدى … والبدرُ يُكسِبُهُ المسيرُ أفولا
لم تعلمِ الحسناءُ أنَّ قتيلها … مَنْ لم ترَ أبداً سواهُ جميلا
عرَفَتْ وذلكَ عندما طلَعَ الضُّحى … ورأتْ عياناً نعشَهُ محمولا
لم يبلغوا القبرَ المُعَدَّ لدفنِهِ … إلا وقد بلَغَ الرَّدى العطبولا
يا صاحبي إن جُزْتَ في قبريهما … فاتلُ السَّلامَ عليهما ترتيلا
من شاعرٍ ما حرَّكَ الغصنُ الهوا … إلا تذكَّرَ وردةً وإميلا

كم نشتكي

قالها في مهرجان بردجفيل

كم تشتكي وتقولُ إنّك مُعدِمٌ   والأرضُ ملكك والسما والأنجمُ؟
ولَكَ الحقولُ وزهرُها وأريجُها   ونسيمُها والبلبلُ المترنّمُ
والماءُ حولكَ فضّةٌ رقراقةٌ   والشمسُ فوقكَ عسجدٌ يتضرّمُ
والنورُ يبني في السفوحِ وفي الذُرى   دُوراً مزخرفةً وحيناً يَهدِمُ
فكأنّهُ الفنّانُ يعرض عابثاً   آياتِهِ قدّامَ مَنْ يتعلّمُ
وكأنّهُ لصفائِهِ وسنائِهِ   بحرٌ تعومُ بهِ الطيورُ الحوّمُ
هشّتْ لكَ الدنيا فما لَكَ واجماً؟   وتبسّمتْ فعلامَ لا تتبسّمُ؟
إنْ كنتَ مكتئباً لعزٍّ قد مضى   هيهاتِ يُرجعهُ إليكَ تَندُّمُ
أو كنتَ تُشفقُ من حلولِ مصيبةٍ   هيهاتِ يمنعُ أنْ تحِلَّ تجهُّمُ
أو كنتَ جاوزتَ الشبابَ فلا تقلْ   شاخَ الزمانُ فإنّه لا يهرمُ
أنظرْ فما زالتْ تطِلُّ من الثَرى   صورٌ تكادُ لحسنِها تتكلّمُ
ما بينَ أشجارٍ كأنَّ غصونَها   أيدٍ تُصفّقُ تارةً وتُسلِّمُ
وعيونِ ماءٍ دافقاتٍ في الثرى   تشفي السقيمَ كأنّما هيَ زمزمُ

ومسارحٍ فتنَ النسيمَ جمالُها   فترَى يُدندنُ تارةً ويُهمهِمُ
فكأنّهُ صَبٌّ ببابِ حبيبةٍ   متوسّلٌ، مستعطفٌ، مُسترحِمُ
والجدولُ الجذلانُ يضحكُ لاهياً   والنرجسُ الولهانُ مُغفٍ يَحلُمُ
وعلى الصعيدِ ملاءةٌ من سُندسٍ   وعلى الهضابِ لكلِّ حُسنٍ ميسَمُ
فهنا مكانٌ بالأريجِ معطّرٌ   وهناكَ طودٌ بالشعاعِ معمّمُ
صُوَرٌ وآياتٌ تفيضُ بشاشةً   حتى كأنَّ اللهَ فيها يبسمُ
فامشِ بعقلِكَ فوقَها متفهّماً   إنَّ الملاحةَ مُلكُ من يتفهّمُ
أتزورُ روحَكَ جنّةٌ فتفوتَها   كيما تزوركَ بالظنونِ جهنّمُ؟
وترى الحقيقةَ هيكلاً متجسّداً   فتعافُها لوساوسٍ تتوهّمُ؟
يا مَنْ يحنُّ إلى غدٍ في يومهِ   قد بِعتَ ما تدري بما لا تعلمُ

. . .

قمْ بادرِ اللذّاتِ قبلَ فواتِها   ما كلُّ يومٍ مثلُ هذا موسمُ
واشربْ بسرٍّ حضنٍ سرُّ شبابِهِ   وارْوِ أحاديثَ المروءةِ عنهمُ
المعرضينَ عن الخَنا، فإذا علا   صوتٌ يقولُ: «إلى المكارمِ» أقدَموا
ألفاعلينَ الخيرَ لا لطماعةٍ   في مغنمٍ، إنَّ الجميلَ المغنمُ
أنتَ الغنيُّ إذا ظفرتَ بصاحبٍ   منهمْ وعندكَ للعواطفِ منجمُ
رفعوا لدينهمِ لواءً عالياً   ولهمْ لواءٌ في العروبةِ مُعلَمُ

إنْ حازَ بعضُ النّاسِ سهماً في العلى ... فلهم ضروبٌ لا تُعدُّ وأسهمُ

لا فضلَ لي إنْ رحتُ أعلنُ فضلهم ... بقصائدي ، إنّ الضحى لا يُكتمُ

لكنّني أخشى مقالةَ قائلٍ ... هذا الذي يَثني عليهمْ منهمُ

أحبابَنا مـا أجملَ الدنيا بكم ... لا تَقْبحُ الدنيـا وفيها أنتمُ

بين الكاس والطاس

حمَلَ الشمسَ إلينا قمرٌ
في سماءٍ نحنُ فيها أنجُمُ

شادِنٌ حكّمَهُ الحُسْنُ بنا
وسِوى الحُسْنِ بنا لا يَحكمُ

أسبلَ الشَعرَ فيا عيني اسهري
إنّهُ ليلٌ طويلٌ مُظلِمُ

واحذَري يا مُهجتي مِنهُ فما
ذلكَ الأسودُ إلّا أرقَمُ

كادَ أنْ يُشبهَ جسمي خصرُهُ
إنّما رِقّتُهُ في سَقَمْ

يتلظّى الخالُ في وَجنتِهِ
أرأيتم كيفَ يَصلى المُغرَمُ؟

صَنَمٌ في خدِّه النّارُ وفي
كفِّهِ ضرّتُها تضطرِمُ

بنتُ كَرْمٍ لم يَهِمْ فيها سِوَى
كلِّ صبٍّ هامَ فيه الكرَمُ

حُبِسَتْ في دنِّها من قِدَمٍ
ما لها ذنبٌ ولكن ظلَمُوا

حرّموها حينما خافُوا عليَّ
بها سواهُمُ فاسقِني ما حرّموا

إنّها سِرٌّ فشا بينَ الورَى
وإذا السرُّ فشا لا يُكتَمُ

•

الماهدون في المهجر

ألقاها في المأدبة الكبرى التي أقامها المجلس الملي في مونتريال ، كندا ، لمناسبة مرور ٤٠ سنة على تأسيسه .

الاربعونَ لو انها تتكلمُ
ولحدَّثتنا كيفَ عن أعشاشِكُمْ
يومَ الفراقِ كظمتمُ آلامكُمْ
وبكى الأحبةُ حولَكُمْ وجفونُكُمْ
أيدٍ تودِّعُ موطناً وعشيرةً
ضاقتْ على أحلامِهِمْ تلكَ القرى
وغزوتُمُ الآفاقَ لا زادَ لكُمْ
كالليثِ ليسَ لهُ سلاحٌ في الشرى
تتخيلونَ البحرَ شُقَّ لتعبروا
والدرُّ مخبوءاً لكُمْ في قاعِهِ
والموجُ إذ يطغى ويهدرُ حولَكُمْ

لروَتْ لنا قِصَصَ العظائمِ عنكمُ
طِرتُمْ بأجنحةِ المنى إذ طرتمُ
وأخفُّ من ألمِ الفِراقِ جهنمُ
تعصي البكا ، حُزنُ الجبابرِ أبكمُ
ومطامحٌ خلفَ البحارِ تسلَّمُ
فاختارتْ مُ الدنيا الوساعَ لتحلموا
إلا الصبا المتوثِّبُ المتضرِّمُ
إلا عزائمُ التي لا تثلمُ
وانداحَ بينَ الشاطئينِ لتسلموا
كي تخرجوهُ وتغنموا ما شئتمُ
جوقاً لطَرَدِ همومِكُمْ يترنَّمُ

وإذا النجومُ تألقتْ تحتَ الدجى ... خلتمْ لأجلكمْ تضيءُ الأنجمُ
وحسبتمْ شُمَّ الجبالِ سلالمـاً ... نُصِبَتْ لكُمْ كي تصعدوا فصعدتمْ
والشمسُ منجمُ عسجدٍ متكشفٍ ... لذوي الطموحِ وأنتمْ أنتمْ هُمْ
ولكمْ تلثمتِ الحقائقُ بالرؤى ... كالأرضِ يغشاها السرابُ الموهمُ
اتطلُّ من أرواحنا أشواقُها ... فنطوفُ حولَ خدورِها ونحومُ
لم تقنعوا كالخاملينَ بأنكُمْ ... لكمْ شرابٌ في الحياةِ ومطعمٌ
لو أن تكونَ حياتُكمْ كحياتِهمْ ... عَبثاً يموتُ بهِ الوَقارُ ويعدمُ
وتأففاً في الليلِ وهوَ منوّرٌ ... وتبرُّماً في الصبحِ وهو تبسُّمُ
لو أن يكونَ تراثُكمْ كتراثِهمْ ... قصرٌ عفَا أو هيكلٌ متردمُ
وحديثُ أسلافٍ قد اتخذوا الفنا ... فَهُمْ سواءٌ في القياسِ وجُرْهُمُ
من يقتربْ من أمسٍ يَبْعُدْ عن غدٍ ... ويَعِشْ مع الموتى ويُصْبِحْ منهمُ !
وكرهتمُ أنْ تنقضي أيامُكُمْ ... شكوى لمن يرثي ومن لا يَرْحمُ
أو أنْ يبيتَ على الحضيضِ مُقامُكُمْ ... والدودُ يَزْحَفُ فوقَهُ والأرقمُ
فنفرتمْ كالنحلِ ، ما من زهرةٍ ... فيها جَنًى ، إلا وفيها مغنمُ
في كل شطٍّ ماردٌ ، في كلِّ طودٍ ... قشعمٌ ، في كلِّ وادٍ ضيغمُ
المجدُ مطلبكُمْ وأنتمْ سُهَّدٌ ... والمجدُ حلمكُمْ وأنتمْ نُوَّمُ
لا شيءَ صَعْبٌ عندكُمْ حتى الردى ... الصعبُ عندَ نفوسِكُمْ أن تحجموا

يا بضعةً من أمةٍ ، هي أمّةٌ ... في ذاتها ، ولها طِرَازٌ مُعْلَمٌ
فيكُمْ جميعُ صفاتِها وخلالِهَا ... والروضُ يحويهِ عطوراً قمقمُ
إنَّ الأُلى عابوا الجهادَ عليكُمْ ... علكوا مداركَهُمْ ولم يستطعموا...
طلبوا السلامَةَ في القعودِ ففاتَهُمْ ... دَرْكُ الثراءِ وبعدَ ذا لم يَسلموا
هؤلاءِ دودُ القزِّ أحسنُ منهمُ ... وأجلُّ في نَظَرِ الحياةِ وأفهمُ !
قالوا كهولٌ قد تصرَّمَ عصرُهُمْ ... ليتَ الشبابَ مِنَ الكهولِ تعلَّموا !
إنْ لم تَشِيدوا كالأوائلِ «تدمُراً» ... أو «بعلبكَّ» فإنكُمْ لم تهدموا
ولكُمْ غَدٌ وجمالُهُ وبهاؤُهُ ... ولكُمْ مِنَ الأمسِ النفيسِ القيِّمُ

***

حدثتُ نفسي والقطارُ يخبُّ بي ... عجلانَ يخترقُ الدُّجى ويدمدمُ
فسألتُها مستفهماً ، ولربما ... سألَ العليمُ سواهُ عمَّا يعلمُ
ما أحسنَ الأيامَ؟ قالتْ : يومكُمْ ! ... والناسَ؟ فابتدرتْ وقالتْ : أنتمُ
والدورَ؟ قالتْ : دورُكُمْ . والمالَ؟ ... قالتْ : إنَّ أحسنَهُ الذي أنفقتمْ
والحسنَ؟ قالتْ : كلُّ ما أحببتمْ ... والأرضَ؟ قالتْ : أينَما استوطنتمْ
مـا كانَ أكملَ يومكُمْ وأتمَّهُ ... لو لم يكُنْ في مَهْدِ عيسى مأتمُ
وكذا الحياةُ ، قديمُها وحديثُها ، ... ذكرى تُسَرُّ بها وذكرى تؤلمُ

أقوى من الشيب والهرم

مَا زِلتُ أحسبُ أنَّ الحبَّ زايَلَني
حتَّى نَظَرتُ إليها وهْي تَبتَسِمُ
فاهتزَّ قلبي كما تهتزُّ نابتةٌ
في القفرِ مرَّ عليها النورُ والنَّسَمُ
يا حُبَّها لا تخفْ شيباً ولا هرَماً
فليسَ يقوى عليكَ الشيبُ والهرَمُ

•

الى الشبان المتفرنجين

يا أيها الشرقُ التعيسُ انظرْ إلى … القومِ الذينَ شدَدْتَ أزركَ فيهمُ
ما زلتَ تكلأُهمْ بطرفٍ ساهرٍ … يُحيي الظلامَ وهُمْ هجودٌ نُوَّمُ
والغربُ يرنو خائفاً أن يَخلفوا … أجدادَهُمْ ويودُّ لو لم يَنعَموا
حتى اذا طرَّتْ شواربُهمْ وبات … منَ الشبابِ لهُمْ طرازٌ مُعلَمُ
خرجوا عليكَ وأنتَ لا تدري وهُمْ … لا يشعرونَ ولو دروا لتندَّموا
يا طالمـــا مثَلوا لديكَ كأنهم … أُسدُ الشرى فنسيتَ أنَّك تحلُمُ
ورجوتَ ما يرجوهُ كلُّ أبٍ لدى … أبنائِهِ ، إنَّ العقوقَ مُذمَّمُ
ولطالما شِدْتَ القصورَ من المنى … خابَ الرجاءُ وساءَ ما تتوهَّمُ
ألهتهُمُ الدُّنيا فهــذا بالطِّلى … صبٌّ وهذا بالحسانِ متيَّمُ
والخزُّ فاتكةٌ فكيفَ بناعمٍ … ترِفٍ يكادُ من النسائمِ يُسقَمُ
قد أصبحوا وقفاً على شهواتِهمْ … يستسلمونَ لهــا ولا تستسلِمُ

لم يفهموا معنى الحياةِ وكنهَها — انّ البليةَ أنهمْ لم يفهموا

فليُقلِعوا عن غِيِّهمْ اني أرى — خورَ الشيوخِ بهم ولما يَهرموا

قد قلّدوا الغربيَّ في آفــاقِهِ — تقليدَهُ الشرقيُّ فيما يَعنيهِمُ

فَتَنتهُمْ لُغةُ الأعاجِمِ انمــا — لُغةُ الأعاجِمِ منهمُ تَتَبرّمُ

أمسى الذي تُهدى اليه لآلئ — وكأنما هوَ بالحجارةِ يُرجَمُ

لا تَعذُلِ الشعراء ان بخلُوا بِهِ — انَّ القريضَ على الغبيِّ مُحرّمُ

بِتْنا وباتَ الشرقُ يمشي القهقرى — مع ذاكَ نَحسَبُ أننا نتقدّمُ

•

أيها القلم

ماذا جنيتَ عليهمْ، أيها القلمُ — واللهِ ما فيكَ الا النُّصحُ والحِكَمُ

اني ليحزنني ان يسجنوكَ وهم — لولاكَ في الأرضِ لم تثبتْ لهم قدَمُ

خلقتَ حراً كَمَوجِ البَحْرِ مندفعاً — فما القيودُ وما الأصفادُ واللجمُ؟

ان يحبسوا الطائرَ المحكيَّ في قفصٍ — فليسَ يُحبَسُ منه الصوتُ والنغَمُ

اللهُ في أمةٍ جارَ الزمانُ بها — يفنى الزمانُ ولا يفنى لها ألمُ

كأنمــا خصَّها بالذُّلِّ بارئُها — أو أقسم الدهرُ لا يعلو لها عَلَمُ

مهضومةُ الحقِّ لا ذنبَ جَنَتْهُ سوى — أنَّ الحقوقَ لديها ليسَ تنهضم

مرَّتْ عليها سنونٌ كلُّها نِقَمٌ — ما كانَ أسعدها لو أنها نِعَمُ؟

عدّوا شكايتها ظلماً وما ظلمتْ — وانما ظلموهـا بالذي زعموا

ما ضرَّهمْ أنها باتتْ تُسائلُهُمْ — أينَ المواثيقُ، أين العهدُ والقسَمُ؟

أما كفى أنَّ في آذانهمْ صمماً — حتى أرادوا بأنْ ينتابها الصَمَمُ؟

كأنما سمّوا أن لا يزالَ بها — روحٌ على الدّهرِ لم يظفرْ بها السَّأمُ
فقيّدوها لعلَّ القيْدَ يُسكتها — وعزَّ أن يسكتَ المظلومُ لو علموا
وأرهقوا الصحفَ والأقلامَ في زمَنٍ — يكادُ يعبدُ فيهِ الطرسُ والقلَمُ
ان يمنعوا الصحفَ فينا بثَّ لوعتنا — فكلُّنا صحفٌ في مصرَ ترتسمُ
إنّا لقومٌ لنـــا مجدٌ سنذكرهُ — ما دامَ فينا لسانٌ ناطقٌ وفَمُ
كيفَ السبيلُ الى سلوانِ رفعتنا — وهيَ التي تتمنّى بعضَها الأممُ؟
يأبى لنا العزُّ أن نرضى المذلّةَ في — عصرٍ رأينا بهِ العبدانَ تحترمُ
للموتُ أجملُ من عَيْشٍ على مَضَضٍ — انَّ الحياةَ بلا حريةٍ عَدَمُ

•

أنفس العشاق

بالأمسِ بادرني صديقٌ حائرٌ يستفهمُ
أجهنمٌ نارٌ؟ كما زعَمَ الهداةُ وعلّموا؟
أم زمهريرٌ قارسٌ قاسٍ وكونٌ مظلمُ؟
فأجبتهُ، ما الزمهريرُ وما اللظى المتضرمُ
بجهنمٍ!.. لكننا أنْ لا نُحِبَّ جهنمُ
يا صاحبي، إنَّ الخواءَ هو العذابُ الأعظمُ
ألقلبُ إلّا بالمحبـــةِ منزلٌ متردمُ
هيَ للجراحَةِ مرهمٌ، هيَ للسعادةِ سلّمٌ
هيَ في النجومِ تألقٌ، هيَ في الحياةِ ترنّمٌ
هيَ أنفسُ العشاقِ في غَسَقِ الدُّجى تتبسمُ

•

عباد الذهب

ما ساء نفسي من الدنيا سوى نَفَرٍ   لا خيرَ فيهمْ ولكنْ شرُّهم عَمَمْ

ماتتْ ضمائرُهُمْ فيهم أنانيةً   فليسَ تُنْشَرُ حتى تُنْشر الرِّمَمْ

ساءتْ خلائقُهُمْ أو لا خلاقَ لَهُمْ   إلا الشراهةُ والإيثارُ والتُّهَمُ

إذا رأوا صورةَ الدينارِ بارزةً   خرّوا سجوداً إلى الأذقان كلُّهمُ

قد أقسموا أنهم لا يُشركونَ بِهِ   بئسَ الإلهُ وبئسَ القومُ والقَسَمُ

●

ابو غازي

أبو غازي السلامُ عليكَ منّا   وعفواً أيُّهـــا المَلِكُ الهمامُ

فما ضاقَ الكلامُ بنا، ولكنْ   وجدنا الحزنَ أرخصهُ الكلامُ

وخطبكَ لا يَفيهِ دَمعُ باكٍ   ولو أنَّ الذي يَبكي الغمامُ

ونحنُ أحقُّ أنْ نَبكي ونَرثي   فوتُكَ من بني العُرْبِ انتقامُ

خبا نبراسُنا، والليلُ داجٍ،   وموجُ الحادثاتِ لَهُ التطامُ

وكنتَ لنا الدليلَ، فغبتَ عنّا   وكنتَ حسامَنا، فنبا الحُسامُ!

كأنَّكَ قد وتَرْتَ الموتَ قِدْماً   وهابَكَ في كَتائِبكَ السهامُ

فدبَّ إليكَ مثلَ اللصِّ ليلاً   وكانَ الموتُ ليسَ لهُ ذمامُ

طوَى الدنيا نعيُكَ في ثوانٍ   فريعَ البيتُ والبَلَدُ الحرامُ

و «دجلةُ» كالطعينِ لهُ أنينٌ   وفي «بردى» التياعٌ واضطرامُ

ورحنا بين مَصعوقٍ وساهٍ   كَمَنْ صَرَعَتْ عقولَهمُ المدامُ

كأنَّ الأرضَ قد مادتْ وفُضَّتْ   عَنِ الموتى الصفائحُ والرجامُ

فَمَنْ للبيضِ والجردِ المذاكي؟   و «فيصلُ» باتَ يحويهِ الرَّغامُ

ومَنْ للحقِّ ينشرهُ لواءً   بـــهِ للناسِ هديٌ واعتصامُ

تواري المجدُ في كَفَنٍ ولَحْدٍ   وغابتْ في الترابِ منّي عظامُ

مَضى وحديثُهُ في الناسِ باقٍ   كعمرِ الشمْسِ ليسَ لهُ انصرامُ

فيا جَدَثاً حواهُ لستَ قبراً   ولكنْ أنتَ في الدنيا وسامُ

***

حياتُكَ «يا أبا غازي» حياةٌ   كفَصْلِ الصَّيْفِ: زهرٌ وابتسامُ

وقد تُحصى الكواكبُ والأقا   حي ولا تُحصى أياديكَ الجسامُ

مددتَ إلى مُنى العَرَبِ الغوالي   يداً، فتَفَتَّقَتْ عنها الكِمامُ

وأمسى بندُهُمْ ولَهُ خفوقٌ   وأمسى عِقْدُهمْ ولَهُ نظـامُ

وكم أسقمتَ جسمَكَ كي يصحّوا   وحالفتَ السهادَ وهمْ نيامُ

وكم جازيتَ عن شرٍّ بخيرٍ   وكم جازاكَ بالغدرِ الأنامُ

خُذلتَ فما عتِبْتَ على صديقٍ   ولم تحنَقْ وقد كَثُرَ الملامُ

وكم قد فزتَ في حربٍ وسلمٍ   فلمْ يلعبْ بعطفيكَ العُرامُ

خلائقُ مَنْ لهُ عِرقٌ كريمٌ   وخطّةُ من لهُ قلبٌ عصـامُ

خذوا الخُلُقَ الرفيعَ من الصحا   رى، فإنَّ النفسَ يُفسدها الزحامُ

وكم فقدتْ جلالتَها قصورٌ   ولم تفقدْ مروءتها الخيـامُ

***

وقالوا انتَكَ عرشُكَ في دمشقٍ   كأنَّ العرشَ أخشابٌ تُقامُ

وكيفَ تهدُّ سدَّتَكَ العوالي   ولم يسلبْكَها الموتُ الزؤامُ؟

فـما كانَ انتصارهُمُ علاءً   ولا كانَ انكسارُكَ فيهِ ذامُ

إذا لم تنصُرِ الأرواحَ مُلْكاً   فأحسنُ ما حَوى جثثٌ وهامُ

وما زالتْ لكَ الأرواحُ فيها   ومـا زالتْ عشيرتُكَ الشآمُ

تصفّقُ لاسمِكَ الأمواهُ فيها   ويهتفُ في خمائلِها الحَمامُ

ويذكرُ أهلُهـا تلكَ السجايا   فيُشرقُ من تذكُّرِها الظلامُ

وليسَ أحبُّ من حُرٍّ مؤاسٍ   إلى شعبٍ يُساءُ ويُستضامُ

***

فقـلْ للساخطينَ على الليالي   ومَنْ سكنوا على يأسٍ وناموا

سينحسرُ الضبابُ عن الروابي   ويبدو الوردُ فيهـا والخزامُ

ويصفو جوُّنا بعدَ انكدارٍ   ويَسقي أرضَنا المطرُ الرُّهامُ

ونرجعُ أُمَّـةً تُرجى وتُخشى   وإنْ كرهَ الرَّعاعُ والطَّغامُ

مصر والشآم

أطالَ الليلُ أم طالَ المقامُ ... أم المحزونُ خامرَهُ الهيامُ ؟

فباتَ يُصعّدُ الزفراتِ وجداً ... وإمـا ناحَ أسعدَهُ الحمامُ

تعوّدَ جسمُهُ الأسقامَ حتى ... ليحذرُ أن يزايلَهُ السقامُ

وأغرى جفنَهُ بالسُّهدِ حتى ... ليشفقُ أن يطيفَ به المنامُ

تجمّعتِ الهمومُ عليهِ تترى ... كما اجتمعتْ على الماءِ السّوامُ

وأعوزَهُ على البلوى مُعينٌ ... وأعوزَ ليلَهُ القمرُ التمامُ

فضاقَ فؤادُهُ بالهمّ ذرعاً ... وضاقَ بهمّهِ وبهِ الظلامُ

كأنَّ نجومَهُ أجفانُ باكٍ ... كأنَّ الليلَ صبٌّ مستهامُ

أبا الأقمارِ ما بي فهي مثلي ... تحاولُ أن تنامَ فلا تنامُ

أبتْ إلا السكوتَ وبتُّ أشكو ... وأنّى يصحبُ الوجدَ اكتتامُ ؟

فليسَ ينفعني منها سكوتٌ ... وليسَ بنافعِ الشُّهبَ الكلامُ

كأني قارئٌ والليلُ سِفرٌ ... لَهُ بدءٌ وليسَ لَهُ ختامُ

كذاكَ الهمُّ أعسرُ ما تراهُ ... إذا سكتَ الدُّجى وغفى الأنامُ

تحنُّ إلى بلادِ الشامِ نفسي ... أقطرَ الشامِ حيّاكَ الغمامُ

وما غيرُ الشآمِ وساكنيهِ ... لباناتنا وإنْ بَعُدَ الشآمُ

ولولا أن في مصرَ مُقامي ... لَعَمرُ أبيكَ ما طالَ المقامُ

مضى عامٌ عليَّ بأرضِ مصرٍ ... وذا عامٌ ، وسوفَ يجيءُ عامُ

وما مصرُ التي ملكتْ فؤادي ... ولكنْ أهلها قومٌ كرامُ

ودادُهمُ على الأيامِ باقٍ ... وجـارُهمُ عزيزٌ لا يُضامُ

ومن أخلاقِهمْ لينُ الحيا ... إذا انتسبتْ إلى اللينِ المُدامُ

وتبصرُ في صدورهمِ أناةً ... إذا الأحلامُ طاحَ بها الخصامُ

أبتْ إلّا عنادَهمُ الليـالي ... فما يئسوا الغداةَ ولا استناموا

يودُّ الطامعونَ بأرضِ مصرٍ ... لو انهمُ بهـا أبداً أقاموا

فلا عَجَبٌ إذا خفروا ذماماً ... شديدُ البطشِ ليسَ لهُ ذمامُ

نُلامُ على الكلامِ وقد أصبنا ... وقد ضلّوا الصوابَ فلا يُلاموا

أقـــانوناً قيودهمُ تُسمّى … إذا قد انث الرجلَ اللئامُ
إلى مَ تُمنع الدستورَ مصرُ … وقدْ كادتْ نفوزُ بهِ بِيام ؟
بني مصرَ على الأحداثِ صبراً … فقبلَ الصَّحْوِ يجتمعُ الغمامُ
ولا يلحقْ بكُمْ ضَجَرٌ فإني … رأيتُ الظُّلمَ ليسَ لَهُ دوامُ
فـــإنَّ الليلَ يعقبهُ صباحٌ … وإنَّ الحربَ آخرُها سلامُ



البلبل السجين

يا رُبَّ لَيْلٍ بِلا سَنَاء
كأنّما بَدْرُهُ يَتيمْ
مَشى بِهِ اليَأسُ في الرَّجاء
كأنَّهُ النّــارُ والهَشيمْ

•

لَيتَ الدُّجى رَقَّ للمُحِبِّ … أوْ لَيْتَ لي مُهْجةً حَجَرْ
أقضَّ هذا الفِراشُ جَنبي … كأنَّ في مَضجَعِي الإبَرْ
هلْ بكَ يا نَجْمُ مثلُ كَرْبي ؟ … أم أنتَ من طَبْعِكَ السَّهَرْ ؟

سَهِرتَ شَوقاً إلى ذُكاء ؟
أمْ عِندَكَ المقعدُ المُقيمْ ؟
أبكي و تَصغي إلى بُكائي
يارَبُّ! هلْ تَعشقُ النُّجومْ ؟

•

قَدْ نَالَ فَرْطُ السُّهَادِ مني   واشتاقَ طَرْفي إلى الهُجوعِ
وَقَرَّحَ الجَفْنَ مَاءُ جَفني   في الحُبِّ مَا فاضَ من دُموعي
وَشابَ رأسِي مِنَ التَجنّي   يا لَيتَ ذا الشَّيبَ في الوُلُوعِ

لَعَلَّ في سَلْوَتي شِفَائي
هَيْهَاتَ . داءُ الهوى قَديمُ
ما يَحْسَبُ النّاسُ في رِدَائي؟
في بُرْدَتي هَيْكَلٌ رَمِيمُ !

•

قَد طَالَ يا لَيْلُ فِيكَ صَبْرِي   وأشبَهتْ سَاعُكَ القُرُونا
فَقُلْ لِهذي النُّجومِ تَسْري   أو فَاسأَلِ الصُّبْحَ أن يَبِينَا
وإنْ تَشَأ أنْ تَكونَ قَبري   فَكُنْ كَمَا شِئْتَ أن تَكُونا

في سُكُونٌ الى البَلاءِ
قَدْ يَأْلَفُ العِلّةَ السّقِيمُ
مَنْ كانَ في قَبْضَةِ الهَوَاءِ
هَانَ عَلى نَفْسِهِ النّسِيمُ !

•

قَرَّبَ بَيْنَ الضَّنَى وجِسْمي   ما أبْعَدَ النَّوْمَ عَنْ جُفُوني

يا لَيْلُ فيكَ الرُّقادُ خَصْمي   يَا لَيْلُ ما فِيكَ مِنْ مُعِينِ
سِوَى شَجٍ هَمُّهُ كَهَمّي   يُنْشِدُ واللّيلُ في سُكُونِ !

أَيَمْرَحُ البُومُ في الخَلاءِ
وتُمسِكُ البُلبُلَ الهُمُومُ ؟
هذا ضَلالٌ من القَضَاءِ
فَلا تَلُمْني إذا ألومُ

•

يا سَيّدَ المُنشِدينَ طُرًّا   وَصَاحِبَ المَنطِقِ المُبِينِ
لَوْ كُنْتُ بُوماً أوْ كُنتُ نَسْرا   مَا بِتُّ في أسْرِكَ المَهِينِ
خُلِقْتَ لمّا خُلِقْتَ ، حُرا   فَزَجَّكَ الحُسْنُ في السُّجُونِ

وأطْلَقَ البُومَ في الفَضَاءِ
زَعْمُ الوَرَى أنّهُ دَمِيمُ
وأنّهُ غَيْرُ ذِي رُوَاءِ
ولا لَهُ صَوتُكَ الرَّخِيمُ !

•

تَيَّمَكَ الرَّوْضُ فِيهِ حتّى   تَخِذْتَ بِاحَاتِهِ مَقَامَا
رَأَيْتَ فِيهِ النَّعِيمَ بَحْتًا   ولَمْ تَرَ عِندَهُ الأثَامَا

مدُّوا الأحابيلَ فيه شتّى   أقلُّها يجلبُ الحِمَاما

لو كُنتَ كالبومِ في الخفاء
ما صادكَ المنظرُ الوسيمُ
أصبحتَ تبكي من الشّقاء
ليضحكَ الآسرُ المضيمُ !

•

والمرءُ وحشٌ فإن ترقّى   أصبحَ شرّاً من الوحوشِ
فخفهُ حرّاً وخفهُ رِقّاً   وخفهُ ملكاً على العروشِ
فالشرُّ في النّاسِ كان خلقاً   وأيُّ طيرٍ بغيرِ ريشٍ ؟

ما قام فيهم أخو وفاء
يحفظُ عهداً ولا رحيمُ
فكلُّ مستضعفٍ مرائي
وكلُّ ذي قوّةٍ غشومُ !

•

إن كانَ للوحشِ من نيوبِ   فالنّاسُ أنيابُهم حديدُ
ما كانَ، واللهِ، للحروبِ   لولا بنو آدمٍ وجودُ
لو امّحى عالمُ الخطوبِ   لقامَ منهمْ لها مُعيدُ

قد نسبوا الظلمَ للسّماء
وكلُّهم جائرٌ ظلومُ
لم يخلُ منهُ أخو الثّراء
ولا الفتى البائسُ العديمُ

•

أعجبُ ما في بني التّرابِ   قتالُهم فوقهُ عليهِ
قد صيّروا الأرضَ كالكتابِ   وانحشروا بين دفّتيهِ
واستعجلوا الموتَ بالعذابِ   وكلُّهم صائرٌ إليهِ

ما خابَ داعٍ إلى العداء
ولم يفزْ ناصحٌ حكيمُ
ما رغبَ النّاسُ في الفناء
لكنّما ضاعتِ الحلومُ !![1]

•

لو لم يكُ الظلمُ في الطبائعْ   ما استنصرَ العاجزُ العدالهْ
لو عدلتْ فيهمُ الشرائعْ   ما استحدثوا للقتالِ آلهْ
عجبتُ للقاتلِ المدافعْ   جزاؤهُ الموتُ لا محالهْ

---

(١) الحلوم: جمع مفرده الحلم – بكسر الحاء – وهو العقل.

لكنَّا سافِكُو الدِّماء
يومَ الوَغى قادةٌ قُرومْ
وَهكذا المُجرمُ الفِدائي
في عُرفِهمْ فاتحٌ عَظيمْ !

•

أقبحُ مِنْ هذِهِ الضَّلالَهْ　　أنْ يَحكُمَ الواحِدُ الأُلوفَا
وَيَدَّعي الفضلَ والنَّبالَهْ　　مَنْ يَسلُبُ العامِلَ الرَّغيفَا
يا قَوْمُ ما هذِهِ الجَهالَهْ　　قَدْ حانَ أنْ تُنصِفُوا الضَّعيفَا

فَراقِبُوا ذِمَّــةَ الإخاء
وَلْتَنْسَ أحقادَها الخُصومْ !
لا تَتْبعُوا سُنَّةَ البَقاء
فإنَّهــا سُنَّةٌ ظَلومْ !

•

تلك المنازل

ألقاها في حفلة تكريم الاستاذ
كمال جنبلاط .

تلكَ المنازلُ... كيفَ حالُ مُقيمِها　　إنَّا قنعنا بَعْدَها ... برسومِها
تمشي على صُوَرِ الطيورِ لِحاظُنا　　نَشْوَى ، كَمَنْ يُصغي إلى ترنيمِها
ونكادُ نعشقُ في الأزاهيرِ الدمى　　أزهارَها ، ونحسُّ نَفْحَ شميمِها
نشتاقُها ، في بؤسِنا ونعيمِنا　　ونحبُّها ، في بؤسِها ونعيمِها
لولا الخيالُ يعينُ أنفسَنا لما　　سكنتْ ، ولم يهدأ صراخُ كلومِها
ولكانَ شهدُ الأرضِ في أفواهِنا　　وهو اللذيذُ أمرَّ من زقّومِها
يا حاملاً في نفسِهِ وحديثِهِ　　أحلامَ أرزتِها ولطفَ نسيمِها
حدِّثْ بنيها شيخَهُمْ وفتاهمو　　عن لَيْثِ غابتِها وظَبْيِ صريمِها
خبِّرْهُمُ أنَّ الكواكبَ لم تَزَلْ　　تحنو على العشّاقِ بينَ كرومِها
مـــا زالَ بلبلُها يغنّي للربى　　والسحرُ تنفثُهُ لواحظُ ريمِها
والريحُ تلتقطُ الشّذى وتذيعُهُ　　من شِيحِها طوراً ومن قيصومِها
وهضابُها يلبسنَ عَسْجَدَ شمسِها　　حيناً ، وأحياناً لُجَيْنَ نجومِها

والفجرُ يرقصُ في السهولِ وفي الذُرى

	متهللاً فتهشُّ بَعْدَ وجومِها
إنْ بُدِّلَتْ منها التخومُ فإنها	ما بُدِّلَتْ واللهِ غيرَ تخومِها
حدثْهُمُ عن ليلِهـــا ونجومِها	وعَنِ الهوى في ليلِها ونجومِها
وعَنِ الشطوطِ الحالماتِ بعَوْدةٍ	للغائبينَ ، ورجعةٍ لنعيمِها
وعن الروابي الشاخصاتِ إلى السما	ألعالقاتِ رؤوسُها بغيومِها
فكأنها سُحُبٌ هَوَتْ من حالقٍ	ورستْ على وجهِ الثرى بهمومِها
وعن الحياةِ جميلِها وقبيحِها ،	وعَنِ النفوسِ صحيحِها وسقيمِها
وعن الأُلى مَلَكوا فلمْ يتورَّعوا	عن سَلْبِ أعزِها وظُلْمِ يتيمِها
وعن الثعابينِ التي في أرضِها ،	وعنِ الذئابِ العُصْلِ خَلْفَ تخومِها
ألجاهليةُ ، آهِ من أصنامِها	بوركتَ ، يا مَنْ جدَّ في تحطيمِها
والطائفيةُ أنتَ أوَّلُ مِعْوَلٍ	في سورِها ، ثابرْ على تهديمِها
حتى تعودَ وواحدٌ أقنومُها	ويحلَّ روحُ اللهِ في أقنومِها
قلْ للشبيبةِ أن تبينَ وجودَها	وتُعِزَّ أنفسَها بِهَوْنِ جسومِها
كم ذا تشعُّ ولا تضيءُ علومُها	سُرُجُ الظلامِ إذنْ جليلُ علومِها
يا واحداً منها يحمِّلُ نفسَهُ	آلامَ عانيها وليلَ سليمِها
إنْ أكرمتكَ نفوسُنا في ليلةٍ	فلكمْ قضيتَ العمرَ في تكريمِها

تحية الدستور العثماني

إلى حيثُ ألقتْ يا زمانَ المظالمِ	ولا عُدْتَ يا عهدَ الشقا المتقادمِ
ذَهَبْتَ فلا باكٍ وأنى بكى العمى	كفيفٌ رأى الأضواءَ ملءَ العوالمِ ؟
وما عجَبٌ أنْ ليسَ في القومِ نادبٌ	ولكنْ عجيبٌ أن أرى غيرَ باسمِ
نَزَلْتَ على الشرقِ فانحطَّ شأنُهُ	وقد كانَ غصنُ الفخرِ غصنَ المكارمِ
فَفَرَّقْتَ حتى ليسَ غيرَ مُفرَّقٍ	وخاصَمْتَ حتى ليسَ غيرَ التخاصُمِ
أقمتَ فخلّى أهــلَهُ وبلادَهُ	إلى كلِّ فجٍ من خصيبٍ وقاحمِ
نأى كاظماً للغيظِ خوفَ شماتةٍ	ولم يَطْلُبِ الإنصافَ خفيةَ لائمِ
ولو شاءَ لم يَخْتَرْ سوى الشرِّ مركباً	فَقَدْ كانتِ الأحقادُ ملءَ الحيازمِ
صحبناكَ لا خوفاً ثلاثينَ حِجةً	ولكنها الدنيا وضعفُ العزائمِ
وما ذاكَ عن حبٍ فما فيكَ شيمةٌ	تُحَبُّ ولسنا من غواةِ المآثمِ
فكنتَ وكانَ الجهلُ أحسنَ خلةٍ	لنا ونجاةُ الحقِ إحدى الغنائمِ
وكنتَ وما فينا فتًى غيرُ نائمٍ	عليكَ ، ولا ذو سلطةٍ غيرُ غاشمِ
ثلاثونَ عاماً والنوائبُ فوقنا	مخيمةٌ مثلَ الغيومِ القواتمِ
فلا العلمُ مرموقٌ ولا الحقُّ نافذٌ	ولا حرمةٌ تُرعى لغيرِ الدراهمِ

وماثمَّ غيرُ البَغْيِ والظلمِ والأذى ... فَقَبَّحتَ من عصرٍ كثيرِ السخائمِ

فاغربْ شُقيتَ الدهرِ غيرَ مودَّعٍ ... من القومِ إلّا بالظبى والصوارمِ

فوالله مــا ترضى قيودَكَ أمَّةٌ ... من الناسِ إلا أصبحتْ في البهائمِ

ويا أيها الدستورُ أهلاً ومرحباً ... (على الطائرِ الميمونِ يا خيرَ قادمِ)

طلعتَ علينا كوكباً غير آفلٍ ... على حينِ أنَّ الشَّرقَ مقلةُ هائمِ

فقرَّتْ عيونٌ قبلُ كانتْ حسيرةً ... وجادتْ سروراً بالدموعِ السواجمِ

وضجَّ الورَى والشرقُ والغربُ ضجةً ... أفاقَ لهــا مستيقظاً كلُّ نائمِ

أهبتَ فقرَّ الظلمُ بالأرضِ هارباً ... ونكَّسَ خزياً رأسهُ كلُّ ظالمِ

وفاضتْ على ثغرِ الحزينِ ابتسامةٌ ... تخبرُ أنَّ الحزنَ ليسَ بدائمِ

وأطلقتِ الأقلامُ بعدَ اعتقالِهَا ... فأسمعتِ الأكوانَ سجعَ الحمائمِ

ولم يَبْقَ عانٍ لم يُفَكَّ إسارُهُ ... ولم يَبْقَ جانٍ لم يَفُزْ بالمراحمِ

وكنا نرى الأحزانَ ضربةَ لازبٍ ... فصرنا نرى الأفراحَ ضربةَ لازمِ

توهَّمَ قومٌ أنمــا الشرقَ واهمٌ ... وأنكَ يا دستورُ أضغاثُ حالمِ

ورجَّمَ قومٌ أنما تلكَ خدعةٌ ... فَعُذْنا بِرَبِّ الناسِ من كلِّ راجمِ

تجلَّيتَ فاسودتْ وجوهٌ وأسفرتْ ... وجوهٌ، وأمسى غانماً كلُّ غارمِ

وما عدتَ حتى كادَ يشتجرُ القنَا ... لأجلِكَ والخطي أعدلُ حاكمِ

وأوشكَ أن يهتزَّ في كلِّ ساعدٍ ... لكلِّ أبيٍّ كلُّ سيفٍ وصارمِ

لأبى الجيشُ إلا أن تكونَ مؤيداً ... وتأبى سوى تأييدِ جيشٍ سالمِ

فَبُوركتما من ساعدٍ ومهنَّدٍ ... برغمِ خَؤونٍ مارقٍ مُتشائمِ

ولا بَرِحَ الأحرارُ يشدو بذكرِهِمْ ... بنو الشرقِ فخراً في القُرَى والعواصمِ

رجالٌ لهمْ زيُّ الرجالِ وإنّمَا ... جسومهمْ فيها نفوسُ ضراغمِ

هم قيَّدونا بالعوارفِ والنَّدَى ... وهُمْ أطلقونا من عِقَالِ المغارمِ

فلمْ يَبْقَ فينا حاكمٌ غيرُ عادلٍ ... ولم يَبْقَ فينا عادلٌ غيرُ حاكمِ

فتنة ١٣ أبريل

بوركَ الصمصامُ من حَكَمِ … بينَ محكومٍ ومحتكِمِ

إنني بعتُ اليراعَ بهِ … لا أبيع السيفَ بالقلَمِ

صاحِ إنَّ العزَّ ممتنعٌ … نيْلُهُ إلّا على الخذمِ

إنّما الضرغامُ سؤدَدُهُ … نابُهُ المرهوبُ في البهمِ

لو يُسمّى السيفُ ثانيةً … باتَ يُدعى منقذَ الأممِ

فلهُ في الغربِ مأثرةٌ … مثلها في التُّركِ والعجمِ

ضيفَ سالونيكَ مالكَ في … سجنِها ضيفٌ سوى السأمِ

ذاكَ ضيفٌ غيرُ محتشمِ … إنْ تحاولْ طَرْدَهُ يقمِ

قد خلتْ يلديزُ منك وما … ذكرُها يُخليكَ من ألمِ

زلتَ عنها وهي باقيةٌ … عظةً للخلقِ كلِّهمِ

إن تكنْ تبغي الرجوعَ لها … ذاكَ مقضيٌّ لدى الحلمِ

مرتعَ الغيدِ الأوانسِ بل … مربعَ الواشينَ والتهمِ

خبّرينا إنَّ فيكِ لنا … حكمةً تعلو على الحكمِ

خبّرينا كيفَ عاقبةُ … البغيِ، هَلْ كانتْ سوى نَدَمِ ؟

جرتَ (ياعبدَالحميدِ) بنا … غيرَ أنَّ الجورَ لم يدمِ

كنتَ كالأيامِ ما قصدتْ … بالرزايا غيرَ ذي شممِ

ظلْتَ تُقري الحوتَ من جثثٍ … أوشكتْ تبليهِ بالتخمِ

نعمٌ للبحرِ تطرحُها … يا لها في البرِّ من نقمِ

ولكمْ حللتَ من حَرَمٍ … ولكم أفسدتَ من ذممٍ ؟

لم تراعِ قطُّ ذا صِلةٍ … لا ولم تشفقْ على رحمِ

راعكَ الدستورُ منتصراً … فاثرتَ الجندَ (بالعممِ)

كادَ يلقى منكَ مصرعهُ … وهو لم يبلغْ إلى الحلمِ

ربَّ ليلٍ بتَّ ترقبهُ … رقبةَ السرحانِ للغنمِ

ونهارٍ كدتَ فيه لهُ … غيرَ خاشٍ كيدَ منتقمِ

أحسبتَ القومَ قد غفلوا … ونسوا ما كانَ في القدمِ ؟

أم ظننتَ الشعبَ حنَّ إلى … إمرةِ الخصيانِ والخدمِ ؟

أم حسبتَ الجيشَ مبتعداً … وهو أدنى من يدٍ لفمِ ؟

لم يطقْ صبراً على مضضٍ … فأتى يسعى على قدمِ

علَمٌ من خلفِهِ علَمٌ … وكميٌّ يقتفيهِ كمي

حاطَ يلديزا فكانَ لها … كسِوارٍ غيرِ منفصمِ

ورأتْ عيناكَ غضبتهُ … فبكتْ خوفَ الردى بدمِ

شلّ منكَ التاجَ مهتضماً   من يُعادِ الشعبَ يُهتضمِ
بتْ لا جيشَ ولا علمُ   يا صريعَ الجيشِ والعلمِ
وفشى ما كنتَ تضمرهُ   فعرفْنا ناقضَ القسمِ
كنتَ مسلوبَ الكرى حذراً   ولقدْ أعطيتهُ فنَمِ
ودعِ الدُّنيا وبهجتها   ما أرى الحسناء للهرمِ
لستَ من طرسي ولا قلمي   إن كَبا في حلبةٍ قلمي
قلْ لمن راموا مُساجلتي   ليسَ غيري تاجرَ الكلمِ
يا رشادَ الملكِ تهنئةٌ   بالذي أوتيتَ من نعمِ
إن تكُنْ ذاكَ السجينَ فيا   ربَّ عانٍ غيرِ مجترمِ
أنت كالصديقِ أسكنهُ   فضلُهُ في السجنِ من قدمِ
كُنْ لهاذا الشعبِ يوسفهُ   يُنْجِ من عدمٍ ومن عدمِ
لستَ ترضى أن يقالَ كما   دونَ شعبٍ هامَ بالصنمِ
أنت للشورى نعوّذها   بكَ من عاتٍ ومن نهمِ
فتقلّدْ سيفَ جدّكَ عنْ   يمانَ جدُّ البيضِ والخذمِ
وتولَّ الملكَ من أممٍ   وبحبلِ اللهِ فاعتصمِ
قد شفى مرآكَ مقلتهُ   من عمًى، والأذنَ من صممِ
دمتَ يا خيرَ الملوكِ له   غيرَ ما همٍّ ولا سقمِ

صاحب القلم

أشقى البريّةِ نفساً صاحبُ الهِمَمِ   وأتعسُ الخلقِ حظاً صاحبُ القلمِ
عافَ الزمانُ بني الدُّنيا وقيّدهُ   والطيرُ يُحبسُ منها جيّدُ النغمِ
وحكّمتْ يدهُ الأقلامَ في دمِهِ   فلمْ تصنْهُ ولمْ يعدلْ إلى حكمِ
فيا لهُ عاشقاً طابَ الحِمامُ لهُ   إن المحبَّ لمجنونٌ فلا تلمِ
لِكلِّ ذي همّةٍ في دهرِهِ أملٌ   وكلُّ ذي أملٍ في الدهرِ ذو ألمِ
ويلُ الليالي لقدْ قلّدنني ذرباً   أدنى إلى مُهجتي من مُهجةِ الخصِمِ
ما حدّثتني نفسي أنْ أحطّمهُ   إلّا خشيتُ على نفسي من الندمِ
فكلّما قلتُ زُهدي طاردٌ كلفي   رجعتُ والوجدُ فيهِ طاردٌ سأمي
يأبى الشقاء الذي يدعونهُ أدباً   أنْ يضحكَ الطرسُ إلّا إنْ سفكتُ دمي
لقدْ صحبتُ شبابي واليراعَ معاً   أودى شبابي ... فهل أبقي على قلمِ
كأنّما الشعراتُ البيضُ طالعةً   في مفرقي، أنجمٌ أشرقنَ في الظلمِ
تضاحكَ الشيبُ في رأسي فعرّضَ بي   نوالشيبِ عندَ الغواني موضعُ التُّهمِ
فكلُّ بيضاءَ عندَ الغيدِ فاحمةٌ   وكلُّ بيضاءَ عندي ثغرُ مبتسمِ

قلْ للّتي ضَحِكَتْ من لِمّتي عَجَباً   هل كانَ ثمّ شَبابٌ غيرَ مُنصَرِمِ

أصبحتُ أنحلَ مِن طَيفٍ ، وأحيرَ مِن
نَسيفٍ ، وأسهرَ مِنْ راعٍ عَلى غَنَمِ

ولَيلةٍ بِتُّ أجني من كَواكِبِها   عِقداً كأنّي أنالُ الشُّهبَ منْ أَمَمِ

لا ذاقَ جَفني الكَرى حتّى تَنالَ يَدي
ما لا يَفوزُ بهِ غَيري مِنَ الحُلُمِ

لَيسَ الوُقوفُ عَلى الأطلالِ مِن خُلُقي
ولا البُكاءُ عَلى ما فاتَ مِنْ شِيَمي

لكنْ (مصراً) ، ومَا نفسي بناسِيَةٍ   مليكةَ الشّرقِ ذاتَ النّيلِ والهَرَمِ

صَرفتُ شَطرَ الصِّبا فيها فَما خَشِيَتْ   نَفسي العِثارَ ، ولا نَفسي مِنَ الوَصَمِ

في فِتيَةٍ كالنّجومِ الزُّهرِ أوجُهُهُمْ   ما فيهمْ غَيرُ مَطبوعٍ عَلى الكَرَمِ

لا يَقبِضونَ مَعَ اللأواءِ أيديَهُمْ   وقَلّما جادَ ذو وَفرٍ معَ الأزَمِ

حَسبي من الوَجدِ هَمٌّ مَا يخامِرُني   إلّا وأشرَقَني بالبارِدِ الشَّبِمِ

في ذِمّةِ الغَربِ مُشتاقٌ ينازِعُهُ   شَوقٌ إلى مَهبِطِ الآياتِ والحِكَمِ

مَا تَغرُبُ الشّمسُ إلّا أدمُعي شَفَقٌ   تَنسى العُيونُ لَديهِ حُمرَةَ العَنَمِ

ومَا سَرَتْ نَسَماتٌ نَحوَها سَحَراً   إلّا وَدِدتُ لوَ انّي كُنتُ في النَّسَمِ

مَا حالُ تِلكَ المَغاني بَعدَ عاشِقِها   فإنّني بَعدَهــا للهَمّ والسَّقَمِ

جِلدُ الكِنانةِ عَنّي وابِلٌ غَدِقٌ   وإن يكُ النّيلُ يُغنيها عَنِ الدِّيَمِ

الشّرقُ تاجٌ ، ومِصرٌ منهُ دُرّتُهُ   والشّرقُ جَيشٌ ، ومِصرٌ حامِلُ العَلَمِ

هَيهاتَ تَطرِفُ فيها عَينُ زائرِها   بِغَيرِ ذي أدَبٍ أو غَيرِ ذي شَمَمِ

أحنى عَلَى الحُرِّ من أمٍّ على وَلَدٍ   فالحُرُّ في مِصرَ كالوَرقاءِ في الحَرَمِ

مَا زِلتُ والدّهرُ تَنبو عَن يَدي يَدُهُ
حَتّى نَبَتْ ضِلّةً عن أرضِها قَدَمي

أصبَحتُ في مَعشَرٍ تَقذى العُيونُ بِهِمْ
شَرٍّ مِنَ الدّاءِ في الأحشاءِ والتُّخَمِ

مَا عَزَّ قَدرُ الأديبِ الحُرِّ بَينَهُمُ   إلّا كَما عَزَّ قَدرُ الحَيِّ في الرِّمَمِ

مِنْ كلِّ فَظٍّ يُريكَ القِردَ مُحتَشِماً   ويُضحِكُ القِردُ مِنهُ غَيرَ مُحتَشِمِ

إذا بَصُرتَ بِهِ لا فاتَهُ كَدَرٌ   رأيتَ أسمَجَ خَلقِ اللهِ كُلِّهِمِ

مِنَ الأعارِبِ لكنْ حينَ أنشِدُهُ   جَواهِرَ الشِّعرِ ألقاهُ مِنَ العَجَمِ

مَا إنْ تُحرِّكُهُ هَمّاً ولا طَرَباً   كأنّما أنا أتلوها عَلى صَنَمِ

لا عَيبَ في مَنطِقي لكنْ بِهِ صَمَمٌ
إنّ الصّوادِحَ خُرسٌ عِندَ ذي الصَّمَمِ

حَجَبتُ عَنْ كلِّ مَعدومِ النُّهى دُرَري
إنّي أضِنُّ عَلى الأنعامِ بالنِّعَمِ

قَومٌ أرى الجَهلَ فيهِمْ لا يَزالُ فَتًى
في عُنفُوانِ الصِّبا والعِلمُ كالهَرِمِ

نقد

سكتَ خوفاً وقلتَ الصفحَ من خُلُقي — ونمتَ جبناً وقلتَ الحلمُ من شِيَمي

وإنما أنتَ والأقوامُ قد علموا — لولا خمولكَ لم تسكُتْ ولم تنَمِ

لم تمتنعْ أنفةً لكنْ قدِ امتنَعَتْ — عليكَ أشباهُ ما قد صاغَهُ قلمي

حاولتَ وجدانَ عَيبٍ لي فكنتَ كمَنْ — يحاولُ الماءَ في البركانِ ذي الضَّرَمِ

فقلتَ للقومِ فيما قلتَ تخدعهمْ — لقد هجاني وبعضُ الهجوِ كالوَصَمِ

ألذمُّ عارٌ ولكنْ ذمُّ ذي كَرَمٍ — والحمدُ لله لم تَذمُمْ أخا كَرَمِ

سأحبسنَّ لساني عنكَ عن شَمَمٍ — وحرمةً لأُهيلِ الودِّ والذِّمَمِ

قومٌ لَعَمرِ أبي لو كانَ سفكُ دمي — ولا مغالاةَ يُرضيهمُ سفكتُ دمي

إني أجلهمْ عن أنْ يغيرَهمْ — كلامُ ذي حسَدٍ أو قولُ مُتَّهِمِ

ما العجزُ أقعدني لما كففتُ يدي — لكنْ لأجلهمِ نهنهتُ من كَلِمي

ولو أشاءُ ملأتُ الأرضَ قاطبةً — قوافياً وأفضاءَ الرَّحبِ بالحِكَمِ

ولستُ أعجبُ أن لم تشتكِ ألماً — إنَّ الجماداتِ لا تشكو من الألمِ

ثقيل

وثقيلٍ كأنهُ بردُ كانو — نَ قليلَ الحياءِ جمُّ الكلامِ

ليسَ يدري بأنهُ ليسَ يدري — إنَّ بعضَ الأنامِ كالأنعامِ

يتمنى، يا بُعْدَ ما يتمنّى — لو جرى ذكرُهُ على الأقلامِ

والذي أطمعَ اللئيمَ وأغراهُ — بِسبِّ الكرامِ حلْمُ الكرامِ

والذي صيَّرَ الكريمَ حليماً — كرهُهُ أن يُعدَّ صِنوَ الطَّغامِ

مَنعَ البومَ أن يُصادَ ويُرمى — كونُهُ غيرُ صالحٍ للطعامِ

بين مد وجزر

ألقاها في حفلة تكريم صديقه الشاعر جورج صيدح عندما زار نيويورك .

سيّرتُ في فجرِ الحياةِ سفينتي   واخترتُ «قلبي» أنْ يكونَ إمامي

فَجرَتْ على الأمواجِ قصراً من رؤى   ملءَ الفضا ، ملءَ المدى المترامي

وأقلَّ منها البحرُ حينَ أقلَّها   دنيا من الأضواءِ والأنغامِ

ومشى الخيالُ على الحياةِ بسحرِهِ   فإذا الهوى في الماءِ والأنسامِ

وإذا الرمـــالُ أزاهرٌ فوّاحةٌ   والشطُّ هيكلُ شاعرٍ رسّامِ

وإذا العبابُ ملاعبٌ ومراقصٌ   وإذا أنا من صبوةٍ لغرامِ

ألتقفُ اللذّاتِ غيرَ محـــاذرٍ   وأعبُّ في الزلّاتِ والآثامِ

لا أكتفي وأخافُ أنّي أكتفي   فكأنّما في الاكتفاءِ حِمامي

وكأنَّ هديي أن تطول ضلالتي   وكأنَّ رشدي أنْ يدومَ أوامي

مرّتْ بيَ الأعوامُ تتلو بعضَها   وأنا كأنّي لستُ في الأعوامِ

كالموجِ ضحكي ، كالضياءِ ترنّمي ،   كالفجرِ زهوي ، كالخضمِّ عُرامي

حتى إذا هتفَ المشيبُ بلمّتي   ودنتْ يدُ الماحي إلى أحلامي

صَرَخَ «الحجى» بي ساخطاً متهكماً :   «هذا الغِنى شرٌّ من الإعدامِ ،

«أسلمتني للقلبِ وهو مضلِّلٌ   فأضرَّني وأضرَّكَ استسلامي ،

«ياصاحبي أطلقني من سِجنِ الرؤى   أنا تائهٌ ! أنا جائعٌ ! أنا ظامي !»

وأرادَ «عقلي» أن يقودَ سفينتي   للشطِّ في بحرِ الحياةِ الطامي

فطويتُ أعلامَ الهوى وهجرتُها   ونسيتُ حتى أنّها أعلامي !

وحسبتُ آلامي انتهت لمّا انتهى   فـــإذا النهايةُ أعظمُ الآلامِ

وإذا الطريقُ مخاوفٌ ووساوسٌ   وإذا أنا من هبوةٍ لقتـــامِ

أبغي الثراءَ ولم يكنْ من مطلبي ،   وأرى الجمالَ بناظرٍ متعامِ

وأشيدُ مثلَ الناسِ مجداً زائفاً   وأشدُّ حولَ الروحِ ثوبَ رغامِ

فإذا أنا ، والأرضُ ملكي والسما ،   قد صرتُ عبدَ الناسِ ، عبدَ حطامي

فتضايقَ القلبُ السجينُ وقالَ لي :   «يا أيُّها الجاني قتلتَ هيامي !»

«ألفقرُ بالأحلامِ روضٌ ضاحكٌ … فإذا تلاشتْ فالرياضُ موامي»
«أينَ العيونُ تُذيبني حركاتُها … وتموتُ في سكناتها آلامي»
«وأطلُّ من أهدابها السكرى على … ظلٍّ، وأنداء، وزهرٍ نامِ»
«لما عصاني أنْ أشبَّ ضرامَها … أعيا عليها أنْ تشبَّ ضرامي»
«ألخمرُ ملءُ الجامِ لكنْ قد مضى … شوقي إلى الخمرِ التي في الجامِ»
«أسلمتني «للعقلِ» وهو مُضلِّلٌ … فأضرَّني وأضرَّكَ استسلامي»
«أنظرْ، ألستَ تراكَ في أوهامهِ … أشقى وأتعسَ منكَ في أوهامي؟»
«ألمالُ! من ذا يشتريهِ كلَّهُ … منّي بليلِ صبابةٍ وغرامِ؟»
«يا صاحبي أطلقني من سجنِ النهى … أنا تائهٌ! أنا جائعٌ! أنا ظامي»

***

لا تسألوني اليومَ عن قيثارتي … قيثارتي خشبٌ بلا أنغامِ!
يا شاعراً غنّى فردَّ ليَ الصِّبا … فــإذا مواكبهُ تسيرُ أمامي
إنّا التقينا في الشبابِ وفي الهوى … في حومتَيْنِ ـــ الشعرِ والالهامِ
وسنلتقي وإنِ افترقنا في غدٍ … في حُبِّ لبنانٍ وحُبِّ الشامِ

وستلتقي روحي وروحك بعدما … تفنى الهياكلُ في الإلهِ السامي
أهلاً بذي الأدبِ الصراحِ المصطفى، … بالفــاتحِ الروحيِّ، بالمقدامِ
بالشاعرِ الغرّيدِ في ألحــانهِ … عبقُ الربيعِ ونضرةُ الأكمامِ
هو إنْ ذكرتَ الشعرَ من أمرائهِ … وإذا ذكرتَ المجدَ فهوَ عصامي

•

أنا امام الذين هاموا

لُمْني اذا حلتُ عن عهودي … ولا تلمني على هيـامي

ما كنتُ أخشى مِنَ المنايا … فكيفَ أخشى من الملامِ ؟

قد نَزَلَ الحبُّ في فؤادي … ضيفاً ، ولكنْ على الدوامِ

فباتَ قلبي لهُ طعـاماً … وَبِتُّ أنأى عن الطَّعامِ

أعدى غرامي النجومَ حتى … أسهرها في الدُّجى غرامي

لو تعرفُ الشمسُ ما الهوى لم … تَبِنْ لِطَرْفٍ من السّقامِ

أصابَ سهمُ الفراقِ قلبي … وأخطأتْ قلبَهُ سهامي

وكانَ خوفي من التنائي … خوفَ كفيفٍ من (الترامِ)

إن فراقَ الحبيبِ عندي … أشدُّ وقعاً من الحِـمامِ

لو يبعدُ البعدُ عن حبيبي … ما عنَّ يومـاً لمستهامِ

أنا إمـامُ الذينَ هاموا … وأيُّ قومٍ بلا إمـامِ

فليسَ قبلي وليسَ بعدي … ولا ورائي ولا أمامي

•

ابتسم

قالَ : « السماءُ كئيبةٌ ! » وتجهَّما … قلتُ: ابتسمْ يكفي التجهُّمُ في السما!

قالَ: الصِّبا ولّى ! فقلتُ له : ابتسمْ … لن يُرجعَ الأسفُ الصِّبا المتصرِّما!

قالَ: التي كانتْ سمائي في الهوى … صارتْ لنفسي في الغرامِ جهنَّما

خانتْ عهودي بعدما ملَّكتُها … قلبي ، فكيفَ أطيقُ أن أتبسَّما ؟

قلتُ : ابتسمْ واطربْ فلو قارنتها … قضَّيتَ عمركَ كلَّهُ متألِّما !

قالَ: التِّجارةُ في صراعٍ هائلٍ … مثلُ المسافرِ كادَ يقتلهُ الظما

أو غـادةٍ مسلولةٍ محتاجةٍ … لدمٍ ، وتنفثُ ، كلما لهثتْ، دما !

قلتُ : ابتسمْ ما أنتَ جالبَ دائها … وشفائها ، فإذا ابتسمتَ فربَّما …

أيكونُ غيرُكَ مجرماً ، وتبيتُ في … وجلٍ كأنكَ أنتَ صرتَ المجرما؟

***

قالَ: العدى حولي عَلَتْ صيحاتُهمْ … أأُسَرُّ والأعداءُ حولي في الحمى ؟

قلتُ : ابتسمْ ، لم يطلبوكَ بذمّهمْ … لو لم تَكُنْ منهمْ أجلَّ وأعظما !

***

قالَ : المواسمُ قد بَدَتْ أعلامُها — وتعرَّضتْ لي في الملابسِ والدُّمى

وعليَّ للأحبابِ فرضٌ لازمٌ — لكنَّ كفِّي ليسَ تملكُ درهما

قلتُ : ابتسمْ ، يكفيكَ أنَّكَ لم تزلْ — حيّاً ، ولستَ من الأحبَّةِ مُعدمًا !

***

قالَ : الليالي جرَّعتني علقماً — قلتُ : ابتسمْ ولئنْ جرعتَ العلقما

فلعلَّ غيرَكَ إنْ رآكَ مرنِّماً — طرحَ الكآبةَ جانباً وترنَّما

أتُراكَ تغنمُ بالتبرُّمِ درهماً — أم أنتَ تخسرُ بالبشاشةِ مغنما ؟

يا صاحِ ، لا خطرٌ على شفتيكَ أن — تتثلَّما ، والوجهِ أن يتحطَّما

فاضحكْ فإنَّ الشهْبَ تضحكُ والدجى — متلاطمٌ ، ولذا نحبُّ الأنجما !

قالَ : البشاشةُ ليس تُسعدُ كائناً — يأتي إلى الدنيا ويذهبُ مرغما

قلتُ : ابتسمْ ما دامَ بينكَ والردى — شبرٌ ، فإنَّكَ بعدُ لنْ تتبسَّما !

كن بلسماً

القصيدة التي ألقاها صاحب الديوان في المأدبة الكبرى التي أقامتها الطائفة الارثوذكسية على شرف المندوب البطريركي المطران ثيودوسيوس أبو رجيلي في بروكلن – نيويورك .

كن بلسماً إن صارَ دهرُكَ أرقما — وحلاوةً إن صارَ غيرُكَ علقما

إنَّ الحياةَ حبتْكَ كلَّ كنوزِها — لا تبخلنَّ على الحياةِ ببعضِ ما ...

أحسِنْ وإنْ لم تُجزَ حتى بالثنا — أيَّ الجزاءِ الغيثُ يبغي إنْ همى ؟

مَنْ ذا يكافىءُ زهرةً فوّاحةً ؟ — أو مَنْ يثيبُ البلبلَ المترنِّما ؟

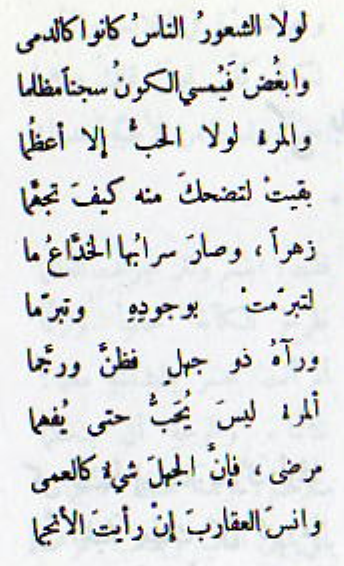
عُدَّ الكرامَ المحسنينَ وقِسْهُمُ — بهما تجدْ هذينِ منهمْ أكرما

يا صاحِ خُذْ عِلْمَ المحبةِ عنهما — إني وجدتُ الحبَّ علماً قيِّما

لو لم تَفُحْ هذي ، وهذا ما شَدَا ، — عاشتْ مذمَّمةً وعاشَ مذمَّما

فاعملْ لإسعادِ السِّوى وهنائِهمْ — إنْ شئتَ تسعدَ في الحياةِ وتنعما

***



أيقظْ شعورَكَ بالمحبةِ إنْ غفا ... لولا الشعورُ الناسُ كانوا كالدمى

أحبِبْ فيغدو الكوخُ كوناً نيّراً ... وابغُضْ فيمسي الكونُ سجناً مظلما

ما الكأسُ لولا الخمرُ غيرُ زجاجةٍ ... والمرءُ لولا الحبُّ إلا أعظُما

كرِهَ الدجى فاسودَّ إلا شهبُهُ ... بقيتْ لتضحكَ منه كيفَ تجهّما

لو تعشقُ البيداءُ أصبحَ رملُها ... زهراً، وصارَ سرابُها الخدّاعُ ما

لو لم يكنْ في الأرضِ إلا مبغضٌ ... لتبرّمتْ بوجودِهِ وتبرّما

لاحَ الجمالُ لذي نُهى فأحبهُ ... ورآهُ ذو جهلٍ فظنَّ ورجّما

لا تطلبنَّ محبّةً من جاهلٍ ... ألمرءُ ليسَ يُحِبُّ حتى يفهما

وارفُقْ بأبناءِ الغباءِ كأنهمْ ... مرضى، فإنَّ الجهلَ شيءٌ كالعمى

والهُ بوَرْدِ الروضِ عن أشواكِهِ ... وانسَ العقاربَ إنْ رأيتَ الأنجما

* * *

يا مَنْ أتانا بالسلامِ مبشراً ... هشَّ الحمى لما دخلتَ إلى الحمى

وصفوكَ بالتقوى وقالوا جهبذٌ ... علّامةٌ، ولقد وجدتُكَ مثلما

لفظٌ أرقُّ من النسيمِ إذا سَرَى ... سَحَراً، وحلوٌ كالكرى إن هوّما

وإذا نطقتَ ففي الجوارحِ نشوةٌ ... هي نشوةُ الروحِ ارتوتْ بعدَ الظما

وإذا كتبتَ ففي الطروسِ حدائقٌ ... وشّى حواشيها اليراعُ ونمنما

وإذا وقفتَ على المنابرِ أوشكتْ ... أخشابُها للزهوِ أنْ تتكلما

إن كنتَ قد أعطاكَ سربالَ الغنى ... عاشَ ابنُ مريمَ ليسَ يملكُ درهما

وأحبَّ حتى من أحبَّ هلاكَهُ ... وأعانَ حتى مَنْ أساءَ وأجرما

نامَ الرعاةُ عن الخرافِ ولم تنمْ ... فإليكَ تشكو الهاجعينَ النوّما

عبدوا الإلهَ لمغنمٍ يرجونَهُ ... وعبدتَ ربَّكَ لستَ تطلبُ مغنما

كم روّعوا بجهنمٍ أرواحَنا ... فتألّمتْ من قبلُ أن تتألّما!

زعموا الإلهَ أعدَّهـا لعذابنا ... حاشا، وربُّكَ رحمةٌ، أن يظلما

ما كانَ من أمرِ الورى أن يرحموا ... أعداءهمْ إلّا أرقَّ وأرحما

ليستْ جهنمُ غيرَ فكرةِ تاجرٍ ... أللهُ لم يخلُقْ لنا إلّا السما



الى صديق

مَا عزَّ مَن لم يَصحبِ الخَذِمَا ... فَاحطِمْ دَاوتَك، واكسرِ القَلَما[1]

وَارحَمْ صِباكَ الغضَّ، إنَّهمُ ... لا يَحفِلونَ وَتَحفِلُ الألَما

كم ذا تناديهمْ وَقَد هَجَعُوا ... أحسِبتَ أنكَ تُسمِعُ الرِّمَمَا

مَـا قَامَ في آذانِهمْ صَمَمٌ ... وَكأنَّ في آذانِهمْ صَمَما

القومُ حَاجتُهمْ إلى هِمَمٍ ... أو أنتَ ممَّنْ يَخلقُ الهِمَمَا ؟

تَاللهِ لو كُنتَ «ابنَ سَاعِدة» ... أدَباً «وحَاتمَ طيِّء» كرَما

وَبَذَذتَ «جَالينوسَ» حِكمَتَهُ ... والعِلمَ «رِسطَاليسَ» والشِّيَما

وَسَبقتَ «كولمبوسَ» مكتَشِفاً ... وَشَأوتَ «آديسونَ» مُعتزِما

فَسلَبتَ هذا البَحرَ لؤلؤَهُ ... وَحَبَوتَهمْ إيَّاهُ مُنتظِما

وَكَشَفتَ أسرارَ الوجودِ لهمْ ... وَجعلتَ كلَّ مُبعَّدٍ أمَمـا

مَا كُنتَ فيهمْ غيرَ مُتَّهَمٍ ... إنِّي وَجدتُ الحُرَّ مُتَّهَما

هَانوا على الدُّنيا فَلا نِعَماً ... عَرَفتهمُ الدُّنيا ولا نِقَما

(١) الخذم : السيف القاطع .

فَكأنَّما في غيرِهَا خُلِقُوا ... وَكأنَّما قد آثَروا العَدَمَـا

أو مَا تَراهُمْ، كلَّما انتَسَبوا ... نَصَلُوا فلا عُرْباً ولا عَجَما

لَيسوا ذوي خَطَرٍ وَقَد زَعَمُوا ... والغربُ ذو خَطَرٍ وما زَعَما

مُتخاذِلِينَ عَلى جَهَالَتِهِمْ ... إنَّ القويَّ يَهونُ مُنقسِما

فَالبَحرُ يَعظُمُ وهو مُجتمِعٌ ... وَتراهُ أهوَنَ مـا يُرى دِيَمَا

وَالسُّورُ مَا يَنفكُّ مُمتَنِعاً ... فَإذا يُناكِرُ بَعضَهُ انهَدَما

وَالشَّعبُ لَيسَ بِناهِضٍ أبَداً ... مَا دامَ فيهِ الخُلفُ مُحتكِما

يا لِلأديبِ وَمَـا يُكابِدُهُ ... في أمَّةٍ لا تُشبِهُ الأُمَمـا

إنْ بَاحَ لم تَسلَمْ كَرامتُهُ ... والإثمُ كلُّ الإثمِ إن كتَما

يَبكي فَتضحَكُ منهُ لاهِيةً ... وَالجهلُ إن يَبكِ الحِجى ابتَسَما

جَاءَتْ وَمَا شَعَرَ الوجودُ بها ... وَلَسوفَ تَمضي وهوَ مَا عَلِما

سَارَ الشُّعوبُ إلى العُلى عَنَقاً ... وَوَنَت فَلَمْ تَنقُلْ لهَا قَدَما[1]

مَا أحدَثَتْ في الدَّهرِ طَارِقَةً ... تُبقي، وَلَيسَ تَليدُها عَلَما

ضَعُفَتْ فَلا عَجَبٌ إذا اهتُضِمَتْ ... اللَّيثُ، لولا بأسُهُ، اهتُضِمَا

فَلَقَدْ رأيتُ الكونَ، سُنَّتُهُ ... كالبحرِ يَأكلُ حوتُهُ البَلَمَا[2]

(١) العنق : السير السريع .

(٢) البلم : السمك الصغير .

لا يَرحمُ المِقدامُ ذا خَوَرٍ … أو يَرحمُ الضِّرغامةُ الغَنَما ؟

***

يا صاحبي ، وهواكَ يجذبُني … حتّى لأحسبُ بيننا رَحِما

ما ضرَّنا ، والودُّ ملتئمٌ … أنْ لا يكونَ الشملُ مُلتئِما

الناسُ تقرأُ ما تُسطِّرُهُ … حِبراً ، ويقرأُهُ أخوكَ دَما

فاستبقِ نفساً ، غيرُ مُرجعِها … عضُّ الأناملِ بعدَها ندَما

ما أنتَ مُبدِلُهمْ خلائقَهمْ … حتّى تكونَ الأرضُ وهي سَما

زارتْكَ لم تهتِكْ معانيَها … غرّاءُ يهتِكُ نورُها الظُّلَما

سبقتْ يدي فيها هواجسَهمْ … ونطقتُ لمّا استصحبوا البُكَما

فإذا تُقاسُ إلى روائعِهمْ … كانتْ روائعُهمْ لها خَدَما

كالرّاحِ لم أرَ قبلَ سامعِها … سكرانَ ، جدَّ السُّكرِ ، مُحتشِما

يخدُ القِفارَ بها أخو لَجَبٍ … ينسي القِفارَ الأينُقَ الرُّسُما

أقبسْتُهُ شوقي فأضلُعُهُ … كأضالعي مملوءةٌ ضَرَما

إنَّ الكواكبَ في منازِلها … لو شئتُ لاستنزلتُها كَلِما

بلادي

تركتَ النجمَ مثلَكَ مستهاما … فإنْ تسنهْ سها أو نمتَ ناما

بنفسِكَ لوعةٌ لو في الغوادي … لصارتْ كلُّ ماطرةٍ جَهاما

وفيكَ صبابةٌ لو في جمادٍ … لأشبهَ دمعكَ الجاري انسجاما

هوىً بكَ في العظامِ لهُ دبيبٌ … أشابكَ وهوَ لم يبرحْ غلاما

يظنُّ الليلُ يحوي فيكَ شخصاً … وما يحوي الدُّجى إلّا عظاما

نفيتَ الغمضَ عن جفنيكَ يأتي … كأنّكَ واصلٌ فيهِ المَلاما

أتأرقُ ثمَّ ترجو الطيفَ يأتي … شكاكَ الطيفُ لو ملكَ الكلاما

شجتْكَ النائحاتُ بجنحِ ليلٍ … فبتَّ تُساجلُ النوحَ الحَماما

لكدتَ تُعلِّمُ الطيرَ القوافي … وكدتَ تُعلِّمُ الليلَ الغراما

إذا ذكرَ الشآمَ بكيتَ وجداً … وما تنفكُّ تذكرُ الشآما

وكنتَ سلوتَهُ إلّا قليلاً … وكنتَ هجرتَهُ إلّا لِماما

***

رويدَكَ أيُّها اللاحي رويداً … لَكَ الوَيلاتُ لَيعَ سِواكَ لاما

أأرْقُدُ والخطوبُ تطوفُ حولي — وأقعُدُ بعدما الثقلانِ قاما
ويشقى موطني وأنامُ عنهُ — إذاً مَن يدفعُ الخطرَ الجساما؟
بلادي! لا عرا شرٌّ بلادي — ولا بلغَ العِدَى منها مَراما
لبستُ الليلَ إشفاقاً عليها — وإنْ شاءتْ لبستُ لها القتاما
وقفتُ لها اليراعَ أذبُّ عنها — فإنْ يكهَمْ وقفتُ لها الحُساما
سقى قطرَ الشآمِ القطرُ عني — وحيّا أهلَهُ الصِّيدَ الكراما
دوتْ صيحاتُهم في كلِّ صقعٍ — فكادتْ تنشرُ الموتى الرِماما
وتطبعُ في المحيّا الجهمِ بشراً — وتغلقُ في فمِ الثكلى ابتساما
تحوَّلتِ القنوطَ إلى رجاءٍ — وصيَّرتِ الونى فينا اعتزاما
غدونا كلّما ذكروا طربْنا — كأنَّ بنا المعتّقةَ المُداما
ولمْ أرَ كالضميرِ الحرِّ فخراً — ولمْ أرَ كالضميرِ العبدِ ذاما
إذا غابَ الذليلُ النفسِ عني — نظرتُ إلى الذي حملَ الوساما
إذا جلبَ الكلامُ عليَّ عاراً — هجرتُ النطقَ أحسبُهُ حراما
وأجفو القصرَ يلزمُني هواناً — وأهوى العزَّ يلزمُني الحِماما

***

رجالَ التركِ ما نبغي انتقاضاً — لعمرُكمُ ولا نبغي انتقاما
ولكنّا نطالبُكمْ بحقٍّ — ونكرهُ مَنْ يريدُ لنا اهتضاما

حملنا نيرَ ظلمِكمُ قروناً — فأبلاها وأبلانا ودَاما
رعيتُمْ أرضَنا فتركتموها — إذا وقعَ الجرادُ رعى الرغاما
فباتَ الذئبُ يشكوكمْ عواءً — وباتَ الظبيُ يشكوكمْ بغاما
جرَيتمْ (بالهلالِ) إلى محاقٍ — ولولا جهلُكمْ بلغَ التماما
وكنتمْ كلّما زدنا لياناً — لِنَسْبِرَ غورَكمْ زدتمْ عراما
فما راقبتمُ فينا جواراً — ولا حفظتْ لنا يدُكمْ ذماما
أثرتمْ بيننا الأحقادَ حتى — ليقتلُ بعضُنا بعضاً خصاما
وشاءَ اللهُ كيدَكمُ فبتنا — كمثلِ الماءِ والخمرِ التئاما
فجهلاً تبعثونَ الرسلَ فينا — تديفُ لنا معَ الأريِ السماما
سنرمقُهم إذا طلعوا علينا — كأنّا نرمقُ الداءَ العقاما
فإنْ عُرَى شددناها وثاقاً — نموتُ ولا نطيقُ لها انفصاما
تخفُّ التركيَّ يخلفُ بالمثاني — ونخفُهُ كلّما صلّى وصاما
ومَنْ يستنزلِ الأتراكَ خيراً — كمَنْ يستقبسُ الماءَ الضراما
همُ نزعوا لواءَ الملكِ منّا — ونازعَنا طغامُهمُ الطغاما
وقالوا: نحنُ للإسلامِ سورٌ — وإنَّ بنا الخلافةَ (والإماما)
فهلْ في دينِ أحمدَ أنْ يجوروا — وهلْ في دينِ أحمدَ أنْ نضاما؟
إلى كمْ يحصرونَ الحكمَ فيهم — وكمْ ذا يبتغونَ بنا احتكاما.

أَلَسنا نحنُ أكثَرَهمْ رِجالًا   إذا عُدّوا وأرفَعَهمْ مُقاما
إذا طَلَعَتْ ذُكاءُ فليسَ تَخفَى   ولوْ حاكُوا الظَّلامَ لها لِثاما

***

يُخوِّفُنا المُثقَّفةَ العَوالي   لَقدْ هدَّدْتَ بالجَمْرِ النَّعاما
سَنُوقِدُها تُعيرُ الشَّمسَ ناراً   ويُعْطِي أمرُها الجَيْشَ اللُّهاما
وعِلْمُ المَرْءِ أنَّ المَوْتَ آتٍ   يُهوِّنُ عِنْدَهُ المَوْتَ الزُّؤاما



الضفادع والنجوم

صاحت الضفدعُ لما شاهدتْ   حولها في الماء أظلالَ النجومْ
يا رفاقي ! يا جنودي ! احتشدوا   عَبَرَ الأعداءُ في الليلِ التخومْ
فاطردوهمْ ، واطردوا الليل معاً   إنــه مثلهمْ باغٍ أثيمْ
زعقةٌ سارَ صداها في الدجى   فإذا الشطُّ شخوصٌ وحسومْ
في أديمِ المــاء، مِنْ أصواتها   رعدةُ الحمى ، وفي الليلِ وجومْ

...

مزّقَ الفجرُ جلابيبَ الدُّجى   ومحا من صفحةِ الأرضِ الرسومْ
فَمَشَتْ في سربها مختــالةً   كمليكٍ ظــافرٍ بينَ قرومْ
ثم قالت : لكمُ البشرى ولي   قد نجونا الآن من كيدٍ عظيمْ
نحنُ لوْ لمْ نقهرِ الشُّهبَ التي   هاجمَتْنا لأذاقتنا الحتومْ
وأقامتْ بعدنا من أرضنا   في نعيمٍ لم تجدهُ في الغيومْ !
أيها التاريخُ سجّلْ أننــا   أمةٌ قد غَلَبَتْ حتى النجومْ !

كمنجة الشوا

كمنجةَ «الشوا»، عليكِ السلامْ ... بهيكلِ الوَحيِ وعَرشِ الغرامْ

فيكِ التقتْ أرواحُ أهلِ الهوى ... نجوى وشكوى وبكا وابتسامْ

وأودعتْ فيكِ الصِّبا هَمسَها ... وخبَّأ الأسرارَ فيكِ الظلامْ

وذابَ فيكِ الحبُّ ذَوْبَ الندى ... في مبسمِ الوردِ وجفنِ الخزامْ

رُدّي إلينا اليومَ دنيا الرؤى ... فإنّنا نشقى بدنيـــا الحطامْ

أجنحةُ الأشواقِ مقصوصةٌ ... أو موثقاتٌ، والأماني رِمامْ

قَدِ انقضى العمرُ وأرواحُنا ... مفطومةٌ بالحرصِ، بِئْسَ الفِطامْ

تنأى عن الحسنِ ونشتاقهُ ... ونهجرُ الماءَ ونشكو الأُوامْ

ويبعثُ الحقلُ إلينا الشَّذى ... ونحنُ لا نتشقُ إلّا الرَّغامْ

نسيرُ والأضواءُ من حولنـــا ... كأنّنا في هَبْوةٍ أو قَتَـامْ

والمــاءُ يجري حولنا كوثراً ... ونحنُ نستقي السحابَ الجَهامْ

ونسهرُ الليلَ لغيرِ الهوى ... ما تنفعُ اليقظةُ والقلبُ نامْ ؟

حتى نَسينَا كيفَ لونُ الضحى ... ولم نعدْ نذكرُ سجعَ الحمامْ

خيرٌ من اليقظةِ عندي الكَرَى ... إنْ كانتِ الغبطةُ بنتَ المنامْ

خِلْتُنا الهوى ترجعُ أيّامهُ ... لم يرجعِ الحبُّ ولا المالُ دامْ

فيا فتى «الشهباء»، يا شاعراً، ... قد رَفَعَ الفنَّ لأسمى مُقـامْ

رَجعتَ بالسحرِ وكانَ انطوى ... وجئتنا بالوحيِ في غيرِ جامْ

هذا عصيرُ الوحيِ في آلةٍ ... خرساءَ يجري فِتَناً للأنامْ

فإنْ تَجِدْنا حولها عُكّفاً ... فالمنهلُ العذبُ كثيرُ الزحامْ

فدغدغِ الأوتارَ لا تكترثْ ... أنْ تذهبَ الفتنةُ بالاحتشامْ

سعادةُ الأنفسِ في نَشوةٍ ... من صورةٍ أو نَغَمٍ أو مدامْ

وقلْ لمن يحذرُ أنْ يشتكي ... ويحبسُ الدمعَ لئلّا يُـلامْ

إسمعْ فهذا وترٌ نـائحٌ ... وانظرْ فهذا خشبٌ مستهامْ

***

نيويوركُ ! يا ذاتَ البروجِ التي ... سَمَتْ وطالتْ كي تَمسَّ الغمامْ

لنْ تبلغي واللهِ بابَ السما ... إلّا بأوتارِ كنارِ الشآمْ

فاصغي إلى ألحـانهِ لحظةً ... تحتقري كلَّ صنوفِ الكلامْ

وتدركي أنَّ قصورَ المنى ... تبقى وتنهدُّ قصورُ الرِّجامْ

فرحّي مَعْنا بــهِ واهتفي : ... هذا أميرُ الفنِّ، هذا الإمامْ !

الشاعر والكأس

بات والكأسُ في الظلامْ في حديثٍ ولا كلامْ
هيَ في صمتِها تضيءُ، وهوَ في صمتهِ يُضامْ
شاعرٌ أنفق الصِّبـا من غرامٍ إلى غرامْ
ذاهلُ النفسِ بالرؤى عن حطامٍ وذي حطامْ
وَعَنِ الفقرِ والغنى، وَعَنِ الحربِ والسلامْ
بالشفاهِ التي طفا بينَ أهدابِهـا الأوامْ
بالغواني تطيعهُ والغواني لهـا احتكامْ
بالشّذى وهو فائحٌ، والشذى وهوَ بالكمامْ
بالسحابِ الذي يسحُّ وبالخـادعِ الجهامْ
بالأغاريدِ، والبلابلِ، والنورِ، والخزامْ
حولهُ الكونُ في وغًى وهو والكونُ في وِئامْ

***

ما لهُ الآنَ وحدهُ ساكنُ العرقِ كالنيامْ
ساهرٌ غيرَ أنهُ خادرُ الروحِ والعِظامْ

صامتٌ مثلُ كُتْبِهِ وَكَدُنيا بـلا أنامْ
أترى عضّهُ الطوى؟ لا، ففي بيتهِ طعـامْ
لم تزلْ كأسُهُ لديـهِ وفي كأسِهِ مُدامْ
ولَهُ تضحكُ البروقُ ويبكي الحَيا السجامْ
ولَهُ ترتعي الكواكبُ في مسرحِ الظلامْ
ولهُ تلبسُ الرُّبى بُرْدَ النورِ والغمامْ
ولهُ يعبقُ الشّذى، ولهُ تُعصرُ المدامْ
ولهُ يلمعُ النّدى، ولهُ يسجعُ الحمامْ
ولهُ الغـادةُ المليحةُ والفارسُ الهمامْ
كلُّها، كلُّهـا لهُ وعلى غيرهِ حَرامْ
وهوَ ساهٍ كأنما بسواها لهُ مرامْ
وجههُ غيرُ وجههِ! أمْ على وجههِ لثـامْ
كالتماثيلِ حولَهُ منْ نحاسٍ ومن رخامْ
لا اكتئابٌ ولا رضًى لا بكاءٌ ولا ابتسامْ
ليـلةٌ ما أمرَّها ليلةُ اليأسِ ألفُ عـامْ
بقيَ الحسنُ إنما ماتَ في الشاعرِ الهيامْ
فـإذا الكونُ عندهُ جَدَثٌ كلُّه رِمـامْ

أفاتحة أم ختام

قالها في رثاء الاسقف عمانوئيل أبو حطب

ما وَعَظَ الإنسانَ مثلُ الحِمامْ / فليتّعظْ بالصّمتِ أهلُ الكلامْ

أفصحُ مِنْ كلِّ فصيحٍ بنا / هذا الذي أعياهُ ردُّ السلامْ

إنّي أراهُ وهوَ في صَمْتِهِ / أروعَ من جيشٍ كبيرٍ لُهامْ

نامتْ جُفونٌ سهرتْ للعُلى / من قبلِ أنْ ينجابَ جنحُ الظلامْ

وسَكَنَ الوثّابُ في صدرِهِ / من قَبْلِ أنْ يدركَ كلَّ المرامْ

يا لهفةَ القومِ على كوكبٍ / لاحَ قليلاً واختفى في الغَمامْ

ولهفةَ الدّينِ على سيّدٍ / كان يرجّى في الخطوبِ الجسامْ

وصاحبٍ قد كانَ في صحبِهِ / كالروضِ فيهِ أرَجٌ وابتسامْ

مــا غابَ عنّا وكأنّي بِهِ / يَفْصِلُهُ عن صحبِهِ ألفُ عامْ

مَنِ الذي يُطفِىءُ من بعدِهِ / في المُهجِ الحرّى ذكيَّ الضرامْ ؟

مَنِ الذي يَمْسحُ دمعَ الأسى / وماسحُ الأدمعِ تحتَ الرغامْ ؟

يا نائماً مستغرقاً في الكَرَى / خطبكَ قد أقلقَ حتى النيامْ

خبّرْ، فــإنَّ القومَ في حيرةٍ / هل الرّدى فاتحةٌ أمْ خِتامْ

وهلْ صحيحٌ أنَّ كلَّ المنى / يطحَنُها صِرفُ الرّدى كالعظامْ ؟

وهلْ حقيقٌ أنَّ أهلَ العلى / والفضلِ بعدَ الموتِ مثلُ الطغامْ ؟

أمْ بعد هذا يقظةٌ حلوةٌ / يَنْسَى بها المرءُ الشقا والسُّقامْ ؟

ويصبحُ النابهُ في مأمنٍ / من عنَتِ المالِ وَعَيْشِ الحسامْ ؟

وتستوي الحالاتُ في حالةٍ / لا حيفَ فيها، لا أذى، لا انتقامْ ؟

خبّرْ، وحدّثْ، كلُّنا حائرٌ / ذو الجهلِ منّا والأريبُ الهمامْ

لأيّمــا أمرٍ يَعيشُ الوَرَى ؟ / لأيّمــا أمرٍ يموتُ الأنامْ ؟

وأينَ دارٌ ليسَ فيها شقًا / إنْ لم تكنْ هاتيكَ دارَ السلامْ ؟

نمْ آمناً، فالمرءُ بعد الردى / كالفكرِ، لا يُزرى بِهِ، لا يُضامْ

أمة تفنى وأنتم تلعبون

أعلى عيني من الدمع غشاء
أم على الشمس حجاب من غمام
غاض نور الطرف أم غارت ذكاء
لست أدري غير أني في ظلام

•

ما لنفسي لا تبالي الطربا   أين ذاك الزهو، أين الكلف؟
عجباً ماذا دهاها عجباً   فهي لا تشكو ولا تستعطف
ليتها ما عرفت ذاك النبا   فالسعيد العيش من لا يعرف

لا ابتسام العيد، لا رقص الطلاء
بتصباها ولا شدو الحمام
بالكرى عني وبي عنه جفاء
أنا وحدي ... أم كذا كل الأنام؟

•

لا أرى لي من همومي مهرباً   فهي في هذا وذاك الطريق
في الربى فوق الربى تحت الربى   في الفضاء الرحب، في الروض الأنيق
في اهتزاز الغصن في نفح الصبا   في انسجام الغيث في لمح البروق

كلما أومض برق أو أضاء
بت أشكو في الدجى وقع السهام
في ابتسام الفجر للمرضى شفاء
وابتسام الفجر فيه لي سقام

•

تعتريني هزة كالكهربا   كلما حن مشوق لمشوق
علمت عيني السهاد الكوكبا   وفؤادي علم البرق الخفوق
ما دعوت الدمع إلا انسكبا   يا دموعي أنت لي أوفى صديق

لم أر كاليأس يغري بالبكاء
لا ولا كالدمع يشفي المستهام
فاستعينوا بالبكا يا تعساء
كلما اشتدت بكم نار الهيام

•

خلت قلبي بالأسى منفرداً   وأنا وحدي صريع المحن

وتوهمت الأمنى لن يجدا   سكناً في غير قلبي المثخن
وظننت الدهر مهما حقدا   سوف لا يفجعني في وطني

فـإذا تلك المغاني في شقاء
وإذا كل فؤاد في ضرام
ذهبت كل ظنوني في الهواء
وتولت مثل أضغاث المنام

•

لا تلمني إن أنا لمت القضا   ولم الدهر الذي أخنى علي
لم تدع في الليالي غرضا   والضنى لم يبق مني غير في
لا تسلني: أي خطب عرضا   في الحشا وجد وفي المقول عي

فل غربي سالب السيف المضاء
والشذى الزهرة والعقد النظام
وإذا ما غلب اليأس الرجاء
هانت الشكوى ولم يجد الكلام

•

بصرت لكن مثلما شاء الكمد   شاعراً من مقلتي أرجل
صد ما كان بنفسي عنه صد   وتجافاني الكلام المرسل

عقد الحزن لساني فانعقد   أي سيف ما اعتراه الفلل ؟

بي هموم كلما لاح الضياء
ضربت فوق عيوني بلثام
وشجون كلما جن المساء
قطعت بين جفوني والمنام

•

لا أرى غير خيالات تسير   مطبقات عن يساري واليمين
فوق أرض من دماء وسعير   في فضاء من هموم وشجون
عجباً ... أين ابتسامات الثغور   ما لقومي كلهم باك حزين

كل مـا أسمع نوح وبكاء
كل ما أبصر ، صرعى ورمام ،
زلزلت زلزالها هذي السماء
أم ترى فضت عن الموتى الرجام

•

وقع الأمر الذي لا يدفع   وجنى الجاني على تلك الربوع
واحتواها نهم لا يشبع   فاحتوى سكانها خوف وجوع
فهي إمـا دمنة أو بلقع   وهم إمـا قتيل أو صريع

إن شكت قالت على الدنيا العفاء
أو شكوا قالوا على الناس السلام
عبث الإنسان فيها والقضاء
آه من جور الليالي والطغام

•

رب طفل طاهر ما إثمها ... مات موت الآثم المجترم
كان ممن يرتجى لو سلما ... للعلى لكنه لم يسلم
كوكب ما كاد يبدو في السما ... طالعاً حتى اختفى كالحلم

غاض مثل الماء في الأرض العراء
ما جهلت البدر مثواه الرغام
هكذا أودت به ريح الشتاء
زهرة لم تتفتح عنها الكمام

•

رب شيخ أقعدته الحادثات ... ومشى «الأبيض» في لمته
وثناه الضعف عن حمل القناة ... وعن السابق في حلبته
كان من قبل حلول الكارثات ... آمناً كالنسر في وكنته

لاهياً يذكر أيام الصباء

ولياليه وفي الثغر ابتسام
حكم العاتي عليه بالفناء
وأبى المقدور إلا أن يضام

•

وفتى كالغصن ريان نضير ... تحلم الخود به إذ تحلم
وتراه للهوى بين البدور ... فتراه فوقهن الأنجم
ألمعي الذهن والقلب الكبير ... ملك في بردتيه ضيغم

بات لا يقوى على حمل الرداء
منكباه وهو في العشرين عام
ما به عجز ولا داء عياء
غير أن الجوع قد هد العظام

•

وصغار مثل أفراخ القطا ... يتضاغون من الجوع الشديد
وهنت أعصابهم لما سطا ... والطوى يوهن عزمات الأسود
أرأيت العقد إما انفرطا ... هكذا دمعهم فوق الخدود

زهقت أرواحهم في شكل ماء
للأسى، لله ما أقسى الحمام

يا رعى الله نفوس الشهداء
وسقى أجداثهم صوب الغمام

•

أيها الجالون عن ذاك الحمى   إن في ذاك الحمى ما تعلمون
ضيم في أحراره واهتضما   ووقفتم من بعيد تنظرون
لا ، ومن شاء لنا أن ننعما   ما كذا يجزي الأب البر البنون

كلكم يا قوم في البلوى سواء
لا أرى في الرزء لبناناً وشام
في ربى لبنان قومي الأصفياء
وبأرض الشام أحبابي الكرام

•

الليالي غاديات رائحة   بالدواهي وأراكم تضحكون
ما اتعظتم بالسنين البارحة   لا ولا أنتم غداً متعظون
يا لهول الخطب !.. يا للفادحة   أمة تفنى وأنتم تلعبون

فادفنوا أضغانكم يا زعماء
يبعث الله من القبر الوئام
وابسطوا أيديكم يا أغنياء
أبعض السحب إلى الصادي الجهام !

صوت من سورية

صوت سوريا الجميلة   صوتك العذب الرخيم
ضاحك مثل الخميلة   لاعب مثل النسيم

*

يا أخا الورقاء غن   فالغنا شعر السماء
فهو في الغصن تثن   وهو في النجم سناء

صوت سوريا الجميلة
صوتك العذب الرخيم
ضاحك مثل الخميلة
لاعب مثل النسيم

*

غننا حتى نميلا   مثل أغصان الأراك
كم بنا صباً عليلا   لا يداويه سواك ؟

صوت سوريا الجميلة
صوتك العذب الرخيم

ضاحكٌ مثلُ الخميلهْ
لاعبٌ مثلُ النسيمْ

*

أيها المحزونُ هيا   واسمعِ اليومَ الكنارْ
ساجعاً سجعاً شجيا   ذاكراً تلكَ الديارْ

صوتُ سوريا الجميلهْ
صوتُكِ العذبُ الرخيمْ
ضاحكٌ مثلُ الخميلهْ
لاعبٌ مثـــلُ النسيمْ

*

ليتنا كنا طيورا   حولَ عينٍ أو غديرْ
نرشفُ المـــاء نميرا   نلقطُ الحبَّ النثيرْ

صوتُ سوريا الجميلهْ
صوتُكِ العذبُ الرخيمْ
ضاحكٌ مثلُ الخميلهْ
لاعبٌ مثـــلُ النسيمْ

*

موطنٌ نهوى سهولَهْ   مثلمـــا نهوى رباهْ
الصَّبـــا فيه عليلَهْ   تتداوى بنداهْ

*

كم بدا البدرُ ضحوكا   راقصاً فوقَ الكرومْ
واستوى الليلُ مليكا   لابساً تاجَ النجومْ

صوتُ سوريا الجميلهْ
صوتُكِ العذبُ الرخيمْ
ضاحكٌ مثلُ الخميلهْ
لاعبٌ مثـــلُ النسيمْ

البدر الآفل

بكى بها شقيقه المغفور له طانيوس
ظاهر أبي ماضي وقد مات شاباً

أبعدكَ يَعرفُ الصبرَ الحزينُ — وقد طاحتْ بمهجتِهِ المنونُ ؟
رَمَتْكَ يدُ الزمانِ بشرِّ سَهْمٍ — فلما أن قضيتَ بكى الخؤونُ
رماكَ وأنتَ حبةُ كلِّ قلبٍ — شريفٍ ، فالقلوبُ له رنينُ
ولم يَكُ للزمانِ عليكَ ثأرٌ — ولم يَكُ في خلالِكَ ما يَشينُ
ولكنْ كنتَ ذا خُلُقٍ رضيٍّ — على خُلُقٍ لغيرِكَ لا يكونُ
وكنتَ تحيطُ علماً بالخفايا — وتمنعُ أن تحيطَ بكَ الظنونُ
كأنكَ قد قتلتَ الدّهرَ بحثاً — فعندَكَ سرُّهُ الخافي مُبينُ
حكيْتَ البدرَ في عمرٍ ولكنْ — ذكاؤكَ لا تكوّنُهُ قرونُ
عجيبٌ أن تعيشَ بنا الأماني — وأنّا للأماني نستكينُ
ومـا أرواحنا إلّا أسارى — ومـا أجسادنا إلّا سُجونُ
وما في الكونِ مثلُ الكونِ فانٍ — كما تَفنى الديارُ كذا القطينُ
لقد عَلِقَتْكَ أسبابُ المنـايا — وفياً لا يُخانُ ولا يَخونُ

أيدري النعشُ أيَّ فتًى يُواري — وهذا القبرُ أيَّ فتًى يَصونُ؟
فتًى جُمِعَتْ ضروبُ الحُسْنِ فيهِ — وكانتْ فيهِ للحُسنى فُنونُ
فبعضُ صفاتِهِ ليثٌ وبدرٌ — وبعضُ خـلالِهِ شَمَمٌ ولينُ
أماراتُ الشبابِ عليهِ تبدو — وفي أثوابِهِ كَهْلٌ رزينُ
ألا لا يَشمتِ الأعداءُ منا — فكلُّ فتًى بمصرعِهِ رَهينُ

...

أيا نورَ العيونِ بَعُدْتَ عنا — ولمّـا تمتلىءْ منكَ العيونُ
وعاجَلَكَ الحِمامُ فـلم تُوَدِّعْ — وبِنْتَ ولم يودّعْكَ القرينُ
وما عِفْتَ الوداعَ قِلًى ولكنْ — أردتَ ولم يُرِدْ دَهرٌ ضَنينُ
فيا لَهفي لأمِّكَ حينَ يَدْوي — نَعِيُّكَ بعدَ ما طالَ السُكونُ
ولَهْفَ شقيقِكَ النائي بعيداً — إذا مـا جاءَهُ الخَبَرُ اليقينُ
ستبكيكَ الكواكبُ في الدَياجي — كما تبكيكَ في الرَّوضِ الغُصونُ
ويبكي أخوةٌ قد غِبْتَ عنهم — وأمٌّ ثاكلٌ وأبٌ حَزينُ
فما تَندَى لنـا أبداً ضلوعٌ — عليكَ ، وما تجفُّ لنا شؤونُ
قدِ ازدانتْ بِكَ الفتيانُ طفلاً — كما يزدانُ بالتّاجِ الجَبينُ
ذَهَبْتَ بزينةِ الدنيا جميعاً — فما في الدَهرِ بعدَكَ ما يَزينُ
وكنتَ لنا الرجاءَ فلا رجاءٌ — وكنتَ لنا المُعينَ فلا مُعينُ

أبعدكَ ، يا أخي ، أبغي عزاء ... إذا شُلَّتْ يَساري واليمينُ ؟

يهونُ الرزءُ إلّا عندَ مِثلي ... بمثلِكَ فهو رزءٌ لا يَهونُ

عليكَ تُقطِّعُ الحسَراتُ نفسي ... وفيكَ أطاعني الدَّمعُ الحرونُ

فلءُ جوانحي حزنٌ مُذيبٌ ... وملءُ محاجري دَمعٌ سخينُ

وما أبقى المصابُ على فؤادي ... فأزعمُ أنّـهُ دام طَعينُ

يذودُ الدمعُ عَنْ عَيني كَرَاها ... وتأبى أن تفارقَهُ الجفونُ

لقد طالَ السُّهادُ وطالَ ليلي ... فلا أدري الرُّقادَ متى يكونُ

كأنَّ الصبحَ قد لَبِسَ الدَّياجي ... عليكَ أسًى لفقدِكَ ما يَبينُ

جزاكَ اللهُ عنا كلَّ خَيرٍ ... وجادَ ضريحَكَ الغيثُ الهتونُ

يا جارتي

قالَتْ لجارَتِها يوماً تُسائلُها ... عَنّي ، وفي طرفِها الوَسْنانِ أشجانُ

ما بالُ هذا الفتى في الدارِ معتزِلًا ... كما توَحّدَ نُسّاكٌ ورُهبانُ

يأتي المساءُ عَليهِ وهو مُكتئِبٌ ... ويَرجِعُ اللّيلُ عنهُ وهو حَيرانُ

يمرُّ بالقربِ منّا لا يُكلّمُنا ... وللحديثِ مجالٌ ، وهو مِلسانُ

وإن نكلّمْهُ لا يَفقهْ مقالَتَنا ... إلّا كما يَفقهُ التسبيحَ سكرانُ

إذا تبَسّمَ ، لا تبدو نَواجذُهُ ... وإنْ بكى ، فلهُ نَزْعٌ وإرنانُ

كأنّما نيطَت الدُّنيا بعاتِقِهِ ... كأنّما كلُّ عُضوٍ فيهِ بُركانُ

فلا ابتِسامُ ذواتِ الغَنجِ يُطرِبُهُ ... ولا ابنةُ الحانِ تُصبيهِ ولا الحانُ

أماله أملٌ حـلوٌ يَلَذُّ بهِ ... كما تَلَذُّ بمرأى النورِ أجفانُ

أماله جيرةٌ في الأرضِ يألفُهُمْ ... يا جارَتي ، كانَ لي أهلٌ وجيرانُ

فَبَتَّتِ الحربُ ما بيني وبَينَهمُ ... كما تُقطِّعُ أمراسٌ وخيطانُ

فاليومَ كلُّ الذي في مُهجَتي ألمٌ ... وكلُّ ما حولهمْ بؤسٌ وأحزانُ

وكانَ لي أملٌ إذا كانَ لي وطنٌ ... فيهِ لِنفسي لُباناتٌ وخِلّانُ

فَجَرّدَتْهُ اللّيالي مِن محاسِنِهِ ... كما يُعرّى مِنَ الأشجارِ بُستانُ

فلا المغاني التي أشتاق رؤيتها — تلك المغاني، ولا السكان سكان

لو المروءة تدري أي فاجعة — بالشام، ناح عليها الإنس والجان

ولو يبث بنو لبنان لوعتهم — لاهتزت الأرض لما اهتز لبنان

قالت: شكوت الذي بالخلق كلهم

وما كذبتك إن الحرب طوفان

تساوت الناس في البلوى، فقلت لها

هيهات، ما هان قوم مثلما هانوا

أمن يموت ولا ستر يظلله — كمن عليه أكاليل وتيجان؟

قالت، ويا ويح نفسي من مقالتها

كفكف دموعك، بعض الحزن أهوان

لو كان قومك أهلاً للحياة لما — ماتوا وفي أرضهم ترك وألمان

وكل من لا يرى في الذل منقصة — لا يستحق بأن يبكيه إنسان

كفي ملامك يا حسناء واتئدي — فإن مدح ذوي العدوان عدوان

وأنت من أمة تأبى خلائقها — أن يقتل الطير في الأقفاص سجان

وإن قومي طيور غير كاسرة — سطت عليها شواهين وعقبان

لا تحسبي أنني أبكي لمصرعهم — فكلنا للردى شيب وشبان

لكن بكيت من الباغي يعذبهم — وهم شيوخ وأطفال ونسوان

ورحت أشكو إليها وهي ساهية — لكنما قلبها الخفاق يقظان

حتى انتهيت فصاحت وهي مجهشة — يا ليت ما قلته زور وبهتان

بل ليتني لم أسائل عنك جارتنا — بل ليت قلبي إذ ساءلت صوان

يا ليت شعري وهذي الحرب قائمة — هل تنجلي ولنا في الشام إخوان؟

وهل تعود إلى لبنان بهجته — وهل أعود وفي لبنان نيسان؟

فأسمع الطير تشدو في خمائله — وأبصر الحقل فيه الشيح والبان؟

بني بلادي، ولا أدعو بخيلكم — غير البخيل له قلب ووجدان

بني بلادي، ولا أدعو جبانكم — ما للجبان ولا لي فيه إيمان

بني بلادي، وكم أدعو..! أليس لكم — كسائر الخلق أكباد وآذان؟

لا تضحكوا وبأرض الشام نائحة — ولا تناموا وفي لبنان سهران!



امتنان

في حفلة ميلاد ديوانه الجداول

ما لقلبي يلجُّ في الخفقانِ   لا أنا عاشقٌ ولا أنا جانِ

أبتغي أن أقولَ شيئاً فيعصاني لساني، والسحرُ تحتَ لساني

أنا كالطائرِ الذي اندفقَ السحرُ عليهِ فغصَّ بالألحـانِ

أو كفلكٍ في البحرِ أوفى عليها   عارضٌ بعد عارضٍ هتّانِ

غلبتني عواطفُ الصحبِ حتى   صرتُ في حاجةٍ إلى ترجمانِ

أينَ في موكبِ القريضِ لوائي   قد طواهُ بيانُهُمْ وطواني

أيها المادحونَ خمري رويداً   منكمُ الخمرةُ التي في دِناني

من أنا؟ ما صنعتُ؟ كي تعصبوا بالتاجِ رأسي وأيُّ شأنٍ شاني؟

لا افتخارٌ لنحلةٍ وجدتْ حقلاً فعادتْ من زهرهِ بالمجاني

أنا من روضِكُمْ قطفتُ أزاهيري، ومِنْ بحرِكُمْ غرفتُ جماني

إن أكُنْ فرقداً فأنتمْ سمائي   أو هزاراً فأنتمُ بستاني

أيُّ بدعٍ إن أخرجَ الحقلُ للناسِ صنوفَ النباتِ في نيسانِ؟

ليسَ لي من قصائدي غيرَ أوزانٍ، وليستْ أصيلةً أوزاني

أصدقُ الشعرِ في الحياةِ وفيكمْ   ليسَ غيرَ الأطلالِ في ديواني

. . .

ما هوَ الشعر؟. إنني مـا رأيتُ اثنينِ إلا وفيهِ يختصمانِ

قالَ قومٌ «وحيٌ ينزّلُهُ اللهُ» وقومٌ «نفثٌ من الشيطانِ»

ضلَّ هذا وذا، فما حفزَ الانسانَ شيءٌ للشعرِ كالإنسانِ

يعشقُ المرءُ ذاتَهُ في سواهُ   ويُحبُّهُ الإنسانُ في الأكوانِ

أنا من أجلهِ بنيتُ قصوري   وفرشتُ الدروبَ بالرَّيحانِ

أنا من أجلهِ سكبتُ خموري   وشددتُ الأوتارَ في عيداني

أنا من أجلهِ رجعتُ من الروضةِ في راحتيَّ بالألوانِ

واستعرتُ التهليلَ من جدولِ الوادي، وضحكَ الرُّضى من الغدرانِ

ومنَ الشمسِ في الأصائلِ والإصباحِ ذوبَ اللجينِ والعقيانِ

وحملتُ الجلالَ من أرضِ (سوريا) إليهِ والسحرَ من (لبنانِ)

نحنُ أهلُ الخيالِ أسعدَ خَلْقِ اللهِ حتى في حالةِ الحرمـانِ

كمْ زهدنا بثروةٍ من نُضارٍ   وقنعنا بثروةٍ من أماني

وانطوينا في موكبٍ من ضياءٍ   وسطعنا في غمرةٍ من دُخانِ

نتراءى على الصعيدِ صعاليكَ   ولكن أرواحنا في العنانِ

إن ظمئنا وعزَّ أنْ نَرِدَ المـاء رَوَّانا تصوُّرُ الغدرانِ
وإذا غابت النجومُ اهتدينا بالرؤى، بالرجاء، بالإيمانِ
لا يعدُّ الورى علينا الليالي نحنُ قومٌ نعيشُ في الأزمانِ

. . .

ردَّ عني الكؤوسَ، يا أيها الساقي، فروحي نشوى بخمرِ المعاني
بالقوافي (جداولاً) من وفاء والأغاني (خمائلاً) من حنانِ
زَهِدَ الناسُ حين دارتْ عليهم بالتي في كؤوسهمْ والقناني

. . .

أيها الليلُ أنت أبهى مِنَ الفجرِ وإنْ كنتَ أسودَ الطيلسانِ
بالوجوهِ الزهراء، بالأنفسِ السمحاء، من يَعْرُبٍ ومن غسانِ
بملوكِ البيانِ، بالأدبِ الرائعِ، بالمنشدينَ، بالألحانِ
بالغواني، فديتهنَّ، فأسمى الشعرِ والفنِّ في الحياةِ الغواني
هذهِ الشمسُ هل رأى الناسُ وجهاً مثلَها في البهاء واللمعانِ
تتجلّى لنـا على اليُسْرِ والعُسْرِ وتمشي في نورها الفتّانِ
قد نسينا شعاعَها وسناها عندما أشرقتْ وجوهُ الحسانِ
قُسِّمَ الدهرُ ـ أنتَ، يا ليلُ، شطرٌ
من حياتي، والعمرُ شطرٌ ثانِ

أنتَ عصرٌ مستجمَعٌ في سويعاتٍ، ودنيا رحيبةٌ في مكانِ
قد تلاقتْ فيكَ القلوبُ على الحبِّ تلاقي الأجفانِ بالأجفانِ
لا تقولوا دقائقٌ وثوانٍ ذاهباتٌ فالعمرُ هذي الثواني

. . .

أنا ما عشتُ سوفَ أذكرُ بالشكرِ جيلَ الرفاقِ والأخوانِ
وإذا متُّ في غدٍ فسيأتيكمْ ثنـائي من ظلمةِ الأكفانِ

ذكرى

إني امرؤٌ لا شيءَ يُطربُ روحَهُ   ويهزُّها كالزهرِ والألحانِ

اللحنُ من قرويّةٍ أو مُنشدٍ   والزهرُ في حقلٍ وفي بستانِ

هذا يحرِّكُ بي دفينَ صَبابتي   ويهزُّ ذاكَ مشاعري وكياني

يهوى الملاحةَ ناظري صُوَراً تُرى   وأحبُّها في مسمعيَّ أغاني

وأحبُّها نوراً جميلاً صافيـاً   متألقاً في النفسِ والوجدانِ

وأحبُّها سِحراً يَرِفُّ مع الندى   ويموجُ في الألوانِ كالألوانِ

وأحبُّها ذكرى تُطيفُ بخاطري   لأخٍ هَوَيْتُ، وغادةٍ تهواني

أو مجلسٌ للحبِّ في ظلِّ الصبا   إنَّ الحيـاةَ جميعَها هذانِ

أو في خيـالِ منازلٍ أشتاقُها   كم من جَمالٍ في خيالِ مكانِ

ولقد نظرتُ إليكمْ فكأنّما   أنا في الربيعِ وفي ربى لبنانِ

أصغي إلى النَسَماتِ تَروي للربى   ما قالتِ الأشجارُ للغُدرانِ

وإلى السواقي وهي تُنشد للصبا   والحبِّ، في الفتياتِ والفتيانِ

وإلى الأزاهرِ كلّما مرّتْ بها   عذراءُ ذاتُ ملاحةٍ وبيانِ

متهامساتٍ: «ما نظنُّ (فلانةً)   أحداً بها أولى مِن (ابنِ فلانِ)

يا ليتَ ينثرُنا الغرامُ عليهما   من قبلُ ينثرُنا الخريفُ الجاني»

ألِفتْ مجاورةَ الأنامِ فأصبحتْ   وكأنّها شيءٌ من الإنسانِ

فـإذا نظرتَ إليها متأمّلاً   شاهدتَ حولَكَ وحدةَ الأكوانِ



معركة بورغاس

هذي الوغى مشبوبةُ النيرانِ — مشدودةُ الأسبابِ والأقرانِ

شابتْ مفارقُها وكانتْ طفلةً — عذراءَ منذُ دقائقٍ وثوانِ

طُويَ السلامُ فليسَ يُنشرُ بعدها — أو يُبعثَ الملحودُ في الأكفانِ

شقّوا الطروسَ وحطّموا أقلامَكم — اليومَ يومُ شواجرِ المرّانِ

هانتْ على الصمصامِ كلُّ يراعةٍ — ما لليراعةِ في الحروبِ يدانِ

يا صاحبي ليسَ الوغى من مذهبي — هاتيكَ وسوسةٌ منَ الشيطانِ

فالناسُ إخوانٌ وليسَ منَ النهى — أنْ يفتكَ الإخوانُ بالإخوانِ

لو تعقلُ الأجنادُ أنَّ ملوكَها — أعداؤها انقلبتْ على التيجانِ

قومٌ إذا شاؤوا الصعودَ لمطلبٍ — تخذوا مراقيهمْ منَ الأبدانِ

أوَ إنْ كرهتَ الحربَ كنتَ يراعةً — وإذا قتلتَ أخاكَ غيرَ جبانِ؟

إنْ كانَ قتلُ النفسِ غيرَ محرَّمٍ — ما الفرقُ بينَ المرءِ والحيوانِ؟

الحربُ مجلبةُ الشقاوةِ للورى — والحربُ يعشقُها بنو الإنسانِ

***

لمنِ الخميسُ خوافقٌ راياتُهُ — متماسكُ الأجزاءِ كالبنيانِ

متألّبٌ كالليلِ جنَّ سوادُهُ — مستوفزٌ كالقدرِ في الغليانِ

متدفّقٌ كالسيلِ في الغدرانِ — متدفّعٌ كالعاصفِ المرنانِ

تتزلزلُ الأطوادُ من صدماتِهِ — وتظلُّ منهُ الأرضُ في رجفانِ

عجلانَ يكتسحُ البلادَ وأهلَها — إنَّ الشقيَّ العاجزُ المتواني

في كلِّ سرجٍ ضيغمٌ متحفّزٌ — في كفِّهِ ماضي الشباةِ يمانِ

سمحٌ إذا ضنَّ الجبانُ بروحِهِ — فكأنّما في جسمِهِ روحانِ

ما صانَ مهجتَهُ التي في صدرِهِ — إلّا ليبذلَها بيومِ طعانِ

لاشيءَ، يومَ الروعِ، أجملُ عندَهُ — من أنْ يرى والقرنَ يصطرعانِ

***

يا ربَّ معركةٍ تراكمَ نقعُها — حتى اختفى في ظلِّها الجيشانِ

باتتْ صِقالُ الهندِ في أفيائها — كالبرقِ يسطعُ من خلالِ دخانِ

والخيلُ طائرةٌ على أرسانِها — تهوى لوِ انعتقتْ منَ الأرسانِ

دوّتِ المدافعُ كالرعودِ قواصفاً — نطقَ الحديدُ ففي كلِّ لسانِ

ترمي بأشباهِ الرجومِ تخالُها — حمراءَ قد صيغتْ منَ المرجانِ

ما إنْ تطيشُ وإنْ نأتْ أغراضُها — ولكمْ تطيشُ قذائفُ البركانِ

صخّابةٌ تذرُ الحصونَ بلاقعاً — وتدكُّها دكّاً إلى الأركانِ

تَنقَضُّ والفُرسانُ في آثارِها　　تَنقَضُّ مِثلَ كَواسِرِ العِقبانِ

هِيَ وَقعةٌ ضَجَّتْ لها الدُّنيا كَما　　ضَجَّتْ وضَجَّ النَّاسُ في «سِيدانِ»

مَشَتِ المَنايا حاسِراتٍ عِندَها　　تَتطَلَّبُ الأَرواحَ في الأَبدانِ

فَعَلى أَديمِ الجَوِّ ثَوبٌ أَسوَدٌ　　وَعَلى أَديمِ الأَرضِ ثَوبٌ قانِ

وإذا نَظَرتَ إلى الجُسومِ عَلى الثَّرى　　أَبصَرتَ كُثباناً عَلى كُثبانِ

لمّا رَأَوا (بُورغاسَ) ضَرَّةَ مَكْدَنٍ　　حَمَلوا عَلَيها حَمْلَةَ اليابانِ

وَقَدِ انجَلَتْ فإذا الهِلالُ مُنَكَّسٌ　　عَلَمٌ طَوَتْهُ رايَةُ الصُّلبانِ

رَجَحَتْ قَوائِمُهُ أَيُّما رُجحانِ　　فِيها وَشالَ التُّركُ في المِيزانِ

نَفَرُوا لَكَالحُمُرِ الَّتي رَوَّعتَها　　بابْنِ الشَّرى المُتَجَهِّمِ الغَضبانِ

وَقُلوبُهُمْ قَدْ أَسرَعَتْ ضَرَباتُها　　وَتَظُنُّها وَقَفَتْ عَنِ الخَفَقانِ

مُتَلَفِّتينَ إلى الوَراءِ بِأَعيُنٍ　　تَتَخَيَّلُ الأَعداءَ في الأَجفانِ

يَتَلَمَّسونَ مِنَ المَنِيَّةِ مَهرَباً　　هَيهاتَ إنَّ المَوتَ كُلَّ مَكانِ

وَاللهِ ما يَنجُونَ مِن أَشراكِهِ　　وَلَوِ استَعارُوا أَرجُلَ الغِزلانِ

أَسلابُهُمْ لِلظّافِرينَ غَنيمَةٌ　　وَجُسومُهُمْ لِلحاجِلِ الغَرثانِ

إنْ يَأمَنوا وَقْعَ الأَسِنَّةِ والظُّبى　　فالذُّعرُ طاعِنُهُم بِشَرِّ سِنانِ

* * *

ما أَنسَ لا أَنسَى عِصابَةَ خُرَّدٍ　　في اللهِ مَسعاهُنَّ والإحسانِ

عِفْنَ الوَثيرَ إلى وَسائِدَ قَضَّةٍ　　وَنَزَحْنَ عَنْ أَهلٍ وَعَنْ أَوطانِ

وَوَقَفْنَ أَنفُسَهُنَّ في الدنيا عَلى　　تَأمينِ مُلتاعٍ وَنُصرَةِ عانِ

يَحمِلنَ أَلوِيَةَ السَّلامِ إلى الأُلى　　حَمَلُوا لِواءَ الشَّرِّ والعُدوانِ

كَمْ مِنْ جَريحٍ بالنَّجيعِ مُخَضَّبٍ　　في الأَرضِ لا يَحنُو عَلَيهِ حانِ

ما راعَهُ طَيفُ المَنِيَّةِ مِثلَما　　راعَتْ حَشاهُ فُرقَةُ الخِلّانِ

قَلِقٌ، إذا ذَكَرَ الدِّيارَ وأَهلَهُ،　　آهَ الغَريبِ وأَنَّةَ الثَّكلانِ

نَفَّسْنَ مِن بُرَحائِهِ، وَأَسَوْنَهُ　　وَأَعَضْنَهُ مِن خَوفِهِ بِأَمانِ

ما حَبَّبَ الجَنّاتِ عِندي أَنَّها　　مَثوى سَلامٍ، مُستَقَرُّ حِسانِ

لَولا حَنانُ الغانِياتِ وَعَطفُها　　ما كانَتِ الدُّنيا سِوى أَحزانِ

* * *

مَن مُسمِعُ الأَيّامَ عَنّي نَبأَةً　　يَرتاعُ مِنها كُلُّ ذي وِجدانِ

إنَّ الأُلى جَبُنوا أَمامَ عُداتِهِمْ　　شَجُعُوا عَلى الأَطفالِ والنِّسوانِ

وَصَوارِماً قَدْ أُغمِدَتْ يَومَ الوَغى　　شُهِرَتْ عَلى الأَضيافِ والقُطّانِ

أَكَذا يُجازَى الآمِنونَ بِدُورِهِمْ　　أَوَ هَكَذا قَدْ جاءَ في القُرآنِ ؟

* * *

أَخنَى عَلى الأَتراكِ دَهرٌ حُوَّلٌ　　أَخنَى عَلى اليُونانِ والرُّومانِ

وَطَوى مَحاسِنَ «يَلدِزٍ» قَدَرٌ طَوى　　رَبَّ السَّديرِ وَصاحِبَ الإيوانِ

فاليومَ لا أَسْتَانةٌ أَسْتَانةٌ … تزْهو ولاَ السُّلطَانُ بالسُّلطَانِ

دَارَتْ دَوَائِرُهُ عَلَيْنا مِثلَمَا … دَارَت دَوَائِرُهُ عَلَى «طَهْرانِ»

أُمُنبِّهي الأَضغَانِ كَيفَ هَجَعتُمُ … لَمـــا تَنَبَّهَ نائِمُ الأَضغَانِ

وَحكُومَةَ الأَشياخِ وَيحَكِ ما الّذي … خَالَفتِ فيهِ عُصبَةَ الفِتيانِ

قالوا: لنَا المُلكُ العَريضُ وَجَاهُهُ … كَذَبوا فــإنَّ المُلكَ للرَّحمنِ

مَا بَالُ قَومي كلَّمَا استَصرَختُهُمْ … وَضَعُوا أَصَابِعَهُمْ عَلى الآذانِ

أبناءَ سُوريّا الفَتاةِ تَضَافَروا … وَخُذوا مثَالَكُمْ عَنِ البَلقَانِ

مَا التُّركُ أَهلٌ أنْ يَسودُوا فيكُمْ … أو تُحكَمُ الآسادُ بالظُّلمَانِ

هُمْ أَلبَسُوا الشَّرقيَّ ثَوبَ غَضاضَةٍ … وَسَقَوهُ كَأْسَيْ ذِلَّةٍ وَهَوَانِ

فإذا جرى ذِكرُ الشُّعُوبِ بمَوضِعٍ … شَمَخَتْ، وَطَأطَأَ رَأسَهُ العُثمَاني!..

البغضاء*

لا نُبغِضُ «الرُّوسَ» لكنْ لا نُحبُّهُمُ … فَحَرْبُنَا حَرْبُ أَقرانٍ لأقرانِ

وَلا «الفرَنسيس» مَا هُمْ بالعُداةِ لَنَا … لكنَّهُمْ غَيرُ أَصحَابٍ وَإِخوانِ

إنَّا نُبادِلُهُمْ وَالنَّقعُ مُنسَدِلٌ … طَعناً بِطَعنٍ وَنِيراناً بِنِيرانِ

وَذي بِيَارِقُنَا في «الفُوج» خَافِقَةٌ … وَجَيشُنَا ظَافِرٌ في كلِّ مَيدانِ

قُلُوبُنَا لَيسَ فيهَا غَيرُ مَوجِدَةٍ … ذو الشَّيبِ فيها وَفَحمُ الشَّعرِ سِيَّانِ

نَهوى وَنَحنُ جُمُوعٌ لا عِدادَ لها … كَوَاحِدٍ وَكَذا نَقلَى كإنسَانِ

عَدوُّنا واحِدٌ، الكُلُّ يَعرِفُهُ … ذاكَ الحَسُودُ الخَبيثُ الماكِرُ الشَّاني

تَرُدُّنا عَنهُ أَمواجٌ يَلُوذُ بِهـــا … سَمِيكَةٌ كالنَّجيعِ اليَابِسِ القَاني

أُرى بِهِ، وَهوَ في الطُّوفَانِ مُختَبِئٌ … طُوفَانَ غَيظٍ تَوَارى خَلفَ طُوفَانِ

(*) هي القصيدة المشهورة التي نظمها الشاعر الالماني «ارنست ليسوار» في غضون الحرب فكان لها في المانيا دوي ورنين، وقد نال ناظمها من أمبراطوره وساماً عالياً من نوع «الصليب الحديدي» دلالة على الاستحسان والرضى. ولما كانت هذه القصيدة قد نقلت الى أكثر اللغــات فقد اقترحت جريدة «مرآة الغرب» اليومية على صاحب الديوان أن ينقلها الى عالم الشعر العربي ففعل.

قد أصبحَ الماءُ يَحميهِ ويَمنَعُهُ   الوَيلُ للماءِ منّا إنّهُ جانِ

قِفُوا أمامَ القضاءِ العدلِ كُلُّكمُ   ولَيَحلِفَنَّ يميناً كلُّ ألماني

غليظةً كالحديدِ الصّلبِ، صارمةً   كالموتِ، تَبقى لأدهارٍ وأزمانِ

أنْ نَبغُضَ البغضَ لا تَبلى مرائرُهُ   ولا يُقاسُ ولا يُحصى بميزانِ

وأنْ نُردِّدَهُ في كلِّ ناحيةٍ   وأنْ نُكرِّرَهُ تكريرَ ألحانِ

وأنْ نُعلِّمَ منّا كلَّ ذي كَبِدٍ   أنْ يَبغُضَ القومَ في سِرٍّ وإعلانِ

بُغضاً إلى نَسلِنا بالإرثِ مُنتقلاً   إلى بَنيهِمْ ومِنْ جيلٍ إلى ثاني

عدوُّنا واحدٌ، الكلُّ يَعرِفُهُ   ذاكَ الحسودُ الخبيثُ الماكرُ الشّاني

إنكلترا ! !

ألا اسمَعوا أيُّها الألمانُ واعتَبِروا   وأنتمُ أهلُ ألبابٍ وأذهانِ

... في مَحفِلٍ جَلَسَ القُوّادُ كُلُّهمُ   كمُحكَمِ العِقدِ أو مَرصُوصِ بُنيانِ

وقامَ واحدُهمْ والكأسُ في يَدِهِ   كأنّها قَبَسٌ أو عَينُ غَضبانِ

فقالَ: يا قومُ «هذا سِرُّ يومِكُمُ»   ألا اشرَبوا، إنَّ سِرَّ اليومِ سِرّانِ

مَقالةٌ فَعلتْ في الجمعِ فِعلتَها   فأصبَحوا وكأنَّ الواحدَ اثنانِ

ما ضربةُ السّيفِ مِن ذي مِرّةٍ بَطَلٍ   ومُستطيرُ اللّظى مِنْ قلبِ صَوّانِ

ولا السّفينةُ في التّيّارِ جاريةً   ولا الشّهابُ هوى في إثرِ شيطانِ

أمضى وأنفذَ مِنها وهي خارجةٌ   مِن فيهِ كالسّهمِ مِن أحشاءِ مِرنانِ

فَعَناءِ مَنْ كانَ في الكأسِ التي ارتَفَعَتْ
ومَنْ يريدُ ويَعني القائلُ العاني ؟
إنكلترا ! !

بَني بريطانيا نادُوا جُموعَكمُ
واستَصرِخوا الخلقَ مِن إنسٍ ومِن جانِ

وابنُوا المَعاقلَ والأسوارَ مِنْ ذَهَبٍ
واستأجِروا الجُندَ مِنْ بِيضٍ وعُبدانِ

مُروا أساطيلَكُم في البحرِ تَرصُدُنا   وتَرصُدُ البحرَ مِن موجٍ وحيتانِ

تاللهِ لا ذي ولا هذي تَرُدُّ يَداً   إذا رَمَتْ دَكَّتِ البُنيانَ والباني

. . .

لا نُبغِضُ الرّوسَ لكن لا نُحِبُّهمُ   فحَربُنا حربُ أقرانٍ لأقرانِ

ولا الفرنسيسَ، ما هم بالعُداةِ لنا،   لكنّهمْ غيرُ أصحابٍ وإخوانِ

إنّا نُبادِلُهم والنّقعُ مُنسَدِلٌ   طَعناً بطعنٍ ونيراناً بنيرانِ

نأتي ويأتونَ والهيجاءُ قائمةٌ   بكلِّ ماضٍ وفَتّاكٍ وطَعّانِ

لكنّنا في غدٍ يُرخي السّلامُ على   هذي الوغى وعليهم سِترَ نِسيانِ

ويَمّحي كلُّ بُغضٍ غيرِ بُغضِكمُ   فإنّهُ آمِنٌ مِن كلِّ نُقصانِ

حِقدُ القلوبِ عليكم لا يزولُ وإنْ   زُلتُم وزُلنا وزالَ العالَمُ الفاني

في الأرضِ بغضكمْ والمـــاءِ مثلُها

وَالبُغضُ في الحرِّ مثلُ البُغضِ في العاني

الكوخُ يُبغِضكمْ وَالقصرُ يُبغِضكمْ ... وَكلُّ ذي مُهجةٍ منَّا وَوجدانِ

نَهوى ونحنُ جموعٌ لا عِدادَ لها ... كَواحِدٍ وَكذا نَقلى كأنسانِ

عَدوُّنا واحدٌ، الكلُّ يعرفُهُ ... ذاكَ الحسودُ الخبيثُ الماكرُ الشاني

إنكلترا !!



في سبيل الاصلاح

حيَّا الصَّبا عني رُبى لبنانِ ... حيثُ الهوى ومراتعُ الغزلانِ

وَرَعى المهيمنُ ساكنيهِ فإنَّهمْ ... في خيرِ أرضٍ خيرةِ السكّانِ

قومٌ صفتْ أخلاقُهمْ ووجوهُهُمْ ... فالحسنُ مجموعٌ إلى الإحسانِ

لهمُ الأيادي البيضُ والشِّيمُ التي ... لو مُثِّلَتْ كانتْ عقودَ جُمانِ

شِيَمُ الكرامِ قصائدٌ في الكونِ غـ ... ـرٌّ، وهي في شِيَمِ الكرامِ مَعانِ

قومٌ إذا زارَ الغريبُ بلادَهُمْ ... جعلوهُ منهمْ في أجلِّ مكانِ

إنْ خِفتَ شرَّ طوارقِ الحدثانِ فا ... قصدْهُمُ، تُخِفْكَ طوارقُ الحدثانِ

لو أنَّ في كيوانَ دارَ إقامتي ... لهجرتُ كيواناً إلى لُبنانِ

قيَّدْتُ قلبي في هواهُ فلَمْ أعُدْ ... أهوى السِّوى إذْ ليسَ لي قلبانِ

والحبُّ يجملُ في الشبيبةِ والصِّبى ... كجمالِ زَهْرِ الرَّوضِ في نَيسانِ

هوَ جنةُ الخُلدِ التي منَّى بها ... رُسْلُ الهُدى قدماً بني الإنسانِ

خَلَتِ الدهورُ ولا يزالُ كأنَّما ... بالأمسِ شادَتْهُ يدُ الرحمنِ

يا ساكنيهِ تحيةً من نازحٍ ... إنَّ التحيةَ لَهِيَ جَهْدُ العاني

أصبحتمُ فوقَ الممالكِ رفعةً ... لولا وجودُ معاشرِ (الغربانِ)

قومٌ قد اتخذوا الديانةَ بينكُمْ — شَرَكاً لِصَيدِ الأصفرِ الرّنّانِ
فتظاهروا بالزّهدِ حتى أوشكتْ — تخفى دخائلُهُمْ على اليقظانِ
وتفنّنوا بالمكرِ حتى أصبحوا — وغبيُّهمْ أدهى منَ الشيطانِ
ضربوا على الشّعبِ الرُّسومَ شراهةً — حَسْبُ التعيسِ ضرائبُ السُّلطانِ
كَفَروا بِنِعْمَتِهِ التي أسداهُمُ — ورَمَوْهُ بالإلحـادِ والكفرانِ
ولَقدْ تفانوا في انتهاكِ حقوقِهِ — وهو المحبُّ رضاهُمُ المتفاني
حتى حَسِبْنا أنهُ ينحطُّ عَنْ — كَسَلٍ، ولم يَكُ قطُّ بالكسلانِ
لكنّهُ يسعى ويذهبُ سَعْيُهُ — للقسِ والشمّاسِ والمطرانِ
لولا احترامي مذهباً عُرِفوا بهِ — لَكشفتُ مستوراتِهمْ ببيانِ
فتنبّهوا إنْ كنتمُ في غفلةٍ — فالدّهرُ بالمرصادِ للغفلانِ
إنّ الأبالسَ حينَ أعيا أمرُكُمْ — جاءتكُمْ في صُورةِ الرُّهبانِ
فَحَذارِ من أنْ تُخدعوا بلباسِهِمْ — فَهُمُ الضّواري في لباسِ الضّأنِ
مَنْ يَتّبعِ العميانَ حُبّاً بالهُدى — لا يأمَنَنّ تَعَثُّرَ العميـانِ

فجعل قوم يلومونه على ذلك فقال :

إنْ كانَ لي ذنبٌ وَهَمُّ غفرانُهُ — آثرتُ أن أبقى بلا غُفرانِ
أو كنتُ في النيرانِ حيثُ لديهمُ — منها النجاةُ رَضيتُ بالنيرانِ
أشهى إلى نفسي من الذُّلِ الرّدى — لا يرتضي بالذلِّ غيرُ جبانِ

زهرة اقحوان

كانَ في صدري سرٌ كامنٌ كالأُفعوانِ
أتوقّاهُ وأخشى أن يراهُ مَنْ يراني
وإذا لاحَ أمامي عَقَلَ الذعرُ لساني
فكأني عندَ بحرٍ هائجٍ أو بُركانِ
لمْ أخفهُ غيرَ أني خفتُ أبناءَ الزمانِ
ولكمْ فانٍ نظيري خافَ قبلي بَطشَ فانِ

***

لمْ يَسَعْ سري فؤادي، لمْ تَسَعْ نفسي المعاني
فقصدتُ الغابَ وحدي والدُّجى ملقي الجرانِ
ودفنتُ السرَّ فيهِ مثلما يُدفنُ جانِ
ورأى الليلُ قتيلي فبكاهُ وبكاني
إنّ للّيلِ دموعاً لا تراها مقلتانِ

***

كنتُ حتى مع ضميري أمسِ في حربٍ عوانِ

فانقضى عهدُ التجافي وأتى عهدُ التداني

خُدِّرت روحي فأمسى شأنُ جلِّ الخَلقِ شأني

لا أرى في الخيرِ معنًى، ولكم فيها معاني

فكأني آلةُ العاصرِ أو إحدى الأواني

لم يَعُدْ قلبيَ كالبرقِ شديدَ الخفقانِ

لم تَعُدْ نفسيَ كالنجمةِ ذاتِ اللمعانِ

بتُّ لا أبكي لمظلومٍ ولا حرٍّ مُهانِ

لا ولا أحفلُ بالباكي ولو ذو صولجانِ

صرتُ كالصخرِ سواءٌ هادمٌ عندي وبانِ

***

يا لآمالي الغوالي! يا لأحلامي الحسانِ!

طوَتِ الغابةُ سرّي فانطوتْ معْهُ الأماني

ضاعَ لما ضاعَ شيءٌ من كياني بل كياني

***

في صباحٍ مستطيرٍ كصباحِ المهرجانِ

لَبِسَتْ فيه الرواني حلةً من أرجوانِ

وتبدّى الغابُ من أوراقِهِ في طيلسانِ

ساقني روحٌ خفيٌّ نحو ذيّاكِ المكانِ

فإذا بالسرِّ أضحى زهرةً من أقحوانِ

•

الفردوس الضائع *

مَا زالَ يمشي في الأُمورِ بفكرِهِ … حتّى تمشّى النومُ في الأجفانِ
وكما يرى الوَسْنانُ راهُ كأنّهُ … في النعشِ ميتٌ هامدُ الجثمانِ
وعلى جوانبِ نعشِهِ صفّانِ … من جُندِ «ألبرت» الرفيعِ الشانِ
يبكونَهُ لا شامتينَ بموتِهِ … ليسَ الشماتةُ عادةَ الشجعانِ
ورأى حواليهِ جماهيرَ الورى … تستعرضُ الملحودَ في الأكفانِ
وكأنّما كرهَ اختلاطَ رُفاتِهِ … في الأرضِ بالضعفاءِ والعبدانِ
أو أنْ مرأى الحشدِ أقلقَ روحَهُ … في جسمِهِ فهفا إلى الطيرانِ
ومنَ العجائبِ في الكرى أنَّ الفتى … يغدو بهِ وكأنّهُ شخصانِ

. . .

أمَّ السماءَ وقد توهّمَ أنّهُ … لا شكَّ والجُها بِلا استئذانِ
ما زالَ يرقى صاعِداً حتى انتهى … حيثُ الغِناءُ مثالثٌ ومثاني
فرمى بناظرِهِ فأبصرَ بابَها … فمشى إليهِ مِشيةَ العجلانِ

(*) أو رؤيا القيصر الالماني .

وأقامَ يقرعُهُ فأقبلَ «بطرسٌ» … ذو الأمرِ في الفِردوسِ والسلطانِ
وأدارَ فيهِ لحظَهُ فإذا بِهِ … ضيفٌ، ولكنْ ليسَ كالضيفانِ
ما جاءنا بكَ؟ صاحَ «بطرسُ» غاضباً … يا شرَّ إنسانٍ على الإنسانِ
إذهبْ فما لكَ في السّما من موضعٍ … يا أيُّها الرجلُ الأثيمُ الجاني
ثمَّ انثنى للبابِ يُحكِمُ سدَّهُ … والضيفُ لم ينبِسْ ببنتِ لسانِ
ما ذي الفظاظةُ؟ قالَ «وليمُ» وانثنى … لليأسِ كالمصفودِ في الأقرانِ
وبمثلِ لمحِ الطرْفِ أسرعَ هابطاً … نحوَ الجحيمِ يقولُ ذاكَ مكاني
هيهاتَ يُحرَمُ مِنْ جهنّمَ عائدٌ … مِنْ جانبِ الفِردوسِ بالحِرمانِ
حتّى إذا ما صارَ دونَ رتاجِها … سَمِعَ «الزعيمَ» يصيحُ بالأعوانِ
أبني جهنّمَ أوصِدوا أبوابَكُمْ … واستعصِموا كالطيرِ بالأوكانِ
كونوا على حذرٍ ففي هذا الضحى … يأتي إلينا قيصرُ الألمانِ
إنْ كنتُمُ لم تعرفوهُ فإنّهُ … رجلٌ بلا قلبٍ ولا وجدانِ
أخشى على أخلاقِكُمْ إن زارَكُمْ … وهيَ الحِسانُ تصيرُ غيرَ حِسانِ
إيّاكُمْ أن تسمحوا بدخولِهِ … فدخولُهُ خطرٌ على السكّانِ
أمري لكم أصدرتُهُ فخذوا بهِ … وحذارِ ثمَّ حذارِ من عِصياني
ماذا تراني؟ صاحَ «وليمُ» باكياً … حتى الأبالِسُ لا تحبُّ تراني
ابليسُ، يا شيخَ الزبانيةِ الألى … كانوا لأخداني مِنَ الأخدانِ

رُحماكَ بي ، فالليلُ قاسٍ بَردُهُ … وَالهَولُ يملأُ ناظِري وَجَناني

بجهنَّمٍ ، بالساكني حُجراتِها … بمواقِدِ النّيرانِ ، بالنّيرانِ

وَبكلِّ شيطانٍ مَريدٍ ماكرٍ … وبِكلِّ تابعِ ماردٍ شَيطانِ

مُذْ يَنفتِحُ بابُ الجَحيمِ فإنني … قد كادَ يجمدُ للصقيعِ لِساني

يا لَيتَ شِعري أينَ أذهَبُ بعدما … سُدَّ السَّبيلُ وَأوصِدَ البابانِ

مُنْ لي بزاويةٍ أزجُّ بمهجَتي … فيها ، وإنْ تَكُ مِن حَميمٍ آنِ

هَلّا قَبِلتَ تضرُّعي ؟ فأجابَهُ … إبليسُ ، وهو يَروغُ كالسّرحانِ

لو كُنتُ أعلمُ ما سَكتُّ فلا تَزِدْ … لا رأيَ للحَيرانِ في الحَيرانِ

عَبثاً تحاولُ أن تُصادفَ عِندَنا … نُزلا ، فهذا لَيسَ بالإمكانِ

لا تَذكُرَنَّ ليَ الحَنانَ وَما جرى … مَجراهُ ، إني قد قَتلتُ حَناني

لا يَدخُلَنَّ جَهنَّماً ذو مَطمَعٍ … بالمَجدِ أو بالأصفرِ الرّنّانِ

إنْ كُنتَ تَشتاقُ الإقامَةَ في اللّظى … فالنّارُ والكبريتُ كلُّ مَكانِ

فاجمَعهُما واصنَعْ لِنَفسِكَ مِنهُما … ولِمَن تحبُّهُمُ جَحيماً ثاني

وَهُنا تَقهقَرَ ، وليمُ ، ثمَّ اختفى … ما بَينَ لَيلٍ حالِكٍ ودُخانِ

فَأفاقَ مَذعوراً يُقلِّبُ طَرفَهُ … لِلرُّعبِ في الأبوابِ والحيطانِ

وَيقولُ لا أنساكَ يا حُلمي ولو … نَسَجَتْ عليَّ عناكِبُ النِّسيانِ

ما راعَني أنّي طُرِدتُ مِنَ السَّما … أنا قانِطٌ مِنْ رَحمةِ الدَّيّانِ

لكنَّ طَردي مِن جَهنَّمَ ، إنَّهُ … ما دارَ في خُلدي ولا حِسباني

الشجاع

لا أُحبُّ الإنسانَ يرضخُ للوَهْـ … ـمِ ، ويرضى بتافهاتِ الأماني

إنَّ حيّاً يهابُ أنْ يلمسَ النورَ … كَمَيْتٍ في ظُلمَةِ الأكفانِ

وحياةٌ أمدُّ فيهـا التوقّي … لا توازي في المجدِ بضعَ ثوانِ

ألشجاعُ الشجاعُ عندي مَنْ أمـ … ـسى يغنّي والدمعُ في الأجفانِ

الحرب العظمى

لو استطيع كتبت بالنيران　　　فلقد عييت بكم وعي بياني

ولكدت أستحي القريض وأتقي　　　أن يستريب يراعتي وجناني

أمسى يعاصيني لما جشمته　　　فيكم وكنت وكان طوع بناني

يشكو إلي وأشتكي إعراضكم　　　الله في عان يلوذ بعان

عاهدته أن لا أثير شجونه　　　أو يستثير كوامن الأشجان

يا طالما استبكيته فبكى لكم　　　لولا الرجاء بكيته وبكاني

كم ليلة أحييتها متململا　　　طرفي وطرف النجم ملتقيان

تحنو على قلبي يميني والدجى　　　حان على الفتيات والفتيان

أجلو عرائسه لكم وأزفها　　　ما بين بكر كاعب وعوان

متألما فيكم وفي أبنائكم　　　وهم وأنتم نائمو الأحزان

ما غال نومي حب معسول اللمى　　　ممنوعه، لكن هوى الأوطان

أنفقت أيام الشباب عليكم　　　في ذمة الماضي الشباب الفاني

***

كم تسألوني أن أعيد زمانه　　　يا قوم، مر زمانه وزماني

هان اليراع على البواتر والقنا　　　ما تصنع الأقلام بالمران

ليس الكلام بنافع أو تغتدي　　　حمر المضارب خلف كل لسان

والشعب ليس بمدرك آماله　　　حتى يسير على النجيع القاني!..

***

صل[1] الحديد وشمرت عن ساقها　　　وتنكر الإخوان للإخوان

فالخيل غاضبة على أرسانها　　　والبيض غاضبة على الأجفان

والموت من قدامهم ووراءهم　　　والهول كل ثنية ومكان

بسطت جناحيها ومدت ظلها　　　فإذا جناحا النسر مقصوصان

تغشى مواكبها ثلاث غياهب　　　من قسطل ودجنة ودخان

ويرد عنها كل خائض لجة　　　سيلان: من ماء ومن نيران

أنى التفت رأيت رأسا طائرا　　　أو مهجة مطعونة بسنان

يمشي الردى في إثر كل قذيفة　　　فكأنما تقتاده بعنان

فالجو مما فاض من أرواحهم　　　لا تستبين نجومه عينان

والنهر مما سال من مهجاتهم　　　يجري على أرض من المرجان

والأرض حمراء الأديم كأنها　　　خد الحيية أو خضيب بنان

---

(١) صل: كصلصل: صوت.

كَمْ مِن مُبيحٍ للضُّيوفِ طَعَامَهُ … أمسى طَعَامَ الأجدَلِ الغَرثانِ

وَمُعَاقِلٍ نَاشَ الكَتيبَةَ ، نَاشَهُ … ظُفرُ العُقابِ وَمِخلَبُ السِّرحانِ

وَمُحَلِّقٍ بَينَ المَجَرَّةِ والسُّهـــا … صَعِدَ الحِمَامُ إِليهِ في الطَيَرانِ

وَمُشَيَّدٍ وَقَفَ الزَّمانُ حِيالَهُ … مُتَحَيِّراً بِجَمـــالِهِ الفَتَّانِ

أخنى على ذِكرِ «الخَوَرنَقِ» ذِكرُهُ … وَسَمَا على «الحَمراءِ» وَ«الإيوانِ»

وَقَضَى العُصورَ النَّاسُ في تَشييدِهِ … أودَتْ بِهِ مَقذوفَةٌ وَثَوانِ

وَمَدينَةٍ زَهراءَ آمِنَةِ الحِمَى … هُدِمَتْ مَنازِلُها عَلَى السُّكَّانِ

خَرِسَتْ بَلابِلُها الشَّوادي في الضُّحَى … وَعَلا صِياحُ البُومِ والغِربانِ

وَتَعَطَّلَتْ جَنَّاتُها وَقُصورُها … وَلَقَدْ تَكونُ بِغِبطَةٍ وَأمانِ

حَربٌ أذَلَّ بِها التَّمَدُّنُ أهلَهُ … وَجَنَى الشُّيوخُ بِها عَلَى الشُّبَّانِ

سَحَقَ القَوِيُّ بِها الضَّعيفَ وَدَاسَهُ … وَمَشَى على أرضٍ مِنَ الأبدانِ

بِئسَ الوَغَى يَجني الجُنودُ حُتوفَهُمْ … في سَاحِها وَالفَخرُ للتيجانِ

مَا أقبَحَ الإنسانَ يَقتُلُ جَارَهُ … وَيَقولُ هذي سُنَّةُ العُمرانِ

بَلِيَ الزَّمانُ وأنتَ مِثلُكَ قَبلَهُ … يا شِرعَةً قَد سَنَّها الجِدَّانِ

فالقاتِلُ الآلافِ غازٍ فاتِحٌ … وَالقاتِلُ الجاني أثيمٌ جانِ

لا حَقَّ إلّا ما تُؤَيِّدُهُ الظُّبَى … ما دامَ حُبُّ الظُّلمِ في الإنسانِ

لو خُيِّرَ الضُّعَفاءُ لاختاروا الرَّدى … لَكِنْ عَيشَ الأكثَرينَ أماني

***

مَا بالُ قومي نَائِمِينَ عَنِ العُلَى … وَلَقَدْ تَنَبَّهَ لِلعُـــلى الثَّقَلانِ

تُبَّاعُ أحمَدَ والمسيحِ ، هَوادَةً … مَا العَهدُ أنْ يَتَنَكَّرَ الأخوانِ

اللهُ رَبُّ الشِّرعَتَينِ وَرَبُّكُمْ … فَإلى مَتَى في الدِّينِ تَختَصِمانِ

مَهما يَكُنْ مِن فَارِقٍ فَكِلاكُما … يُنمى إلى قَحطانَ أو غَسَّانِ

فَخُذوا بِأسبابِ الوِفاقِ وَطَهِّروا … أكبادَكُم مِن لَوثَةِ الأضغانِ

في مَا يُحيقُ بِأرضِكُم وَنُفوسِكُمْ … شُغلٌ لِمُشتَغِلٍ عَنِ الأديانِ

نِمتُم وَقَد سَهِرَ الأعادي حَولَكُم … وَسَكَنتُمُ وَالأرضُ في جَيَشانِ

لا رَأيَ يَجمَعُكُم إذا اختَلَفَ القَنا … وَتَلاقَتِ الفُرسانُ بالفُرسانِ

لا رايَةٌ لَكُمُ يُدافِعُ دونَها … مُردُ العَوارِضِ ، وَالحُتوفُ دَواني

لا ذَنبَ للأقدارِ في إذلالِكُم … هذا جَزاءُ الغافِلِ المُتَواني

لَو لَم يَعِزَّ الجَهلُ بَينَ رُبوعِكُم … مَا هانَ جَمعُكُمُ عَلَى الحَدَثانِ

المَرءُ ، قيمَتُهُ المَعارِفُ وَالنُّهَى … مَـــا نَفعُ باصِرَةٍ بِلا إنسانِ

مَا بالُكُم لا تَغضَبونَ لِمَجدِكُم … غَضَباتِ مَلطومِ الجَبينِ مُهانِ

أو لَستُمُ كالنَّاسِ أهلَ حَفائِظٍ … أم أنتُمُ لَستُم مِنَ الحَيَوانِ ؟

أبناؤُكُم ، لَهفي عَلَى أبنائِكُم … يَلهو بِهِم أبناءُ جِنكيزِ خانِ

النَّازِعونَ المُلكَ مِن أيديكُمُ … العابِثونَ بِكُم وبالقُرآنِ

أو كُلَّما طَلَعَتْ عَلَيهِم أزمَةٌ … هَاجُوا ضَغائِنَكُم عَلَى الصُّلبانِ

لا تخدعنّكمُ السياسةُ إنّها … شتّى الوجوهِ كثيرةُ الألوانِ

لو تعقلونَ علمتمْ لخلاصِكمْ … مِنْ دولةِ القينات والخصيانِ

عارٌ على نسلِ الملوكِ بني العلى … أن يستذلّهمُ بنو الرّعيانِ

ثوروا عليهمْ واطلبوا استقلالكمْ … وتشبّهوا بالصّربِ واليونانِ

ماذا يروعُ نفوسَكمْ، ما فيكمُ … وكِلٌ ولا في التُّركِ غيرُ جبانِ

وهبوهُمُ الرّومانَ في غلوائِهمْ … أفما غلبتمْ أمّةَ الرّومانِ

ما الموتُ ما أعيا النّطاسي ردّهُ … موتُ الذّليلِ وعيشُهُ سيّانِ

•

العير المنكر

زَعَمَ المؤدّبُ أنّ عيراً ساءهُ … أنْ لا يُسارَ بهِ إلى الميدانِ

فمضى فقصّرتِ القواطعُ ذيلَهُ … وسطتْ مواضيها على الآذانِ

حتى إذا جاءَ المروضُ واعتلى … متنيهِ رابَ الفارسُ الكشحانِ

لكنّهُ ما زالَ غيرَ مصدّقٍ … حتى علا صوتٌ كصوتِ الجانِ

فاستلَّ صارمَهُ فطاحَ برأسهِ … ورمى بجثّتهِ إلى الغربانِ

ما دامَ يصحبُ كلَّ حيٍ صوتُهُ … هيهاتَ يخفي العيرَ جلدُ حصانِ

•

وقائلة

وقائلةٍ : هجرتَ الشعرَ حتى ... تغنّى بالسخافاتِ المغنّي
أتى زمنُ الربيعِ وأنتَ لاهٍ ... وقد ولّى ولم تهتِفْ بلحنِ
ونفسُكَ كالصدى في قاعِ بئرٍ ... ومثلِ الفجرِ ملتحفاً بدَجنِ
فما لكَ ليسَ يستهويكَ حُسنٌ ... وأنتَ امرؤٌ تعشقُ كلَّ حسنِ ؟
أتسكتُ والشبابُ عليكَ ضافٍ ... وحولكَ للهوى جنّاتُ عدنِ ؟
ركودُ الماءِ يورثُهُ فساداً ! ... فقلتُ لها : استكيني واطمئنّي
فما حطمتْ يدُ الأيامِ روحي ... وإنْ حطمتْ أباريقي ودَنّي
ولم أعقِدْ على خوفٍ لساني ... ولا ضناً على الدنيا بفنّي
ولكنْ امرؤٌ للناسِ ضحكي ... ولي وحدي تباريحي وحُزني
إذا أشكو إلى خِدنٍ همومي ... وفي وُسعي السكوتُ ظلمتُ خِدْني
وتأبى كبريائي أن يراني ... فتى، مغرورقاً بالدمعِ جفني
فأسترُ عَبرتي عنهُ لئلّا ... يضيقُ بها وإنْ هيَ أحرقتني
ويبكي صاحبي فأخالُ أني ... أنا الجاني وإنْ لم يتّهمني
فأمسحُ أدمعاً في مقلتيهِ ... وإنْ حكتِ اللهيبَ، وإنْ كوتني

لأني كلما رفّهتُ عنهُ ... طربتُ كأنني رفّهتُ عنّي
كذلكَ كانَ شأني بينَ قومي ... وهذا بينَ كلِّ الناسِ شأني
أقولُ لكلِّ نوّاحٍ رويداً ... فإنَّ الحزنَ لا يُغني، ويُضني
وجدتُ الدمعَ بالأحرارِ يُزري ... فليتَ الدمعَ لم يُخلَقْ بجفنِ !

. . .

سبيلُ العزِ أنْ تَبني وتُعلي ... فلا تَقنعْ بأنَّ سواكَ يَبني
ولا تكُ عالةً في عُنقِ جَدٍّ ... رميمِ العظمِ أو عِبئاً على ابنِ
فمَنْ يغرِسْ لكي يجني سواهُ ... يعِشْ، ويموتُ من يحيا ليجني !

. . .

ألائمتي اتركيني في سكوني ... ولومي من يضجُّ بغيرِ طحنِ
إذا صارَ السماعُ بلا قياسٍ ... فلا عَجَبٌ إذا سكتَ المغنّي
أنا ولَئِنْ سكتُّ وقالَ غيري ... وجعجعَ صاحبُ الصوتِ الأرنّ
إذا أنا لم أجدْ حقلاً مَريعاً ... خلقتُ الحقلَ في روحي وذهني
فكادتْ تملأُ الأثمارُ كفّي ... ويَعبَقُ بالشذى النوّاحِ رُدني

أخت ليلى

ولقد عَلِقتُ من الحسانَ مليحةً ... تَحكي الهلالَ بحاجبٍ وَجبينِ
كلِفتْ بها نفسي ودونَ وصولها ... وصلُ المنونِ وثمّ ليثُ عرينِ
حسناءُ أضحى كلُّ حسنٍ دونَها ... ولذاكَ عُشّاقُ المحاسنِ دوني
قد روّعتْ حتى لتخشى بُردَها ... من أن يبوحَ بسرِّها المكنونِ
وتُريبها أنفاسُهـــا وتُخيفُها ... عندَ اللقـــاءِ تنهُّدُ المحزونِ
هجرتْ فكلُّ دقيقةٍ من هجرها ... عندي تُعَدُّ بأشهرٍ وسنينِ
يا هذهِ لا تجحدي حقي فقدْ ... أصليتِ قلبي بالنّوى فَصليني
أطلقتِ دمعاً كانَ قبلُ مقيّداً ... وسجنتِ قلباً كانَ غيرَ سجينِ
أشبهتِ (ليلى العامرية) فاكتمي ... خَبرَ الذي قد صارَ (كالمجنونِ)

•

عش للجمال

عِشْ للجمالِ تراهُ العينُ مؤتلقاً ... في أنجمِ الليلِ أو زَهرِ البساتينِ
وفي الرُّبى نَصبَتْ كفُّ الأصيلِ بها ... سُرادِقاً من نُضارٍ للرياحينِ
وفي الجبالِ إذا طافَ المساءُ بها ... ولفَّهـــا بِسَرابيلِ الرّهابينِ
وفي السواقي لها كالطفلِ ثرثرةٌ ... وفي البروقِ لها ضِحكُ المجانينِ
وفي ابتسامات «أيارٍ» وروعتِها ... فإن تولّى، ففي أجفانِ «تشرينِ»
لا حينَ للحسنِ، لا حدّ يقاس بهِ ... وإنّما نحنُ أهلُ الحدِّ والحينِ
فكم تماوجَ في سِربالِ غانيةٍ ... وكم تألّق في أسمالِ مِسكينِ
وكم أحسَّ بهِ أعمى فجُنَّ لهُ ... وحولهُ ألفُ راءٍ غيرِ مفتونِ
عِشْ للجمالِ تراهُ هَهُنا وهنا ... وعشْ لهُ وهو سرٌّ جِدُّ مكنونِ
خيرٌ وأفضلُ ممن لا حنينَ لهم ... إلى الجمالِ، تماثيلٌ من الطينِ

•

«ميامي فلوريدا»

ألقاها في المأدبة التي أقامها النادي السوري اللبناني الاميركي في ميامي فلوريدا تكريماً له .

ما طائرٌ كانَ في بيداء موحشةٍ … فساقَهُ قدرٌ نحو البساتينِ

فباتَ تُسعدهُ فيها بلابلُها … حيناً ، ويسعدُها بعضَ الأحايينِ

مني بأسعدَ حظاً مُذ نزلتُ بكمْ … يا معشرَ السادةِ الغرِّ الميامينِ

فررتُ من بَردِ كانونٍ فقابلني … في أرضكُمْ بالأقاحي شهرُ كانونِ

أنسامُ «أيارَ» تسري في أصائلها … وفي عشياتها أنفاسُ «تشرينِ»

توزّعُ السحرَ شطراً في مغارسها … وآخرَ في لحاظِ الخُرّدِ العينِ

كلُّ الشتاء ربيعٌ في شواطئها … وكلُّ أيامها عيدُ الشعانينِ

لكنْ ميامي وإنْ جلّتْ مفاتنها … لولا وجودكُمْ ليستْ لتغريني

إني لأشهدُ دنيا من عواطفكُمْ … أحبُّ عنديَ من دنيا الرياحينِ

وكلما سمعتْ نجواكمْ أُذُني … ظننتُ أنيَ في دنيا تلاحينِ

لأنتمُ النورُ لي والنورُ منطمسٌ … وأنتمُ الماءُ إذ لا ماء يرويني

أحببتكمْ حُبَّ إنسانٍ لإخوتهِ … إذ ليس بينكمْ فوقي ولا دوني

إنْ كانَ فيكُمْ قويٌ لا يقاهرني … أو كانَ فيكُمْ ضعيفٌ لا يداجيني

قُلْ لامرىءٍ مثلَ قارونٍ بثروتهِ … إني امرؤٌ بصحابي فوقَ قارونِ

من يكتسبْ صاحباً تبقَ مودتُهُ … فهو الغنيُّ به لا ذو الملايينِ

فاخترْ صحابَكَ وانظرْ في اختيارهمُ … إلى الطبائعِ قبلَ اللونِ والدينِ

ليس الودادُ الذي يبقَ إلى أبدٍ … مثلَ الودادِ الذي يبقى إلى حينِ

والمرءُ في هذهِ الدنيا عواطفُهُ … إن تندرسْ فهو بيتٌ غيرُ مسكونِ

وإنَّ عاطفةً هذي مظاهرُها … من عالمِ الرُّوحِ لا من عالمِ الطينِ

لو فاتَني كلُّ ما في الأرضِ من ذَهَبٍ … ولم تفتني فإني غيرُ مغبونِ

لو القوافي تواتيني شكرتكُمْ … كما أريدُ ، ولكنْ لا تواتيني

لا يمدحُ الوردَ إنسانٌ يقولُ لهُ … يا وردُ إنكَ ذو عطرٍ وتلوينِ

فاستنطقوا القلبَ عني فهو يخبركُمْ … فالحبُّ والقلبُ مكنونٌ بمكنونِ

لولا المحبةُ صارَ الكونُ أجمعهُ … طوبى الأفاعي وفردوسُ السراحينِ

إني سأحفظُ في قلبي جميلكُمْ … وسوفَ أذكرهُ في العُسرِ واللينِ

•

شبح

رسالة من لبنان الى ابنائه المهاجرين قالها في حفلة .

بأبي خيالٌ لاحَ لي متلفّعاً   بعباءةٍ من عهْدِ فخر الدينِ
يمشي على مَهَلٍ ويُرسلُ طرفَهُ   في حيْرةِ المستوحشِ المحزونِ
من أنتَ يا شبحاً كئيباً صامتاً ؟   قلْ لي. فإنّكَ قد أثرتَ شجوني
أخيالُ خصمٍ أتّقي نزواتِهِ ؟   أم أنتَ ، ياهذا ، خيالُ خدينِ ؟
فأجابني مترفّقـاً متحبّباً   فسمعتُ صوتَ أبٍ أبرَّ حنونِ

. . .

يا شاعري قلْ للأُلى هَجَروني   أنا مـا نسيتكمُ فلا تنسوني
ما بالكمْ طوّلتمْ حبلَ النوى   يا ليْتَ هذا الحبلَ غيرُ متينِ
قد طفتمُ الدنيا فهلْ شاهدتمْ   جبلاً عليهِ مهابتي وسكوني ؟
أوَردتمْ كمناهلي ؟ أنشقتمْ   كأزاهري في الحسنِ والتلوينِ ؟
ولقد تظلّلتمْ بأشجارٍ فهـل   رفّتْ غصونٌ فوقكمْ كغصوني ؟
وسمعتمُ شتّى الطيورِ صوادحاً   أسمعتمْ أشجى من الحسّونِ ؟

هل أنبتت كالأرزِ غيري بقعةٌ   في مجدهِ وجلالهِ الميمونِ ؟
أرأيتمُ في مـا رأيتمْ فتنةً   كالبدرِ حينَ يُطلُّ من صنّينِ ؟
أو كالغزالةِ وهي تنقضُ تِبرَها   عندَ المغيبِ على ذُرى حرمونِ ؟
مرّت قرونٌ وانطوتْ وكأنني   لمحاسني كُوِّنتُ منذ سنينِ
أبليتُها وبقيتُ ، إلّا أنّـني   للشوقِ كادَ غيابكمْ يَبليني

. . .

لبنانُ ! لا تعذلْ بنيكَ إذا همُ   ركبوا إلى العلياءِ كلَّ سفينِ
لم يهجروكَ مَـلالةً لكنّهمْ   خُلقوا لصيدِ اللؤلؤِ المكنونِ
ورِثوا اقتحامَ البحرِ عن فينيقيا   أمِّ الثقافةِ مصدرِ التمدينِ
لـمّا ولدتَهمُ نسوراً حلّقوا   لا يقنعونَ من العُلى بالدونِ
والنسرُ لا يرضى السجونَ وإنْ تكنْ   ذهباً ، فكيفَ محابسٌ من طينِ ؟
الأرض للحشراتِ تزحفُ فوقَها   والجـوُّ للبازي وللشاهينِ

. . .

فأجابني والدمعُ ملءُ جفونِهِ   كم ذا تسلّيني ولا تُسليني ؟
أنا كالعرينِ اليومَ غابَ أسودُهُ   وتفرّقوا عنهُ لكلّ عرينِ
الأرمنيُّ على سفوحي والربى   يبني الحصونَ لنفسِهِ بحصوني

وبنو يهوذا ينصبونَ خيامَهمْ | في ظلِّ أوديتي وفوقَ حزوني
وبَنيَّ عنّيَ غافلونَ كأنّني | قد صرتُ في الأشياءِ غيرَ ثمينِ
أنتمْ ديونٌ لي على آميركا | ومن المروءةِ أنْ تُرَدَّ ديوني
أوَليسَ من سُخرِ القضاءِ وهُزئِهِ | أنْ يأخذَ المثري من المسكينِ؟
عودوا فإنَّ المالَ لا يغنيكمُ | عنّي، ولا هوَ عنكمُ يغنيني

. . .

فشجيتُ ممّا قالهُ لكنّني | لّما رأيتكمُ نسيتُ شجوني
لبنانُ فيكمْ ماثلٌ إنْ كنتمُ | في مصرَ أو في الهندِ أو في الصينِ
إنْ بنتمُ عنهُ فما زالَ الهوى | يدنيكمُ منهُ كما يُدنيني
وحراكُمْ لعلائهِ وسكونكم | وإلى ثراهُ حنينكمْ وحنيني
لو أمستِ الدنيا لغيري كلُّها | ورُباهُ لي ما كنتُ بالمغبونِ
أنا في حماكمْ طائرٌ مترنّمٌ | بين الأقاحِ الغضِّ والنسرينِ
! أنتم بنو وطني وأنتمْ إخوتي | وأنا امرؤٌ دينُ المحبّةِ ديني

أبي

طوى بعضَ نفسي إذ طواكَ الثّرى عنّي | وذا بعضُها الثاني يَفيضُ بهِ جفني
أبي! خانني فيكَ الرّدى فتقوّضتْ | مقاصيرُ أحلامي كَبَيتٍ منَ التِّبنِ
وكانتْ رياضي حالياتٍ ضواحكاً | فأقوتْ وعفّى زهرَها الجزَعُ المُضني
وكانتْ دِناني بالسرورِ مليئةً | فطاحتْ يدٌ عمياءُ بالخمرِ والدّنِّ
فليسَ سِوى طَعمِ المنيّةِ في فمي، | وليسَ سِوى صَوتِ النوادبِ في أذني
ولا حَسَنٌ في ناظريَّ وقلّما | فتحتُهما من قبلُ إلّا على حُسنِ
وما صُوَرُ الأشياءِ بعدَكَ غيرَها | ولكنّما قد شوّهتها يدُ الحزنِ
على منكبي تِبرُ الضحى وعقيقُهُ | وقلبيَ في نارٍ، وعينايَ في دجنِ
أبحتُ الأسى دمعي وأنهبتهُ دمي | وكنتُ أعدُّ الحزنَ ضرباً من الجبنِ
فمستنكرٌ كيفَ استحالتْ بشاشتي | كمستنكرٍ في عاصفٍ رعشةَ الغصنِ
يقولُ المعزّي ليسَ يُجدي البكا الفتى | وقولُ المعزّي لا يُفيدُ ولا يُغني

. . .

شخصتُ بروحي حائراً متطلّعاً | إلى ما وراءَ البحرِ أدنو وأستدني

كذاتِ جَناحٍ أدركَ السيلُ عشَّها   فطارتْ على دَوْحٍ تحومُ على الوَكْنِ

فَواهاً لو اني كنتُ في القومِ عندما   نظرتَ إلى العوّادِ تسألهمْ عنّي

ويا ليتما الأرضُ اطوى لي بساطُها   فكنتُ مع الباكينَ في ساعةِ الدفنِ

لعلّي أفي تلكَ الأبوّةَ حقَّها   وإنْ كانَ لا يوفى بكيلٍ ولا وزنِ

فأعظمُ مجدي كانَ أنكَ لي أبٌ   وأكبرُ فخري كانَ قولكَ: ذا إبني !

أقولُ: لو اني ... كي أبرِّدَ لوعتي   فيزدادُ شجْوي كلّما قلتُ: لو أنّي !

أحتّى وداعُ الأهلِ يُحرَمُهُ الفتى؟   أيا دهرُ هذا منتهى الحَيفِ والغَبْنِ !

أبي ! وإذا ما قلتُها فكأنني   أنادي وأدعو يا ملاذي ويا ركني

لمن يلجأُ المكروبُ بعدَكَ في الحمى   فيرجعَ ريّانَ المنى ضاحكَ السنِّ؟

خلعتَ الصبا في حَومةِ المجدِ ناصعاً   ونُزّهَ فيكَ الشيبُ عن لوثةِ الأفنِ

فذهنٌ كنجمِ الصّيفِ في أوّلِ الدجى   ورأيٌ كحدِّ السّيفِ أو ذلكَ الذهنِ

وكنتَ ترى الدنيا بغيرِ بشاشةٍ   كأرضٍ بلا ماءٍ وصوتٍ بلا لحنِ

فما بكَ من ضُرٍّ لنفسِكَ وحدها   وَضحكُكَ والإيناسُ للجارِ والخدْنِ

جريءٌ على الباغي، عيوفٌ عن الخنا،   سريعٌ إلى الداعي، كريمٌ بلا منِّ

وكنتَ إذا حدّثتَ حدّثَ شاعرٌ   لبيبٌ دقيقُ الفهمِ والذوقِ والفنِّ

فما استشعرَ المُصغي إليكَ ملالةً   ولا قلتَ إلّا قالَ من طربٍ: زدْني !

برغمكَ فارقتَ الربوعَ وإننا   على الرغمِ منّا سوفَ نلحقُ بالظعنِ

طريقٌ مَشى فيها الملايينُ قبلَنا   منَ المَلِكِ السامي إلى عبدِهِ القنِّ

نَظُنُّ لنا الدنيا وما في رحابِها   وليستْ لنا إلّا كما البحرُ للسفنِ

تروحُ وتغدو حرّةً في عُبابِهِ   كما يتهادى ساكنُ السجنِ في السجنِ

وَزَنتْ بسرِّ الموتِ فلسفةُ الورى   فشالتْ وكانتْ جعجعاتٍ بلا طحنِ

فأصدقُ أهلِ الأرضِ معرفةً به   كأكثرهمْ جهلاً يُرجِّمُ بالظنِّ

فذا مثلُ هذا حائرُ اللبِّ عندَه   وذاكَ كهذا ليسَ منهُ على أمنِ

فيا لكَ سِفراً لم يزلْ جدَّ غامضٍ   على كثرةِ التفصيلِ في الشرحِ والمتنِ

أيا رمزَ لبنانٍ جلالاً وهيبةً   وحصنَ الوفاءِ المحضِ في ذلكَ الحصنِ

ضريحُكَ مهما يستقرُّ وبلدةٌ   أقمتَ بها تبني المحامدَ ما تبني

أحبُّ من الأبراجِ طالتْ قبابُها   وأجملُ في عينيْ من أجملِ المدْنِ

على ذلكَ القبرِ السلامُ فذكرُهُ   أريجٌ بهِ نفسي عن العطرِ تستغني

•

لا أنت ولا أنا

قلتُ : السعادةُ في المنى فرددتَني / وزعمتَ أنَّ المرء آفتُهُ المُنى

ورأيتُ في ظلِّ الغِنى تمثالَها / ورأيتَ أنتَ البؤسَ في ظلِّ الغِنى

ما لي أقولُ بأنهـــا قد تُقتنى / فتقولُ أنتَ بأنها لا تُقتنى ؟

وأقولُ إنْ خُلقتْ فقد خُلقتْ لنا، / فتقولُ إنْ خُلقتْ فلم تُخلقْ لنا ؟

وأقولُ إني مؤمنٌ بوجودها / فتقولُ ما أحراكَ أنْ لا تؤمنا؟

وأقولُ سرٌّ سوفَ يُعلنُ في غدٍ / فتقولُ لا سرٌّ هناك ولا هنا ؟

يا صاحبي ، هذا حوارٌ باطلٌ / لا أنت أدركتَ الصوابَ ولا أنا

•

قف يا قطار بنا

ألقاها في المأدبة الكبرى التي أقامتها مؤسسة وطنية في مدينة كانتون ، أوهايو .

منذُ افترقنا لم أذقْ وَسَنا / للهِ ما صَنَعَ الفراقُ بنا

قُلْ للمخليّينَ الهناءُ لكم / ألحبُّ قد خَلَقَ العذابَ لنا

لم أنسَ قولتَها التي ملأتْ / نفسي أسًى وجوانحي شَجَنا

ماذا جَنَيْنا كي تفارقَنا / أمَلِلْتَنا وسئمتَ صُحبَتَنا

فأجبتُها بلسانِ مُعتذرٍ / لم تجني أنتِ ولا مللتُ أنا

لكنْ رأيتُ الماءَ منطلقاً / ريّاً ، فإنْ هُوَ لم يَسِرْ أَجِنا

والسيفُ إنْ طالَ الثواءُ بهِ / يصدأُ ويصبحُ حدُّهُ خَشِنا

والسحبُ إنْ وقفتْ وما هطلتْ / لم تروِ أوديةً ولا قِنَنا

إنَّ الحياةَ مع الجمودِ قَذًى / ومعَ الحراكِ بشاشةٌ وهَنا

لا تعذليني فالقُرى أرَبي / حيثُ الحياةُ رغائبٌ ومُنى

حيثُ النجومُ تلوحُ سافرةً / لم تلتحفْ سِتراً ولا كفنا

والفجرُ ملءُ جيوبِهِ أرَجٌ   والطيرُ يملأُ شدوُها الوُكُنا
وعلى الرُّبى الأطلالُ راقصةٌ   ويَدُ النسيمِ تُداعبُ الغُصُنا
وَيْحَ المدائنِ إنَّ ساكنَها   كالميتِ لم يُطمَرْ ولا دُفِنا
كم رُحتُ أستسقي سحائبَها   فهمَتْ ولكنْ محنةً وضنى
ولكَمْ سهرتُ فلم أجِدْ قمراً   ولكمْ شدوتُ فلم أجِدْ أذُنا
لو كانَ يألفُ بلبلٌ غَرِدٌ   قفصاً، أحبَّ الشاعرُ المدنا
كَرِهَ الورَى طولَ المُقامِ بها   فاستنبطوا العجلاتِ والسُّفُنا
ولقد ظفرتُ بمركبٍ لجبٍ   فخرجتُ أطوي السهلَ والحَزْنا
والشوقُ يدفعهُ ويدفعني   حتى بلغتُ المنزلَ الحَسَنا

. . .

قفْ، يا قطارُ، على ربوعهمُ   إنَّ الأحبةَ، يا قطارُ ... هُنا
هذي منازلُهمْ تهشُّ لنا   أخطأتَ ... بل هذي منازلُنا
ما حلَّ منهمْ موضعاً أحدٌ   إلا وصارَ لكلِّنا وَطَنا
«سوريةٌ» في «كانتن» نغمٌ   عذبٌ، «ولبنانٌ» شذًى وسَنا
إنْ تنطفىءْ زُهرُ النجومِ ففي   هذي الوجوهِ عنِ النجومِ غِنَى
وإذا الحياةُ طوَتْ محاسنَها   عني، وصارَ نعيمُها مِحَنا
مثَّلتهمْ في خاطري، فإذا   دنيايَ فيها للسرورِ دُنَى

. . .

يا قومُ هذا اليومُ يومكمو   من ينتهزْهُ ينَلْ رضًى وثَنا
فلتنبسطْ أيديكمو كرماً   ألحبُّ أنفعُها الذي هَتَنا
أنا لا أرى مثلَ البخيلِ فتًى   يضوى ويهزلُ كلما سَمِنا
من لا يشيدُ بمالهِ أثراً   أو يستفيدُ بمالِهِ مِننا
ويعيشُ مثلَ العنكبوتِ يعِشْ
في الناسِ مذموماً وممتهَنا
فابنوا وشيدوا تُكرموا رَجُلا
كَمْ قد سَعَى من أجلِكُمْ وبنى
وطَنٌ وأهلٌ لائذونَ بِكُمْ
أفتخذلونَ الأهلَ والوطَنا ؟
«قَطَنا» بنوكِ اليومَ قد نهضوا
فتمجدي ببنيكِ يا «قَطَنا»

•

وطن النجوم

وَطنَ النجومِ ... أنا هنا   حدِّقْ ... أتذكرُ من أنا ؟

ألمحتَ في الماضي البعيدِ   فتى غريراً أرعنا ؟

جذلانَ يمرحُ في حقولِكَ   كالنسيمِ مُدَنْدِنا

ألمقتنى المملوكُ ملعبُهُ   وغيرُ المُقتنَى !

يتسلّقُ الأشجارَ لا ضجَراً   يحسُّ ولا وَنَى

ويعودُ بالأغصانِ يَبريها   سيوفاً أو قَنا (١)

ويخوضُ في وَحلِ الشتا   متهلِّلاً متيمِّنا

لا يتّقي شرَّ العيونِ   ولا يخافُ الألسُنا

ولَكَمْ تشيطَنَ كي يقولَ   الناسُ عنهُ « تشيطنَا »

.

أنا ذلكَ الوَلَدُ الذي   دنياهُ كانتْ ههنَا !

أنا مِنْ مياهِكَ قطرةٌ   فاضتْ جداولَ من سَنا

---

(١) القنا : الرمح .

أنا منْ ترابِكَ ذرّةٌ   ماجتْ مواكبَ من مُنى

أنا منْ طيورِكَ بُلبلٌ   غنَّى بمجدِكَ فاغتنى

حَمَلَ الطلاقةَ والبشاشةَ   من رُبوعِكَ للدُّنى

كمْ عانقتْ روحي رُباكَ   وصفّقتْ في المنحنى ؟

للأرزِ يهزأ بالرياحِ   وبالدهورِ وبالفَنا

للبحرِ ينشرُهُ بنوكَ   حضارةً وتمدُّنا

لليلِ فيكَ مُصلِّياً   للصبحِ فيكَ مُؤذِّنا

للشمسِ تُبطئُ في وَداعِ   ذُراكَ كيلا تحزنا

للبدرِ في نيسانَ يكحلُ   بالضياءِ الأعينا

فيذوبُ في حَدَقِ المهى   سحراً لطيفاً ليّنا

للحقلِ يرتجلُ الروائعَ   زنبقاً أو سوسنا

للعشبِ أثقلَهُ النَّدى ،   للغصنِ أثقلَهُ الجنى

عاشَ الجمالُ مشرَّداً   في الأرضِ ينشدُ مسكنا

حتى انكشفتَ له فألقى   رحلَهُ وتوطّنا

واستعرضَ الفنُّ الجبالَ   فكنتَ أنتَ الأحسنا

للهِ سرٌّ فيكَ ، يا   لبنانُ ، لم يُعلِنْ لنا

خلقَ النجومَ وخافَ أن   تغوي العقولَ وتفتنا

فأعـارَ أرزكَ مجدَهُ   وجلالَهُ كي نؤمِنا

زَعموا سَلوتَكَ ... لَيتَهمْ   نَسَبوا إليَّ المُمكنا

فالمرءُ قد ينسى المُسيءَ   المفتري ، والمُحسنا

والحُرَّ ، والحسناءَ ، والوترَ   المرنَّحَ ، والغِنَـا

ومرارةَ الفَقرِ المُذلِّ   بَـلى ، ولذّاتِ الغِنى

لكنّهُ مهما سلا   هيهاتِ يسلو الموطنا

•

فلسطين

ديارُ السلامِ ، وأرضُ الهنا   يشقُّ على الكلِّ أنْ تحزنا

فخَطْبُ فلسطينَ خطبُ العلى   ومـا كانَ رزءُ العلى هيِّنا

سَهرْنا لهُ فكأنَّ السيوفَ   تحزُّ بأكبادِنا ههنـا

وكيفَ يزورُ الكرى أعيناً   ترى حولَهـا للرّدى أعينا ؟

وكيفَ تطيبُ الحياةُ لقومٍ   تُسدُّ عليهمْ دروبُ المنى ؟

بلادهمْ عرضةٌ للضَّياعِ   وأُمّتهمْ عرضةٌ للفنـا

يُريدُ اليهودُ بأنْ يصلبوها   وتأبى فلسطينُ أنْ تذعنا

وتأبى المروءةُ في أهلِهـا   وتأبى السيوفُ ، وتأبى القَنَا

أأرضُ الخيـالِ وآياتِهِ   وذاتُ الجلالِ ، وذاتُ السنا

تصيرُ لغوغائهمْ مسرحـاً   وتغدو لشذّاذِهمْ مَكمنا ؟

★

بنفسي «أردنُّها» السلسبيلُ   وَمَنْ جاوروا ذلكَ الأُردنا

لقد دافعوا أمسِ دونَ الحمى   فكانتْ حروبهمُ حربنا

وجادوا بكلِّ الذي عندهمْ   ونحنُ سنبذلُ مـــا عندنا

فقـــلْ لليهودِ وأشياعهم   لقد خدعتكمْ بُروقُ المنى

ألا لَيتَ «بلفورَ» أعطاكمُ   بلاداً لَهُ لا بلاداً لنـــا

«فلندنُ» أرحبُ من قُدْسِنا   وأنتمْ أحبُّ إلى «لندنا»

ومنّاكمُ وطناً في النجومِ   فـــلا عربيٌّ بتلكَ الدنى

أيسلبُ قومَكمُ رشدَهمْ   ويدعوهُ قومكمُ محسنا ؟

ويدفعُ للموتِ بالأبرياء   ويحسبهُ معشرٌ ديِّنـــا ؟

ويا عَجَباً لكمْ توغرونَ   على العَرَبِ «التامزَ والهدسنا»

وترمونهمْ بقبيحِ الكلامِ   وكانوا أحقَّ بضافي الثنا

وكلُّ خطيئاتهمْ أنهـــمْ   يقولونَ : لا تسرقوا بيتنا

فليستْ فلسطينُ أرضاً مشاعاً   فَتُعطى لمنْ شاء أنْ يسكنا

فإنْ تطلبوها بسمرِ القنا   نردُّكمُ بطوالِ القنـــا

ففي العربيِّ صفاتُ الأنامِ   سوى أنْ يخافَ وأنْ يجبُنا

وإنْ تحجلوا بيننا بالخداعِ   فلنْ تخدعوا رجلاً مؤمنا

وإن تهجروها فذلكَ أولى   فإنَّ «فلسطينَ» مُلْكٌ لنا

وكانتْ لأجدادنا قبلنَا   وتبقى لأحفادِنا بعـــدنا

وإنْ لكمْ بسواها غنًى   وليسَ لنـــا بسواها غنى

فلا تحسبوها لكُمْ موطناً   فلمْ تكُ يوماً لكمْ موطنا

وليسَ الذي نَبْتغيهِ مُحالاً   وليسَ الذي رُمتمْ ممكنا

نصحناكمُ فارعووا وانبذوا   «بليفورَ» ذيَّالكَ الأرعنا

وإمّـــا أبيتمْ فأوصيكمُ   بأنْ تحملوا معكمُ الأكفنا

فـــإنّا سنجعلُ من أرضها   لنا وَطناً ولكمْ مدفنا !

•

الانسان والدين

إني عرفتُ منَ الانسانِ ما كانا ... فلستُ أحمدُ بعدَ اليومِ إنسانا
بَلَوتُهُ وهوَ مُشتدُّ القِوى أسداً ... صَعبَ المِراسِ وعندَ الضعفِ ثُعبانا
تعودَ الشرَّ حتى لو نبَتْ يدُهُ ... عنهُ إلى الخيرِ سهواً باتَ حسرانا
خِفهُ قديراً وخِفهُ لا اقتدارَ لهُ ... فالظلمُ والغدرُ إمّا عزَّ أو هانا
ألقتلُ ذنبٌ شنيعٌ غيرُ مغتفَرٍ ... والقتلُ يغفرهُ الإنسانُ أحيانا
أحلَّ قتلَ نفوسِ السائماتِ لهُ ... والطيرِ والقتلُ قتلٌ حيثما كانا
أذاقَ ذِئبَ الفَلا من غدرِهِ طُرَفاً ... فلا يزالُ مدَى الأيامِ يقظانا
وتفزعُ الطيرَ حتى ما تَلِمُّ بِهِ ... إلّا كما اعتادتِ الأحلامُ وسنانا
سرورُهُ في بكاءِ الأكثرينَ لهُ ... وحزنُهُ أن ترى عيناهُ جذلانا
كأنّما المجدُ ربٌّ ليسَ يعطِفُهُ ... إلّا إذا قدّمَ الأرواحَ قربانا
هوَ الذي سَلَبَ الدُنيا بشاشتَها ... وراحَ يملأُها همّاً وأحزانا
لا تصطفيهِ وإنْ أثقلتَهُ مِنناً ... يعدو عليكَ وإنْ أولاكَ شُكرانا

قالوا ترقّى سليلُ الطينِ قلتُ لهمْ ... ألآنَ تَمَّ شقاءُ العالَمِ الآنا
إنَّ الحديدَ إذا ما لانَ صارَ مُدًى ... فكُنْ على حذرٍ منهُ إذا لانا
والمرءُ وحشٌ ولكنْ حسنُ صورتِهِ ... أنسى بلاياهُ مَنْ سمّاهُ إنسانا
قدْ حاربَ الدِّينَ خوفاً من زواجرِهِ ... كأنَّ بينَ الورى والدينِ عدوانا
ورامَ يهدِمُ ما الرحمنُ شيّدَهُ ... وليسَ ما شيّدَ الرحمنُ بُنيانا
إني ليأخذُني مِنْ أمرِهِ عجبٌ ... أكلّما زادَ عِلماً زادَ كُفرانا ؟
وكلّما انقادتِ الدُنيا وصارَ لهُ ... زِمامُها انقادَ للآثامِ طُغيانا ؟
يرجو الكمالَ مِنَ الدُنيا وكيفَ لهُ ... نَيلُ الكمالِ مِنَ الدُنيا وما دانا؟
إذا ارتدى المرءُ ما في الأرضِ من بُرُدٍ ... وعافَ للدِّينِ بُرْداً عادَ عُريانا
هو الحياةُ التي ما غادرَتْ جسَداً ... إلّا اغتدى المَيْتُ أحيا منهُ وُجدانا
وهوَ الضياءُ الذي يمحو الظلامَ فمَنْ ... لا يهتدي بِسناهُ ظلَّ حيرانا
والمنهلُ الرائقُ العذبُ الورودِ فمَنْ ... لا يستقي منهُ دامَ الدهرَ عطشانا
ليسَ المبذّرُ مَنْ يُلقي دراهمَهُ ... إنَّ المبذّرَ مَنْ للدينِ ما صانا
ليسَ الكفيفُ الذي أمسى بلا بصرٍ ... إني أرى مِنْ ذوي الأبصارِ عُميانا

الفاتح

يا رفيقي ... أنا لولا أنت ما وقَّعتُ لحنا
كنتَ في سرّيَ لمـــا كنتُ وحدي أتغنى
ألبسُ الروضَ حلاهُ أنه يومـــاً سيُجنى
هذه أصداءُ روحي ، فلتكنْ روحُكَ أذنا
إنْ تجدْ حسناً فخذه واطّرحْ ما ليسَ حسنا
إنَّ بعضَ القولِ فنٌ فاجعلِ الإصغاءَ فنـــا
تكُ كالحقل يردُّ الكيلَ للزارعِ طنا
ربَّ غيمٍ صار لمـــا لمستهُ الريح مزنا
ربما كنتُ غنياً غيرَ أني بكَ أغنى
ما لصوتٍ أغلقتْ من دونه الأسماعُ معنى
كلُّ نورٍ غــيرُ نورٍ مرَّ بالأعينِ وسنى
يا رفيقي ، أنت إن راعيتَ فجري صار أسنى
وإذا طفتَ بكرمي زدتهُ خصباً وأمنـــا
قد سكبتُ الخمرَ كي تشربَ ، فاشرب مطمئنا

واسقِ مَنْ شئتَ كريماً لا تخفْ أن تتجنى
كلما أفرغتَ كأسي زدتُ في كأسيَ دنّا
فهي بالإنفاق تبقى وهي بالإمساك تفنى

...

لستَ مني إنْ حسبتَ الشعرَ ألفاظاً ووزنا
خالفتْ دربُكَ دربي وانقضى ما كان منا
فانطلقْ عني لئلا تقتني همـــاً وحزنا
واتخذْ غيري رفيقاً وسوى دنياي مغنى

•

وداع

ذَهبَ الربيعُ ففي الخمائلِ وحشةٌ ... مثلُ الكآبةِ مِنْ فَراقِكَ فينا

لو دمتَ لم تحزنْ عليهِ قلوبُنا ... ولئنْ أضعْنَا الوَرْدَ والنَّسرينا

فلقدْ وَجدْنا في خلالِكَ زهرَهُ ... المفترَّ والمــاءَ الذي يَرْوينا

ونسيمَهُ الساري كأنفاسِ الرضى ... وشعاعَهُ يَغْشى المروجَ فتونا

جِزْتَ المحاسنَ في الربيعِ وفقتَهُ ... إذ ليسَ عندكَ عوسجٌ يدمينا

***

يا أشهراً مرّتْ سِراعاً كالمنى ... لو أستطيعُ جعلتكنَّ سنينا

وأمرتُ أنْ يقفَ الزمانُ عنِ السُّرى ... كيلا نمرَّ بساعةٍ تبكينا

وتمدَّ أيدينَا فترجعَ لم تُصِبْ ... وتعودَ فوقَ قلوبِنَا أيدينا

خوفاً عليها أنْ تساقطَ حسرةً ... أو أن تفيضَ لواعجاً وشجونا

قد كنتُ خِلْتُ الدهرَ حطَّمَ قوسَهُ ... حتى رأيتُ سهامَهُ تصمينا

فكأنما قد ساءهُ وأمضَّهُ ... أنا تمتّعنا بقربِكَ حينــا

مستشفى تل شيحا

أنشدها في مهرجان أقامته لجنة المستشفى في مدينة دترويت.

أباعثةَ المطايا مِنْ حديدٍ ... كأسرابِ القطَــا للعالمينا

ركائبُ في فِجاجِ الأرضِ تَسري ... تُهِلُّ الذاهبينَ الآيبينا

تقصُّ على المدائنِ والقرايا ... حــكايةَ قومِكِ المستنبطينا

وكيفَ العقلُ يخلقُ من زريٍّ ... مهينٍ لا زريَّ ولا مهينا

وينفخُ في الجمادِ قوىً وحسّاً ... فيركضُ تارةً ويطيرُ حينــا

ويهتفُ بالقصائدِ والأغاني ... وقد ذَهبَ الردى بالمنشدينا

لقدْ حسدتْكِ أمُّ الفنِّ «روما» ... كما حسدتْكِ ضرّتُها «أثينا»

فمجدكِ فوقَ مجدِهما علاءً ... وحسنكِ فوقَ حسنِهما فتونا

نزلنــا في حِماكِ فقرّبينا ... وباركْنَا ثراكِ فباركينا

فمــا لطاعةٍ بنضارِ «فوردٍ» ... وفضّتهِ إليكِ اليومَ جينــا

فما هوَ في سماحتهِ «كمعنٍ» ... وليستْ نوقهُ للذابحينا

ولكنْ فيكِ إخوانٌ هوينا ... لأجلهمِ جميعَ الساكنينا

أحبّونا كأنّهمُ ذوونا   وأنسونا بلطفهمِ ذوينا

وعاهدناهمُ إذْ عاهدونا   فلمْ ننكثْ ولا نكثوا يمينا

إذا غضبوا على الدنيا غضبنا   وإنْ يرضوا على الدنيا رضينا

دعاهمْ للعلى والخيرِ داعٍ   من «الوادي» فلبّوا أجمعينا

أيخذلُ «جارةَ الوادي» بنوها؟   معاذَ اللهِ هذا لنْ يكونا

فما لاقيتُ «زحلياً» جباناً   ولا لاقيتُ «زحلياً» ضنينا

تأمّلْ كيفَ أضحى «تلُّ شيحا»   يُحاكي في الجلالةِ «طورَ سينا»

فَعَنْ هذا تحدّثتِ الوصايا   وفي هذا وَجدْنا المُحسنينا

على جَنَباتهِ وعلى ذراهُ   جمالٌ يبهرُ المتأمّلينا

فلمْ أرَ مثلَهُ للخيرِ دنيا   ولمْ أرَ مثلَه فتحاً مبينا

فيا أشبالَ «لبنانَ» المفدّى   ويا إخواننا وبني أبينا

ترنّحَ عصركمْ فخراً وهشّتْ   لصنعكمُ عظامُ المائتينا

تبارى الناسُ في طَلَبِ المعالي   فكنتمْ في المجالِ السابقينا

بنى الأهرامَ «فرعونٌ» فدامتْ   لتخبرَ كيفَ كانَ الظالمونا

وكم أشقى الجموعَ الفردُ منهم   وكم طَمَسَ الألوفَ لكي يبينا

وشدتمْ معهداً في «تلّ شيحا»   سيبقى ملجأً للبائسينا

يُطلُّ الفجرُ مبتسماً عليه   ويرجعُ مطمئناً مستكينا

ويَمْضي يملأُ الوادي ثناءً   عليكمْ، والاباطحَ والحزونا

أرى غَيْثَيْنِ يستبقانِ جوداً   هُما «مطرُ السّما» والغائثونا

لئنْ حجبَ الغَمامُ الشمسَ عنّا   فلمْ يطمسْ ضياءَ اللهِ فينا

ولم يسترْ سبيلَ الخيرِ عنكمْ   ولم يَقْبِضْ أكفَّ الباذلينا

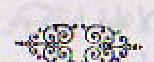
وجدتُ المرءَ حبُّ الخيرِ فيهِ   فإنْ يفقدْهُ صارَ المرءُ طينا

تكمّش في الحقولِ الشوكُ بخلاً   فذلَّ وعاشَ مكتئباً حزينا

وأسنى الوردُ، إذْ أعطى شذاهُ،   مكانتَهُ فكنَّ في الواهبينا

سألتُ الشعرَ أنْ يثني عليكمْ   فقالتْ لي القوافي: قد عيينا

سيجزيهمْ عن البؤساءِ ربٌّ   يكافىءُ بالجميلِ المحسنينا



الشاعر

الى روح خليل مطران

عندما أبدع هذا الكون ربُّ العالمينا
ورأى كل الذي فيه جميلاً وثمينا
خلق الشاعر ...
كي يخلق للناس عيونا
تُبصر الحسن ...
وتهواه حراكاً وسكونا
وزماناً ، ومكاناً ، وشخوصاً وشؤونا
فارتقى الخلق ...
وكانوا قبله لا يرتقونا
واستمر الحسن في الدنيا ودام الحب فينا

•

انه روح كريم لبس الطين المهينا
ونبيّ يهب الخلق ومـا أعلن دينا

يلمح النجم خفياً ، ويرى العطر دفينا
ويرينا الطُّهر حتى في الجناة الآثمينا
ويحس الفرحَ الأسمى جريحاً أو طعينا
كلما شاعت دماه أملا في البائسينا

•

مَن سواه ثائرٌ فيه وقار الناسكينا
من سواه عابد فيه جنون الثائرينا
من سواه عانقَ الله يقينا لا ظنونا
من ترى إلاه يحيا نغماتٍ ولحونا
من ترى إلاه يفني ذاته ...
في الآخرينا

•

لو أبى الله علينا وعليه ان يكونا
عادت الأرض وهاداً شاحباتٍ وحزونا
ترتدي الوحشة والهول ضباباً ودجونا
وأقاحيها هشيماً لا أريجاً وفتونا
وسواقيها سراباً هازئاً بالظامئينا

وشواديها دمى خرساء تؤذي الناظرينا
واستفاق الجدول الحالم غيظاً وجنونا
واستوى النهر على وجه الثرى جرحاً ثخينا
وانطوت دنيا الرؤى فيها . . .
ومات الحالمونا

•

أي وربي لو مضى الشاعر عنّا لشقينا
ولعشنا بعده في غصص لا ينتهينا
ولأمسى الله مثلَ الناس مغموماً حزينا!

•

زعموا ولّى ولن يرجع... ويح الجاهلينا
لم يمت من كان لله خليلا وخدينا
عاش حيناً وسيحيا بعدما غاب قرونا

•

ماء وطين

سألتني وقدْ رجعتُ إليها   وعلى مَفرقي غبارُ السنينا:
أيُّ شيءٍ وجدتَ في الأرضِ بعدي؟   قلتُ: إني وجدتُ ماءً وطينا
جَمَعَ الحسنَ والدمامةَ والإقـ   ـدامَ والخوفَ والنهى والجنونا
والرجاءَ الذي يصيرُ به الفد   فدُ روضاً، وشوكُهُ نسرينا
والقنوطَ الذي يعرّي من الأو   راقِ في نشوةِ الربيعِ الغصونا
ووجدتُ الهوى كما كانَ قِدْماً   نِقمـةً تارةً، وطوراً ظنونا
وشباباً سكرانَ من خمرةِ الوَهْمِ   يخـالُ المحالَ أمراً يقينا
فإذا شاختِ الرؤى وتلاشتْ   وصحا باتَ جزمهُ تخمينا
لا يزالُ الايمانُ نوعـاً منَ الـ   ـرّهبةِ، والحسنُ للغرورِ خدينا
لا يزالُ الغنيُّ يختالُ في الأر   ضِ وإنْ كانَ جاهلاً مأفونا
كلُّ من قد لقيتُ مثلُكِ، يا نفـ   ـسي، في ما تُبدينَ أو تُخفينا
فانظري مرّةً إليكِ مليّـاً   تُبصري الأولينَ والآخرينا

العميان

كم خفضنا الجناحَ للجاهلينا
وعذرناهمُ فما عذرونا
خبّروهمْ ، يا أيها العاقلونا
إنما نحنُ معشرُ الشعراء   يتجلّى سرُّ النبوةِ فينا

*

ذكروهمْ ، فربَّ خيرٍ كبيرِ
فعلتهُ الهداةُ بالتذكيرِ
إنما الناسُ من ترابٍ ونورِ
فبنو النورِ يعبدونَ النورا   وبنو الطينِ يعبدونَ الطينا

*

قيلَ عنا قصورنا من هباء
تتلاشى في صحوةٍ ومساء

أو سطورٌ بالماء فوقَ الماء
لو سكنتمْ قصورَنا بعضَ ساعةْ   لنسيتمْ شهورَكمْ والسنينا

*

لو دخلتمْ هياكلَ الإلهامِ
وسرحتمْ في عالمِ الأحلامِ
واجتليتمْ سرَّ الخيالِ السامي
وعرفتمْ كما عرفنا الله   لخررتمْ أمامنا ساجدينا

*

قد سقتنا الحياةُ كأساً دهاقا
حسنتْ نكهة، وطابتْ مذاقا
وسقينا مما شربنا الرفاقا
فتركناهمُ حيارى سكارى   يتمنونَ أنهمْ لا يعونا

*

همكمْ في الكؤوسِ والأكوابِ
آهِ لو كانَ همكمْ في الشرابِ
لطرحتمْ عنكم قيودَ الترابِ
وشعرتمْ بلذةٍ أو عذابِ   هذه الخمرُ ليتكمْ تشربونا

*

أتقولونَ إنهُ مجنونٌ !

أتقولونَ إنهُ مفتونٌ !

أتقولونَ شاعرٌ مسكينٌ !

كم مليكٍ، كم قائدٍ، كم وزيرٍ ودَّ لو كانَ شاعراً مسكينا؟

★

عاش «ملتن» فلم يكنْ مذكورا

وهوميروسُ كالشيخِ كان ضريرا

ولقد ماتَ «ابنُ بردٍ» فقيرا

أرأيتمْ كما رأى العميانْ؟ أفلستمْ بنورهمْ تهتدونا؟

•

ابنة الفجر

أنا ان أغمض الحمام جفوني / ودوى صوت مصرعي في المدينه

وتمشى في الأرض داراً فداراً / فسمعت دويّه ورنينه

لا تصيحي واحسرتاه لئلا / يدرك السامعون ما تضمرينه

وإذا زرتني وأبصرت وجهي / قد محا الموت شكه ويقينه

ورأيت الصحاب جاثين حولي / يندبون الفتى الذي تعرفينه

وتعالى العويل حولك ممن / مارسوه وأصبحوا يحسنونه

لا تشقي على ثوبك حزنا / لا ولا تذرفي الدموع السخينه

غالبي اليأس وأجلي عند نعشي / بسكون، إني أحب السكينه

إن للصمت في المآتم معنى / تتعزى به النفوس الحزينه

ولقول العذال عنك (بخيل) / هو خير من قولهم (مسكينه)

وإذا خفت ان يثور بك الوجد / فتبدو أسرارنا المكنونه

فارجعي واسكبي دموعك سراً / وامسحي باليدين ما تسكبينه

***

يا ابنة الفجر من أحبك ميت   ولأنت بمثل هذا مهينه
زايل النور مقلتيه وغابت   تحت أجفانه المعاني المبينه
فأصيخي ! هل تسمعين خفوقاً   كنت قبلاً في صدره تسمعينه ؟
وانظري ثم فكري كيف أمسى   ليس يدري عدوّه وخدينه
ساكناً لا يقول شيئاً ولا يسـ   ـمع شيئاً وليس يبصر دونه
لا يبالي أأودعوه الثريا   أم رموه في حمأة مسنونه
وإذا الحارسان ناما عياء   ورأيت أصحابه يتركونه
فتعالي وقبلي شفتيه   ويديه وشعره وجبينه
قبل أن يسدل الحجاب عليه   ويُوارى عنك فلا تبصرينه
واحذري ان تراك عين رقيب   ولئن كان جل ما تحذرينه
فاذا ما أمنت لا تتركيه   قبلما يفتح الصباح جفونه

***

وإذا الساعة الرهيبة حانت   ورأيت حرّاسه يحملونه
وسمعت الناقوس يقرع حزنا   فيردُّ الوادي عليه أنينه
زوّدي الراحل الذي مات وجداً   بالذي زوّد الغريق السفينه
نظرة تعلم السماوات منها   أنه مات عن فتاة أمينه

***

طوت الأرضُ من طوى الأرض حياً   وعلاه من كان بالأمس دونه
واختفى في التراب وجه صبيح   وفؤاد حرٍ ونفسٌ مصونه
وإذا ما وقفت عند السواقي   وذكرت وقوفه وسكونه
حيث أقسمت أن تدومي على العهـ   ـد وآلى بأنه لن يخونه
حيث علمته القريض فأمسى   يتغنى كي تسمعي تلحينه
فاذكريه مع البروق السواري   واندبيه مع الغيوث الهتونه
وإذا ما مشيت في الروض يوماً   ووطأت سهوله وحزونه
وذكرت مواقف الوجد فيه   عندما كنت بالهوى تغرينه
حيث علمته الفتون فأضحى   يحسب الأرض كلها مفتونه
حيث وسدته يمينك حتى   كاد ينسى شماله ويمينه
حيث كنت وكان يسقيك طوراً   من هواه وتارة تسقينه
حتى حاك الربيع للروض ثوباً   كان أحلى لديه لو ترتدينه
فالثمي كل زهرة فيه إني   كنت أهوى زهوره وغصونه
ثم قولي للطير : مات حبيبي !   فلماذا يا طير لا تبكينه ؟

***

وإذا ما جلست وحدك في الليـ   ـل وهاجت بك الشجون الدفينه
ورأيت الغيوم تركض نحو الغر   ب ركضاً كأنها مجنونه

ولحظت من الكواكب صداً ونفاراً وفي النسيم خشونه
فغضبت على الليالي البواقي وحننت إلى الليالي الثمينه
فاهجري المخدع الجميل وزوري ذلك القبر ثم حيي قطينه
وانثري الورد حوله وعليه واغرسي عند قلبه ياسمينه

كلوا واشربوا

كُلوا واشربوا أيُّها الأغنياءْ وإن مَلأَ السِكَكَ الجائعونْ
ولا تلبسوا الخزَّ إلّا جديداً وإن لَبِسَ الخِرَقَ البائسونْ
وحوطوا قُصورَكُم بالرجالِ، وحوطوا رِجالَكُمْ بالحصونْ
فلا تُبصرونَ ضحايا الطوى ولا يُبصرونَ الذي تَصْنعونْ
وإن ساءكُمْ أنّهمْ في الوجودِ وأزعجكمْ أنّهمْ يُعولونْ
مُرُوا فَتَصُولُ الجنودُ عليهمْ تعلّمهمْ كيفَ فتْكُ المنونْ
فَهُمْ معتدونَ، وهمْ مجرمونَ، وهمْ مقلقونَ، وهمْ ثائرونْ
وتلكَ العِصِيُّ لتلكَ الرؤوسِ وتلكَ الحرابُ لتلكَ البطونْ
وتلكَ السجونُ لِمَنْ شدتموها إذا لم تزُجّوهمُ في السجونْ ؟
كِلوا للظبى حَلْقَ هاماتهمْ فإنّ الملوكَ كذا يَفْعلونْ
إذا الجندُ لم يحرسوكُمْ وأنتم سَراةُ البلادِ فمَنْ يحرِسونَ ؟
وإن همُ لم يَقْتلوا الأشقياء فيا لَيْتَ شعريَ مَنْ يقتلونْ؟
ولا يُحزِنْكُمْ مَوتُهمْ فإنّهمْ للردى يُولدونْ

وقولوا كَذَا قد أرادَ الإلٰهُ   وإنْ قدَّرَ اللهُ شيئاً يكونْ

ويا فقراءُ لمــاذا التشكّي ؟   ألا تستحونَ ؟ ألا تخجلونْ ؟

دعوا الأغنياء ولذَّاتِهمْ   فهمْ مثلُ لذَّاتهمْ زائلونْ

سيُمسونَ في «سقَرٍ» خالدينَ   وتُمسونَ في جنَّةٍ تَنعمونْ

فلا تعطشونَ ، ولا تسغبونَ ،   ولا يرتوونَ ، ولا يشبعونْ

لكُمْ وحدَكمْ ملكوتُ السماء   فما بالُكمْ لستمْ تقنعونْ ؟

فلا تحزنوا أنكمْ ساهرونَ   فسوفَ تنامونَ ملءَ الجفونْ

ستُكْثُونَ مَعَ الأنبياء   تظلِّلكُمْ وارفاتُ الغصونْ

يضوعُ السَّنا حولكُمْ بالشَّذى   وتجري الطِّلا أنهراً وعيونْ

وتسقيكمُ الخمرَ حُورٌ حسانٌ   كما يشتهينَ ، كما تشتهونْ

كذا وعدَ اللهُ أهلَ التقى   وأنتمْ همُ ، أيُّها المتعبونْ

ألا تؤمنونَ بقولِ الكتابِ ؟   فوَيلٌ لكمْ إنّكمْ كافرونْ !

•

الى اللّٰه راجعون

بيني وبينَ العيونِ سِرٌّ

اللهُ في السرِّ والعيونْ

إذا عَصتْ فكرتي القوافي   أوحتْ لِنفسي بها الجُفونْ

***

هاتِ اسقِني الخمرَ جهراً

ولا تُبالِ بما يكونْ

إنْ كانَ خيرٌ أو كانَ شرٌّ   إنّا الى اللهِ راجِعونْ !!

•

المساء

ألسحبُ تركضُ في الفضاء الرّحبِ ركضَ الخائفينْ
والشمسُ تبدو خلفَها صفراءَ عاصِبةَ الجبينْ
والبحرُ ساجٍ صامتٌ فيه خشوعُ الزاهدينْ
لكنّما عيناكِ باهتتانِ في الأفقِ البعيدْ
سلمى ... بماذا تفكرينْ ؟
سلمى ... بماذا تحلمينْ ؟

•

أرأيتِ أحلامَ الطفولةِ تختفي خلفَ التخومْ ؟
أمْ أبصرتْ عيناكِ أشباحَ الكهولةِ في الغيومْ ؟
أمْ خفتِ أن يأتي الدُّجى الجاني ولا تأتي النجومْ ؟
أنا لا أرى ما تلمحينَ منَ المشاهدِ إنّما
أظلالها في ناظريكِ
تَنِمُّ ، يا سلمى ، عليكِ

إني أراكِ كسائحٍ في القفرِ ضلَّ عن الطريقْ
يرجو صديقاً في الفلاةِ ، وأينَ في القفرِ الصديقْ
يهوى البروقَ وضوءَها ، ويخافُ تخدعُهُ البروقْ
بلْ أنتِ أعظمُ حيرةً من فارسٍ تحتَ القتامْ
لا يستطيعُ الانتصارْ
ولا يطيقُ الانكسارْ

•

هذي الهواجسُ لم تكنْ مرسومةً في مقلتيْكِ
فلقدْ رأيتُكِ في الضُّحى ورأيتُهُ في وجنتيْكِ
لكنْ وجدتُكِ في المساءِ وضعتِ رأسَكِ في يديْكِ
وجلستِ في عينيكِ ألغازٌ ، وفي النفسِ اكتئابْ
مثلُ اكتئابِ العاشقينْ
سلمى ... بماذا تفكرينْ ؟

•

بالأرضِ كيفَ هوتْ عروشُ النورِ عن هضباتِها ؟
أمْ بالمروجِ الخُضْرِ سادَ الصمتُ في جنباتِها ؟

أمْ بالعصافيرِ التي تعدو إلى وكناتِها ؟
أمْ بالمسا ؟ إنَّ المسا يخفي المدائنَ كالقرى
والكوخُ كالقصرِ المكينْ
والشوكُ مثلُ الياسمينْ

•

لا فرقَ عندَ الليلِ بينَ النهرِ والمستنقعِ
يخفي ابتساماتِ الطروبِ كأدمعِ المتوجّعِ
إنَّ الجمالَ يغيبُ مثلُ القبحِ تحتَ البُرقعِ
لكنْ لماذا تجزعينَ على النهارِ وللدجى
أحلامُهُ ورغائبُهْ
وسماؤهُ وكواكبُهْ ؟

•

إنْ كانَ قد سترَ البلادَ سهولَها ووعورَها
لم يسلبِ الزهرَ الأريجَ ولا المياهَ خريرَها
كلا ، ولا منعَ النسائمَ في الفضاءِ مسيرَها
ما زالَ في الورَقِ الحفيفُ وفي الصَّبا أنفاسُها

والعندليبُ صداحُهُ
لا ظفرُهُ وجناحُهُ

•

فاصغَيْ إلى صوتِ الجداولِ جارياتٍ في السفوحْ
واستنشقي الأزهارَ في الجنَّاتِ ما دامتْ تفوحْ
وتمتّعي بالشُهْبِ في الأفلاكِ ما دامتْ تلوحْ
من قبْلُ أنْ يأتي زمانٌ كالضبابِ أو الدخانْ
لا تبصرينَ به الغديرْ
ولا يَلَذُّ لكِ الخريرْ

•

لتكنْ حياتُكِ كلها أملاً جميلاً طيّبا
ولتملإِ الأحلامُ نفسَكِ في الكهولةِ والصِّبى
مثلُ الكواكبِ في السماءِ وكالأزاهرِ في الرُّبى
ليكنْ بأمرِ الحبِ قلبُكِ عالماً في ذاتِهِ
أزهارُهُ لا تذبلُ
ونجومُهُ لا تأفلُ

•

ماتَ النهارُ ابنُ الصباحِ فلا تقولي كيفَ ماتْ

إنَّ التأملَ في الحيـــاةِ يَزيدُ أوجاعَ الحياةْ
فدعي الكآبةَ والأسى واسترجعي مَرَحَ الفتاةْ
قد كانَ وجهُكِ في الضحى مثلَ الضحى متهلّلا
فيه البشاشةُ والبهـــاء
ليكنْ كذلكَ في المساء



مقلتان

رأيتُ في عينيكِ سِحْرَ الهوى
مندفقاً كالنورِ من نجمَتَينْ
فبتُّ لا أقوى على دَفْعِهِ
مَن ردَّ عنهُ عارضاً باليدَينْ
يا جنةَ الحبِّ ودنيـــا المنى
ما خِلْتُني ألقاكِ في مقلتَينْ

الشاعر والملك الجائر

١

أمرَ السلطانُ بالشاعرِ يوماً فأتاهُ
في كساءٍ حائلِ الصِّبغةِ واهٍ جانباهُ
وحذاءٍ أوشكتْ تفلتُ منهُ قدمـاهُ
قالَ : صِفْ جاهي ، ففي وصفِكَ لي للشعرِ جاهُ
إنَّ لي القصرَ الذي لا تبلُغُ الطيرُ ذُراهُ
وليَ الروضُ الذي يعبَقُ بالمسكِ ثراهُ
وليَ الجيشُ الذي ترشحُ بالموتِ ظِباهُ
وليَ الغاباتُ والشمُّ الرواسي والمياهُ
وليَ الناسُ ... وبؤسُ الناس مِني والرفاهُ
إنَّ هذا الكونَ ملكي ، أنا في الكونِ إلهُ !

٢

ضحِكَ الشاعرُ مما سمعتهُ أذناهُ
وتمنى إنْ يُداجي فعصتْهُ شفتـاهُ

قال : إني لا أرى الأمرَ كما أنتَ تراهُ
إنَّ ملكي قد طوى ملكَكَ عني ومحاهُ

***

ألقصرُ ينبيءُ عن مهارةِ شاعرٍ   لَبِقٍ ، ويخبرُ بعدهُ عنكا
هوَ للأُلى يدرونَ كُنْهَ جمالهِ   فـإذا مضوا فكأنهُ دُكَّا
ستزولُ أنتَ ولا يزولُ جلالهُ   كالفلكِ تبقى ، إنْ خلَتْ ، فُلكا

***

والروضُ؟ إنَّ الروضَ صنعةُ شاعرٍ   سَمْحٍ ، طروبٍ ، رائقٍ ، جزلِ
وشّى حواشيَهُ وزيَّنَ أرضَهُ   بروائعِ الألوانِ والظلِّ
لفراشةٍ تحيـا لهُ ، ولنحلةٍ   تحيا بهِ ، ولشاعرٍ مثلي !
ولديمةٍ تذري عليهِ دموعَها   كيما تقيهِ غوائلَ المحـلِ
ولبلبلٍ غردٍ يساجلُ بلبلاً   غرداً ، وللنسماتِ والطلِّ
فإذا مضى زمنُ الربيعِ أضعتَهُ   وأقـامَ في قلبي وفي عقلي !

***

والجيشُ معقودٌ لواؤكَ فوقهُ   مـا دمتَ تكسوهُ وتطعمهُ
للخبزِ طاعتهُ وحسنُ ولائهِ   هو «لاتُهُ» الكبرى و «برهمهُ»
فإذا يجوعُ بظلِّ عرشِكَ ليلةً   فهو الذي بيديهِ يحطمهُ

لكَ منه أسيفُهُ، ولكنْ في غدٍ   لسواكَ أسيفُهُ وأسهمُهُ
أتراهُ سارَ إلى الوَغى متهلِّلاً   لولا الذي الشعراءُ تنظِمهُ ؟
وإذا ترنَّمَ هلْ بغيرِ قصيدةٍ   من شاعرٍ مثلي ترنُّمُهُ ؟

***

والبحرُ، قد ظفِرتْ يداكَ بدرِّهِ
وحصاهُ، لكنْ هل ملكتَ هديرَهُ ؟
هُوَ للدجى يلقي عليهِ خشوعَهُ
والصبحُ يسكبُ، وهو يضحكُ، نورَهُ
أمَزجتَ أنتَ مياهَهُ ؟ أصبغتَ أنْ
تَ رمالَهُ ؟ أجبلتَ أنتَ صخورَهُ ؟
هوَ للرياحِ تهزُّهُ وتثيرُهُ   والشهبُ تسمعُ في الظلامِ زئيرَهُ
للطيرِ هائمةً بهِ مفتونةً   لا للذينَ يروِّعونَ طيورَهُ
للشاعرِ المفتونِ يخلقُ لاهياً   من مَوْجِهِ حُوراً ويعشقُ حورَهُ
ولمنْ يشاهدُ فيهِ رمزَ كيانِهِ   ولمنْ يجيدُ لغيرِهِ تصويرَهُ
يا مَنْ يصيدُ الدرَّ من أعماقِهِ   أخذتْ يداكَ من الجليلِ حقيرَهُ
لا تدَّعيهِ... فليسَ مُلكَكَ، إنهُ   كالروضِ جهدُكَ أن تشمَّ عبيرَهُ

***

ومررتُ بالجبلِ الأشمِّ فما زوى   عني محاسنَهُ ولستُ أميرا
ومررتَ أنتَ فما رأيتَ صخورَهُ   ضحكتْ ولا رقصتْ لديكَ حبورا
ولقد نقلتُ لنملةٍ ما تدَّعي   فتعجبتْ، مما حكيتَ، كثيرا
قالتْ: صديقُكَ ما يكونُ؟ أقشعماً   أم أرقماً؟ أم ضيغماً هيصورا؟
أيحوكُ مثلَ العنكبوتِ بيوتَهُ   حوكاً؟ ويَبني كالنسورِ وكورا؟
هلْ يملأُ الأغوارَ تِبراً كالضحى   ويردُّ كالغيثِ المواتَ نضيرا؟
أيلفُّ كالليلِ الأباطحَ والربى   والمنزلَ المعمورَ والمهجورا؟
فأجبتها: كلّا! فقالتْ: سمِّهِ   في غيرِ خوفٍ «كائناً مغرورا!»

٣

فاحتدمَ السلطانُ أيَّ احتدامْ   ولاحَ حبُّ البطشِ في مقلتيهْ
وصاحَ بالجلّادِ: هاتِ الحسامْ!   فأسرعَ الجلّادُ يسعى إليهْ
فقالَ: دحرجْ رأسَ هذا الغلامْ   فرأسُهُ عبءٌ على منكبيهْ

***

قد طُبِعَ السيفُ لحزِّ الرقابْ   وهذهِ رقبةُ ثرثارِ
أقتلهُ... واطرحْ جسمَهُ للكلابْ   ولتذهبِ الروحُ إلى النارِ

***

سمعاً وطوعاً، سيدي!.. وانتضى   عَضباً يموجُ الموتُ في شفرتيهْ
ولم يكُنْ إلا كبرقٍ أضا   حتى أطارَ الرأسَ عنْ منكبيهْ

فسقطَ الشاعرُ مُغرَورِضا   يَخدِشُ الأرضَ بكلتا يديهْ
كأنَّما يبحثُ عن رأسِهِ   فاستضحكَ السلطانُ من سجدتهْ
ثم استوى يهمسُ في نفسِهِ   « ذو جنّةٍ » أمسى بلا جنّتهْ

***

أجلْ ، هكذا هلَكَ الشاعرُ   كما يهلكُ الآثمُ المذنبُ
فما غصَّ في روضةٍ طائرٌ   ولم ينطفىء في السما كوكبُ
ولا جزِعَ الشجرُ الناضرُ   ولا اكتأبَ الجدولُ المُطرِبُ
وكوفىءَ عن قتلِهِ القاتلُ   بمالٍ جزيلٍ وخدٍّ أسيلْ
فقالَ لَهُ خُلقهُ السافلُ :   ألا ليتَ لي كلَّ يومٍ قتيلْ !

٤

في ليلةٍ طامسةِ الأنجمِ   تسلَّلَ الموتُ إلى القصرِ
بين حرابِ الجندِ والأسهُمِ   والأسيفِ الهنديّةِ الحمرِ
إلى سريرِ الملكِ الأعظمِ   إلى أميرِ البرِّ والبحرِ !!
ففارقَ الدنيا ولمّا نَزلْ   فيها خمورٌ وأغاريدُ
فلم يَمِدْ حُزناً عليهِ الجَبَلْ   ولا ذَوَى في الروضِ أملودُ

٥

في حومةِ الموتِ وظلِّ البِلى   قد التقى السلطانُ والشاعرُ

هذا بلا مجدٍ ، وهذا بلا   ذلٍّ ، فلا باغٍ ولا ثائرُ
عانقتِ الاسمالُ تلكَ الحلى   واصطحبَ المقهورُ والقاهرُ

*

لا يجزعِ الشاعرُ أن يُقتلا   ليس وراءَ القبرِ سيفٌ ورمحْ
ولا يبالي ذاكَ أن يُعذلا   سِيّانِ عند الميتِ ذمٌّ ومدحْ

٦

وتوالتِ الأجيالُ تَطَّرِدُ   جيلٌ يغيبُ وآخرُ يفدُ
أخنتْ على القصرِ المنيفِ فلا   الجدرانُ قائمةٌ ولا العُمُدُ
ومشتْ على الجيشِ الكثيفِ فلا   خيلٌ مسوّمةٌ ولا زردُ
ذهبتْ بمن صلُحوا ومن فسَدوا   ومضتْ بمن تعِسوا ومن سَعِدوا
وبمن أذابَ الحبُّ مهجتَهُ   وبمن تأكَّلَ قلبَهُ الحسدُ
وطوتْ ملوكاً ما لهم عددُ   فكأنّهم في الأرضِ ما وُجِدوا
والشاعرُ المقتولُ باقيةٌ   أقوالُهُ فكأنّها الأبدُ
الشيخُ يلمسُ في جوانبِها   صوَرَ الهوى والحِكمةَ الولدُ

•

في قلبك الله

مرّت ليالٍ وقلبي حائرٌ قلِقٌ   كالفُلكِ في النهرِ هاجَ النوءُ مجراهُ

أو كالمسافرِ في قفرٍ على ظمأٍ   أضنى المسيرُ مطاياهُ وأضناهُ

لا أُدركُ الأمرَ أهواه وأطلبهُ ،   وأبلغُ الأمرَ نفسي ليسَ تهواهُ

عَجِبْتُ من قائلٍ إني نسيتكمْ   من كانَ في القلبِ كيفَ القلبُ ينساهُ ؟

إن كنتُ بالأمسِ لم أهبطْ مربعَكمْ   فالطيرُ يقعدُ موثوقاً جناحاهُ

فــلا يقرّبُهُ شوقٌ إلى نَهَرٍ   وليسَ تنقلُهُ في الرّوضِ عيناهُ

وليسَ يشكو ولا يبكي مخافةَ أنْ   تؤذي مسامعَ مَنْ يهوى شَكاواهُ

إني لأعجبُ منا كيفَ تخدعُنا   عَنِ الحقائقِ أمثالٌ وأشباهُ

إذا بنى رَجُلٌ قصراً وزخرفَهُ   سُقنا إليه التهاني وامتدحناهُ

وما بنى قصرَهُ إلا ليحجُبَ عن   أبصارِنا في زواياهُ خطاياهُ

ونمدحُ المرءَ من خزّ ملابسِهِ   وذلك الخزُّ لم تنسُجْهُ كفّاهُ

وإنْ أتانا أخو مالٍ يكاثرُنا   بالتِّبرِ تيهاً رَجوْناهُ وخفناهُ

وقد يكونُ نضارٌ في خزائنِهِ   دماً سفكناهُ أو جَهْداً بذلناهُ

لا تحسبِ المجدَ ما عيناكَ أبصرتا   أو ما ملكتَ هو السلطانُ والجاهُ

المالُ مولاكَ ما أمسكتهُ طمعاً   فأنفقْهُ في الخيرِ تصبحْ أنتَ مولاهُ

ما دامَ قلبُكَ فيهِ رحمةٌ لأخٍ   عانٍ ، فأنتَ امرؤٌ في قلبِكَ اللهُ

•

الإله الثرثار

زعمَ المرءُ أنما هُوَ ربٌّ ... كم يلوكُ الكلامَ هذا الالهُ

يلفظُ البحرُ وهو ملحٌ أجاجٌ ... لؤلؤاً يبهرُ العيونَ سناهُ

ما ادّعى الدرُّ أنه صورة البحـ ... ـرِ ولا قالَ: إنني إيّاهُ

لا ولا قالَ كلُّ شيءٍ إلى المحـ ... ـوِ وما خصَّ بالخلودِ سواهُ

إنْ تكنْ للخلودِ ذاتكَ في الد ... نيا، فما ذا الأمرُ الذي تهواهُ

وإذا صرتَ غيرَ شخصِكَ في الأ ... خرى فهذا الفنا الذي تخشاهُ

في الترابِ الذي تدوس عليه ... ألفُ دنيا وعالَمٍ لا تراهُ

أنت جزءٌ من الكيانِ وفيه ... كثَرّاهُ، كنَبْتِهِ، كحصاهُ

كالورودِ التي تحبُّ شذاها ... والبعوضِ الذي تخافُ أذاهُ

ما الحيُّ بالموتِ عنه انفصالٌ ... إنَّ دنياهُ هذهِ أخراهُ

•

رأي الأكثرية

لما سألتُ عن الحقيقةِ قيلَ لي ... ألحقُّ ما اتّفقَ السوادُ عليهِ

فعجبتُ كيفَ ذبحتُ ثوري في الضحى ... والهند ساجدةٌ هناكَ لديهِ

نرضى بحكمِ الأكثريةِ مثلما ... يرضى الوليدُ الظلمَ من أبويهِ

إمّا لغنمٍ يرتجيه منهما ... أو خيفةً من أنْ يُساء إليهِ

•

ليل الاشواق

ربَّ ليلٍ نجومهُ ضاحكاتٌ — مثلَ أحلامِ غادةٍ في صباها
لمستْ إصبعُ السكينةِ أشوا — قي فهبّتْ مذعورةً من كراها
كطيورٍ في الأسرِ تبغي انعتاقاً — قبلَ أن يُفسِدَ الإسارُ لُغاها
أبِقَ النومُ، فانطلقتُ إلى النهرِ — بنفسٍ كادتْ تسيلُ دماهـا
ومعي صاحبٌ رقيقُ الحواشي — تجدُ النفسُ في رُؤاهُ رؤاها
إنْ دَجتْ ليلةٌ أراكَ ضحاها — أو ذوت زهرةٌ أراكَ شذاها

. . .

قالَ: ما أجملَ الكواكبَ! ما — أحلى سناها! فقلتُ: ما أحلاها!
قالَ: لا شوقَ، لا صبابةَ لولا — ها! فتمتمتُ قائلًا: لولاها!
قالَ: هل تشتهي الوصولَ إليها؟ — قلتُ: إني لا أشتهي إلّاها!

. . .

كانَ طرفي يجولُ في العالمِ الأ — على وروحي تجولُ في مغناها

٧٨٠

وجليسي يظنُّ في الشُهْبِ قصدي — وأنا أحسَبُ الجليسَ عناها
قالَ: والنهرُ كَمْ طوى من صَبابا — تٍ! فأطرقتُ أستشفُّ المياها
فإذا النهرُ فيهِ رعشةُ روحي — حينَ يدوي فيها صدى ذكراها
قالَ: والليلُ... قلتُ: حسبُكَ إعنا — تُ لنفسي، وحَسْبُ نفسي دجاها
فانقطعنا عَنِ الكلامِ وَبِتْنا — كلُّ نفسٍ لِذاتِها نجواهـا

. . .

خِلتُ أني إذا بَعِدتُ سأنسا — ها ويطوي الزمانُ سفرَ هواها
وتوهّمتُ أنني سوفَ ألقى — ألفَ ليلى وألفَ هندٍ سواها
فـإذا الحبُّ كالفضاءِ، وقلبي — طائرٌ في الفضاءِ ضلَّ وتاها
أنا في عالمٍ قَصِيٍّ سَحيقٍ — لا أراها، لكنَّ روحي تَراها
قد نشقتُ الأزهارَ في كلِّ أرضٍ — يا شَذاهُنَّ لستَ مثلَ شذاها!
كيفَ أنسى وأينما سِرتُ في الد — نيا أراني أسيرُ في دنياهـا
وإذا ما لمحتُ في الأرضِ حسناً — فكأني لمحتها إياها
وإذا داعبَ النسيمُ ردائي — قلتُ: قد علّمتهُ هذا يداها!
هيَ أدنى من الأماني إلى قلـ — بي، وقلبي يصيحُ: ما أقصاها!
لستُ أشكو النوى مَلالًا ولكن — طربُ الروحِ أن تُذيعَ جَواها

. . .

قالَ قومٌ : إنَّ المحبَّةَ إثمٌ ! ... وَيْحَ بعضِ النفوسِ ما أغباها

إنَّ نفساً لم يُشرقِ الحبُّ فيها ... هيَ نفسٌ لم تدرِ ما معناها

خوَّفوني جهنَّماً ولظاها ... أيُّ شيءٍ جهنَّمٌ ولظاها ؟

ليسَ عند الإلهِ نارٌ لذي حبٍّ ، ... ونارُ الإنسانِ لا أخشاها !

أنا بالحبِّ قد وَصَلتُ إلى نفسي ، ... وبالحبِّ قد عَرَفتُ اللهَ !

أُم القرى

هذه «ملفردُ»[1] ، قد لاحتْ رُباها ... فانسَ ، يا قلبُ ، الليالي وأذاها

واشهدِ الفنَّ سفوحاً وذُرًى ... والهوى الصافي أريجاً ومياها

ههنا أودعتُ أحلامَ الصبا ... أفما تلمحُ نوراً في ثراها ؟

ههنا بالأمسِ في داريّها ... كنتُ مثلَ النسرِ حراً في ذراها

أتلقى الوحيَ عن بلبلِها ... وهو ولهانُ يغني لرباها

وتحسُّ الوحيَ روحي هابطاً ... من سماها في ضحاها ومساها

ذهبتْ عشرون في فرقتِها ... ليتها فيها انقضتْ لا في سواها

كم جلسنا تحتَ صفصافتِها ... أشتكي وجدي وتشكو لي هواها

والسواقي استترتْ إلا غناها ... والروابي هجعتْ إلا شذاها

والصدى في الغابِ لم تنبسْ معاً ... نسبةً إلا وعاها وحكاها

تتناجى ويدي في يدها ... فإذا لاحَ خيالٌ نتلاهى

(١) هي ملفرد في ولاية بنسلفانيا حيث أقام الشاعر في صباه وخطب فتاة أحلامه وعاد اليها في [illegible] الشتاء .

أنا دنيا من شبابٍ وهوىً ... وهي كالروضةِ قد تمتْ حلاها

أحسنُ الأيامِ في العصرِ انقضتْ ... آهِ لو ينشرُها من قد طواها

صرتُ في نيويوركَ طيفاً شارداً ... مع طيوفٍ حائراتٍ في سراها

طرحتْ عنها رؤاها ومضتْ ... تنشدُ المجدَ الذي فيه شقاها

كنعاجٍ عميتْ أبصارُهـــا ... ووهتْ في طَلَبِ العشبِ قواها

كلما جدّتْ لكي تدركَهُ ... وجدتْهُ صارَ في الأرضِ وراها !

أينَ في نفسي رؤىً تسعدها ؟ ... سرقت نيويوركُ من نفسي رؤاها

في يدي أمري ولا أملكُهُ ... ومعي ذاتي وأخشى أن أراها !

هذه «أم القرى» قفْ في حماها ... تسترحْ نفسيَ من بعضِ جواها

ههنا الإنسانُ يلقى ذاتَهُ ... ههنا لا يحجبُ المالُ الإلها

لا تقلْ لي جنتُها عـــارية ... فقرها عندي جميلٌ كغناهـــا

لم يزلْ للصيفِ فيها عبَقٌ ... وسماءُ الصيفِ ما زالتْ سماها

لا يزالُ الحبُّ في شلالهـــا ... ويواديها حديثاً وانتباهـــا

لم يجردْها الشتا من وشيِها ... بل كساها روعةً فوقَ بهاها

فهيَ في ديباجةٍ من صبغِهِ ... مـــا رآها أحدٌ إلا اشتهاها

•

اسألوها

اسألوها ، أو فاسألوا مضناها ... أيُّ شيءٍ قالتْ له عيناها ؟

فهوَ في نشوةٍ وما ذاقَ خمراً ... نشوةُ الحبِّ هذهِ إياهـــا

ذاهلُ الطرفِ شاردُ الفكرِ ، لا يلمحُ حسناً في الأرضِ إلا رآها

ألسواقي لكي تحدّثَ عنها ... والأقاحي لكي تذيعَ شذاها

وحفيفُ النسيمِ في مسمعِ الأوراقِ نجوى تبثُّها شفتاها

يُحسَبُ الفجرُ قبسةً من سناها ... ونجومُ السماءِ بعضَ حلاها

وكذاكَ الهوى إذا حلَّ في الأرواحِ سارتْ في موكبٍ من رؤاها

كانَ ينهى عن الهوى نفسَهُ الظمأى فأمسى يلومُ من ينهاهـــا

لمسَ الحبُّ قلبَهُ فهو نارٌ ... تتلظى ويستلذُّ لظاها !

كلُّ نفسٍ لم يشرقِ الحبُّ فيها ... هيَ نفسٌ لم تدرِ مـــا معناها

•

مطارحة حال

أَلْحَشْدُ مِلءُ الدَّارِ لَكِنْ لَمْ يَرَ أَحَداً سِوَاهَا
فَتَـاةٌ خَلَّابَةٌ كَالْيَاسَمِينَةِ فِي شَذَاهَا
أَوْفَى عَلَيْهَا وَهِيَ تَخْطُـرُ كَالْفَرَاشَةِ فَاشْتَهَاهَا
شَكَتِ الصَّبَابَةَ مُقْلَتَاهُ فَجَاوَبَتْهُ مُقْلَتَاهَا
حَتَّى إِذَا مَا اخْتَارَ كُلٌّ م، فَتًى رَفِيقَتَهُ اصْطَفَاهَا
وَرَأَتْ بِهِ مَنْ تَبْتَغِي وَكَمَا رَآهُ كَذَا رَآهَا
وَتَقَدَّمَا لِلرَّقْصِ يَقْـرَأُ نَاظِرَيْهِ نَاظِرَاهَا
مُتَلَاصِقِي الْجِسْمَيْنِ يَسْنُدُ سَاعِدَيْهِ سَاعِدَاهَا
وَتَكَادُ لَوْلَا الْخَوْفُ تَلْمُسُ وَجْنَتَيْهِ وَجْنَتَاهَا
مُتَدَافِعَيْنِ كَمَوْجَتَيْنِ، خُطَاهُ تَتْبَعُهَا خُطَاهَا
يَمْشِي فَتَمْشِي وَهِيَ تَحْسَبُهُ يَسِيرُ عَلَى حَشَاهَا
هِيَ فِي لِثَامٍ كَالدُّجَى مَحْلُولِكٍ وَكَذَا فَتَاهَا
لَكِنَّمَا الْأَلْحَاظُ تَخْتَرِقُ السُّتُورَ وَمَا وَرَاهَا
فَاضَ الْغَرَامُ فَقَالَ آهٍ وَقَالَتِ الْحَسْنَاءُ آهَا

فَانْسَلَّ مِنْ أَصْحَابِهِ سِرّاً، وَأَغْفَتْ جَارَتَاهَا
وَمَشَى بِهَا فِي رَوْضَةٍ قَدْ نَامَ عَنْهَا حَارِسَاهَا
حَتَّى إِذَا أَمِنَا الْوَرَى
وَشَكَا الْهَوَى وَشَكَتْ هَوَاهَا
طَارَتْ بِبُرْقُعِهَا وَبُرْ قُعِهِ عَلَى عَجَلٍ يَدَاهَا
كَيْمَا تُقَبِّلَ ثَغْرَهُ وَيُقَبِّلُ الْمَعْشُوقُ فَاهَا
فَرَأَى الْمُتَيَّمُ بِنْتَهُ وَرَأَتْ مَلِيحَتُنَا أَبَاهَا

•

الصيف

عادَ للأرضِ مَعَ الصيفِ صِباها   فهي كالخَوْدِ التي تَمّتْ حُلاها

صُوَرٌ من خُضرةٍ في نضرةٍ   ما رآها أحدٌ إلا اشتهاها

ذَهَبُ الشمسِ على آفـاقِها   وسوادُ الليلِ مِسْكٌ في ثَرَاها

ونسيمُ الفجرِ في أشجارهـا   وشوشاتٌ يُطرِبُ النهرَ صَدَاها

والسواقي فِتَنٌ راقصةٌ   ضِحْكُها شدوٌ وتهليلٌ بُكَاها

والأقاحي صُوَرٌ خـلابةٌ   وأغاني الطيرِ شِعْرٌ لا يُضاهى

إنهـا الجنةُ فاعجبْ لامرىءٍ   هُوَ فيها وقليلاً ما يَرَاهـا

أيها المعرضُ عن أزهارِها   لكَ لو تعلمُ، يا هذا، شذاها

أيهـا النائمُ عن أنجمِها   خَلَقَ اللهُ لِعَيْنَيْكَ سَناها

أيها الكابحُ عن لذّاتها   نفسهُ، هيهاتِ لن تُعطى سواها

لا تُؤجِّلْ لِغَدٍ، ليسَ غدٌ   غيرَ يومٍ كالذي ضاعَ وتاها

وإذا لم تُبْصِرِ النفسُ المنى   في الضحى كيفَ تَراها في مساها

هذه الجنةُ فاسرحْ في رُباهـا   واشهدِ السحرَ زهوراً ومِياهَا

واستمعْ للشِّعْرِ من بلبلِها   فَهُوَ الشعرُ الذي ليسَ يُضاهى

. . .

ما أُحيلى الصيفَ ما أكرمهُ   مَلأَ الدنيا رَخـاءً ورَفَاها

عندما ردَّ إلى الأرضِ الصِّبا   ردَّ أحلامي التي الدهرُ طواها

كنتُ أشكو مثلما تشكو الضنى   فشَفَى آلامَ نفسي وشفاها

•

جرجي زيدان

ثَكِلَ الشرقُ فتاهُ ليتني كنتُ فِداهْ
ليتني كنتُ أصمّاً عندما الناعي نعاهْ
قد نعى الناعونَ «زيداناً» إلى البدرِ سناهْ
وإلى التاريخِ والعلمِ أباهُ وأخاهْ !

. . .

سرى نعيُهُ فالدمعُ في كلِّ محجرٍ   كأنّ قلوبَ الناسِ خلفَ المحاجرِ
وللطيرِ في الجنّاتِ إرنانُ ثاكلٍ   وللماءِ أنّاتُ الغريبِ المسافرِ
وللنجمِ ، وهوَ النجمُ ، مِشيةُ ظالعٍ
وللأرضِ ، وهي الأرضُ ، وقفةُ حائرِ
وما كامنٌ فيهِ الأسى غيرُ كامنٍ   ولا ظاهرٌ فيهِ الأسى غيرُ ظاهرِ
فمَن لم يرَ الباكينَ في كلِّ منزلٍ   فما أبصرتْ عيناهُ شقَّ المرائرِ
وعيَّ «البرقُ» مما حمّلوهُ فلم يطِقْ   يحدّثُنا عنهُ بغيرِ الأشائرِ
فيا خبراً ألقى الفجيعةَ بيننا   لأنتَ علينا اليومَ أشأمُ طائرِ
ويا ناقلَ الأنباءِ يجهلُ كنهَها   كرهناكَ حتى قادماً بالبشائرِ

أقامَ الأسى بينَ العزاءِ ومُهجتي   وباعدَ ما بينَ القريضِ وخاطري
فأمسيتُ لا أدري أسِترٌ منَ الدجى   على الشمسِ أم ضيّعتُ أسودَ ناظري
وباتَ فؤادي يتّقي نزواتِهِ   كما يتّقي العصفورُ بأسَ الكواسرِ
كأنّ بقلبي شاعراً ينظمُ الأسى   كأنّي تولّى مدمعي كلَّ ناثرِ
ألا ليتَ شعري بعدَ ما طارَ نعيُهُ   أفي أرضِ مصرٍ نائمٌ غيرُ ساهرِ
وهل في سماءِ النيلِ غيرُ دياجرٍ   وهل في مياهِ النيلِ غيرُ محاجرِ
وهل في ضفافِ النيلِ بينَ نخيلِهِ   مغرّدةٌ أو آنسٌ غيرُ نافرِ
بمَ تسمرُ الإخوانُ في كلِّ ليلةٍ   وصاحبُهم في اللحدِ غيرُ مسامرِ
ليبكِ عليهِ المسلمونَ فإنّهم   أضاعوا بهِ مُحيي العصورِ الدوائرِ
وتبكِ النصارى فخرَها وعميدَها   فما بعدَهُ من حجّةٍ لمفاخرِ
فما جادتِ الدنيا عليهم بمثلِهِ   وغيرُ يسيرٍ أن تجودَ بآخرِ
أيا جبلَ العلمِ الذي مادَ هاوياً   عزيزٌ علينا أن نرى في الحفائرِ
عليكَ يودُّ الغربُ لو كانَ مشرقاً   وفيكَ يحبُّ الحيُّ أهلَ المقابرِ
ويغبطُ تبرُ الأرضِ فيكَ ترابَها   ويحسدُ ماءَ الجفنِ ماءُ المحابرِ
وما عادةٌ خفضُ الرجالِ رؤوسَها   ولكنّما في الأرضِ كنزُ الجواهرِ
لتفخرْ على الشهبِ الجنادلُ والحصى   ففيها هلالُ العلمِ شمسُ المحاضرِ
شأوتَ الأوالي جامعاً ومؤلّفاً   وزدتَ بأنْ أحرزتَ فضلَ الأواخرِ

تخيّرَ أحداثُ الليالي كبارَنا ... كأنَّ المنايا صَبَّةٌ بالأكابرِ

ونضحكُ للآمالِ ضِحكةَ وامقٍ ... فيضحكُ منّا الدهرُ ضحكةَ ساخرِ

رَضينا بأنْ تغشى الغزاةُ بلادَنا ... ونِمنا وما نامتْ عيونُ المعاشرِ

لها كلَّ يومٍ بيننا حُكمُ جائرٍ ... وإقدامُ موتورٍ وفتكةُ ثائرِ

على أنّها تقتصُّ منْ غيرِ مُذنبٍ ... وتأخذُ بالأوتارِ من غيرِ واترِ

فيا ويحَ هذا الشرقِ كيفَ اغتياظُه ... وأمضى مواضيهِ كليلُ الأظافرِ ؟

. . .

جَلَلٌ في مِصرَ لكنْ ... في العِراقينِ صداهْ

مادَ لبنانُ ومادَ ... الشامُ لمّا سمِعاهْ

كادَ أن يخذلَ فيهِ ... كلُّ طودٍ منكباهْ

أيها الراحلُ عنّا ... بلغَ الحزنُ مداهْ

قد بكاكَ الأفقُ حتى ... فرقداهُ وسُهاهْ

يا خليليَّ أعينا ... مَن عصاهُ مُسعِداهْ

خانتِ النفسَ قُواها ... خانتِ البينَ قواهْ

قد مضى مَن تتمنّى ... كلُّ عينٍ أنْ تراهْ

فتمنّى كلُّ قبرٍ ... حينَ أودى لو حواهْ

ماتَ «زيدانُ» أبو التاريخِ فليحيَ فتاهْ !

لبنان

إثنانِ أعيا الدهرَ أن يبليهما ... لبنانُ والأملُ الذي لذويهِ

نشتاقهُ والصيفُ فوقَ هضابهِ ... ونحبُّهُ والثلجُ في واديهِ

وإذا تمدُّ له ذُكاءُ حبالَها ... بقلائدِ العِقيانِ تستغويهِ

وإذا تنقّطهُ السماءُ عشيّةً ... بالأنجمِ الزهراءِ تسترضيهِ

وإذا الصبايا في الحقولِ كزهرها ... يضحكنَ ضحكاً لا تكلُّفَ فيهِ

هنَّ اللواتي قد خلقنَ ليَ الهوى ... وسقينني السحرَ الذي أسقيهِ

هذا الذي صانَ الشبابَ من البلى ... وأبى على الأيامِ أن تطويهِ

. . .

ولربما جبلٌ أشبّهُهُ بهِ ... مسترسلاً مع روعةِ التشبيهِ

فأقولُ يحكيهِ، وأعلمُ أنّهُ ... مهما سما هيهاتَ أنْ يحكيهِ

يا لذّةً مكذوبةً يلهو بها ... قلبي ويعرفُ أنّها تؤذيهِ

إنّي أذكّرهُ بذيّاكَ الحمى ... وجمالِهِ وإخالُني أنسيهِ

وإذا الحقائقُ أحرجتْ صدرَ الفتى ... ألقى مقالدَهُ إلى التمويهِ

وطني ستبقى الأرضُ عندي كلُّها ... حتى أعودَ إليهِ أرضَ التيهِ

سألوا الجمالَ فقالَ: هذا هيكلي ... والشعرَ قالَ: بنيتُ عرشي فيهِ

الأرضُ تستجدي الخِضَمَّ مياهَهُ   وكنوزَهُ والبحرُ يستجديهِ
يُمسي ويُصبحُ وهو منطرحٌ على   أقدامِهِ طمعاً بما يحويهِ
أعطاهُ بعضَ وقارِهِ حتى إذا   استجداه ثانيةً سخا ببنيهِ
لبنانُ صُنْ كنزَ العزائمِ واقتصدْ   أخشى معَ الإسرافِ أنْ تفنيهِ

. . .

غيري يراهُ سياسةً وطوائفاً   ويظلُّ يزعمُ أنهُ رائيهِ
ويروحُ من إشفاقهِ يبكي له   لبنانُ أنتَ أحقُّ أنْ تبكيهِ
لا يسفرُ الحسنُ النزيهُ لناظرٍ   ما دامَ منه الطرفُ غيرَ نزيهِ

. . .

قلْ للأُلى رفعوا التخومَ لأرضهِ   ضيَّقتمُ الدنيا على أهليهِ
ولمن يقولونَ الفرنجَ حماتهُ   اللهُ قبلَ سيوفِهمْ حاميهِ

. . .

يا صاحبي، يَهنيكَ أنكَ في غدٍ   ستعانقُ الأحبابَ في ناديهِ
وتلذُّ بالأرواحِ تعبقُ بالشذى   وتهزُّكَ الأنغامُ من شاديهِ
إنْ حدَّثوكَ عن النعيمِ فأطنبوا   فاشتقتَهُ لا تنسَ أنكَ فيهِ!

يا قائد القوم

رثى بها صديقه الحميم الدكتور رزق حداد وقد ألقاها في الحفلة التأبينية.

يا أيها الشعرُ أسعفني فأرثيهِ   ويا دموعَ أعينيني فأبكيهِ
بحثتُ لي عن مُعَزٍّ يومَ مصرعهِ   فلم أجدْ غيرَ محزونٍ أعزيهِ
وما سألتُ امرءاً فيما تفجّعُهُ   إلا وجاوبَ — «إني من محبّيهِ»
كأنما كلُّ إنسانٍ أضاعَ أخاً   أو انطوتْ فجأةً دنيا أمانيهِ
فذا أساهُ لهيبٌ في أضالعهِ   وذا أساهُ دموعٌ في مآقيهِ
فهل درى أيَّ سهمٍ في القلوبِ رمى   لما نعاهُ إلى الأسماعِ ناعيهِ؟

***

يا شاعرَ الحسنِ هذا الروضُ قد طلعتْ   فيهِ الرياحينُ وافترّتْ أقاحيهِ
وشاعَ «أيارُ» عطراً في جوانبهِ   ونضرةً واخضراراً في روابيهِ
فأينَ شعرُكَ يسري مع نسائمهِ؟   وأينَ سحرُكَ يجري في سواقيهِ؟
هجرتَهُ فامّحتْ منهُ بشاشتُهُ   ماتَ الهوى فيهِ لمّا ماتَ شاديهِ

أغنى عن الدُّرِّ في القيعانِ مختبئاً   درٌّ يساقطهُ الحدَّادُ من فيهِ

وكانَ للسحرِ تأثيرٌ فأبطلهُ   بالسحرِ يجري حلالاً في قوافيهِ

بلاغةُ «المتنبي» في مدائحهِ ،   ودَمعُ «خنساء صَخرٍ» في مراثيهِ

لا يعذبُ الشعرُ إلا حينَ ينظمهُ ،   أو حينَ ينشدهُ ، أو حينَ يرويهِ

ويا طبيباً يُداوي الناسَ من عِلَلٍ   داءُ الأسى اليومَ فيهم مَنْ يُداويهِ؟

أمسى الذي كانَ يَشجينا ويُطربنا   لا شيء يُطربهُ ، لا شيء يَشجيهِ

لقد تساوى لديهِ شدوُ ساجعةٍ   وصوتُ نائحةٍ في الحيِّ تبكيهِ

صارتْ لياليهِ نوماً غيرَ منقطعٍ   ولم تكنْ هكذا قبلاً لياليهِ

قد كانَ نبراسنا في المعضلاتِ إذا   ما ليلُها جَنَّ واربدَّتْ نواصيهِ

فَمنْ لنا في غدٍ إنْ أزمةٌ عَرَضتْ   وليسَ فينا أخو حَزمٍ يضاهيهِ

مَنْ للحزينِ يُواسيهِ ويُسعدهُ   وللمريضِ يُداويهِ فَيَشفيهِ

يا قائدَ القومِ إنْ تسألْ فإنهمُ   باتوا حَيارى كإسرائيلَ في التيهِ

لما رأوكَ مسجّى بينهمْ علموا   ما العيشُ غيرَ أخاييلٍ وتمويهِ

يا رزقُ ، قلبي عليكَ اليومَ منفطرٌ   وكلُّ قلبٍ كقلبي في تشظّيهِ

لم يحوِ نَعشُكَ جسماً لا حَراكَ به   بل أنتَ آمالنا موضوعةٌ فيهِ

غداً يواريكَ عن أبصارِنا جَدَثٌ   لكنَّ فضلَكَ لا شيءَ يُواريهِ

الكمنجة المحطمة

شاهدتُها كالميْتِ في أكفانِهِ   فوجمتُ إلا عبرةً أذريها

مهجورةً كسفينةٍ مَنْبوذةٍ   في الشطِّ غابَ وراءهُ ماضيها

نسجتْ عليها العنكبوتُ خيوطَها   وكسى الغبارُ غِلالةً تكسوها

أقوتْ وباتتْ كالمسامعِ بعدَها   لا شيء يُطربُها ولا يَشجيها

وكأنها ، في صمتها ، مشدوهةٌ   أن لا ترى بهتافِها مشدوها

لا حسَّ في أوتارها ، لا شوقَ في   أضلاعها ، لا حسنَ في باقيها

فارزحْ بحزنِكَ ، يا حزينُ ، فإنها   لا تنشرُ الشكوى ولا تطويها

وإذا انقضى عهدُ التعلُّلِ بالمنى   فالنفسُ يَشفيها الذي يُرديها

***

للهِ عهدٌ مرَّ لي في ظلِّها   أبكي عليهِ وتارةً أبكيها

كانتْ كأنَّ ضلوعَها موصولةٌ   بأضالعي وسرائري في فيها

كم مرةً حامتْ غرابيبُ الأسى   لتقيتَ من قلبي الجريحِ بنيها

فإذا الأغاريدُ اللطيفةُ دونَها   سُورٌ يصونُ حشاشتي ويقيها

كم هزني الشدوُ الرخيمُ فساقطتْ   نفسي هموماً أوشكتْ تبليها

فإذا أنا مثلُ البنفسجةِ التي   ذبلتْ فباكرَها النَّدى يُحييها

ولكمْ سمعتُ خفوقَ أجنحةِ المنى   وحفيفَها في نغمةٍ توحيها

فسكرتُ حتى ما أعي سُكْرَ امرِيءٍ ... بالخمرِ أترعَ كأسَهُ ساقيها
ورأيتني في جنّةٍ سحريةٍ ... لا يرتوي من حسنها رائيها
ولمحتُ أحلامَ الشبابِ مواكباً ... تترى أمامي والهوى حاديها
سرُّ السعادةِ في الرؤى إنَّ الرؤى ... لا كفٌّ تثبتها ولا تمحوها
ولكمْ سمعتُ دبيبَ أشباحِ الأسى ... عند المسا في أنّةٍ تُزجيها
فذكرتُ ثمَّ محاسناً تحتَ الثرى ... غابتْ وشوّهَها البلى تشويها
فإذا أنا كالسنديانةِ شوشتْ ... أغصانَها الريحُ التي تلويها
أو كالسفينةِ في الضبابِ طريقَها ... ضلّتْ، وغابتْ أنجمٌ تهديها
شَهِدَ الدُّجى والفجرُ أنّيَ جازعٌ ... لسكوتها جَزَعَ الغديرِ أخيها
ما أنْ سمعتُ أنينَهُ ونشيجَهُ ... إلا ويعرو النفسَ ما يَعْروها
روّى الثرى، ياليتَ روحي في الثرى ... أو في النباتِ لعلَّهُ يرويها

***

يا صاحبيَّ، وفي حنايا أضلعي ... همٌّ يكظُّ الروحَ بل يدميها
إنَّ التي نقلتْ حكاياتِ الهوى ... لم يبقَ غيرَ حكايةٍ ترويها
كمدينةٍ دكَّ القضاءُ صروحَها ... دكّاً وكفّنَ بالسكوتِ ذويها
نُعيت فَرِيعَ الفجرُ وارتعشَ الدُّجى ... مــا كانَ أهونَها على ناعيها
لا تعجبا في الغابِ من نَوْحِ الصبا ... وعويلِها، إنَّ الصَّبا ترثيها
لو تسمعانِ نحيبَهــا متمشياً ... كالسحرِ في الأرواحِ يستهويها
لعلمتما أنَّ القضاءَ اغتالهــا ... كيلا تبوحَ بكلِّ سرٍّ فيها

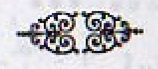
«من اشتهى الخمر فليزرع دواليها»

خُذْ ما استطعتَ من الدنيا وأهليها ... لكنْ تعلَّمْ قليلاً كيفَ تُعطيها
كُنْ وردةً طيبُها حتى لسارقِها ... لا دمنةً خبثُها حتى لساقيها
أكانَ في الكونِ نورٌ تستضيءُ بهِ ... لو السماءُ طوتْ عنا دراريها؟
أو كانَ في الأرضِ أزهارٌ لها أرجٌ ... لو كانتِ الأرضُ لا تُبدي أقاحيها؟
إن الطيورَ الدمى سِيّانِ في نظري ... والورقَ إنْ حبسَتْ هذي أغانيها
إن كانتِ النفسُ لا تبدو محاسنُها ... في اليُسرِ صارَ غناها من مخازيها

***

يا عابدَ المالِ قُلْ لي هلْ وجدتَ بهِ ... روحاً تواسيكَ أو روحاً تؤاسيها
حتى مَ، يا صاح، تخفيهِ وتطمرهُ ... كأنما هو سوءاتٌ تواريها؟
وتحرمُ النفسَ لذاتٍ لها خُلقتْ ... ولم تصاحبك، يا هذا، لتؤذيها
أنظرْ إلى الماءِ إنَّ البذلَ شيمتهُ ... يأتي الحقولَ فيرويها ويُحييها
فما تعكّرَ إلا وهو منحبسٌ ... والنفسُ كالماءِ تحكيهِ ويحكيها
السجنُ للماءِ يؤذيهِ ويفسدهُ ... والسجنُ للنفسِ يؤذيها ويضنيها

وانظرْ إلى النارِ إنَّ الفتكَ عادتُها ... لكنَّ عادتها الشنعاء ترديها
تفني القرى والمغاني وهي ضاحكةٌ ... لجهلها أنَّ ما تفنيه يفنيها
أرسلتُ قولي تمثيلًا وتشبيهاً ... لعلَّ في القولِ تذكيراً وتنبيها
لا شيء يُدركُ في الدنيا بلا تَعَبٍ ... مَنِ اشتهى الخمرَ فليزرعْ دواليها



الغابة المفقودة

يا لهفةَ النفسِ على غابةٍ ... كنتُ وهنداً نلتقي فيها
أنا كما شاء الهوى والصبا ... وهيَ كما شاءتْ أمانيها
تكادُ من لُطفِ معانيها ... يشربُها خاطرُ رائيها
آمنتُ باللهِ وآياتهِ ... أليسَ أنَّ الله باريها ؟

. . .

تباغتُ الأزهارَ عند الضحى ... متكئاتٍ في نواحيها
ألوى على الزنبقِ نسرينُها ... والتفَّ عاريها بكاسيها
واختلجتْ في الشمسِ ألوانها ... كأنها تذكرُ ماضيها
تآلفتْ ، فالماء من حولها ... يرقصُ والطيرُ تغنّيها
مَنْ لقّنَ الطيرَ أناشيدها ؟ ... وعلّمَ الزهرَ تآخيها ؟
يا هندُ هذي معجزاتُ الهوى ... وإنّها فينا كما فيها
لا تستحي الزهرُ بإعلانها ... فما لنا نحنُ نواريها ؟
وتهتِفُ الطيرُ بها في الربى ... فما لنا نحن نعمّيها ؟

[illegible] الغــابةِ أيّامُنا — مــا عابَها إلّا تلاشيها
طوراً علينا ظلُّ أدواحِها — وتارةً عطفُ دواليها
وتارةً نلهو بأعنابِها — وتارةً نُحصي أقاحيها
تسكتُ إذ نشكو شحاريرُها — كأنّمــا التغريدُ يؤذيها
وإنْ تضاحكنا سمعنا الصّدى — يضحكُ معنا في أقاصيها
وإنْ مَشَيْنا فوقَ كثبانِها — لاحتْ فَشاقَتْنا أدانيها
وفوقَنا الأغصانُ معقودةٌ — ذوائبٌ طــالَ تدلّيها
إذا هَزَزْناها عن غُرّةٍ — ألقتْ من الذُّعرِ لآليها
نسيرُ من كهفٍ إلى جدولٍ — نكتشفُ الأرضَ ونطويها
والنورُ عطرٌ في تعاريجِها — والعطرُ نورٌ في حواشيها
وتختفي هندٌ فأشتاقُها — وأختفي عنها فأُغريها
كم أوهمتني الخوفَ من طارىءٍ — تشجي بذا نفسي فتشجيها
فرحتُ أعدو نحوَها مشفقاً — فكانَ ما حاذرتُ تمويها !
فاعجبْ لأطواري وأطوارِها — تعبثُ منّي وأجاريها !

. . .

أللهُ لو دامَ زمانُ الهوى — ودامَ من هندٍ تجنّيها
لا غابتي اليومَ كعهدي بها — ولا التي أحببتُها فيهــا

ولا تلالٌ كنهودِ الدُّمى — ولا سفوحٌ كتراقيها
ولا الندى درٌّ على عُشبِها — ولا الأقاحي في روابيها
ولا الضُّحى يُلقي على أرضِها — شباكَ تِبْرٍ مِنْ أعاليها
أهبطني أمسِ إلى حضنِها — شوقي إلى سَجْعِ قماريها
فلَمْ تُخَشِّني بأوراقِها — ولَمْ تَهَلَّلْ لي سواقيها
قد بدَّلَ الإنسانُ أطوارَها — واغتصبَ الطيرَ مآويها
وفتَّ بالبارودِ جلمودَها — واجتثَّ بالفأسِ دواليها
وشادَ من أحجارِها قريةً — سكّانُها الناسُ وأهلوها

. . .

يا لهفةَ النفسِ على غابةٍ — كنتُ وهنداً نلتقي فيها
جنّةُ أحلامي وأحلامِها — ودارُ حبّي وتصابيها
نبكي من اليأسِ على شوكِها — وكانَ يُدميني ويُدميها
كانتْ تغطّينا بأوراقِها — فصارتِ الدورُ تغطّيها !

•

يا أنشودتي انطلقي

أنشودةٌ في ضميري كمْ أواريها … وما شفائي إلا أنْ أغنّيها

ولّى الشتاءُ ونفسي في كآبتها

واستضحكَ الصّيفُ إلا في نواحيها

كأنها زهرةٌ في الظلِّ نابتةٌ … لانورَ يغمرُها، لاماءَ يَسقيها

كأنها الحربُ في قلبي زلازلُها … وبعضُ أهلِ أقوامٌ تعانيها

حكايةٌ أتقلى حين أسمعها … ويأكلُ الحزنُ قلبي حينَ أرويها

وارحمتاهُ لأوربا فما فتكتْ … أفعى بأفعى كأهليها بأهليها

لمْ يبقَ غيرُ الضواري في خلائقِها … ومَنْ حضارتِها إلّا مخازيها

كانتْ تعدُّ الدواهي في مصانِعِها

لغيرِها ، فأصابتها دواهيها

وكلُّ طابخِ سُمٍّ سوفَ يأكلهُ … وكلُّ حافرِ بئرٍ واقعٌ فيها

لو دامَ أيمانُها لم تنطلقْ سَقَرٌ … بذُورِها والأفاعي في مغانيها

لكنْ أكبّتْ على الآلاتِ تعبدُها

وتستعينُ بها مِنْ دونِ باريها

فصارَ مالكُها عبداً لسُلطَتِها … وصارَ كلُّ ضعيفٍ من أضاحيها

وصارَ أنسانُها للخلْبِ آونةً

والذبحِ ، مثْلَ المواشي في مراعيها

يا نفسُ سَرّي ، ويا أنشودتي انطلقي

من علّ الصمتِ، إنَّ الصمتَ يؤذيها

أيُشرِقُ الأفقُ لم يُطلعْ كواكبَهُ

وتجملُ الأرضُ لم تُخرِجْ أقاحيها

أليومُ يومُ القوافي تحتفينَ بها … لايشربُ الناسُ خمراً لم تُصبّها

هذا هو العيدُ قد لاحتْ مواكبُهُ

يا قلبُ هلّلْ لها ، يا شِعرُ حيّيها



لقاء وفراق

صبراً على هجرِها إنْ كان يرضيها   غيرُ المليحةِ مملولٌ تجنّيها
فالوصلُ أجملُه ما كانَ بعدَ نوًى   والشمسُ بعدَ الدُّجى أشهى لرائيها
أسلمتُ للسُّهْدِ طرفي والضنى بَدَني   إنَّ الصبابةَ لا يُرجى تلافيها
إنَّ النساءَ إذا أمرضنَ نفسَ فتًى   فليسَ غيرُ تدانيهنَّ يشفيها
فاحذرْ من الحبِّ إنْ الريحَ ما خَفِيَتْ   لولا غرامٌ عظيمٌ مختفٍ فيها
يمضي الصفاءُ ويبقى بعدَهُ أثرٌ   في النفسِ يولمُها طوراً ويشجيها
مرّتْ ليالٍ بنا ما كانَ أجملَها   تمّتْ فما شانها إلا تلاشيها
تلكَ الليالي لا أرجو تذكُّرَها   خوفَ العناءِ ولا أخشى تناسيها
أصبو إليها وأصبو كلّما ذُكِرَتْ   عندي اشتياقاً إلى مصرَ وأهليها
أرضٌ سماءٌ سواها دونها شرَفاً   فلا سماءٌ ولا أرضٌ تحاكيها
رقّتْ حواشيها واخضرَّ جانبُها   وأجملُ الأرضِ ما رقّتْ حواشيها
كأنَّ أهرامَها الأطوادُ باذخةً   هذي إلى جنبها الأخرى تساميها
ونيلها العذبُ ما أحلى مناظرَهُ   والشمسُ تكسوهُ تبراً في تواريها
كأنها كعبةٌ حجُّ الأنامِ لها   لولا التقى قلتُ فيها جلَّ بانيها

وما أحيلى الجواري الماخراتِ بهِ   تقلُّ من أرضهِ أحلى جواريها
من كلِّ رعبوبةٍ عَبْلٍ روادفُها   تأبى القعودَ فتأبى أن تجاريها
ضحوكةِ الوجهِ يُغرينا تبسُّمها   إن نجتديها ، ويثنينا تثنّيها
وناهدٍ حجبَتْ عن كلِّ ذي بَصَرٍ   حشاشتي خِدْرَها والقلبُ ناديها
في كلِّ جارحةٍ مني لها أثرٌ   والدارُ صاحبها أدرى بما فيها
وفي الكواكبِ جزءٌ من محاسنها   وفي الجآذرِ جزءٌ من معانيها
إنْ عنّفوني فإني لا أعنّفُها   وإنْ أُسَمْ فإني لا أسمّيها
يمّمتُها ونجومُ الأفقِ تلحظني   في السيرِ شذراً كأني من أعاديها
كادتْ تساقطُ غيظاً عندما علمتْ   أني أؤمُّ التي بالنفس أفديها
أسري إليها وجنحُ الليلِ مضطربٌ   كأنّهُ مشفقٌ أن لا ألاقيها
والشوقُ يدفعني والخوفُ يدفعني   هذا إليها وهذا عن مغانيها
أطوي الدياجي وتطويني على جزعٍ   تخشى افتضاحي وأخشى الصبحَ يطويها
فما بلغتُ مغاني من شغفتُ بها   إلا وقد بلغتْ نفسي تراقيها
هناكَ ألقيتُ رحلي وانتحيتُ إلى   خَوْدٍ يرى الدُّميةَ الحسناءَ رائيها
بيضٌ ترائبها سودٌ ذوائبها   زُجٌّ حواجبها كُحلٌ مآقيها
نهودها من ثنايا الثوبِ بارزةٌ   كأنها تشتكي مما يواريها
والثوبُ قد ضاقَ عن إخفائها فنبا   عنها فيا ليتني بُرْدٌ لأحميها

وتحتَ ذلكَ خصرٌ يستقلُّ بهِ ... دعصٌ ترجرج حتى كادَ يلقيها

قامتْ تُصافحني والرِّدفُ يمنعها ... والوجدُ يدفعها والقدُّ يثنيها

دهشتُ حتى كأني قطُّ لم أرها ... وكدتُ واللهِ أنسى أن أحييها

باتتْ تكلّمني منها لواحظُها ... بما تُكنُّ وأجفاني تُناجيها

حتى بدا الفجرُ واعتلّتْ نسائمُهُ ... وكادَ ينشرُ أسراري ويفشيها

بكت دموعاً وأبكتني الدموعُ دماً ... ورحتُ أكتم أشياء وتبديها

كأنّها شعرتْ في بعدنا أبداً ... فأكثرتْ من وَداعي عندَ واديها

فما تعزّتْ بأن الدّهرَ يجمعنا ... يوماً ولا فَرِحتْ أني أمنيها

تقولُ والدمعُ مثلُ الطلِّ منتثرٌ ... على خدودٍ خَشيتُ الدّمعَ يدميها

والهفَ نفسي على أنسٍ بلا كَدَرٍ ... تُرى تنالُ من الدنيا أمانيها؟

فقلتُ صبراً على كَيْدِ الزمانِ لنا ... فكلُّ حافرِ بئرٍ واقعٌ فيها

•

فلوريدا

يا جنّةً قبلما حلّتْ بها قدَمي ... أحببتُها قصةً واشتقتُ راويها

كانتْ لها صورةٌ في النفسِ حائرةٌ ... مثلُ القصيدةِ لم تُنسجْ قوافيها

وَدَدْتُ لو أنّها تمّتْ فيبصرها ... غيري، وتُسكرهُ مثلي معانيها

وكيفَ تكملُ في ذهني ولم أرَها ... وما لصورتِها شيءٌ يحاكيها؟

وأيّما نغمةٍ أدّى عذوبتَها ... كلامُ راوٍ ولا شادٍ يغنّيها

أأنشقُ العطرَ لم أهبطْ خمائلَها؟ ... وأشربُ السحرَ لم أسمعْ قاريها؟

وتصعدُ النفسُ منّي للسماءِ ولا ... حبالُ نورٍ تدلّتْ من دراريها؟

كانتْ سَعادةُ نفسي في تَصَوُّرِها ... والنفسُ يُسعِدُها وهمٌ ويُشقيها

بالوهمِ توجدُ دنيا لا وجودَ لها ... وتنطوي عنكَ دنيا أنتَ رائيها

فكم ظَمِئْتُ وفي روحي جداولُها ... وكم رويتُ وغيري في سواقيها

قد كنتُ من قبلُ مثلَ الناسِ كلِّهمِ ... أقولُ إنَّ إلهَ الكونِ باريها

حتى نظرتُ إليها في جلالتِها ... فصارَ كلٌّ يقيني أنّهُ فيها!

لما رأيتُ الجمالَ الحقَّ أدركني ... زُهدٌ بكلِّ جمالٍ كانَ تمويها

كأنّما الحورُ مرّتْ في شواطئِها ... في ليلةٍ طفلةٍ رقّتْ حواشيها

ففي الرمالِ سناهُ من تضاحكِها ... وفي المياهِ أريجٌ من أغانيها

أتيتُها بشبابٍ ضاعَ أكثرُهُ ... وغيّبتهُ الليالي في مطاويها

فاسترجعَ الحبَّ قلبي فهوَ مغتبطٌ ... وعادتِ الروحُ خضراء أمانيها

*

سئلتُ ما راقَ نفسي من محاسِنِها؟ ... فقلتُ للناسِ : باديها وخافيها
وما حببتَ من الأشجارِ؟ قلتُ لهم: ... إنّي افتتنتُ بكاسيها وعاريها
وماهويتَ من الأزهارِ؟ قلتُ لهم: ... ألحبُّ عندي لناميها وذاويها
قالوا: وما تتمنّى؟ قلتُ مبتدراً: ... يا ليتني طائرٌ أو زهرةٌ فيها
فربَّ أنشودةٍ من بلبلٍ غردٍ ... حوَتْ حكايةَ حبٍّ خفتُ أحكيها
وربَّ روحٍ كروحي في بنفسجةٍ ... وسْنَى أطلّتْ على روحي تُناجيها
وربَّ قطرةِ ماءٍ لا غناء بها ... شاهدتُ مصرعَ دنيا في تلاشيها
كلُّ الذي لاحَ لي في أرضها حسَنٌ ... وأحسنُ الكلِّ في عيني أهاليها
إلّا ذوو السِحَنِ السوداء واعجباً ... أجنّةٌ وذبابٌ في نواحيها ؟
إنّي ليكبتُ روحي أنْ ألاحظَهمْ ... بمقلةٍ أبصرتْ فيها غوانيها
دعِ المساوىءَ في الدنيا فابرحتْ ... فيها محاسنُ تنسينا مساويها
كم حاولَ الليلُ أنْ يطوي كواكبَهُ ... فكانَ يَنشرها من حيثُ يطويها
واذكرْ أكارمَ قومٍ طابَ عنصرهُمْ ... وأشبهوا بسجاياهم أقاحيها
بني بلادي ! وفيكمْ من خمائلها ... جمالُها والتسامي مِنْ روابيها
تسلّتِ النفسُ عن أحبابها بكُمْ ... لولاكُمْ لم يكنْ شيءٌ يسلّيها
أكرمتموني فشكراً غيرَ منقطعٍ ... دوامُ شكركَ للنعماء يبقيها

هي

أروي لكُمْ عن شاعرٍ ساحرٍ ... حكايةً يُحمدُ راويها
قالَ: دعا أصحابَهُ سيِّدٌ ... في ليلةٍ رقّتْ حواشيها
فانتظمتْ في قصرهِ عُصبةٌ ... كريمةٌ لا واغلٌ فيها
مِنْ نُبلاءِ الشعبِ ساداتُها ... وخيرةِ الغيدِ غوانيها
حتى إذا ما جلسوا كلهمْ ... وطافَ بالأكوابِ ساقيها
قامَ أميرُ القصرِ في كفِّهِ ... كأسٌ أعـارتْهُ معانيها
وقالَ: يا صحبُ على ذكركُمْ ... أملأها حباً وأحسوها
وذكرِ مَن قلبيَ عبدٌ لها ... ومهجتي إحدى جواريها
حبيبتي «لميـاء» سميتها ... ولم أكن قبلاً أسميها
فشربوا كلهمْ سرَّها ... وهتفوا كلهمْ تيها
فأجزل الشكرَ لأصحابهِ ... ألشكرُ للنعمةِ يُبقيها
وصاحَ بالساقي علينا بها ... فطافَ بالأكوابِ ساقيها
وقالَ للأضيافِ: سمعاً ! فلي ... كلمةٌ ، ألعدلُ يمليها
ما أنا وحدي الصبُّ فيكمْ ،ولا ... كلُّ العذارى من أناجيها

فكلُّ نفسٍ مثلُ نفسي لها   في هذهِ الدنيا أمانيها

وكلُّ قلبٍ مثلُ قلبي له   حسناءُ تَرجوهُ ويرجوها

يا صحبُ، من كانت به صبوةٌ   يُعلنها الآنَ ويُبديها

فنهضوا ثانيةً كلّهمْ   ورفعوا الكاساتِ تنويها

كلهمُ يشربُ سرَّ التي   يهوى من الغيدِ ويُطريها

. . .

وكانَ في الشَربِ فتىً باسلٌ   طلعتهُ تُسحرُ رائيها

شاركَ في أوّلِ أقداحهمْ   ولم يشارِكْهُمْ بثانيها

وأنتَ؟ قال الصحبُ واستضحكوا

هل لكَ حسناءُ تحيّيها ؟

قال: أجل، أشربُ سرَّ التي   بالروحِ تفديني وأفديها

صُورتها في القلبِ مطبوعةٌ   لا شيء حتى الموتِ يمحوها

لا تترضّاني رياءً، ولا   تَلْثُمُني كذباً وتمويها

يضيعُ مالي ويزولُ الصبى   وحبُّها باقٍ وحبّيها

قد وهبَتْني روحَها كلَّها   ولم تخفْ أني أضحّيها

سرُّ التي لا غادةٌ بينكم   مهما تمتْ في الحبِّ تحكيها

فأجفلوا منهُ كَمِنْ حيّةٍ   نهاشةٍ قد عزَّ راقيها

وقالتِ الغاداتُ: أفٍّ له،   قد شوّهَ المجلسَ تشويها

لو ظلَّ فيما بيننا صامتاً   لم تسمعِ الآذانُ مكروها

وقلقلَ الفتيانُ أسيافهم   فأوشكتْ تبدو حواشيها

وتَعتعَ الشادي بألحانهِ   وماجتِ الدارُ بمن فيها

وقالَ قومٌ: خبلتهُ الطِلا !   وقالَ قومٌ: صارَ معتوها !

فصاحَ ربُّ الدارِ: ياسيّدي   وَصفتَها، لِمْ لا تُسمّيها

أتخجلُ باسمِ مَنْ تهوى ؟

أحسناءُ بغيرِ اسمٍ ؟

فأطرقَ غيرَ مكترثٍ

وتمتمَ خاشعاً . . . أُمّي !!

*

حنة مشتاق

ألا أيها الباكي فديتكَ باكياً   علامَ وفيما تستحثُّ المآقيا ؟
رويدكَ ما أرضى لك الحُزْنَ خِلّةً   وهيهاتَ أن أرضاكَ بالحُزنِ راضيا
يُعنّفني من كُنتُ أدعوهُ صاحباً   فما انفكَّ حتى بتُّ أدعوهُ لاحيا
دَعوتُ لربّي أن دعانيَ لائمٌ   ولم أَعْصِهِ أن لا يجيبَ دعائيا
لقد أرخصَ العُذّالُ عنديَ قولَهُمْ   إذا هَمَتِ العينانُ أرخصتُ غاليا
أأمنعُ ماءً ما يروي أخا صَدًى   وقد كنتُ لا أحمي المناهلَ صاديا
عليَّ البُكا والنوحُ ضربةُ لازبٍ   وإني لأبكي أنني لستُ باكيا
وكيفَ ارتياحي بعدَ هندٍ وبيننا   مهامهُ لا تلقى بها الريحُ هاديا ؟
يظلُّ بها السرحانُ يَعْوي من الطَّوى   نهاراً، ويطوي ليلَهُ الخوفُ طاويا
لقد كنتُ أخشى أن يُفرِّقَ بيننا   فأصبحتُ أخشى اليومَ أن لا نلاقيا
فيا مَنْ لقلبٍ لا تنامُ همومُهُ   ويا مَنْ لعَيْنٍ لا تنامُ اللياليا
رأيتُ الليالي ما تَزالُ تَروعُني   بأحداثِها ، ما لليالي وما لِيا
ولمْ يَبْقَ عندَ الدَّهرِ خطبٌ أخافهُ   فكيفَ اعتذارُ الدَّهرِ إنْ رُحتُ شاكيا

إذا لم تَكُنْ لي آسياً أو مؤاسياً   فلا تكُ لوّاماً ودَعْني وما بيا
فإني رأيتُ اللومَ يُذكي صَبابتي   كذاكَ عَهِدتُ الزَّنْدَ بالقَدحِ واريا
ألا حبّذا من سالفِ العَيْشِ ما مضى   ويا حبّذا لو كانَ يَرْجعُ ثانيا
زمانٌ كقلبِ الطِّفلِ صافٍ وكالمُنى   لذيذٌ ، ولكنْ كانَ كالحُلْمِ فانيا
أحِنُّ إليه في العشيِّ وفي الضُّحى   حنينَ غريبٍ جاءهُ الشَّوقُ داعيا
وأذكرهُ ذكرى العجوزِ شبابَها   وأبكي لَدى ذكراهُ أحرَ قانيا
ولولا أمورٌ في الفؤادِ أسرُّها   جعلتُ عليهِ الدَّهرَ وقفاً لسانيا
خليليَّ أعوامُ السرورِ دقائقٌ   وأيامُهُ كادتْ تكونُ ثوانيا
وأجملُ أيامِ الفتى زَمَنُ الصبى   وخيرُ الصِّبا ما كانَ في الحُبِّ ناميا
رَعى اللهُ أيامي التي قد أضعتُها   فكنتُ كأني قد أضعتُ فؤاديا
ليالِيَ لا هندُ تصدّقُ واشياً   ولا هيَ تخشى أن أصدّقَ واشيا
ويا طالما بِتْنا ولا ثالثَ لنا   سوى الرّاحِ ندنيها فتُدني الأمانيا
ودارَ حديثُ الحبِّ بيني وبينَها   فطوراً مناجاةً وطوراً تشاكيا
ألم ترَ أني قدْ نظَمتُ حديثَها   لآلىءَ غنّاها الرواةُ قوافيا ؟
تولّى زمانُ الأُنْسِ كالطَّيفِ في الكرَى   فلستَ تراني بعدَهُ الدَّهرَ لاهيا
سَئِمتُ لذاذاتِ الحياةِ جميعَها   ولَوْ رَضِيَتْ هندٌ سَئِمتُ شبابيا
سلامٌ على هندٍ وإن فاتَ مِسْمَعي   سلامُ التي أهدي إليها سلاميا
تَرَى عندَها أنّي على العَهْدِ ثابتٌ   وإنْ يَكُ هذا البَيْنُ أوهى عظاميا
فواللهِ ما أخشى الحِمامَ على النّوى   ولكنّني أخشى خلوديَ نائيا

دموع وتنهدات

ألا ليتَ قلباً بين جنبيَّ دامياً   أصابَ سلوّاً أو أصابَ الأمانيا

أُجنّ الأسى حتى إذا ضاق بالأسى   تدفّقَ من عينيَّ أحمرَ قانيا

تهيجُ بيَ الذكرى البروقُ ضواحكاً   وتُغري بيَ الوجدَ الطيورُ شواديا

فأبكي لما بي من نجوى وصبابةٍ   وأبكي إذا أبصرتُ في الأرضِ باكيا

فلا تحسباني أذرفُ الدمعَ عادةً   ولا تحسباني أنشدُ الشعرَ لاهيا

ولكنّها نفسي إذا جاشَ جأشُها   وفاضَ عليها الهمُّ فاضتْ قوافيا

يشقُّ على الإنسانِ خدعُ فؤادِه   وإنْ خادعَ الدنيا وداجى المداجيا

طلبتُ على البلوى معيناً ففاتني   يُواسيكَ مَنْ يحتاجُ فيكَ مُواسيا

ومَنْ لمْ تضرّسْهُ الخطوبُ بنابِها   يظنُّ شكاياتِ النفوسِ تشاكيا

رُميتُ منَ الدنيا بما لو قليلُهُ   رُميتْ بهِ الأيامُ صارتْ لياليا

فلا يشتكِ غيري البؤوسَ فإنني   ضمنتُ الرزايا واحتكرتُ العواديا

تمرُّ الليالي ليلةً إثرَ ليلةٍ   وأحزانُ قلبي باقياتٌ كما هيا

ولو أنَّ ما بي الخمرُ أو باردُ اللمى   سلوتُ ، ولكنْ أمّتي وبلاديا

إذا خطرتْ منْ جانبِ الشرقِ نفحةٌ   طربتُ فألقى منكبايَ ردائيا

أحنُّ إلى تلكَ المغاني وأهلِها   وأشتاقُ مَنْ يشتاقُ تلكَ المغانيا

وما سرَّني أنَّ الملاهيَ كثيرةٌ   وفي الشرقِ قومٌ يجهلونَ الملاهيا

إذا مثّلوا والنومُ يأخذُ مقلتي   بأهدابِها أمسيتُ وسنانَ صاحيا

وكيفَ اغتباطُ المرءِ لا أهلَ حولَهُ   ولا هوَ مَنْ يستعذبُ الصفوَ نائيا

***

تبدّلتِ الدنيا منَ السلمِ بالوغى   وصارَ بنوها العاقلونَ ضواريا

فما تُنبتُ الغبراءُ غيرَ مصائبٍ   وما تُمطرُ الأفلاكُ إلّا دواهيا

وناكرَ حتى الليلُ زُهرَ نجومِهِ   وماءُ الخضمِّ المنشآتِ الجواريا

وباتَ سبيلٌ كانَ يسري بهِ الفتى   بلا حارسٍ ، يمشي بهِ الجيشُ خاشيا

تقطّعتِ الأسبابُ بيني وبينَهم   فليسَ لهمْ نحوي وصولٌ ولا ليا

وكانَ لنا في الكتبِ عونٌ على الأسى   وفي (البرقِ) ما يُدني المدى المتراميا

فلمْ تأمنِ الأسرارُ في (السلكِ) سارقاً   ولمْ تأمنِ الأخبارُ في الطرسِ ماحيا

إذا قيلَ هذا مخبرٌ مِلتُ نحوهُ   بسمعي ولو كانَ المحدّثُ واشيا

وتعلمُ نفسي أنّهُ غيرُ عالمٍ   ولكنّني أستدفعُ اليأسَ راجيا

سرى الشكُّ حتى ما نُصدّقُ راوياً   وطالَ فبتنا ما نُكذّبُ راويا

أقضي نهاري طائر النفس حائراً   وأقطع ليلي كاسف البال واهيا
فما هم بأموات فنبكي عليهم   ولا هم بأحياء فنرجو التلاقيا

***

كأني بهم قد أخرجوا من بيوتهم   حفاة عراة جائعين صواديا
كأني بالغوغاء ثارت عليهم   وبالجند تعطي الثائرين المواضيا
كأني بهم قد أعمل السيف فيهم   كأن الدم القاني يسيل سواقيا
كأني بالدور الحسان خرائب   كأني بالجنات صارت فيافيا
مشاهد لاحت لي فهزت فرائصي   كما ذعر الملسوع راء الأفاعيا
فبت كأن السهم بين أضالعي   كأني أقل الشاهقات الرواسيا
ولو أجنبي لاتقينا سهامه   ولكنما الإخوان صاروا أعاديا
أطاعوا طغاة الترك فينا وطالما   عصا فيهم التركي وفينا النواهيا
وكم راغ ما بين المسيح وأحمد
وحارب «بالسوري» أخاه «اليمانيا»
فإن ينس «حوراناً» فتاه وجاره
فإن ربى حوران لم تنس (ساميا)
ألا ليت من باعوا على الغبن ودنا
من الترك باعوا ذلك الود غاليا
ويا ليت من باع البلاد وأهلها   «بفلكين» لم يخترلها البؤس شاريا

***

فيا أمة قد طال عهد سباتها
متى يكشف الإصباح عنك الدياجيا
إلى كم تودين البقاء لمعشر   بقاؤهم يدني إليك التلاشيا
ثلاثة أجيال تقضت وأنتم   تسامون منهم ما تسام المواشيا
أما آن أن يسترجع التاج أهله   ويسترجع التاج المهابة ثانيا
متى كان (جنكيز) «لقحطان» سيداً
فيمسى بنو هذا لذاك مواليا؟.

***

ويا عقلاء العرب هذا زمانكم   فكونوا لمن ضل المحجة، هاديا
إذا عذر الأعمى الورى في ضلاله   فلا يعذرون الناظر المتعاميا
أرى ظلمات مطبقات حوالكا   فإن تطلعوا فيها رأيت الدراريا
غدا ينشر التاريخ عنكم حديثه   ويتلو الذي يتلوه ما كان خافيا
فإن شئتم أمسى عليكم محامداً   وإن شئتم أمسى عليكم مساويا

***

ويا أيها الجالون إن بلادكم   تناديكم لو تسمعون مناديا
لقد عقدت فيها الخطوب عجاجة   وساق عليها جيشه الجوع غازيا

وَباتَ ذَوُوكُم يجهلونَ مَصيرَهُمْ   كأنَّهمْ ماءٌ أضاعَ المجاريا
مِنَ العارِ أن يَغشى الرُّقادُ جفونَكم   على حينَ يَغشى الدَّمعُ تلكَ المآقيا
مِنَ العارِ أنْ يكسُو الحريرُ جسومَكمْ   وَلَمْ تُبقِ منهم شدَّةُ الضَّنكِ كاسِيا
مِنَ العارِ أنْ يبقى عليكمْ جودُكمْ   وَقد بلغَتْ تلكَ النفوسُ التراقيا
إذا المالُ لمْ يُنفِقهُ في الخيرِ ربُّهُ   رآهُ عليهِ العالمونَ مخازيا
إذا المرءُ لمْ يسعَ لِلخيرِ بلادِهِ   يكنْ كالَّذي في ضرِّها باتَ ساعيا



اليتيم

خبّروني ماذا رأيتمْ ؟ أطفالاً   يتامى أمْ موكباً علويّاً ؟
كزهورِ الربيعِ عَرفاً زكيّاً   ونجومِ الربيعِ نُوراً سنيّا
والفراشاتِ رقّةً وسكوناً   والعصافيرِ بل ألذُّ نجيّا
إنني كلما تأمّلتُ طفلاً   خلتُ أني أرى ملاكاً سويّا
قل لمن يبصرُ الضّبابَ كثيفاً   إنّ تحتَ الضّبابِ فجراً نقيّا
أليتيمُ الذي يلوحُ زريّاً   ليسَ شيئاً لو تعلمونَ زريّا
إنّهُ غرسةٌ ستُطلعُ يوماً   ثمراً طيباً وزهراً جنيّا
ربّما كانَ أودعَ اللهُ فيهِ   فيلسوفاً ، أو شاعراً ، أو نبيّا
لم يكُنْ كلُّ عبقريٍّ يتيماً   إنّما كانَ كاليتيمِ صبيّا
ليسَ يَدري ، لكنْ سوفَ يدري ،   أنّ ربَّ الأيتامِ ما زالَ حيّا
عندما يصبحُ الصغيرُ فتيّاً   عندما يلبسُ الشبابُ حليّا
كلُّ نجمٍ يكونُ مِنْ قبلِ أنْ يبدو سديماً عَنِ العيونِ خفيّا
إنْ يَكُ الموتُ قد مضى بأبيهِ   ما مضى بالشعورِ فيكَ وفيّا
وشقاهُ يُولِّدُ الرفقَ فينا   لهوَ الخيرُ بالفعلِ تريّا

لا تقولوا من أمه؟ من أبوه؟   فـأبوهُ وأمهُ سوريا
فأعينوهُ كي يعيشَ وينمو   ناعمَ البالِ في الحياةِ رضيا
ربَّ ذهنٍ مثلَ النهارِ مُنيرٍ   صارَ بالبؤسِ كالظلامِ دجيا
كم أثيمٍ في السجنِ لو أدركته   رحمةُ اللهِ كانَ حراً سريا
حاربوا البؤسَ في الصغارِ صغيراً   قبلَ أن يستبدَّ فيهم قويا
كلُّهم ذلك الجريحُ الملَّقى   فلنكنْ كلُّنا الفتى «السامريا»

عصر الرشيد

كمْ بينَ طيّاتِ العُصورِ الخاليَهْ   عِظَةٍ لأبنـاءِ الدُّهورِ الآتيَهْ
عِبَرُ الليالي كالليالي جَمّـةٌ   لكنّما النَّزْرُ القلوبُ الواعيَهْ
الدّهرُ يُفنينا ونحسبُ أنّهُ   يُفني بنـا أيامَهُ ولياليَهْ
فاذا مَشَى فينا الفَنَاءُ فَراعَنا   خَلقَ الخيالُ لَنَا الحياةَ الثانيَهْ
إنَّ الحَياةَ قَصيدةٌ ، أبياتُها   أعمارُنا ، والموتُ فيها القَافيَهْ
كمْ تعشقُ الدُّنيا وتُنكرُ صَدَّها   أنسيتَ أنَّ الخُلْفَ طَبعُ الغَانيَهْ؟
وتَوَدُّ لو يَبقَى عليكَ نَعيمُها   أجَهلتَ أنَّ عليكَ ردَّ العاريَهْ؟
خَلِّ الغُرورَ بما لَديكَ فـإنّما   دُنياكَ زَائلةٌ ونفسُكَ فَانيَهْ
إنَّ الأُلى وطِئَتْ نِعالُهُمُ السُّهى   وَطِئَتْ جباهَهمُ نِعالُ الماشيَهْ
لو أنَّ حيّاً خالدٌ فوقَ الثَّرى   ما ماتَ «هرونُ» وزَال «معاويَهْ»
أو كان عِزٌّ دائماً ما أصبحتْ   «بغدادُ» في عَدَدِ الطُّلولِ الباليَهْ
أخنتْ عليها الحَادثاتُ ، فدورُها   خِرَبٌ تعاودُها الرياحُ السَّافيَهْ
يأوي إليها البُومُ غيرَ مُرَوَّعٍ   مِنْ كلِّ نعّابٍ أحمَّ الخافيَهْ
نَزلَ القضاءُ فما حَمَاها سورُها   ولطالما ردَّ الجيوشَ الغازيَهْ

واجتاحَ مُجتاحُ العروشِ مُلوكَها … فكأنّهمْ أعجازُ نخلٍ خاويَهْ
أينَ القصورُ الشاهقاتُ وأهلُها … بادَ الجميعُ، فما لهمْ من باقيَهْ
درستْ معالمُها وغيّرَها البِلى … ولقد تُرى حِلَلُ المحاسنِ كاسيَهْ
أيامَ لا دَوحُ المعارفِ ذابلٌ … ذاوٍ، ولا دورُ الصناعةِ خاليَهْ
أيامَ لا لغةُ «الكتابِ» غريبةٌ … فيها ولا هِمَمُ الأعاربِ وانيَهْ
أيامَ كانَ العلمُ يَغبِطُ أهلَهُ … أهلُ الثراءِ، ذوو البُرودِ الضافيَهْ
أيامَ كانَ لكلِّ حُسنٍ شاعرٌ … كَلِفٌ به ولكلِّ شِعرٍ راويَهْ
أيامَ «دجلةُ» مُطمئنٌ هادئٌ … جذلانُ يهزأُ بالبُحورِ الطاميَهْ
«النيلُ» خادمُهُ الأمينُ، وعبدُهُ … «نهرُ الفراتِ» وكلُّ عينٍ «جاريَهْ»
تهوى الكواكبُ أنها حصباؤُهُ … أو أنهــا شجرٌ عليه حانيَهْ
وتوَدُّ كلُّ سَحابةٍ مرّتْ بهِ … لو أنهُ سُحُبٌ عليها هاميَهْ
وترى الغزالةُ طيفَها عندَ الضُّحى … في سطحِه فتبيتُ عطشى راويَهْ
أيامَ كانَ الشرقُ مرهوبَ الحِمى … يكسو الجلالُ سهولَهُ وروابيَهْ
أيامَ تحسُدُها العواصمُ مثلما … حسدَ العواطلُ أختَهنَّ الحاليَهْ
ولطالما كانتْ تعزُّ بعزِّهـا … «مصرٌ» ويحمي ذكرها «أنطاكيَهْ»

***

أيامَ «هرونٌ» يُديرُ شؤونَها … يا عصرَ «هرونٍ» عليكَ سلاميَهْ

مَلِكٌ أدالَ من الجهالةِ علمَهُ … وأذلَّ صارمُهُ الملوكَ العاتيَهْ
ومضتْ تطوفُ في البلادِ هباتُهُ … تغشى حواضرَها وتغشى الباديَهْ
ملأَ البلادَ عوارفاً ومعارفاً … والأرضَ عدلاً والنفوسَ رفاهيَهْ
فتحضّرَ البادونَ في أيامِـهِ … واستأنستْ حتى الوحوشُ الضاريَهْ
وتسربلتْ «بغدادُ» ثوبَ مهابةٍ … ليستْ تراهُ أو «تراهُ» ثانيَهْ
هاتيكَ أيامٌ تلاشتْ مثلما … تمحو من الرقِّ الحروفَ الماحيَهْ
لمْ يبقَ إلا ذكرُها يا حُسنَها … ذكرى تَهشُّ لها العظامُ الباليَهْ
لو أنَّ هذا الدهرَ سِفرٌ كنتَ يا … عصرَ الحضارةِ مَتنَهُ والحاشيَهْ
عصرٌ لئن جـاءَ البشيرُ بعودِهِ … فلأخلعنَّ على البشيرِ شبابيَهْ !..

***

إيهِ «أبا المأمونِ» ذِكرُكَ آبدٌ … في الأرضِ مثلُ الشامخاتِ الراسيَهْ
باقٍ على مرِّ العصورِ بقاءَهـا … وكذاكَ ذِكرُ ذوي النفوسِ الساميَهْ
إنْ لم يكنْ لكَ منْ مثالٍ بيننا … فلأنَّ روحَكَ كلَّ حينٍ دانيَهْ
هيَ في الخمائلِ زهرةٌ فيّاحةٌ … هيَ في الكواكبِ شمسُها المتلاليَهْ
إني لأعجبُ كيفَ متَّ وفي الورى … حيٌّ وكيفَ طوتكَ هذي الطاويَهْ
ومنَ الزمانِ يهُدُّ مـا شيّدتَهُ … ويحَ الزمانِ أما تهيبُ بانيَهْ؟
تشكو إليكَ اليومَ نفسي شَجْوَها … فلأنتَ مفزعُ كلِّ نفسٍ شاكيَهْ
أتراكَ تعلمُ أنَّ داركَ بُدِّلتْ … منْ صوتِ «إسحقَ» بصوتِ الناعيَهْ؟

أتراكَ تعلمُ أنَّ مـا أثَّلتَهُ — قدْ ضيَّعتْهُ الأنفسُ المتلاهيةُ؟

يا ويحَ هذا الشرقِ بعدَكَ إنَّهُ — للضَّعفِ باتَ على شفيرِ الهاويةْ

ما كانَ يقنعُ بالنجومِ وسائداً — واليومَ يقنعُ أهلُهُ بالعافيةْ!.

مُسترسِلونَ إلى الذهولِ كأنَّما — سُحِروا أوِ اصطُرِعوا بِنتِ الخابيةْ

مُستسلمونَ إلى القضاءِ كأنَّمـا — أُخِذوا ولمَّا يؤخذوا بالغاشيةْ

المجدُ إدراكُ النفيسِ، وعندهُمْ — ما المجدُ إلَّا شادِنٌ أو شاديةْ

يهوى الحياةَ الناسُ طوعَ نفوسِهِمْ — وهُمُ يريدونَ الحياةَ كما هِيَ

صغُرتْ نفوسُهُمُ فباتَ عزيزُهُمْ — يخشى الجبانَ كما يخافُ الطاغيةْ

حَمَلوا المغارمَ ساكتينَ كأنَّما — كَبُرتْ على أحناكِهِمْ لا الناهيةْ(1)

لمْ تسمعِ الدنيا بقومٍ قبلَهُمْ — ماتوا وما برِحوا الديارَ الفانيةْ

اللهُ لوْ حرصوا على أمجادِهِمْ — فلتلكَ عنوانُ الشعوبِ الراقيةْ

ملكَ «العلوجُ» أمورَهُمْ ومتاعَهُمْ — حتَّى سواهُمْ وحتَّى الآنيةْ

وا خجلةَ العربيِّ مِنْ أجدادِهِ — صارتْ عبيدُهُمُ الطغامُ مواليةْ!..

***

أبني الغطارفةِ الجبابرةِ الأُلى — وطئوا «اللوارَ» ودوَّخوا «إسبانيةْ»

(1) لعله أراد «لا» التي هي ناهية، فأهل الشرق — على رأي الشاعر — حملوا المغارم ساكتين لا تقوى أحناكهم على قول: لا ... أي لا يرفضون شيئاً فيقولون فيه: لا ... (زهير)

مِنْ حولِكُمْ وأمامَكُمْ تاريخُهُمْ — فاستخبِروهُ فذاكَ أصدقُ راويةْ

قادوا الجيوشَ فكلُّ سهلٍ ضيِّقٌ — ورموا المعاقلَ فهي أرضٌ داحيةْ

وسطَوْا فأسقطتِ العروشُ ملوكَها — رُعباً وأجفلتِ الصروحُ العاليةْ

ومشَوْا على هامِ النجومِ فلم تَزَلْ — في الليلِ مِنْ وجلٍ تُحدِّقُ ساهيةْ

ووردَتْ خيولُهُمُ المجرَّةَ شُزَّباً — والشُّهبُ من حولِ المجرَّةِ صاديةْ

أعطاهُمُ صرفُ الزمانِ زمامَهُ — أمِنوا وما أمِنَ الزمانُ دواهِيَهْ

لا أستفزُّكُمُ لمثلِ فتوحِهِمْ — لكنْ إلى حفظِ البقايا الباقيةْ

أتذلُّ آنافَ الملوكِ جدودُكُمْ — وتسومُكُمْ خسفاً رعاةُ الماشيةْ؟

كمْ تصبرونَ على الهوانِ كأنَّكُمْ — في غبطةٍ والذلُّ نارٌ حاميةْ

يا للرجالِ! أما علمتمْ أنَّكُمْ — إنْ لمْ تثوروا، أمَّةٌ متلاشيةْ؟

***

«دارَ السلامِ» تحيَّةٌ من شاعرٍ — حسدتْ مدامعُهُ عليكِ قوافيَهْ

فأراقَ ماءَ شؤونِهِ ولوَ انَّهُ — في الغادياتِ أراقَ ماءَ الغاديةْ

لوْ كانَ مجدُكِ مُسترَدّاً بالبكا — قطرَتْ محاجرُهُ الدماءَ القانيةْ

فعليكِ تذهبُ كلُّ نفسٍ حسرةً — ولمثلِ خطبِكِ تُستعارُ الباكيةْ!!

•

ان الحياة قصيرة !

مـــا للقبورِ كأنما لا ساكنٌ　　فيها، وقد حوَت العصورَ الماضية

طوَتِ الملايينَ الكثيرةَ قبلَنا،　　ولسوفَ تطوينا وتبقى خالية

أينَ المها وعيونُها وفتونُها ؟　　أينَ الجبابرُ والملوكُ العاتية ؟

زالوا مِنَ الدنيا كأنْ لم يولدوا،　　سحقتهمُ كفُّ القضاء القاسية

إنَّ الحياةَ قصيدةٌ أعمارُنا　　أبياتها، والموتُ فيها القافية

متّعْ لحاظكَ في النجومِ وحسنِها　　فلسوفَ تمضي والكواكبُ باقية

•

الاسطورة الازلية

كانَ زمانٌ، لم يزَل كائناً　　وَحالةٌ، ما برِحتْ باقِيَهْ

مَلَّ بنو الإنسانِ أطوارَهُم　　وَبَرِموا بالسُّقمِ والعافِيَهْ

فاستصرخوا خالِقَهمْ واشتهوا　　لَو أنّــهُ كوّنهمْ ثانِيَهْ

وَبَلَغَتْ أصواتُهمْ عرشَهُ　　في لَيلَةٍ مُقمِرَةٍ صافِيَهْ

فَقالَ، إنّي فاعِلٌ ما اشتهوا　　لَعَلَّ فيهِ حِكمَةً خــافِيَهْ

وشاهدوهُ هابطاً مِن عَلٍ　　فاحتشدوا في السَّهلِ والرّابِيَهْ

مِنَ القُرى القانعة الطاويه　　والمُدنِ الجامحةِ الغاديَهْ

تألّبوا مِنْ كلِّ صَوبٍ كما　　تجتمعُ الأمطارُ في السّاقِيَهْ

يُسابِقُ الصُّعلوكَ ربُّ الغِنى　　والأبلَهُ النابغةَ الداهِيَهْ

وَيدفعُ الشَّيخُ التوى عودُهُ　　وَصارَ مِثلَ الرِّمّةِ البالِيَهْ

فَتًى مَضى الفجرُ ولمّا تزلْ　　رَوعَتُه في وَجهِهِ باقِيَهْ

وَتزحمُ الحسناءُ ممكورةً　　خلّابةً كالرَّوضَةِ الحالِيَهْ

دَميمَةٌ تُشبِهُ في قُبحها　　مَدينَةً مهجورةً عافِيَهْ

فَقالَ ربُّ العَرشِ: ما خطبُكُمْ؛

ما بالُكُمْ صرخاتُكُمْ عالِيَهْ؟

هَلْ أصبحتْ أرضُكُمْ عاقِراً ، ... أمْ غارتِ الأنجمُ في هاوِيَه ؟

أم أقلعَ الماءُ فلا جدولٌ ، ... وماتتِ الطيرُ فلا شادِيَه ؟

أم فقدتْ أعينُكم نورَها ، ... أم غَشِيَتْ أرواحَكم غاشِيَه ؟

أينَ الهوى ، إنْ لم يكنْ قد قضى

فكلُّ جرحٍ واجدٌ آسِيَه

الفتى :

قالَ الفتى : يا ربِّ إنَّ الصِّبا ... مصدرُ أحزاني وآلامي

ألبستَنيهِ مونقاً بعدَما ... أبلاهُ أخوالي وأعمامي

وصارَ في مذهبِهم عصرُهُ ... فترةَ زلّاتٍ وآثامِ

فاختلفتْ حالي وحالاتُهمْ ... كأنّني في غيرِ أقوامي

وصرتُ كالجدولِ في فدفدٍ ... أو شاعرٍ ما بينَ أصنامِ

والأخضرِ المورقِ في يابسٍ ... أو مثلِ صاحٍ بينَ نُوّامِ

دنياهُمُ دنيايَ ، لكنّما ... أعلامُهمْ ليستْ كأعلامي

عندهمُ الروضةُ أشجارُها ... والروضُ عندي الزَّهَرُ النامي

والطيرُ لحمٌ ودمٌ عندَهمْ ... وليسَ عندي غيرَ أنغامِ

سُكري بها أو بالندى والشذى ... وسُكرُهم بالخمرِ في الجامِ

يسخرُ قلبي بلياليهمِ ... ويسخرُ الدهرُ بأيّامي

كأنّني جئتُ لتبكيتِهم ... كأنّما جاؤوا لإيلامي

عِبءٌ على نفسي هذا الصِّبا ... ألجائشُ المستوفزُ الطامي

يزرعُ حولي زهراتِ المنى ... وشوكُها في قلبيَ الدامي

فانٍ ، له في كلِّ فانٍ هوى ... فانٍ ، ولا ينجو منَ الذامِ

خذهُ ، وخذْ قلبي وأحلامَهُ ... فإنّني أشقى بأحلامي

ومُرْ يمرَّ الدهرُ في لحظةٍ ... كالطيفِ أو كالبرقِ قدّامي

وازرعْ نجومَ الشيبِ في لِمّتي ... فينجلي حندسُ أوهامي

فأبصرُ الحكمةَ في ضوئه ... إنّي إليها جائعٌ ظامي

الشيخ :

وجاءَ شيخٌ حائرٌ واجفٌ ... مشتعلُ اللمّةِ بالي الإهابْ

كأنّما زلزلةٌ تحتَهُ ... لِما بهِ منْ رعشةٍ واضطرابْ

فصاحَ : يا ربّاهُ خذْ حكمتي

وارددْ على عبدِكَ عصرَ الشبابْ

إنَّ أماني الروحِ أزهارُها ... وإنَّ روحي اليومَ قفرٌ يبابْ

لا جدولٌ ، لا بلبلٌ منشدٌ ، ... بلى ، بها الوحشةُ والاكتئابْ

تلكَ الأمانيُّ ، على كذبِها ، ... لم تكنِ اللذّةُ فيها كِذابْ

زالتْ وما زلتُ ، وإنَّ الشقا

أن تُطمَسَ الآيُ ويَبقى الكِتابْ

وتُسلَبَ الدَّوحةُ أوراقَها   ولم تزَلْ أعراقُها في التُّرابْ

كُنتُ غنيّاً في زمانِ الصِّبا

وكُنتُ صِفرَ الكفِّ، صِفرَ الوِطابْ

صَحَوتُ مِنْ جَهلي فأبصرتُني   كأنّني سَفينةٌ في العُبابْ

قيلَ لها، في البحرِ كلُّ المُنى   فلم تجدْ في البحرِ إلّا الضَّبابْ

نأتْ عنِ الشَّطِّ ولم تقتربْ   شِبراً مِنَ الدُّرِّ الذي في الحِجابْ

ولو تُرَجّي أوبةً لاشتَفَتْ   لكنّما عزَّ عليها الإيابْ

مَنْ تَقِفِ الأيّامُ عَنْ سَيرِها   فإنّها تركُضُ مِثلَ السَّحابْ

وضَعْ أمامي، لا وَرائي، المُنى

وطولِ الدَّربِ، وزِدْ في الصِعابْ

ما لذّتي بالماءِ أروى بِهِ   بلْ لذّتي بالعَدوِ خلفَ السَّرابْ

الحسناء :

وقالتِ الحسناءُ: يا خالقي   وهبتَني الحُسنَ فأشقيتَني

وجهي سَنِيٌّ مُشرِقٌ، إنّما

مَرعى عُيونِ الخَلقِ وجهي السَّني

حَظّيَ مِنهُ حَظُّ وَردِ الرُّبى   مِن عِطرِهِ الفَوّاحِ والسَّوسَنِ

ومِثلُ حَظِّ الدَّوحِ مِن فَيئِهِ   والطَّيرِ مِن تغريدِها المُتقَنِ

ومِثلُ حَظِّ النَّجمِ مِن نورِهِ   في الحِندِسِ المُعتَكِرِ الأدجَنِ

لِلقائِلِ الفَيءُ، ولِلسّامِعِ   التَّغريدُ، والزَّهرةُ لِلمُجتَني

والنُّورُ لِلمُدلجِ والمُجتَلي،   والدُّرُّ لِلغائِصِ والمُقتَني

كم رِيبةٍ دَبَّتْ إلى مَضجَعي   مَعَ الجَمالِ الرّائِعِ المُمكِنِ

إنْ عَشِقَتْ نفسي فويلٌ لها   والويلُ لي إنْ رَجُلٌ حَبَّني

السُّمُّ والشَّوكُ وجَمرُ الغَضا   أهوَنُ مِن كاشِحَةِ الألسُنِ

كم تقتفيني نَظَراتُ الخَنا   ويلي مِنْ خائِنَةِ الأعيُنِ

لم يَبقَ في روحيَ مِن مَوضِعٍ   يا رَبُّ لم يُخدَشْ ولم يُطعَنِ

إنّ الغِنى في الوَجهِ لي آفةٌ   فَلَيتَ أنّي دُميةٌ ليتني ...

الجارية :

وسكتَتْ، فصاحتِ الجارِيَهْ   باكِيَةً مِن بُؤسِها شاكِيَهْ :

ذنبي إلى هذا الوَرى خِلقَتي   فهل أنا المُجرِمَةُ الجانِيَهْ ؟

إنْ أخطأَ الخزّافُ في جَبلِهِ الـ   طّينَ فأيُّ ذنبٍ لِلآنِيَهْ ؟

أليسَ مَنْ يَسخَرُ بي يَزدَري   بالقُوّةِ المُوجِدَةِ البارِيَهْ ؟

لو كُنتُ حَسناءَ بَلَغتُ العُلى   فلِلجَمالِ الرُّتبةُ العالِيَهْ

فباتَ مَن أسجُدُ قُدّامَهُ   صاغِرَةً يَسجُدُ قُدّامِيَهْ

فإنني في ملإٍ ظالمٍ أحكامُهُ جائرةٌ قاسيهْ
ليس لذات القبح من غافرٍ وفيه من يغفرُ للزانيه
نفسي جزءٌ منك، يا خالقي وإنها عاقلةٌ راقيه
أليس ظلماً، وهي بنتُ العلى، إن تكُ بالقبحِ إذن كاسيه؟
فليكنِ الحسنُ رداءٌ لها ترفلُ بهِ، أو فلتكن عاريه

الفقير:

وأقبلَ الصعلوكُ مسترحماً في مقلتيهِ شبحُ اليأسِ
يصرخُ يا ربّاهُ حتى متى تحكمُ الموسرَ في نفسي؟
وتضعُ التاجَ على رأسهِ وتضعُ الشوكَ على رأسي؟
ويشربُ اللذاتِ من كأسه وأشربُ الغصّاتِ من كأسي
وتنجلي الأنجمُ في ليلهِ ضاحكةً كالغيدِ في عرسِ
ويتوارى في نهاري السنا أو يتبدّى خانقَ الشمسِ
يا ربِّ لا تنقلهُ عن أنسهِ وإنما انقلني إلى الأنسِ
فإن تشأ أن لا يذوقَ الهنا قلبي فجرّدني من الحسِّ
لو لم يكن غيري في غبطةٍ ما شعرتْ روحي بالبؤسِ

الغني:

وقالَ ذو الثروةِ: ما أشتهي لا أشتهي أنّي ذو ثروةِ

أنفقتُ أيامي على جمعها وخلتني أدركتُ أمنيتي
فاستعبدتني في زمانِ الصبا وأوقرتْ بالهمّ شيخوختي
قد ملكتني قبلما حزتُها وملكتني وهي في حوزتي
كنحلةٍ أمسكها شهدُها منَ الجناحينِ فلم تفلتِ
حسبتُها تكسبني قوّةً فافترستْ قوّتُها قوّتي
جنتْ على نفسي وأحلامِها جنايةَ الشوكِ على الوردةِ
ينمو فتذوي فهي عليقةٌ يحذرُها الطائفُ بالروضةِ
منْ قائلٌ عنّي لمنْ خالني أمرحُ من دنيايَ في جنّةٍ؛
لا تنظرِ الأضواءَ في حجرتي وانظرْ إلى الظلماءِ في مهجتي
ولا يغرّنكَ قصري فما قصري سوى سجنٍ لحرّيتي
أني في الصرحِ الرفيعِ الذرى كطائرٍ، في قفصٍ، ميّتِ
كم في عبابِ البحرِ من سابحٍ قد ماتَ ظمآناً إلى قطرةِ
موتُ الطوى شرٌّ ولكنّما أفظعُ منهُ الموتُ بالتخمةِ
إنْ سهرَ العاشقِ منْ لوعةٍ أو سهرَ المحزونِ من كربةٍ
فالشوقُ كالحزنِ لهُ آخرٌ وينقضي في آخرِ المدّةِ
أمّا أنا فقلقي دائمٌ ما دمتُ في مالي وفي فضّتي
والخوفُ من كارثةٍ لم تقعْ أمضُّ من كارثةٍ حلّتِ

كمْ من فقيرٍ مرَّ بي ضاحكاً   كأنّما يسخرُ من غصّتي
رأيتهُ بالأمسِ من كوّتي   فخلتني أنظرُ من هوّةِ
وكنتُ كالحوتِ رأى موجةً   ضاحكةً ترقصُ كالطفلةِ
أو حيّةٍ تدبُّ في منجمٍ   ترنو إلى فراشةٍ حرّةِ
قدِ اختفتْ ذاتي في بُردتي   فما يرى الخلقُ سوى بُردتي
فهمْ إذا ما سلّموا سلّموا   على خيوطِ البُردِ والحلّةِ
ربّاهُ أطلقْ من عقالِ الغنى   روحي، فإنّي منهُ في محنةِ
وانزعْ معَ الدينارِ من قبضتي   صلابةَ الدينارِ من سحنتي
وحوّلِ المالَ إلى راحةٍ   وحوّلِ القصرَ إلى خيمةِ

الأبله :

وصرخَ الأبلهُ مستفسراً
ما القصدُ من خلقي كذا والمرادْ؟
ألمْ يكنْ يكملُ هذا الورى   إلّا إذا أوجدتني في فسادْ؟
لي صورةُ الناسِ وحاجاتهمْ   من مطعمٍ أو مشربٍ أو رقادْ
لكنْ لي غيرُ ألبابهمْ   فإنّهُ مكتنفٌ بالسوادْ
يعجزني إدراكُ ما أدركوا   كأنَّ عقلي فحمةٌ أو رمادْ
إن كنتُ إنساناً فلمْ يا ترى   لستُ بإدراكي كباقي العبادْ؟

أو لم أكنْ منهمْ فربّي أكنْ   جرادةً أو أرنباً أو جوادْ
فالندُّ لا يعدمُ معْ ندّهِ   ذريعةً للسلمِ أو للجهادْ
لا تسخرُ النملةُ من نملةٍ   وليسَ يزري بالقرادِ القرادْ
أم أنتَ كالحقلِ على رغمهِ   ينمو معَ الحنطةِ فيهِ القتادْ

الأديب :

وجـاءَ بعدَ المستريبْ   الألمعيُّ العبقريُّ اللبيبْ
فقالَ : إنّي تائهٌ حائرٌ   أنا غريبٌ في مكانٍ غريبْ
أبحثُ عن نفسي فلا أهتدي   وليسَ يهديني إليها أريبْ
أنا عليمٌ حيثُ لا عالمٌ   أنا لبيبٌ عندَ غيرِ اللبيبْ
لو أنّني كنتُ بـلا فطنةٍ
سرتُ ولمْ تكثرْ أمامي الدروبْ
وكانَ عقلي كعقولِ الورى   وكانَ قلبي مثلَ باقي القلوبْ
وصارَ عندي كالنجومِ الورى   فلا عدوٌّ فيهمُ أو حبيبْ
ولم أرَ في ضحكهمْ والبكا
شيئاً سوى الضحكِ وغيرَ النحيبْ
ولمْ أسائلْ كوكباً طالعاً   ما لكَ تبدو، ولماذا تغيبْ
ولمْ أقفْ في الروضِ عندَ الضحى
يذهلني لونٌ وشكلٌ وطيبْ

وَلم أقلْ مـــا كُنتُ من قَبلَمَا
كُنتُ ، ولا مَا في سِجلِّ الغُيوبْ

مَا العقلُ ، يا رَبٌّ ، سِوى مِحنَةٍ
لَولاهُ لمْ تُكتَبْ عَليَّ الذُّنوبْ

الخاتمة :

لَمّا وَعى اللهُ شَكايا الوَرى   قالَ لهمْ : كونوا كما تشتهونْ
فاستَبشرَ الشيخُ وَسُرَّ الفَتى   وَالكاعِبُ الحسناءُ والحيزبونْ

. . .

لكنّهمْ لمّا اضمَحلَّ الدُّجى   لمْ يَجدوا غيرَ الّذي كانا

. . .

ثُمَّ حَدّدوا القبيحَ فكانَ الجَمالْ   وَعرّفوا الخيرَ فكانَ الطّلاحْ
وَليْسَ مِنْ نَقصٍ ولا من كَمالْ
فالشوكُ في التّحقيقِ مِثلُ الأقاحْ

. . .

وذرّةُ الرّملِ كَكُلِّ الجِبالْ   وكالّذي عزَّ الّذي هانا

بلادي

إني مررتُ على الرياضِ الحاليهْ
وسمعتُ أنغامَ الطيورِ الشاديهْ
فطربتُ ، لكنْ لم يجبْ فؤاديهْ
كطيورِ أرضي أو زهورِ بلادي

وشربتُ ماءَ النيلِ شيخِ الأنهرِ
فكأنني قد ذقتُ ماءَ الكوثرِ
نهرٌ تباركَ من قديمِ الأعصرِ
عذبٌ ، ولكنْ لا كماءِ بلادي

وقرأتُ أوصافَ المروءةِ في السِّيَرْ
فظننتُها شيئاً تلاشى واندثرْ
أو أنها كالغولِ ليسَ لها أثرْ
فإذا المروءةُ في رجالِ بلادي

ورسمتُ يوماً صورةً في خاطري
للحسنِ ، إنَّ الحسنَ ربُّ الشاعرِ

وذهبتُ أنشدها فأعيا خاطري
حتى نظرتُ إلى بناتِ بلادي

قالوا: أليسَ الحسنُ في كلِّ الدنى
فعلى مَ لم تمدحْ سواها موطنا
فأجبتهمْ إني أحبُّ الأحسنا
أبداً، وأحسنُ ما رأيتُ بلادي

قالوا: رأيناها فلم نرَ طيِّبا
ولّى صباها والجمالُ مَعَ الصبا
فأجبتهمْ: لتكنْ بلادي سبسبا
قفراً، فلستُ أحبُّ غيرَ بلادي

قالوا: تأمّلْ أيَّ حالٍ حالَها
صدَعَ القضاءُ صروحها فأمالَها
ستموتُ ... إنَّ الدهرَ شاء زوالَها
أتموتُ؟ كلا، لَنْ تموتَ بلادي

هي كالغديرِ إذا أتى فصلُ الشتا
فقَدَ الخريرَ وصارَ يحكي الميتا

أو كالهزارِ حبسته ... لكن متى
يَعُدِ الربيعُ يَعُدْ إلى الانشادِ

ألكوكبُ الوضّاحُ يبقى كوكبا
ولئن تستّرَ بالدجى وتنقّبا
ليسَ الضبابُ بسالبٍ حسنَ الرُّبى
والبؤسُ لا يمحو جمالَ بلادي

لا عزَّ إلا بالشبابِ الراقي
ألناهضِ العزماتِ والأخلاقِ
ألثائرِ المتفجّرِ الدفّاقِ
لولاهُ لم تشمخْ جبالُ بلادي

•

الحرية

فَتَنَتْهُ محاسنُ الحريَّةْ ... لا سُليمى ولا جمالُ سميَّةْ

هي أمنيةُ الجميعِ ولكنْ ... أرهقتهُ الطبيعةُ البشريَّةْ

وعجيبٌ أن يُخلَقَ المرءُ حُراً ... ثُمَّ يأبى لنفسِهِ الحُريَّةْ

غادةٌ ما عَرَفَتْ قلباً خلياً ... من هوَاها حتى القلوبُ الخليَّةْ

غَرَسَتْ في فؤادِهِ الحبَّ طفلاً ... فنما الحبُّ والفؤادُ سويَّةْ

ثُمَّ لما فَشَى الغرامُ وذاعتْ ... عنهما في الوَرَى أمورٌ خفيَّةْ

حَجَبوها عساهُ يسلو ولكنْ ... كانَ قيساً وكانتِ العامريَّةْ

باتَ يشكو النَّوَى الشقيُّ وتشكو

مانعيها من أنْ تَراهُ الشقيَّةْ

مستهامٌ قَضَى زماناً طويلاً ... في عناءٍ منَ القيودِ القويَّةْ

وعليهِ من الزَّمانِ رقيبٌ ... عاشقٌ للسيادةِ الوهميَّةْ

ولكلٍّ مطامعٍ وأماني ... يبذلُ النفسَ دونها للمنيَّةْ

ويراها لديهِ أشرفَ شيءٍ ... وهي أدنى من الأُمورِ الدنيَّةْ

زَعَموا أنَّهُ المليكُ المفدَّى ... بالرعايا من شرِّ كلِّ بليَّةْ

إنما تفتدي الرعيَّةُ مَلْكاً ... باذلاً نفسَهُ فِدَى للرعيَّةْ

ظَلَمَ القومَ من تَوَهَّمَهُ القومُ ... نصيراً لــــلأُمَّةِ الروسيَّةْ

وإذا أحرجَ الضِّعافَ قويٌّ ... نَسِيَتْ ضَعْفَها النفوسُ الأبيَّةْ

خير شيء

ذهبتُ مُسائلاً عن خيرِ شيءٍ   لأعرفَ كُنهَ أخلاقِ البريّةْ
فقالتْ لي الكنيسةُ خيرُ شيءٍ   هوَ الزُّهدُ الذي يَمحو الخطيّةْ
وقالتْ لي الشريعةُ: خيرُ شيءٍ   شُمولُ العدلِ أبناءَ الرَّعيّةْ
وقالَ الشُّهرةُ، الجُنديُّ خيرٌ   وإنْ كانتْ تَقودُ إلى المَنيّةْ
وقالَ أخو الحصافةِ: خيرُ شيءٍ   هوَ الحقُّ المُبينُ بلا مَريّةْ
وقالَ أخو الجهالةِ: خيرُ شيءٍ   سُرورُ النَّفسِ في الدُّنيا الدنيّةْ
وقالَ ليَ الفتى وصلُ الصبايا   وقالتْ لي الهوى البنتُ الصبيّةْ
ولمّا أنْ خلوتُ سألتُ نفسي   لأعرفَ رأيَها في ذي القضيّةْ
فقالتْ لا أرى خيراً وأبقى   منَ الإحسانِ للنفسِ الشقيّةْ

•

الخلود

غلِطَ القائلُ إنّا خالدونْ   كُلُّنا بعدَ الرَّدى هَيُّ بنُ بَيّْ[1]

•

لوْ عرفْنا ما الّذي قبلَ الوجودْ
لعرفْنا ما الّذي بعدَ الفناءْ
نحنُ لو كُنّا «كما قالوا» نعودْ
لم تخفْ أنفسُنا ريبَ القضاءْ
إنّما القولُ بأنّا للخلودْ
فِكرةٌ أوجدَها حُبُّ البقاءْ

نَعشَقُ البُقيا لأنّا زائلونْ   والأماني جَمّةٌ في كلّ حيّ

•

زعَموا الأرواحَ تبقى سرمدا
خدعونا ... نحنُ والشمعُ سواءْ

---

(١) هي بن بي: كناية عمن لا يُعرف ولا يعرف أبوه (القاموس).

يَلْبَثُ النُّورُ بِهَا مُتَّقِدًا
فإذَا مَا احْتَرَقَتْ بادَ الضِّيَاء

أينَ كانَ النُّورُ ؟ أنَّى وُجِدَا ؟
كيفَ ولَّى عِندَمَا زَالَ البِنَاء ؟

شَمْعَتي فيهَا لِطُلّابِ اليَقِينِ   آيَةٌ تَدْفَعُ عَنهُم كُلَّ غَيّْ

•

لَيْسَتِ الرُّوحُ سِوَى هذَا الجَسَدْ
مَعَهُ جَاءَتْ ومَعَهُ تَرْجِعُ

لَمْ تَكُنْ مَوْجُودَةً قَبْلَ وُجِدْ
ولِهذَا حِينَ يَمضي تَتْبَعُ

فَمِنَ الزُّورِ المُوَشَّى والفَنَدْ
قَوْلُنَا : الأَرْوَاحُ لَيْسَتْ تُصْرَعُ

تَلْبَثُ الأَفْيَاءُ مَا دَامَ الغُصُونْ   فَإذَا مَا ذَهَبَتْ لَمْ يَبْقَ فَيْ

•

لَوْ تَكُونُ الرُّوحُ مَا لا يَضْمَحِلْ
مَا جَزِعْنَا كُلَّمَا جِسْمٌ هَمَدْ

لَوْ تَكُونُ الرُّوحُ جِسْماً مُسْتَقِلْ
لَرَآهَا مَنْ يَرَى هذَا الجَسَدْ

كُلُّ مَا في الأَرْضِ مِنْ غَيْنٍ وظِلّ
سَوْفَ يَنْحَلُّ كَمَا انْحَلَّ الزَّبَدْ

ولَئِنْ صَحَّ بِأَنَّا مُنْشَرُونْ   جَازَ أَنْ يَعْقُبَ ذَاكَ النَّشْرَ طَيّْ

•

لَيْتَ مَنْ قَالُوا بِأَنَّا كَالزُّهُورْ
خَبَّرُونَا أَيْنَ تَمْضِي الرَّائِحَةْ ؟

أَتُرَى تَبْقَى كَأَلْحَانِ الدُّهُورْ ؟
أَمْ تَلاشَى مِثْلَ صَوْتِ النَّائِحَةْ ؟

لَيْتَ شِعْرِي أَيُّ خُلْدٍ لِلْبُذُورْ
بَعْدَ أَنْ تُلْقَى بِنَارٍ لافِحَةْ ؟

قُلْ لِمَنْ يَخْبِطُ في لَيْلِ الظُّنُونْ   لَيْسَ بَعْدَ المَوْتِ لِلظَّامِىءِ رِيّْ

•

مِثْلَمَا يَذْهَبُ لَوْنُ الوَرَقَهْ
عِندَمَا تَيْبَسُ في الأَرْضِ الأُصُولْ

مثلمـــا يُفقَدُ نورُ الحدقَهْ
حين أقضي... هكذا نفسي تزولْ

كتلاشي الشمعةِ المحترِقهْ
تتلاشى بينَ ضحكٍ وعويلْ

أنا بعدَ الموتِ شيئاً لا أكونْ   حيثُ أني لمْ أكنْ من قبلُ شيْ!

•

إيهِ أبناء الثرى نسلَ القرودْ
علّلوا أنفسكمْ بالترّهاتْ (1)

البسوا في صحوِكمْ ثوبَ الجمودْ
واحلموا في نومِكمْ بالمعجزاتْ

فسيأتي زمنٌ غيــرُ بعيدْ
تتهادى بينكمْ فيه أباةْ!!

ويحلُّ اللهُ في مـــاءٍ وطينْ   فيراهُ الشيخُ والشابُ الأحيْ! (2)

---

(1) اشارة الى نظرية «داروين» في أن أصل الانسان قرد. (زهير)

(2) لعلها صيغة تفضيل من الاحياء حياة. (زهير)

الكريم

قالوا: ألا تصفُ الكريمَ لنا؟ فقلتُ على البديهْ:

إنَّ الكريمَ لكالربيعِ، تحبُّهُ للحسنِ فيهْ

وتهشُّ عندَ لقائهِ، ويغيبُ عنكَ فتشتهيهْ

لا يرتضي أبداً لصاحبِهِ الذي لا يرتضيهْ

وإذا الليالي ساعفتهُ لا يُدِلُّ ولا يتيهْ

وتراهُ يبسمُ هازئاً في غمرةِ الخطبِ الكريهْ

وإذا تحرّقَ حاسدوهُ بكى ورقَّ لحاسديهْ

كالوردِ ينفحُ بالشذى حتى أنوفَ السارقيهْ

•

عروس الجمال

إذا أطلَّ البدرُ من خدرِهِ ... فــإنما يطلعُ كي تنظريهْ

وإنْ شدا البلبلُ في وكرِهِ ... فإنما يشدو لكي تسمعيهْ

وإنْ يَفُحْ عطرُ زهورِ الربى ... فــإنما يعبقُ كي تنشقيهْ

يا ليتني البدرَ الذي تنظرينْ!

يا ليتني الطيرَ الذي تسمعينْ!

يا ليتني العطرَ الذي تنشقينْ!

أواه! لو تصدقُ يا ليتني!

فهرس